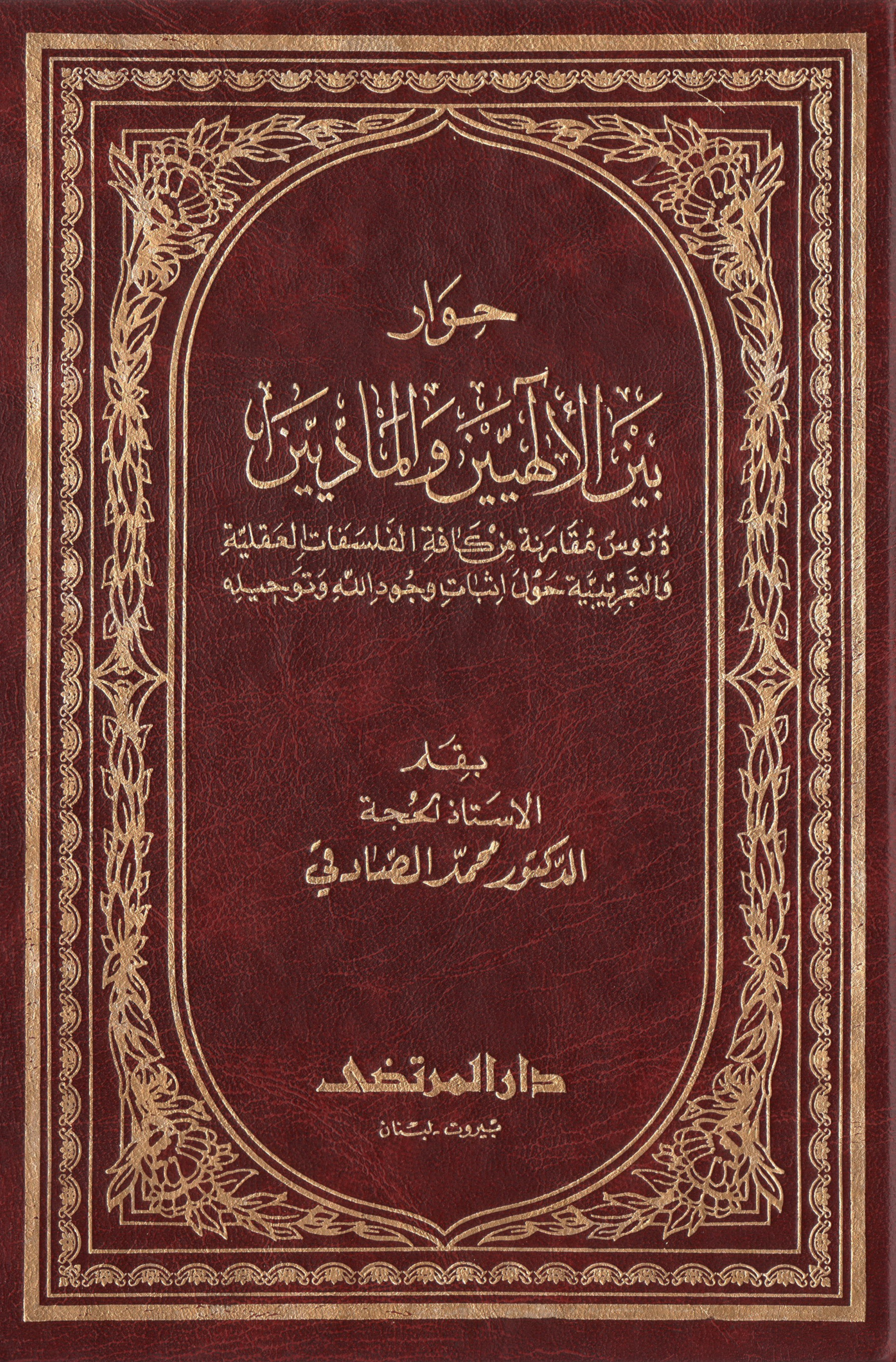

حوار
بين الالهيين والماديين
دروس مقارنة من كافة الفلسفات العقلية
والتجريبية حول اثبات وجود الله وتوحيده
بقلم
الاستاذ الحجة
الدكتور محمد الصادقي
دار المرتضى
بيروت - لبنان

حوار فلسفي

بين الالهيين والماديين

الكتــاب	حوار بين الالهيّين والمادّيين
المـؤلـف	الدكتور الشيخ محمّـد الصادقى
الطبعـة	الـثانـيـة
المطبعة	اسماعيليان ـ قـم
النـاشـر	انتشارات فرهنگ اسلامى ـ طهران ۰ تلفن : ۶۲۰۰۸۴ قــم ۰ تلفن : ۳۴۰۳۵
سنة الطبع	۱۴۰۷ هـ ـ ق
عدد المطبوع	۱۵۰۰ نسخة

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

الأستاذ المحقق: د. محمد الصادقي



حوار بين الإلهيين والماديين

دروس مقارنة من كافة الفلسفات القديمة والحديثة بصورة التساؤل والمناظرة تضم الاجابة عن جميع الأسئلة حول وجود الله وتوحيده :

ما قيل أو يمكن أن يقال - بصورة حديثة رائعة كما تناسب الأفكار اليوم - متحللة عن الصلاحات المعقدة الفلسفية .

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ـ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ـ أنبياء الله العظام وأصفيائه الكرام ـ لاسيما الرسول الأعظم والنبي الأكرم محمد ﷺ ـ وعلى آله المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ـ والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .



المدخل

.... في هذا الكتاب : تجد خطوات جبّارة نتمشى بها مع أساليب ونتائج العلوم التي توصّلت إلى أسرار الذرة ـ وغزت الفضاء واحتلت القمر ونزلت فيها وكشفت من سنن الكون وأسراره وظواهره ما يحير العقول ـ

ونتمشى بها مع الأساليب العقلية من الفلسفات الميتافيزيقية[1] مقارناً بينها وبين سائر الفلسفات من العلوم المادية التجريبية ـ

.... خطوات مبرهنة تملك من كافة البراهين الساطعة ـ نخطوها من الكون إلى خالقه ـ في جدالٍ بالتي هي أحسن ـ وحوارٍ كما هو أحرى وأتقن .

نتماشى فيها مع المرتابين الذين زلت بهم الأقدام إلى حضيض المادية العمياء ـ نستعرض فيها نظرات الباحثين من القبيلين : الإلهي والمادي ـ بما يلائم العلم والفكر اليوم ـ رفضاً للاصطلاحات الجامدة المعقّدة التي لا شأن لها إلا تطويل الطريق وتعقيده .

تجد هنا جواباً كافياً لهذا السؤال : هل لهذا الكون مِن إله ؟

السؤال الذي طالما تتطلّع اليه العقول وتتوق إلى معرفة الإجابة عنه ـ

---

(١) ما وراء الطبيعة .

فلسوف تتطلّع مختلف العقول على شتات مذاهبها في فكرة الإلّه : لمعرفة الجواب عن هذا السؤال .

سواء أكان السائل من المثقفين في القرن العشرين ـ أم ممن ينحو منحى القدماء الميتافيزيقيين العقليين المستأنسين بالأساليب العقلية المحضة ـ أم من البسطاء المتحللين عن كلتا الثقافتين والفلسفتين .

فإننا سوف نتمشى في هذا الحوار الشامل ـ مع السذّج البسطاء : بأحكام الفطرة والحس والعقل الساذج ـ ومع العقليين : بالفلسفات العقلية المتحللة عن الإصطلاحات ـ ومع الحسيين التجريبيين : بالفلسفات المادية ـ وأساليب ونتائج العلوم التجريبية التي توصلت إلى الذرّة وغزو الفضاء واحتلال القمر ـ فأخذت تصّعّد نحو السماء حيث ضاقت عليها الأرض بما رحبت .

نستخدم هنا وهناك من كافة الأساليب العلمية : قديمة وحديثة ـ بشرية أم إلّهية ـ ولكي يُعلم : أن الكون بأجمعه ـ بكافة مافيه ـ بظاهره وخافيه ـ محرابٌ واسع تسجد فيه الكائنات لربّها ـ ولا نستطيع أن نجد كائناً ولا قانوناً وعلماً يسوده ـ إلا أنه يخدم فكرة الإلّه .

فالعلم على تقدمه المطّرد أصبح يخدم الفكرة الميتافيزيقية ويعيش معها ـ مزيّفاً للتفكيرات المادية الإلحادية :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » ٤١ : ٥٣ .

« أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » ١٤ : ١٠ .

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ

لَا يُوقِنُونَ » ٥٢ : ٣٦

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » ٤٣ : ٩ .

• • •

عزيزي القاريء ! ... إنه طالما يهاجم الماديون على فكرة الإلّه : أنها تتنافي والعلم في تقدمه البارع البديع ـ وأن في تقدم وتوسع العلوم التجريبية تأخراً بارزاً في الفلسفة الميتافيزيقية !

لـكنك كن على ثقة : أن أملهم خائب وسعيهم خاسر ـ إذا رأوا بعيان : أن الكون بأجمعه برهان لا مردَّ له ـ على وجود خلاق عظيم ـ لانستطيع أن ننكره أو نتخلّى عنه أو نتغافل نداءه ـ حيث ينادينا بصرخاته المدوّية ونحن سامعون بكافة ما وُهبنا من وسائل الإدراك .

« فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » ٥١ : ٥٠ .

إننا في هذه البحوث المقارنة الفلسفية نسبر أغوار الكون بما فيه ـ فنجد الله عند كل شيء قيوماً عليه بيده ناصيته ـ فنسافر من الكون ونفر منه الي خالقه فراراً من اللاشيء الى كل شيء ـ ومن الفقير الى الغنيّ ـ نسبر أغوار الذرة فما فوقها لنسمع صرخاتها المدوية التي تنادي بفكرة الإلّه صريحة بينة ، والله من وراء القصد هو حسبي عليه توكلت واليه أنيب .

باب مدينة العلم : النجف الأشرف ـ محمد الصادقي : ط

بسم الله الرحمن الرحيم

حوار مع السوفسطائيين

هل إن هناك كوناً ؟ ام :

كل ما في الكون وهم او خيال   او عكوس في المرايا او ظلال ؟

سير جيمس جينز : إن هذا الكون ليس له وجود فعلي ـ وإنه مجردة صورة في اذهاننا ـ فاننا لا نتمكن من تصور العالم بصورة مادية من طريق المفاهيم الفيزيائية الجديدة ـ حيث لا سبيل لنا للتعرف على الكون إلا من طريق المفهوم وهو صورة غير مادية .

الالّهي : تبعاً لهذا الرأي إننانعيش في عالم من الأوهامدون أيَّة حقيقة وراءها ـ وهذا رأي وهمي لا يحتاج الى مناقشة او جدال ـ إلا أننا حسب أصلنا في الحوار نتمشىمع اصحاب هذا الرأي فيجدال بالتي هي احسن ـ ولكي ينتبهوا ـ رغم انحوارناليس إلا مع هؤلاءالذين يشاركوننا: أن هناك كوناً وحقيقةمّا.

فنسألهم اولاً : هلانّ لرأيكم هذا حقيقة ـ ام انه ايضاً وهم كسائر الكون؟

فان كان وهماً متحللاً عن الحقيقة ـ إذاً فللكون حقيقة دل عليها حكمكم بالمجازية والوهمية !

وان كان حقيقة ـ فهذا يتنافى وحكمكم بوهمية الكون ـ اذ هو جزء كوني ـ اذاً فالحكم بأن الكون وهم ـ تصديقه وتكذيبه ـ تصديق لحقيقةمّا للكون ـ وان كان نفسَ هذا الحكم .

ثانياً : لنفرض اننا لانتمكن من الوصول الى الكون نفسه من طريق مادي فيزيائي ـ ولكنه أنـّى يثبت: ان ليس هناك كون ولا كائن ؟ فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود !

ثالثاً : ان هذه الشبهة لا تقيم أمامنا سوى مشكلة الشعور والاحساس ـ فهو يعني : أن احساسنا بهذا الكون وادراكنا لما يحدث فيه، لا يعدو وهماً من الاوهام: ليس له ظل من الحقيقة .

فنسألكم : أن لو كانت هناك حقيقة ـ تُرى كيف يجب ان تكون : ذاتها وصفاتها وآثارها ـ التي لا تجدها الآن ؟ وكيف كنا نستطيع ان نتعرف اليها؟

فهل كنا نجدذات الكون بمادته في ذواتنا ـ لكي لا تكون له حقيقة إلا فينا؟

ام كنا نجد الحقيقة الخارجية متحللة عن كافة الآثار التي نحسها وندركها الآن؟...

اذاً فالحقيقة تصبح اسوء حالاً من المجاز ـ لفقدها ما يجد المجاز من آثار وجودية:

من لون وطعم وحرارة وبرودة وحركة وسكون وثقل وطول وعرض وعمق و...

وان كانت الحقيقة تلك ما نجدها الآن من الآثار ـ اذاً فهي عين ما نجده بآثاره .

فاذ قد نجد في الكون كافة آثار الحقيقة ـ فما هو المبرر لان نسميه مجازاً خلواً عن الحقيقة اطلاقاً ـ او وهماً لا يحمل اصالة خارجية .

رابعاً : ان هكذا حكم على الكون خلاف المحسوس ـ فان ادراكاتنا واحاسيسنا تكشف عن الكون كشفاً قاطعاً ـ مهما اخطأت في البعض من اجزائه وخواصه ـ او جهلت كنهه وجوهره تماماً ـ فما الانسان إلا عقلاً فاهماً وحساً تاماً ـ يُحِس ما يُحَس ويُلمَس ويدرك ويعقل ما لا يُحَس بالحواس الخمس ـ وتكفيه هاتان الطاقتان لاستيعاب الكثير من اجزاء الكون : ظاهره وخافيه ـ استيعاباً علمياً بمستوى طاقاته العلمية .

خامساً : ما دمت غير مؤهّل للوصول الى حقيقة الكون ـ فهلا تجد ذاتك: أنها موجودة ؟ ولذلك تستطيع ان تتوهم وتحكم؟وبحسبنا هذا ليثبت : أن هناك كوناً مّا وحقيقة مّا لنبحث عن حدوثه وازليته ـ وانما محور الحوار في فلسفتنا المقارنة : ان هناك كوناً ـ وان اختص بالسوفسطائيين !

سادساً : لا ميز في الاعدام من حيث العدم .

فلو كان الكون يعدم أية حقيقة ـ فلما ذا تختلف المفاهيم والأفهام ؟ والأشياء وصورها ؟ وهي وخواصها ؟ ولماذا أختلف أنا وأنت ؟ وكل واحد مع غيره ؟

فمن اين هذه الاختلافات ؟ ولاميز في الاعدام من حيث العدم ! انما الميز : إما في الموجودات المحضة [1] او الاعدام الخليطة بالوجود ـ نقص يمزج بالكمال ـ فالميز في هذه الأعدام نتيجة نسبتها الى الوجودات الخاصة : عدم السواد ـ عدم البياض ـ عدم الحرارة ..

فكل هذه توجد في المادة ـ وهي مختلفة حسب اختلاف الوجودات الخاصة: السواد البياض ـ .

اذاً فكافة البراهين الضرورية تعصف بالسوفسطائية ـ فلا تُبقى لها على اثر ـ لانها فكرة مجازفة لاتملك من مقومات أية فلسفة من الفلسفات ـ اطلاقاً ـ ولا يبررها اي منطق .

---

١ ـ على تأمل في تعدد الوجود المحض إلّا إذا اريد به في قمة الكمال المثل في الكائن الحادث ، ثم الثاني ما دونه في الكمال ، كما لا تعدد في العدم المطلق ، اللهم إلّا في مطلق العدم وهو المانع بوجود مّا .

المادي والالٰهي في محاورات

... الوجود ـ الكون : كله مادة ؟ أو أن وراءَها أزليٌّ مجرد عن المادة ؟

؟«العدم = المجرد ..ف العدم = المادة ـ الوجود :ف. المادة = الوجود»

« المجرد = العـدم والمـادة = الوجود ـ ف : الوجود = المـادة »؟

المادي : ... أفي الله شك ؟! أجل : بل وإننا على علم أنه ليس ! فكيف لاشك فيه ؟

إن الفكرة الميتافيزيقية المعتنقة لتصديق الإلٓه المجرد عن المادة ـ فكرة خرافية رجعية ـ لاتساعدها العلوم التجريبية على تقدمها الواسع ـ ولاتتلائم مع العلم إطلاقاً .

فهناك منافرة ذاتية بين العلم وبين فكرة الإلٓه ـ يصدقها التحلل البارز المتواصل عن هذه الفكرة بين العلماء المثقفين في القرن العشرين ـ إلى حيث لايكادون يفكرون في إمكان الوجود والحقيقة لما وراء المادة ـ فلا يعتبرون وراءها إلا وراء الوجود .

إذاً فكيف ينفي القرآن وجود الشك في الله وينكره ! أ إنكاراً للبديهة الملموسة ليل نهار وعبر القرون والأعصار : من إنكار الآله المجرد عن المادة ؟!

الالٰهي : إننا لانتمشى معكم ـ ولا مع أي محاور ـ إلا بأقدام العقل والعلم والحس والفطرة ـ ولا ندعي أمراً إلا ببرهان يلائمه ويعيه المحاور .

إذاً فالمرجو منكم التماشي معنا في هذه المحاورات كما نتمشى ـ وكما يحق في المناظرات العلمية الصادقة ـ ولكي نتطلع على ما نرومه ونتحرى به عن الحق :

إنكم ما أتيتم ـ طوال جدالكم بشيء ـ إلا : أن وجود الإلّه مما يُشك فيه ـ نقضاً لما تعنيه الآية : أفي الله شك ... وانكم على علمٍ من عدم وجوده : استناداً إلى منافرة فكرة الإلّه مع العلوم التجريبية ـ وتأييداً بتحلّل الكثير من العلماء عن هذه الفكرة !

هذا ـ رغم أن الكون بكافة القوانين العلمية الحاكمة عليه ، ينادي بصرخة مدوية : انه بحاجة ماسة إلى المكوِّن ، الذي لا يجانسه ولا يماثله ـ وبذلك تزول كافة الشكوك حول فكرة الإلّه .

والقرآن ينقل مقالة رائعة منبثقة عن العقل والعلم وعن الكون اطلاقاً ينقلها عن الرسل : وهي عدم جواز الشك في الله ـ استناداً إلى انفطار وحدوث السماوات والارض ـ وان لكل منفطر فاطراً بحكم العقل :

« قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والارض ؟ ١٤ : ١٠

فانبياء الله إذ يستنكرون جواز الشك في فاطر الكون ـ لا ينفون وجود الشاك والشك فيه ـ انما ينفون جوازه بسناد العقل ـ وإن شك فيه وارتاب الكثير من هؤلاء الذين خانوا عقولهم ولم يعطوها حق أحكامها وما رعوها حق رعايتها .

إن الأعمى والمُطبِق عينَه لا يُبصران الشمس حين تشرق في رابعة النهار ـ فلو أنهما شكّا في طلوع الشمس اووجودها ـ فهل إن ذلك يخل بقاطعية ضوء الشمس حتى يكذِّب القائل : أفي الشمس شك حيث أضاءت علينا بأنوارها ؟

فنفي جواز الشك في الله ليس إلا لان الشاك فيه لا يملك أية حجة لتبرير

شكّه ـ كنفي الريب في القرآن عن ساحة وحيه المنير :

« آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه... » ٢: ١ ـ ٢ فإنه لا ينفي وجود الريبة عن المرتابين فيه ـ إنما ينفي مقوّمات الريب عن القرآن : أن ليس فيه ما يُريب الناظر فيه ـ إذ لا اختلاف فيه : أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ٤ : ٨٢ .

فعدم وجود الإختلاف في ألفاظه ومعانيه ـ ينفي ريبة الإختلاق عنه ـ اذ إنه لا يستطيع مَن سوى الله أن يأتي بكتاب لا يوجد فيه أي اختلاف .

هل إن بين العلم وفكرة الإلّه منافرة ؟

العقل والعلم والكون بكافة ما فيه ، والعلماء المزاولون للعلوم التجريبية : هؤلاء يصدقون أن هناك رباطاً عريقاً بين العلم وفكرة الإلّه ، ويعيشون مع هذه الفكرة طوعاً أو كرهاً !

أفليس يقول العلم : كل حادث بحاجة ماسة إلى محدث ؟

أليس العقل يُحيل حدوث شيء دون علة تعاصره ؟

أليس العلم لا يزال يفتّش عن علل الحوادث الخفية ؟

أفليس إذا كان الكون حادثاً ـ كما يدل عليه ذاته وآثاره ـ فهو بحاجة إلى محدث ؟

أهذه خرافة ميتافيزيقية تتنافى والعلم ؟

أفي الله شك فاطر السماوات والارض ؟

أفي الله شك ؟ والفطرة ناطقة أن السماوات والأرض لهما فاطر فطرهما ـ ليس من جنسهما ـ قالت رسلهم : هذا الإستنكار ـ لان السماوات والارض آيتان هائلتان بارزتان ـ فمجرد الإشارة اليهما يكفي ـ ويرد الشارد الى الرشد سريعاً ـ

ولم يزيدوا على الإشارة شيئاً لانها وحدها تكفي .

يقول اندروكو نواي ايفي ـ عالم فسيولوجي [1] تحت عنوان :

انكار وجود الله لا يستند الى دليل :

« إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول « إن الله موجود» كا أن احداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول «إن الله غير موجود»ـ

وقد ينكر منكرٌ وجودَ الله ـ ولكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل ـ وأحياناً يشك الإنسان في وجود شيء من الأشياء ـ ولا بد في هذه الحالة ان يستند شكه إلى أساس فكري .

ولكنني لم اقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً عقلياً واحداً على عدم وجوده تعالى ـ وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجوده ـ كا لمست بنفسي بعض ما يتركه الايمان من حلاوة في نفوس المؤمنين ـ وما يخلفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين .

والبرهان الذي يتطلَّبه الملحدون لاثبات وجود الله هو نفس البرهان الذي يُطلب لو كان الله تعالى شبيهاً بالانسان أو شيئاً مادياً ـ أو حتى تمثالاً من التماثيل أو صنماً من الاصنام ... »

اقول : وهذه قبسة من مشكاة القرآن وكما يقول : «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون» ٤٥ : ٢٤ .

---

١ ـ من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٤٦ رئيس قسم الدراسات الفسيولوجية والصيدلية بجامعة نورث وسترن ـ من سنة ١٩٤٦ ـ ١٩٥٣ ـ استاذ في كلية الطب ووكيل الكلية في جامعة الينوى ـ في الوقت الحاضر : استاذ الفسيولوجيا ورئيس قسم العلوم الاكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاجو .

العلم والعلماء في فكرة الإله

ادوارد لوثركيسيل [1] EDWARD LUTHERKESSFL

« أضاف البحث العلمي خلال السنوات الاخيرة أدلة جديدة على وجود الله ـ زيادةً على الادلة الفلسفية التقليدية .. فقد كان في الاثباتات القديمة ما يكفي لإقناع اي انسان يستطيع أن ينظر إلى الموضوع نظرة مجردة عن الميل أو التحيُّز ـ وأنا بوصفي ممن يؤمن بالله أرحّب بهذه الادلة الجديدة لسببين : فهي أولاً تزيد معرفتنا بآيات الله وضوحاً ـ وهي ثانياً تساعد على كشف الغطاء عن أعين كثير من صُرحاء الشكيين حتى يسلّموا بوجود الله .

لقد عمّت في أمريكا ـ في السنوات الأخيرة – موجة من العودة إلى الدين ـ ولم تتخطّ هذه الموجة معاهد العلم لدينا ـ ولا شك أن الكشوف العلمية الحديثة التي تشير إلى ضرورة وجود إلهٍ لهذا الكون قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة الى رحاب الله والاتجاه إليه ـ وطبيعي أن البحوث العلمية التي ادت الى هذه الادلة ـ لم يكن يُقصد من اجراءها اثبات وجود الخالق ـ فغاية العلوم هي البحث عن خبايا الطبيعة واستغلال قواها ـ وهي لا تدخل في البحث عن مشكلة النشأة الاولى ـ فهذه من المشكلات الفلسفية ـ والعلوم لا تهتم إلا بمعرفة : كيف تؤدي الاشياء وظائفها ؟ وهي لا تهتم بمعرفة : مَن الذي جعلها تعمل أو تؤدي هذه الوظائف ؟

---

١ ـ اخصائي في علم الحيوان والحشرات ـ حاصل عل دكتوراه من جامعة كاليفورنيا ـ استاذ علم الحياة ورئيس القسم بجامعة فرنسيسكو متخصص في دراسة اجنة الحشرات والسلامند والحشرات ذوات الجناحين .

ولكن كل إنسان ـ حتى اولئك الذين يشتغلون بالعلوم الطبيعية ـ لديه ميل أو نزعة نحو الفلسفة ـ ومما يؤسف : أن المرموقين من العلماء ليسوا دائماً من الفلاسفة الممتازين . فقليل منهم هم الذين يفكرون في امور النشأة الاولى ـ .

ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من الادلة على وجود الخالق ـ بنفس روح الامانة والبعد عن التحيُّز الذي ينظرون به الى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرّروا عقولهم من سلطان الثائر بعواطفهم وانفعالاتهم ـ فانهم سوف يسلّمون ـ دون شك : بوجود الله ـ وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسّر الحقائق .

فدراسة العلوم بعقل منفتح سوف تقودنا ـ بدون شك ـ الى ادراك وجود السبب الاول الذي هو الله .

ولقد منّ الخالق على جيلنا وبارك جهودنا العلمية بكشف كثيرٍ من الامور حول الطبيعة ـ وصار من الواجب على كل انسان ـ سواء أكان من المشتغلين بالعلوم ام من غير المشتغلين بها : ان يستفيد من هذه الكشوف العلمية في تدعيم ايمانه بالله .

«ثم بعد سرد البراهين من العلوم التجريبية على حدوث المادة ـ يستمر قائلاً» :

ولا يتسع المقام لسرد أدلة أخرى لبيان الحكمة والتصميم والإبداع في هذا الكون ـ ولكنني وصلت الى كثير من هذه الأدلة ـ فيما قمت به من البحوث المحدودة حول اجنّة الحشرات وتطوُّرها ـ وكلّما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون ـ إزداد اقتناعي وقوى إيماني بهذه الادلة .

فالعمليات والظواهر التي تهتمُّ العلوم بدراستها ـ ليست إلاّ مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون ـ وليس التطور إلا مرحلةً من مراحل عملية الخلق .

وبرغم أن صيحات الماديين قد حجبت كثيراً من الباحثين الأمناء عن الحقيقة ـ فان فكرة التطور الخلقي لا يمكن ان تكون منافية للعقيدة الدينية ، بل على النقيض من ذلك نجد من الحماقة والتناقض في الرأي : ان يسلّم الانسان بفكرة التطور ـ ويرفض ان يسلّم بحقيقة وجود الخالق الذي اوجد هذا التطور .

لقد عاش منذ عهد او جستين العظيم في القرن الرابع حتى اليوم ـ كثيرٌ ممن آمنوا بالله ـ ورفضوا فكرة الخلق بمعنى الصناعة ـ وقبلوا فكرة الخلق على اساس التطور ـ .

والواقع انه بالنسبة لهولاء ـ وانامن بينهم ـ نجد أن للتطور اهمية من الناحية الدينية ـ فهو يقود العقل الامين المتجرد من التحيـّز الى فكرة وجود الله تعالى .

واعود فاقول : إن دراسة العلوم بعقل منفتح تجعل الانسان يسلّم بضرورة وجود الله والايمان به .

٢ ـ كارل هايم CARL HIEM

« إن عجائب الصنع ورموزه البديعة تضطرنا الى الإعتقاد بوجود خالق حكيم وراء المادة ـ لا أنها تجوّزه فحسب ! »

٣ ـ وولتر اوسكار لند برج [1] WALTEROSCAR LUNDBERG

« للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره ـ إذا استطاع ان يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله ـ فالمبادىء الأساسية التي تستند اليها الطريقة العلمية التي تجري بحوثه على مقتضاها ـ هي ذاتها دليل على وجود

١ـ عالم الفسيولوجيا والكيميا الحيوية ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز ـ استاذ فسيولوجية بجامعة منيسوتا ـ استاذ الكيميا الحيويه الزراعية بجامعة منيسوتا ـ.

الله ـ وقد ينجح كثير من رجال العلوم ـ الذين لا يدركون هذه النقطة في اعمالهم كعلماء ـ ولا ينبغي ان نعتبر هذا النجاح مناقضاً للحقيقة التي اشرنا اليها ـ فالنجاح في دراسة العلوم يعتمد تماماً على استخدام اسلوب معين ـ ولا يتوقف بعد ذلك على مدى تقدير العالم للمبادىء الأساسية التي يقوم عليها هذا الاسلوب .

اسباب انكار وجود الله رغم ان العلوم تثبته :

ويرجع فشل بعض العلماء في فهمهم وقبولهم لما تدل عليه المبادىء الاساسية التي تقوم عليها الطريقة العلمية من وجود الله والايمان به ـ الى اسباب عديدة ـ نخص اثنين منها بالذكر :

اولا : يرجع إنكار وجود الله في بعض الاحيان الى ما تتبعه بعض الجماعات او المنظمات الإلحادية أو الدولة من سياسة معينة ترمي الى شيوع الالحاد ومحاربة الايمان بالله ـ بسبب تعارض هذه العقيدة مع صالح هذه الجماعات او مبادئها .

ثانياً : وحتى عندما تتحرر العقول من الخوف فليس من السهل ان تتحرر من التعصب والأهواء .

ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم : في إله هو على صورة الانسان ـ بدلاً من الاعتقاد بأن الانسان قد خلق خليفة لله على الارض [1] .

وعندما تنموا العقول بعد ذلك ـ وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية ـ فان

١ـ لا تعني خلافة الانسان لله على الارض : انه يخلف الله في الارض ـ لانه إله الارض كما هو إله السماء ـ انما تعني : ان الله يخلقه خلفاً عن خلف ـ وقد خلق هذا النسل الموجود خليفة لمن قبله من نسل يشبهه والتفصيل الى موسوعتنا « البشارات والمقارنات ج اص ٣٦٩ .

تلك الصورة التي تعلّموها منذ الصغر ـ لا يمكن ان تنسجم مع اسلوبهم في التفكير ـ او مع اي منطق مقبول .

واخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الافكار الدينية القديمة ـ وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي ـ نجد هؤلاء المفكّرين يخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية .

وعند ما يصلون الى هذه المرحلة ـ ويظنون أنهم تخلّصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية ـ لا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات ـ بل يقاومون قبول ايّة فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله » .

٤ ـ البرت انيشتاين [١] .

« إن في هذا الكون المرموز المجهول قدرة عاقلة قادرة ـ يدل عليها نفس الكون بما فيه » .

٥ ـ بول كلارنس ابرسولد [٢] PAUL CLARENCE AEBERSOLD

« قال الفيلسوف الانجليزي ـ فرانس بيكون ـ منذ اكثر من ثلاثة قرون :
« إن قليلاً من الفلسفة يقرّب الانسان من الالحاد ـ اما التعمق في الفلسفة فيرده الى الدين » ـ

ولقد كان بيكون على صواب فيما ذهب اليه ....

١ ـ هو في غنى عن التعريف به .
٢ ـ استاذ العلوم الطبيعية الحيوية ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ـ مدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل ـ اول ريدج ـ عضو جمعية الابحاث النووية والطبيعة النووية .

« لسنا إلا في فجر العلوم ـ ولكن كل المامة جديدة وكل تزايد لنور المعرفة تأتينا ببرهان جديد على : أن كوننا هو حقاً صنيعة عقل خلاّق فعّال ـ كذا يعتمد الايمان على المعرفة ـ ويشعر العالم في كل مرحلة جديدة يقطعها ـ انه : يقترب من الله ـ وقدوجدت في العلم شخصياً سبع علل كبرى أرسي عليها قواعد ايماني » ... ثم يستمر في بيانها كما سوف تأتي في مناسباتها .

٧ – مارلين بوكس كريدر [٢]

« إنني بصفتي مداوماً في التحقيقات العلمية ـ لا اشك ابداً في وجود الله الخالق المتعال ـ إننا نشاهد الكون على نظام بارع دقيق فنستدل بذلك على خلاّق له عليم ـ فنظام قوانين الكون بالغ إلى درجة يفسح لنا مجال الانباء عن حركات السيارات والاقمار الصناعية و كيفياتها قبل حركاتها ـ ونتمكن كذلك على ضوء المعادلات الرياضية ـ من بيان وتفسير كثير من الحوادث الطبيعية .

ومن وجهة النظر في علم وظائف الاعضاء نتمكن من تصديق خـــلاق عليم ..... »

٨ – جورج ايرل دافير [٣] GEORGE EARL DAVIS

« كلما تقدم ركب العلم وتضاءلت الخرافات القديمة ـ ازداد تقدير الانسان

---

١ ـ رئيس المجمع العلمي في نيويورك سابقاً ـ ينقلها عنه : الله محبة ص ٨٢ .

٢ ـ العالم الفيزيائي الحاصل على رتبة M. SC. ـ دكتوراه في الفلسفة من جامعة « مري لند » والاستاذ في علم الحياة في كالج « نازارن » الشرقي ـ وعضو جمعية علم الحياة في امريكا ـ والمتخصص في متابوليسم وجريان الدم .

٣ ـ عالم الطبيعة ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة منيسوتا ـ رئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الامريكية ببروكلين ـ اخصائي في الاشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية .

لمزايا الدين والدراسات الدينية .

... ليس معنى ذلك : اننا ننكر وجود الالحاد والملحدين بين المشتغلين بدراسة العلوم ـ إلا أن الاعتقاد الشائع : بان الالحاد منتشر بين رجال العلوم اكثر من انتشاره بين غيرهم ـ لا يقوم على صحته دليل ـ بل انه يتعارض مع ما نلاحظه فعلاً من شيوع الايمان بين جمهرة المشتغلين بالعلوم ...

اننا نستطيع ان نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط مما نتعلمه ونراه ... وكلما ارتقى وتقدم تطور المخلوقات ـ كان ذلك اشد دلالة على وجود خالق مدبر وراء هذا الخلق .

٩ - رسل شارلز ارتست [١] RUSSELL CHARLES ARTIST

« ... انا لا اريد أن اقول : انني اومن باللهبسبب عجزى في الوقت الحاضر عن إدراك سبب ظاهر الحركة في « البروتوبلازم » او غيرها من الظواهر ـ وانا اعلم : ان كثيراً من الناس يستخدمون هذا الاسلوب من اساليب المنطق ـ ويقولون : إذا كانت العلوم عاجزة عنالتفسير فلا بد من التسليم بوجود الله ولكنني أرفض هذا المنطق رفضاً باتاً وأقول : انه ـ حتى عندما نكتشف الحقايق ـ ويزول عنا ذلك الغموض يوماً من الايام ـ ونصير قادرين على فهم الخليّة الحيّة بصورة افضل ـ فإننا لا نفعل ـ اكثر من ان نتتبّع ونتدبر ماصنعه ودبره خالق ومدبر اكبر ـ وهو الذي جعله يتحرك ويؤدي كل وظائفه ... »

١٠ - اوليور وندل هولمز [٢] OLIVER WENDELL HOLMES

« كلما تقدمت العلوم البشرية الىالأمام ـ اخذت الفواصل بين العلم والمذهب

---

١ ـ اخصائي علم الاحياء والنبات ـ حاصل على درجة دكتوراه من جامعة منيسوتا ـ استاذ في جامعة فرانكفورت بالمانيا ـ عضو الاكاديمية العلمية بانديانا ـ مؤلف الكثير من البحوث البيولوجية ،

٢ ـ العالم الطبيعي الكبير ـ ينقله عن ايرونيك ويليام تبلوج .

تنمحي وتذوب شيئاً فشيئاً ـ وعلى ضوء التكامل العلمي يتكامل الايمان بالله تعالى»

١١ـ سر جيمز جنيز SIR JAMES JEANS

« لئن عبّرنا عن الكون بالفكرة العظيمة ـ كان أحرى من أن نعتبره مكينة عظيمة ـ إذ العالم صنع فكرةٍ خلاقةٍ ما لها من نظير » .

١٢ـ البرت ماكومب ونشتر [1]

« هل من الممكن أن يكون للمشتغل بالعلوم نفس الاعتقاد بوجود الله ـ والتقديس له ـ كغير المشتغل بالعلوم ؟ وهل يوجد في دائرة المكتشفات العلمية ما يمكن ان يقلل من تقدير الانسان لقدرة الخالق الاعظم وجلاله ؟

تلك اسئلة تطوف أحياناً بعقول بعض من يظنون ان العلماء في ميادين بحوثهم المتسعة يكتشفون من الحقايق ما قد يتعارض مع الدين ـ حسب تفسير بعض المفسرين !

ومن أمثلة ذلك ما حدث لي شخصياً ـ عندما كنت طالباً بالجامعة ـ وكنت قد قررت أن أدرس العلوم ـ وانني لأذكر جيداً : كيف اخذتني إحدى عماتي جانباً ذات يوم وتوسلت إلي : أن اعدل عن هذا القرار ـ لان العلوم ـ كما كانت تعتقد ـ سوف تقضي على ايماني بالله ـ لقد كانت تعتبر ـ كما يعتبر الكثيرون : ان العلوم والدين قوتان متعارضتان ـ وانهما لا يمكن أن يجتمعا في قلب رجل واحد[2] .

---

١ ـ متخصص في علم الاحياء ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة تكساس ـ استاذ الاحياء بجامعة بايلور ـ عميد أكاديمية العلوم بفلوريدا سابقاً ـ اخصائي في علم الوراثة وفي تأثير الاشعة السينية على الدروسوفيلا .

٢ ـ انها كانت مصيبة بعض الاصابة حيث العلوم وان كانت لا تتنافى والدين الحق ـ ولكنها تتنافى والخرافات الكنسية في فكرة الاله انه بشر متولد من امرأة ـ صلب ولعن ضحية الذنوب !

وإنني لأشعر بالغبطة تملأ قلبي اليوم ـ بعد أن درست العلوم المختلفة ـ واشتغلت بها سنوات عديدة ـ ولم يكن في ذلك ما يزعزع إيماني بالله ـ بل إن اشتغالي بالعلوم قد دعم إيماني بالله ـ حتى صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل[1] .

ليس من شك أن العلوم تزيد الانسان تبصّراً بقدرة الله وجلاله ـ وكلما اكتشف الانسان جديداً في دائرة بحثه ودراسته زاد إيمانه بالله ـ لقد حلّ العلم محل كثير من الخرافات القديمة التي طالما طغت على المعتقدات الدينية ـ واستبدل بها حقائق رصينة تستند إلى المشاهدة والتجربة ... ان إيماننا بالله لم يتزعزع بسبب معرفتنا بهذه الحقائق ـ بل ازددنا علماً به وبالعالم الذي خلقه سبحانه وتعالى ـ وكذلك بتلك الكائنات التي يصيب بها من يشاء ...»

١٣ ـ اندروكونواي ايفى ـ عالم فسيولوجي[2] : يقول تحت عنوان :

مبدأ السببية :

منذ سنوات عديدة كنت أجلس إلى مائدة الطعام مع جماعة من رجال الأعمال ـ وكان معنا أحد مشهوري رجال العلوم ـ وفي أثناء الحديث الذي دار بيننا قال أحد رجال الأعمال : « سمعت أن معظم المشتغلين بالعلوم ملحدون . فهل هذا صحيح ؟ » .

ثم نظر رجل الأعمال إليّ فأجبته قائلاً : « إنني لا أعتقد أن هذا القول صحيح . بل إنني ـ على نقيض ذلك ـ وجدت في قراءتي ومناقشاتي : أن معظم

---

١ ـ وذلك ترك العقيدة الكنسية في فكرة الاله المثلث الاقانيم ـ فالتحلل عن الفكرة الكنسية بالنسبة للاله يفسح المجال للايمان الصادق بالله على ضوء مختلف العلوم .

٢ـ سبق التعريف به .

من اشتغلوا في ميدان العلوم من العباقرة لم يكونوا ملحدين ـ ولكن الناس أساءوا نقل أحاديثهم أو أساءوا فهمهم » .

ثم استطردت قائلاً : «إن الإلحاد ـ أو الإلحاد المادي ـ : يتعارض مع الطريقة التي يتبعها رجل العلوم في تفكيره وعمله وحياته ـ فهو يتبع المبدأ الذي يقول: بأنه لا يمكن أن توجد آلة دون صانع ـ وهو يستخدم العقل على أساس الحقائق المعروفة ـ ويدخل إلى معمله يحدوه الأمل ويمتلىء قلبه بالإيمان ...»



موانع الايمان بالله

هذه نظرات نفر من العلماء المزاولين للعلوم التجريبية ! إذاً فالعلوم لاتتنافى وفكرة الإلّه ـ إنما هذه هي :

١ ـ الظروف السياسية المستبدة التي ترمي إلى شيوع الإلحاد ومحاربة الإيمان بالله من ناحية .

٢ ـ والمنظّمات والبيئات الكنسية المسيحية التي تَبذُل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم : في إلّه هو على صورة الإنسان مثلّث الأقانيم ـ صُلِبَ بأيدي عباده ضحيّةً لذنوبهم ـ من ناحية أخرى .

٣ ـ وطبيعة التحلل عن القوانين الإلّهية المحدّدة للشهوات ـ هذه الطبيعة الشرّيرة التي قد تقضي على قضاء العقل والفطرة ـ من ناحية ثالثة .

هذه الكوارث هي التي تسبب هذه الإنتكاسات الإلحادية في فكرة الإلّه ـ لحدّ قد يُعتبر إنكار وجوده مبرهناً جلياً .

لذلك نرى الملحدين في الله بين المسيحيين أكثر منهم بين سواهم : من المليين ـ إذ ان العلم وإن كان يصدّق فكرة الإلّه أصالة ـ ولكنه يتنافى وكون الإلّه إنساناً عاجزاً وُلد وصُلِبَ ! لذلك تراهم قد يرفضون فكرة الإلّه ـ لا لشيء ـ إلا لأن الإلّه الذي اعتنقوه منذ الطفولة في الكنائس ـ ليس بالذي يمكن أن يكون خالقاً للعالم !

ولكن العلماء المتحللين عن إلّه الكنائس ـ هؤلاء باستطاعتهم أن يتقدموا

في فكرة الإله على ضوء تقدمهم في العلوم وبمستواها ـ لاسيما المتحررون منهم عن السياسات المستبدة الماركسية الإلحادية التي ترمي إلى محاربة فكرة الإله ـ وعن أطر الشهوات التي تُلهي عن هذه الفكرة العاقلة العادلة .

فهؤلاء الأحرار تُتاح لهم فرص ومجالات واسعة الأطراف لاستخدام العلوم في سبيل فكرة الإله رغم أن البحوث العلمية التي تؤدي إلى هذه الفكرة لم تكن لتُقصد من اجراءها اثبات وجود الخالق ـ فغاية العلوم هي البحث عن خبايا الطبيعة واستغلال قواها ـ وهي لا تدخل في البحث عن مشكلة النشأة الأولى .

●

المادة ليست هي الوجود كله

وانما هي شكلية تافهة من مجالاته

هم رجال ونحن رجال !

المادي : ... أجل ـ فهؤلاء رجالٌ ونحن رجال ـ ليس علينا ان ننحو منحاهم دون برهان ـ كما انهم لا يقتنفون أثرَنا نحن الماديين في فكرة أُصالة المادة ـ فرغم انهم لا يشكون في الله ـ فاننا في شك منه مريبٍ ـ أو على أنه ليس هناك إلهٌ خالق وراء المادة ـ للفورمول التالي :

الوجود = المادة والمادة = الوجود ؟!

المادة لا سواها !

إن الكون حقيقةٌ لا مراء فيها ـ ولكنه ليس إلا المادة دون سواها ـ إذ لا نجد إلا إياها ـ فكما انه ُهراءٌ ان يقال :

كلُّ ما في الكون وهمٌ او خيال   او عكوس في المرايا أو ظلال

كذلك ما يقال : إن الاصل في الحقيقة هو المجرد الازلي وراء المادة،رغم أنه لا يصدقه الحس والعلوم التجريبية ـ فإننا كلما نسبر اغوار الكون على ضوء العلوم لا نجد إلا المادة وخواصها وتفاعلها ـ طوال البحوث العلمية التجريبية ـ وكل ما لا يصدقه العلم يصبح جهلاً وخرافة !

عدم الوجد ان لا يدل على عدم الوجود :

الالهي : لنفرض أنكم في شك من وجود الله ـ ولكنه شكٌ غير ُمريب ـ اذ إن الشك المريب ما يستند الى حجة ُتريب الإنسان فيما يعلق بفكره من أفكار ـ ولا حجة في الكون تريب الإنسان في فكرة الإله،بل إن الكون بكافة أطواره جندٌ صامد في سبيل اثبات وجود الله ـ وعدم وجدان الشيء لا يُصبح دليلاً على عدم وجوده !

وتدّعون اخيراً أنكم على علم : ان ليس هناك إلّه وراء المادة ! فلماذا ؟

ألأنكم عرفتم كل ما في الكون فلم تجدوا الله؟! ... إنّ احداً من العلماء لايزعم هذا حتى اليوم ـ وإن في هذه الارض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً ما يُكشف وجوده يوماً بعد يوم ـ ولم يقل أحدٌ : أن سلسلة الكشوف للأحياء في الارض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام ـ

هذا ! فكيف بمن لا تحويه الارض ولا السماء وليس بمتناوَل الحس : وهو الذي في السماء إلّه وفي الارض إلّه ٤٣ : ٨٤ .

ألأنكم عرفتم كل القوى المكنونة في هذا الكون ـ فلم تجدوا الله من بينها؟!.. إن أحداً لا يدعي هذه الدعوى ـ فهناك قوىّ مكنونة تُكتشَف كل يوم ـ وهي كانت مجهولة بالأمس ! والعلماء جادّون في التعرُّف إلى القوى الكونية ـ وهم يُعلنون في تواضع قادتهم إليه ـ كشوفَهم العلمية ذاتها : أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون ـ وانهم لم يكادوا يبدأون بعد !

ألأنكم رأيتم كل القوى التي استخدمتموها ـ فلم تروا الله من بينها ؟ فليس الله من القوى التي يستخدمها الإنسان في علومه ـ ولا أن كل القوى تُرى ! فإن العلماء يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرّة ـ ولكن احداً منهم لم ير الكهرب قط ـ وليس في معاملهم من الأجهزة مايفرزون به كهرباً من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها .

ويتحدثون عن قوة الجاذبية العمومية التي يربطون بها كافة العلوم التجريبية ـ رغم ان أحداً لم يجدها وجدان الحس المادي ـ وانما آثارها القاطعة هي التي تدلهم عليها دون ريب .

ويتحدثون عن الروح والعقل والجنون والحب والبغض ـ وأشباه ذلك مما ليس بمتناول الحس ولا العلوم التجريبية ـ إلا بآثارها فحسب !

إذاً ففيمَ هذا الجزم : « أن الله لا يكون » وأن فكرة الإلّه المجرد خرافية لاتملك أيّة حقيقة !؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله : أن يجزم بعدم وجود شيء مّا - إلا أن يحيله عقله الجازم وفطرته غير الدخيلة .

«وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون »٤٥ : ٢٤ .

أُجل وأنّى لهم العلم بما لم يحيطوا به علماً ؟ ... أنكم لا تجدون الله حسيّاً ولن تجدوه هكذا - فكل محسوس محدودٌ مركبٌ متغيرٌ ومخلوق - فكيف تحاولون أن تجدوا الله بالإحساس المادي؟ فإنه خفيٌ بالذات غاية الخفاء- وجليٌ بالآثار والآيات غاية الجلاء - والكون بكافة ما فيه آية بينة تدل عليه دون مراء وانتم الماديين ظللتم تجاهدون بالعلوم التجريبية والعقول المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى - والمعرفة الحقيقية المغيبة عن طريق الحس والإحاطة العقلية - فهكذا ظللتم كالأطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته - محاولةحلٌ لغز الوجود- وانتم لم تتقنوا بعدُ أبجديةالهجاء منالكون: الحروف التكوينية المادية - وهي الذرات الاولية لمختلف شكليات المادة !

انتم ! ! !

ولكن العلماء ليسوا ممن يعتقدون في قدرة العلوم على كل شيء - حتى تستطيع ان تجدتفسيراً لكلّ شيء - فالعلوم لاتستطيع ان تحلل الحق والجمال والسعادة - كما أنها عاجزة عن ان تجد تفسيراً لظاهرة الحياة أو وسيلة لإدراك غايتها - إذاً فهي اشد عجزاً عن أن تثبت عدم وجوده تعالى .

إن العلوم مهتمّة بتحسين نظرياتها - وهي تحاول ان تكشف عن كنه الحقيقة - ولكنها كلما اقتربت من هذين الهدفين زاد بعداً عنها - وبالرغم من كل ذلك فإنها لا تجد بداً من الإذعان بوجود خالق أزلي مجهول الكنه والحقيقة - إلا انه : «باينٌ عن خلقه وخلقه باينٌ منه - لا هو في خلقه ولا خلقه فيه» .

الإدراكات الموهوبة ؟

المادي : لنفرض أن هناك إلهاً وراء المادة والحس – إلا أننا لم نوهَب من وسائل الإدراك إلا المادية منها – فما علينا إذ لانصدق الإله المجرد ولا نكذبه– فانما نشك فيه – حيث انحصرت وسائل الإدراك في المادية لا سواها !

الالهي : ... اولاً: لا تنحصر وسائل الإدراك في الإحساس المادي– إذ العقل يدرك المعضلات والعويصات غير المادية في الحساب والجبر واللوغاريتم وما اليها من أحكام وتصديقات كلية خارجية عن ظروف المادة وملابساتها .

فهل إن الاستدلال والنتيجة الحاصلة عن تلكم المسائل المعضلة : هل إنها محسوسة بشيء من الحواس الخمسة المادية ؟ إذاً فما للعوام السذّج لا يدركونها ؟ أ لِفَقد الإحساس ؟ أم لعدم كون ذلك مما يُنال بالحس ؟

لا نقول : إن العقل مجرد عن المادة اطلاقاً ــ إنما نقول : إنه ليس بذاته محسوساً بهذه الحواس الخمسة ــ وكذا ما يحكم به من أحكام ويبرهن عليها من براهين .

ثانياً : لا ينحصر تصديق وجود شيء بادراكه بذاته حسّياً او عقليّاً فإننا نحكم جازمين بوجود أشياء إذ نجد آثارها بما وُهبنا من الإحساس الماديّ ــ وكما في قوة الجاذبية والمغناطيسية وأمثالها .

وكما نحكم بالعقل والجنون والعلم والجهل والحب والبُغض – وما إلى ذلك من غير المحسوس ــ نحكم بها لا لشيء إلا أننا نجد آثارها ظاهرة بينة .

فلنحكم كذلك : أنّ هناك إلّها خالقاً مجرداً عن المادة - إذ نجد الكون يدل عليه بحدوثه ونظامه البارع البديع - فانما الكون محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها وتدل عليه بذواتها وصفاتها وآثارها - .

وكلمة الفصل في وجد ان الإلّه المجرد : أنه لا يُدرك بالإحساس المادي ومحالٌ ان يُدرك به ذاتياً - إذ إنّ إلتماس إدراكه بالحاسّة إلتماسٌ لإدراك الشيء بغير ما يلائمه ويناسبه من وسائل الإدراك - وإنما ذلك كمن يريد الإستماع بالبصر والرؤية بالسمع والذوق باللمس واللمس بالذوق - بل وأبعد منه وأضل سبيلاً !

أجل - وإن لكلّ مدرَكٍ وسيلةً او وسائل خاصة تناسبه - مادّية او مجردة - والإلّه المجرد محالٌ أن يُدرك بالإحساس المادي -ومحالٌ أن يُحاطَ به علماً بالعقول - فإنه مجردٌ غير محدود - فكيف يُدرَك ذاتياًبالوسائل المادية او العقلية المحدودة- وإنّما السبيل الوحيد إلى الإذعان بوجوده - الآثار التي تدل عليه - والكون بأجمعه : بكمّه وكيفه ونظمه و .. أثرُه وآيتهُ القاطعة الدالة عليه .

وفي كلّ شيء له آية تدّل على انه خالق : عالم ، قادر ، حيّ ، مختار و ...

ثم إن الإحساس المادي ايضاً بحاجة ضرورية في نطاقه الواسع الى تصديق العقل والقوة المدركة غير الظاهرة ولولاها لبطل الاحساس او تصديقه -

وعلى أيّة حال فمن المحال لمن أخلد الى الزوايا المادية أن يجد سبيلاً إلى وجدان الله تعالى - فانه بالمنظر الأعلى : أن يطمئن العقل بوجوده فحسب - لا الأدنى : ان يُنظر اليه من الزاوية المادية من زوايا الإدراك - قاعدة مطردة في كل مدرَك : أنه لا يُدرك إلاّ بما يناسبه من وسائل الإدراك .

المادي : إننا لا نعقل - ولن نعقل - وجوداً وراء المادة - ولا نعتبر وراءها إلا وراءَ الوجود - كالفور مول التالي :

الوجود = المادة ، والمادة = الوجود ؟

الإلهي : هذه دعوى تكرّرونها ليل نهار طوال الحوار وتعتبرونها حقيقة او برهاناً لامردّ له - ولكننا نسألكم :

هل إنّ كلمة الوجود تعني المادة : لغويّاً ؟ ام فلسفياً ؟ لا نجد أيّاً منهما في كتابات اللغة والفلسفة اطلاقاً - فما هكذا تفسير لكلمة الوجود إلا نتيجة المزاعم المادية والفلسفة الإلحادية - المنكرة لما وراء المادة - إذاً لم تكن هذه إلاّ دعوى دون برهان - وانما زادُنا الأوَّل والأخير في هذه المحاورات : البراهين القاطعة التي لا مردّ لها - دون الدعاوي المتكررة التي لا تملك من مقومات الفلسفات ما يُثبتها - .

فانتم تدعون : أن ليس الوجود إلا المادة - ونحن ندعي استحالة وجود المادة دون أن يكون هناك إلهٌ وراء المادة - فهو الأصل في حدوث الكون - لولاه لاستحال وجود الكون اطلاقاً ولكان عدماً صرفاً .

●

محور الحوار بين الالهي والمادي:
أن هناك وجوداً

فسوف نبرهن : أن فكرة أصالة المـــادة وأزليتها – أنها كالفكرة السوفسطائية – سواء – وأن كافة البراهين القاطعة في مختلف الفلسفات قائمة في وجه أزلية المـــادة المزعومة ومثبتة لحدوثها – فهي تحيل أيّ كيان مادي – دون أن يكون هناك إله مجرد ازلي – كالفورمول التالي :

الوجود الحادث = الآله الازلي + المادة و، العدم = الاله الازلي – المادة [1]

فاذ لا إلّه وراء المادة فلا مادة إطلاقاً – رغم أنكم الماديين تعتبرون المادة : كانها تستوعب كافة مجالات الكون ! دون أن تمسح لسواها بالوجود ! ...

أصالة المادة – او – أصالة المجرد عن المادة – او ؟ ...

المادي : اذاً فبيننا وبينكم حجابٌ ضخمٌ واسعٌ وبونٌ شاسعٌ – إذ لا نشترك في تصديق اصل ما نبني عليه حوارنا – فكيف الحوار ؟ ! ..

إن هناك كوناً ما ! × × . .

الإلهي : ليس الحوار بيننا وبينكم بأبعد ممـــا كان بيننا جميعاً وبين السوفسطائيين الذين ينكرون الأصلين اطلاقاً – إذ لا يصدقون ، أن هناك كوناً

---

١ – نعني بهذا الشكل ان المادة المتحلله عن الله عدم والمادة بالله موجود حادث .

وحقيقة مّا مهما كان مادة او سواها !

ولكننا مهما اختلفنا في : « ايٌّ منهما هو الاصل او هو الحقيقة » فاننا نشترك في « أن هناك حقيقة مّا » وهذاهو ملتقى طريقنا الى الله - بداية الحوار - ثم المفرق : نجده في انحصار الوجود والأصالة في المادة - كما تقولون - او أنه يعمّها والمجرد عن المادة - وأنه الاصيل : كما نقول .

فلو أن الوجود أنحصر في المادة وكانت ازلية ثبت قولكم .

ولو أن المادة كانت حادثة - مهما كانت - ثبت قولنا « فإنا أو اياكم لعلى هدىً او في ضلال مبين » .

●

الحادث والازلي

- استحالة التناقض
- تناقضات التطور
- شروط التناقض
- البرزخ بين الازلية والحدوث !
- مناقضة الحدوث الذاتي والازلية الزمانية !

المادي : ما هي الخطوات التي تخطونها – في هذا الحوار – من الكون الى خالقه ؟

الإلهي : خطوات جبارة نتمشى بها ونعيش معها بكافة الطاقات العقلية والعلوم التجريبية الحسية . والفطرية – تضم :

١ – ان هناك وجوداً .

٢ – ان في الوجود أزليةً مّا .

٣ – ان المادة حادثه مهما كانت .

... فنستحصل من هذه الخطوات بُغيتنا ونستأصل فكرة أُصالة المادة ونصل الى هدفنا : أن المادة بحاجة ماسة في كينونتها – الى خالق ازلي مجرد عنها – وراءها !

المادي : هذا اول نقضٍ لما بنيتم عليه الحوار : « رفض الإصلاحات المعقّدة » ! فما هي الازلية ؟ وما هو الحدوث ؟ ! ...

الالهي : نحن على ما بدأنا به – وما هاتان الكلمتان إلاّ لغتين تعنيان ما وُضع لهما من معنى كسواهما من اللغات

معنى الأزلية والحدوث :

فالأزلية تعني اللاّ اوّلية للكائن : أنه لا يسبقه عدم اطلاقاً – كلما رجعنا القهقري وجدناه كما هو الآن ونجده الى غير البداية – فلا اول له ولا آخر – لا زمنياً ولا دهرياً – لا ذاتياً ولا عرضياً – ولا أيّة بداية او نهاية .

وكما سوف تعلمون: أن الأزلية : اللاّ اولية – تستلزم الأبدية : اللاّ نهائية –

دون عكس ـ إذ إن الابدية تتصور عرضية غيرية دون الأزلية ـ والموجود الأزلي الابدي يسمى : سرمدياً، والحدوث يباين الأزلية كلياً ـ إذ إن الحادث ماله بداية ـ مهما تطاول عمره .

إذاً فبين الأزلة والحدوث تباين التناقض ـ إذ يحيل العقل اجتماعهما في كائن شخصي واحد ـ حيث المدار فيهمادائر بين النفي والاثبات : نفى الإبتداء وإثباته .

هذا : فهل تريدون أن نتحلل ـ حتى وعن استخدام اللغات التي تعني ما نعنيه ونحتاج اليه في حوارنا الفلسفي ـ فانا نرفض الإصلاحات الجامدة المعقدة التي لا تعني عناية علمية نحتاج اليها في بحوثنا حول : هل إن هناك إلها ؟ . دون أن نرفض كافة الفلسفات وإن كانت متحللة عن الصلاحات المعقدة .

مشاكل ثلاث : ١ ـ التجرد ٢ ـ الازلية ٣ ـ الحدوث

المادي : إننا ـ بصفتنا من عالم المادة ـ لا نجد في متناول إحساسنا إلا المادة ـ فلتكن هي محور الحوار طوال بحوثنا ـ واما « التجرد ـ الحدوث ـ الأزلية » فهي معاني ـ لو تحمل حقائق ـ فانها بعيدة عن أفهامنا ومدى ادراكنا، إذليست بالتي نجدها في العلوم التجريبية ولا في معاهد الفيزياء والكيمياء ولا من المكبريات المتجهزة بالعدسيات القوية ـ ولا !..

الإلهي : وإننا الآن ـ في بداية الحوار ـ لا نعني البحث عن المجرد وراء المادة ـ قبل ان نسبر أغوار المادة ـ فسوف نسبرها فنستحصل منها فكرة الإله المجرد ـ ظاهرة مبرهنة ـ ولكي تعلموا : أن المادة هي التي تصرخ بصرخات مدوية أن هناك إلهاً وراءها ـ مجرداً عنها .

الأزلية والحدوث : الأزلي والحادث :

ولكن المادة هل تستطيع ان تحمل طرفي النقيض ـ اثباتاً ونفياً: إنها ازلية

وحادثة - أو : لا أزلية ولا حادثة؟ إذ إن هاتين اللفظتين لاتحملان إلاحقيقتين متناقضتين دائرتين بين النفي والاثبات !

مبدأ التناقض :

فهل تسمحون لاحدٍ ان يقول : المادة موجودة ومعدومة - لا موجودة ولا معدومة لحالة واحدة ؟



شبهات حول التناقض

اجتماع وارتفاع النقيضين ممكن ام محال ؟

المادي : تقدُّم العلم اوضح لنا الكثير مما كان خفيا وفسح لنا المجال : ان نحكم بامكان البعض مما كان محالاً طوال العصور الغابرة المتاخرة في العلم - ولعله بامكانه ان يحلّ عُقَد الإستحالة عن كلّ المحالات او جلّها ومنها اجتماع وارتفاع النقيضين .

صحيحٌ أن عقولنا -حتى الآن- تحكم باستحالة النقيضين: اجتماعاً وارتفاعاً - وتعتبر هذه الاستحالة من أبده القضايا البديهية .

إلا أنه يبقى هنا احتمالٌ ينفصم به عرى هكذا حكم - وهو : لو كانت لنا عقولٌ تختلف عن عقولنا الحالية في جذور الإدراك - اوأن لغيرنا عقولاً كذلك - أو أن العقولَ كانت أكمل مما هي الآن - فلعلها كانت تحكم بامكان ما نُحيله الآن - وبامكان اجتماع وارتفاع النقيضين !

فالحقيقة ونفس الامر لا تختص بنا لكي تختص بيناتها باحكامنا - لا سوانا - إنها لكل كائن عاقل ! إذاً فأحكامنا الناتجة عن عقولنا الحالية ليست هي الاحكام الحقة الصادقة - لا سواها - حتى ينحصر الحق فيها - فأحرى بنا أن نشك في استحالة كافة المحالات ، حتى النقيضين : اجتماعاً وارتفاعاً ، بدل ان نحكم حكماً باتاً بالإمتناع !

الالهي : اول ما يرد عليكم : أن العقل يعيش مع الحكم بامتناع النقيضين اجتماعاً وارتفاعاً ، عيشة جذرية ذاتية حَيَوية ، والفروض التي تتنافى وهكذا

حكم ليست بالتي تستطيع ان تُخل بقاطعيته في نظر العقل .

فلنفرض أن هكذا عقول وعقلاء موجودون ، وأن لهم حججاً على دعوى الإمكان رغم ما نُحيله الآن، فعقولنا هي التي تُزيّف حججها وأحكامها عندئذٍ كما تزيفها الآن .

وكما أننا لا نصدقكم ، أنتم الماديين ، في دعوى ازلية المادة ، رغم براهينكم المزعومة ، ولا تنفصم بحكمكم وبرهانكم ! عُرى حكمنا القاطع العقلي باستحالة أزلية المادة ، وضرورة وجود المجرد وراء المادة ، الخالق لها .

كما اننا لا نصدقكم ولا نحتمل الصدق في دعواكم هذه ، كذلك لن نصدق أو نحتمل الصدق في الحكم بالامكان ، من أي حاكم كان ومع أي برهان ، إذ نقطع بالامتناع قطعاً ضرورياً لا مرية فيه ، وحكماً باتاً لا نحتمل خلافه .

هذا ، لو كان لهكذا عقل وهكذا حكمٍ واقع ، فكيف بالمفروض وجوده والمحتمل حكمه !

ثانياً : إننا لا نحكم الآن، وليس لنا ان نحكم، إلا حسب عقولنا الموجودة المحققة الآن ، لا عقول من سوانا ، ولا المفروضة لنا ، فإنما الحاكم بتصديق حكم الغير أو غير هذا الحكم أو احتماله ، انما الحاكم هنا وهناك هي عقولنا الحالية ، لا سواها ، وهي تُحيل اجتماع وارتفاع النقيضين ، وتُزيّف كل حكمٍ يتنافى واياه ، فلا تحكم عقولنا، على أية حال ، إلا بما ترى، لا ما تراه غيرها من عقول، ولا المفروض وجودها .

فاحتمال الامكان في اجتماع وارتفاع النقيضين ، لا تنتجه تلكم الفروض ، إذ الحكم به ليس يصدر الآن إلا من عقولنا ، ولكنها تُحيله ولا تحتمله اطلاقاً!

ثالثاً : لا يخلو امر هذه العقول المفروضة ، لنا او لسوانا ، مِن : أنها تدرك معنى التناقض فتجوّزه ، ام لا تدركه ؟

فإن هي لم تدركه ـ فحكمها بالامكان غلط لا يُصغى إليه ـ أحكماً دون إدراك : نصدّقه أو نحتمل صدقه !؟.

وإن هي تدرك معنى التناقض ـ كما ندركه ـ فلتحكم كما نحكم – وإلاّ زيّفنا موقفها وكذبناها في حكمها بالامكان أو احتمال الامكان !

رابعاً : لا يخلو أمر هذه العقول المفروضة من : أنها كعقولنا في جذور الادراك وأُسّسِه أو تُضادها ؟

فإن هي تماثلها فلتحكم بالامتناع كما نحكم – وإلا كانت خاطئة أو ناقصة غالطة !

وإن هي تضاد عقولنا في جذور الإدراك – إذاً فهي ليست بعقول عندنا – وإن سُمّيت بها ! أو أنها عقولٌ : علينا أن نضادّها في احكامنا – قضية التضاد في جذور الادراك في هذا البين .

خامساً : على فرض مماثلتها مع عقولنا في جذور الإدراك ومعدّاته فلا تخلو حالها من ثلاث :

١ – هي بمستوى عقولنا – فلتحكم بالامتناع كما نحكم .

٢ – هي أنقص من عقولنا – فلنرفض أحكامها – ولاسيما المناقضة لأحكامنا ، ومن أظهرها وأتقنها حكمنا بامتناع النقيضين ، لا سيما وأن المجانين وحتى أدنى حشرة لا تحكم ولا تحتمل الامكان ، رغم الأخطاء الكثيرة منهم ومنها !

٣ – هي أكمل من عقولنا ! وإذاً فكيف تحكم بما فيه هدم كافة أحكامها ، وعامة العلوم والادراكات التصديقية لها ، سلبية وإيجابية ؟!

إذ إن الحكم في أيّة قضية نظرية أو بديهية ، إنما يبتني على هاتين القضيتين الضروريتين : «استحالة اجتماع النقيضين وارتفاعهما» فإنها من أبدهها وأوضحها ، وهما امّ القضايا البديهية والنظرية .

إذاً فهكذا عقول ليست عقولاً ، لا كاملة ولا ناقصة ! ولا جنوناً ! ولا أيّة مرتبة ضئيلة من مراتب الادراك من أيّة حشرة تافهة ! إذ لا تنتظم الحياة لأيّ ذي حياة إلاّ على ضوء نظام الادراكات ، وهي لا تستقيم ولا تنتظم إلاّ على ضوء القاطعية في هاتين القضيتين الضروريتين .

فهل يُعتبر سقوط الادراك والحكم العقلي : كمالاً عقلياً ؟ رغم انه يتنافى وأصل العقل وحكم العقل !

سادساً : هل ترى أحداً من إخوانك الماديين ينقض حكمه في كافة العلوم التجريبية والعقلية ، ويذرها شذر مذر ، لا لشيء إلاّ : لعلّ هناك عقولاً وأحاسيس تجد خلاف ما نجده الآن ، عقلياً وحسياً ؟

اذاً فلينقضوا حكمهم باحتمال جواز الإمكان : اذ لعلّهم اخطأوا فيه ، وأن هناك من يزيّف حكمهم ـ لا لعله فحسب ـ بل ان كافة العقلاء : العقليين والحسيين ، يحكمون بالامتناع حكماً باتّاً ـ اذاً فاحرى بهم ان ينقضوا احتمالهم المفروض ايضاً .

●

تناقضات التطور

المادي : إن السلب القائم في وجه الايجاب هما سائدان في المادة ويسمان كافه مجالاتها :

يقول ستالين « إن نقطة الابتداء في الديالكتيك ـ خلافاً للميتافيزية : هي وجهة النظر القائمة على أن كل اشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية ـ لان لهـــا جميعاً جانباً سلبياً وجانباً ايجابياً ـ ماضياً وحاضراً ـ وفيها جميعاً عناصر تضمحلُ او تتطور »[1].

ويقول « ما وتسى تونغ » : إنّ قانون التناقض في الأشياء ـ اي : قانون وحدة الاضداد هو القانون الاساسي الاهمّ في الديالكتيك المادي » .

ويقول « لينين » : « الديالكتيك بمعناه الدقيق هو دراسة التناقض في صميم جوهر الاشياء »[2] .

ويقول كيدروف : « نفهم بكلمة المنطق الشكلي المنطق الذي يرتكز فقط على قوانين الفكر الاربعة : الهوية والتناقض والعكس والبرهان ـ والذي يقف عند هذا الحد .

اما المنطق الديالكتيكى فنحن نعتبر أنه علم الفكر الذي يرتكز على الطريقة الماركسية المميّزة بهذه الخطوط الاساسية الاربعة : الاقرار بالترابط العام ـ وبحركة التطور ـ وبقفـَزات التطور ـ وبتناقضات التطور »[3].

---

١ ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٢

٢ ـ حول التناقض ص ٤

٣ ـ المنطق الشكلي الديالكتيكي ص ٩

اذاً فجمع المتناقضين اي النفي والاثبات يعمّ كافة مجالات الكون ـ فإمكانية الجمع بينهما سائدة في الكون اطلاقاً .

الالهي : ان بين التناقض المحال وهذا الذي تسمونه تناقضاً ـ وليس تناقضاً ولا من المحال بل هو اساس المادة المبتنية على جهتي النفي والاثبات في حاق ذاتها ـ إنّ بين هذين التناقضين بوناً شاسعاً ـ كما بين المحال والضروري الوجود ـ فالتناقض السائد في صميم جوهر الاشياء المادية مما لا بد منه في كيانها وجوهر ذاتها ـ إذ إنّ المادة ـ مهما كانت ـ إنها مركبة من شحنتي الموجبة والسالبة ـ في ادق اجزائها التي تحمل جوهرية المادة ـ وهذا ليس تناقضاً ولا محالاً .

وانما التناقض المحال ان يكون مورد السلب والايجاب شيئاً واحداً ـ فالشحنة السالبة محالٌ ان تحمل الايجاب بنفس ما تحمل السلب ـ وكذلك العكس بالنسبة للشحنة الموجبة .

واخيراً اذا تساءَلنا هؤلاء الذين يتاكدون من التناقض في صميم جوهر الاشياء: أصحيح ان يقال : وكذلك عدم التناقض سائد في صميم جوهر الاشياء ـ بالمعنى الذي هو سائد فيها ؟ فهل إنهم يصدقون الجمع بين هاتين القضيتين ـ ام يتأكدون من الناحية الايجابية ـ وينكرون الناحية السلبية ـ كما ويقول ستالين : « إن نقطة الإبتداء في الديالكتيك ـ خلافاً للميتافيزية ـ هي وجهة النظر القائمة على أن الاشياء تحوي تناقضات داخلية ... » فانه يتأكد أولاً من نفي التناقض «خلافاً للميتافيزية» ثم من ايجابه ـ حسب زعمه : أن الفكرة الميتافيزية تتنافى وهكذا تناقض .

فهؤلاء اعتبروا المقارنة بين شحنتي السلب والايجاب في أجزاء المادة تناقضاً ـ رغم انه من الضروري ، ثم قنطروها ـ زعم تناقضها لاثبات عدم استحالة التناقض المحال ايضاً ! رغم انّ في التناقض المحال شروطاً تلحق .

واقع التناقض ـ المزعوم :

المادي : اجل ولكنّه ماذا نصنع بما نجد من : بجمع المتناقضين ومنفاهما ـ أحياناً ـ نجد الجمع بينهما في الليل والنهار وهما متباينان متناقضان ـ نجدهما موجودين لوقت واحد ـ بل وفي كافة الساعات الارضية ـ حسب اختلاف الآفاق ـ نتيجةً لما اوضحه العلم من كروية الارض وحـــركتها الوضعية والانتقالية !

ونفي النقيضين نجده في المعدوم فانه يفقد وصفي الازلية والحدوث ـ كليهما .

اذاً : فما علينا ان نحتمل حمل الكون لكلا الازلية والحدوث ، او فقده لكليهما ؟ !

شروط التناقض ، المستحيل :

الالهي : الليل والنهار في افقين ، والازلية والحدوث في المعدوم ، إنهما ليسا متناقضين ، انما التناقض هنا بين الازلية والحدوث في موجود واحد : شخصيٍّ او كليٍّ ، وهناك بين الليل والنهار في افق واحد لوقت واحد .

وبيان فصلٍ : إن في تحقق التناقض شروطاً تسعة ، كلّها تدور حول وحدة المصداق الذي تُحيل فيه النقيضين : اجتماعاً وارتفاعاً .

الوحدات التسعة في التناقض :

١ ـ وحدة الموضوع　　٢ ـ المحمول　　٣ ـ المكان
٤ ـ الزمان　　٥ ـ الشرط　　٦ ـ الاضافة
٧ ـ الجزء والكل　　٨ ـ القوة والفعلية　　٩ ـ الحمل .

فاوّل الشروط ان يكون مجمع النقيضين ومنفاهما موضوعاً لاحدهما

فحسب ، حق يستحيل قبول النقيض الآخر او نفيهما معاً ، والعدم ليس موضوعاً لواحدٍ من وصفي الازلية والحدوث حتى يُعتبر جمعهما فيه او انتفائهما عنه محالاً ، اذ إنهما من اوصاف الموجود ، فالمعدوم ليس موضوعاً للازلية : حق يمتنع عن الحدوث ، ولا موضوعاً للحدوث حق يمتنع عن الازلية : امتناعَ الجمع نفياً بل يمتنع ان يتصف المعدوم المطلق بشيء من الوصفين لنفس امتناع اجتماع النقيضين ، اذ إنّ العدم والوجود والمعدوم والموجود متناقضان ، فكيف يمكن الجمع بين العدم وبين شيءٍ من اوصاف الوجـــود ، ومنها الازلية والحدوث؟ ! فكما ان العدم والوجود متناقضان ، كذلك احدهما مع اوصاف الآخر ، واوصاف كلٍّ مع اوصاف الآخر .

فالمعدوم المطلق : لا ازلي ولا حادث : لانه معدوم ، فلا يتصف بشيء من الوصفين فضلاً عنهما معاً فان فيه تناقضين :

١- تناقض وصفي الموجود للمعدوم ٢- تناقض هذين الوصفين اجتماعاً- مهما كان.

واما الليل والنهار في فرض اختلاف الافق ، فهما بفقدان شرط وحدة المكان والافق ، وأمّا هما في افق وزمان واحد فمستحيلان دون ريب .

والازلية والحدوث من اوصاف الكائن ، فانه لا يخلو من أحدهما : فالكائن إمّا ان له بدايةً فهو حادث « لم يكن ثم كان » او ليست له بداية اطلاقاً : لا زمنياً ولا دهريّاً ولا ... فهو ازليٌّ ، اذاً فبين الازلية والحدوث في الكائن بينونة الايجاب والسلب ، وكلّ ما كان امره دائراً بين الايجاب والسلب مع الحفاظ على الوحدات التسعة ـ استحال جمعهما فيه معاً او نفيهما معاً عن موضوع واحد لا يتحمل إلاّ احدهما .

اذاً فمن المحال اتصاف كائنٍ مّا بكلا الازلية والحدوث او خلوّه عن كليهما.

أسألك يا صاحبي ! إذا قيل لك: أنت موجود ومعدوم لحالة واحدة ، او : أنت أنت وغيرك لوقت واحد ، فهل تصدّق هكذا حكم ؟

المادي : كلا ، فانه مستحيل .

الالهي : اجل : فالمحال محال أينما حل ، وليست الاستحالةهنا وهناك إلا في الجمع بين السلب والايجاب لموضوع واحد يضم كافة الوحدات التسعة .

اذاً فمحال أن يتصف الكون باجمعه بكلا الوصفين المتناقضين او يخلو عن كليهما .

فإمّا أنّه ازلي كله ، او حادث كلّه ، او أن بعضه ازلي والبعض الآخر حادث صدر منه .

●

البرزخ بين الازلية والحدوث!

المادي : لعل الكون بين الازلية والحدوث ، لا يجدهما تماماً ولا يفقدهما تماماً ، فهو ازلي من جهة وحادث من جهة أُخرى ، والحاجة الى الخالق ليست إلا للحادث من كافة الجهات .

الحدوث الذاتي والازلية الزمانية ؟ ! . . .

ولو أن هكذا جمع بين الازلية والحدوث كان محالاً وجمعاً بين المتناقضين ، فمالِ جمٍّ غفير من اخوانكم الفلاسفة الالهيين شكّلوا برزخاً بينهما في اصلهم الفلسفي : « الكون ازلي الزمان وحادث الذات » ؟ !

فانهم اعتبروا الكون : أنّه ازليٌّ من حيث الزمان : أنّه كان وكان دون ابتداء ، فلا يقال له : لم يكن ثم كان !

وأنّه حادث من حيث الكينونة والذات ، اي : انه لا يملك ذاته بذاته ، بل هو متعلق الذات بالله وهذا معنى إمكانه الفقريّ !

فتلك إذا قسمة ضيزى : ان يُعتبر برزخهم ممكناً وحقيقةً ثابتة في الفلسفة الالهية ، وبرزخنا باطلاً متناقضاً وخرافة إلحادية !

مناقضة الازلية الزمانية والحدوث الذاتي :

الالهي : اننا لسنا ممن يرضى بهذه القسمة الضيزى ، اذ ننظر الى برزخهم من زاويتين :

ان الكون متعلق الذات وفقيرها الى الله تعالى ، إذعاناً أنه إله الكون ، وهذا كما نعتنقه نحن الإلهيين الحقيقيين .

٢ – ان الكون ازليّ الزمان ، ونحن نرفضه ونزّيفه رفض الجمع بين المتناقضين :

فإن حاجة الكائن الى المكوّن الازلي ، ليست إلاّ لامكانه وحدوثه : أنه سبقه العدم ثم وُجِدَ ، فضرورة حاجة الحادث الى المحدِث تضطرُّنا الى الاذعان بموجود ازليّ اوجده .

وأما الكائن الذي لم يسبقه العدم اطلاقاً ، بل كان وكان كما أن الله كان ، فهذا الكائن مع الله اذاً في الأزلية سيّان ـ فلافقر ولاتعلق ذاتياً ولا عرضياً له بالله !

فكما ان الله ليس يحتاج إلى من احدثه ـ إذ إنه ليس حادثاً بعد العدم ، كذلك الكون : المفروض أزليته الزمانية ، ليس بحاجة إلى الخالق ، حيث الذات ، على الفرض ، غنيّة في الكينونة عما يكوّنها !

فالازلية اللّا أولية هي الغنى المطلق ، دون ان تُتصور فيها الحاجة إلى سواها ، اطلاقاً .

كما وان الحدوث هو الفقر اطلاقاً ، دون ان يُتصور فيه الغنى .

ففرض الأزلية الزمانية في الكون يجعله غنيّ الذات عن سواه ، فأين الحاجة وفقر الذات إلى سواه ؟!..

إذاً فالجمع بين ازلية الكون : الزمانية أو غيرها ، وبين تعلقه الذاتي بالله ، هذا جمعٌ بين الغنى الناتج عن الازلية والفقر الناتج عن الحدوث، فهو إذاً جمعٌ بين المتباينين المتناقضين : الازلية والحدوث !

وقيد الازلية بالزمانية لا يخرجها عن الازلية والغنى المطلقة، بل إنه تناقض على تناقض :

١ ـ مناقضة الازلية والزمان ، إذ إن الزمان محدود حيثما كان ، والازلية هي اللا محدودية .

٢ ـ مناقضة الازلية والحدوث !!

إذاًفليست قسمتنا قسمةً ضيزى، إذ إننا نُحيل الجمع بين الازلية والحدوث، مهما كان القائل به فيلسوفاً الهياً ! امادياً ملحداً، لان القاعدة العقلية لا يُستثنى عنها ومحالٌ أن يُستثنى ، ولا سيما « استحالة اجتماع وارتفاع النقيضين » !

فالنقيضان لا برزخ بينهما اطلاقاً ، إذ هما دائران بين السلب والإيجاب وليست بينهما منزلة لكي تكون برزخاً بينهما .

وصحيحٌ أن يقال: إن برزخكم هذا لايحمل أيّ معنى إلا الجمع بين النقيضين: الازلية والحدوث ، وانما الاختلاف في التسمية ليس إلا ! كأن يُسمّى النقيضان متماثلين بُغيةَ الحكم بامكان اجتماعها !

وكما أنه هُراءٌ أن يقال : الكون حادث زمنيٌ وأزليُّ الذات، كذلك القول: أنه يجمع بين الازلية والحدوث بكافة مجالاته ، فأنتم ، أو أيُّ مفكر في بيئة الكون : الفلسفية ، لامناص لكم عن تصديق واحد من الفروض التالية :

١ ـ ان الكون كله حادث : لم يكن ثم وُجِد ؟!

٢ ـ ان الكون كله ازلي : لا اوّل له ؟!

٣ ـ ان الكون بعضه حادث وبعضه ازلي احدثه .

فهذا الاخير ما نرومه نحن طوال حوارنا ، فماذا تفكرون ؟

شكوك حول حدوث العالم
والاجابة عنها :

- من الفلسفة العقلية والطبيعية .
- كافة العلوم التجريبية تحيل ازلية المادة .
- المناقضة سائدة بين الازلية والحدوث ولا برزخ بينهما .
- شبهة اللا نهاية العددية والاجابة عنها .
- نظرية الوجود ، مَن خلَق الله ؟!

كيف الحدوث ؟ قانون لا وازية :

المادي : إننا قد نُحيل الحدوث ونعتبره وهماً تافهاً لا يملك أيَّ مقوم من مقومات الفلسفة التجريبية ! والقانون العلمي لـ « لافوازية LAWAZIEH » يؤكّد :

« ان المادة لا تحدث من عدم كما انها لا تنعدم »

إذاً فلا سبيل إلا إلى الاذعان بازلية الكون اطلاقاً، دون ان نحتمل الحدوث، إذ نُحيله ! واذ ذاك فلا حاجة إلى إله يخلق الكون ، إذ ليس مخلوقاً حتى نفكر في « من خلقه » ؟

لا خالق ولا مخلوق !..

فلقد كان لكم ان تبرهنوا بالمخلوق على وجود الخالق وبالمنفطر على وجود الفاطر: اذا كان الكون حادثاً ، ولكنه ـ على فرض الازلية ـ لا خالق ولا مخلوق، اذاً ففي الله شك ! بل نعلم انه ليس موجوداً: حيث الكون الازلي ليس بحاجة الى الخالق، وكما أنّ الخالق ـ مهما كان ـ هو لا يحتاج الى خالق ، لازليته .

العلم والعلماء مع حدوث المادة واستحالة ازليتها !

الالهي : العلوم التجريبية والتحليلات العقلية المبتنية على العلوم تُحيل ازلية المادة ، وقانون لافوازية لا يَمتُّ بصلة بالبيئة الفلسفية للكون: ازليةً وحدوثاً ، وعلى فرضه فحوارنا لا يدور مدار ما قيل او يقال دون برهان ، فانما نحن ابناء الدليل ، نقتفي أثره حيث يقودنا .

واذ انتم تُحيلون حدوث الكون حسب قانون لافوازية ، دون ان تُحيلوا ازليته حسب العلوم التجريبية والتحليلات القاطعة العقلية ، فلا بد لكم من برهان قاطع لا مردّ له: أن قانون لافوازية يقصد الجهة الفلسفية في : « ان المادة

لا تفنى ولا تُستحدث» ثم أن تبرهنوا علمياً أو عقلياً على استحالة حدوث المادة، أو الكون، أو على امكان ازليته، حال انكم ما اتيتم بشيء طوال كلامكم الا دعوى الاستحالة استناداً الى قانون لافوازية، دون ايّ برهان يملك ايّ مقوّم من مقومات الفلسفات او العلوم الاخرى ! اذاً فنزيف دعواكم كالتالي :

اولاً : «أن المادة لا تُستحدث» لا يعني لاوازية بهـذا القانون الا البيئة الفيزيائية في تحولات المادة، لا الفلسفية التي تعني حدوثها أوازليتها، اذ إنّ لافوازية عالم فيزيائي، لايبحث ـ وليس له ان يبحث ـ عن المادة: الا من الزاوية الفيزيائية لا الفلسفية، فهو يعني بقانونه : ان تلكم التقلبات والتغيرات الماُهويّة في المادة لا تحكم على ذات المادة بالحدوث بعد الزوال ولا الزوال بعد الحدوث، وانما الحادث في كل حادثة وتقلّب ماديّ هو الصورة الطارئة على المادة، والمادة في اصل ذاتها متحفظة بماهيتها المادية، دون الصور الطارئة .

فإذاحدث مولكول «جزَيء» من الماء من التركيب: H_2O ، فهنا لم ينعدم الذرتان H و O ثم يحدث مولكول الماء، فان «المادة لا تفنى ولا تُستحدث» وانما الفاني والحادث هنا وهناك: الصور الطارئة على المادة حسب التقلبات الكيميائية والفيزيائية فحسب، وبصيغة أخرى : ان العنصر المادي يتحول من طبيعة إلى أخرى وينقلب من تركيب إلى آخر، وتتغير بذلك خواصها العنصرية وصورها الظاهرة، إلا انه لا يفقد خواصه الذرية الاولى في حال من الاحوال، ولا ينقلب من الوجود الى العدم ثم من هذا العدم إلى الوجود : عوداً للمعدوم إلى الوجود، هذا رغم اولئك الذين كانوا يزعمون ويفكرون في فناء المـادة عبر التفاعلات الكيمياوية وحدوثها بعد الفناء كذلك .

فبالرغم منهم يقول لا فوازية «ان المادة لاتحدث من عدم كانها لا تنعدم»[1]

---

(١) كان العلماء قبل (لافوازية) يعتقدون في : ان التفاعلات الكيمياوية تودي الى انعدام او حدوث بعض الاجزاء الماديه، فالفحم عندما يحترق ينعدم جزء من المادة وكذلك الحديد أو =

ثانياً : لو أن لافوازية يعني الجهة الفلسفية في قانونه ، اذاً فهو ممن يدعي ازلية المادة ، فنطالبه بالدليل كمن سواه ممن ينحو منحاه دون ان نقتفي أثره على العمياء ، فنصدقه فنُحيل حدوث المادة ، لا لشيء إلا لان لافوازية يقوله !...

ثالثاً : ان العلم يُحيل ازلية المادة ، رغم اولئك الذين يزعمونها ازلية ، دون ان يبرهنوا لدعواهم بأي برهان !

●

= الزئبق عندما يتأكسد تحدث مادة جديدة فاثبت لافوازية لاول مرة: ان التفاعلات الكيمياوية لا تحدث المادة ولا تعدمها ، فقد حلل اكسيد الزئبق الى عنصرين : الزئبق والاوكسجين وقدر كلا منهما فراى ان وزن المجموع يساوي وزن الاوكسيد قبل الانحلال .

العلوم التجريبية تحيل ازلية المادة

علم الكيمياء يحيل ازلية المادة :

جون كليفلاند كوثران[1] JOHN CLELAND COTHRAN

« ... وتدلنا الكيمياء على ان بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فان المادة ليست ابدية ، ومعنى ذلك ايضاً انها ليست ازلية ، اذ إن لها بداية[2] .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم : على ان بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم ان تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد .

وعلى ذلك ، فان هذا العالم المادي لا بد ان يكون مخلوقاً ، وهو منذ ان خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محدّدة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان !

فاذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن ان يخلق نفسه[3] او يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بدّ ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي... »

---

(١) دكتوراه من جامعة كورنل ، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث ، اخصائي في تحضير اللازول وفي تنقية التنجستين .

(٢) ولان كل ما له نهايه فله بداية لا محالة حيث النهايه علامة المحدودية والازلي اللابدائي لا حد له .

(٣) بل ان ذلك محال يستدعي تقدم الشيء على نفسه ، لو اريد خلق الذات ، الا ان يراد منه خلق التطورات : ان المادة الاصيلة هي الخالقة لتطوراتها ، وهذا ايضاً خارج عن طوق المادة بنفسها !

علم الفيزياء يحيل ازلية المادة

ادوارد لوثر كيسيل [1] EDWAARD LUTHER KESSEL

« يرى البعض ان الاعتقاد في ازلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد في وجود إله ازلي . ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية [2] يثبت خطأ هذا الرأي .

فالعلوم تثبت بكل وضوح : ان هذا الكون لا يمكن ان يكون ازليًا ، فهناك انتقالُ حراريٌ مستمر من الأجسام الحارة الى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتدّ من الأجسام الباردة الى الأجسام الحارة .

ومعني ذلك : أن الكون يتّجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، وينضب فيها معين الطاقة ، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية ، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون .

ولما كانت الحياة ــ ولاتزال ــ قائمة [3] ولاتزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير في طريقها . فاننا نستطيع أن نستنتج : ان هذا الكون لايمكن أن يكون أزليًا وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد ، وتوقف كل نشاط في الوجود .

وهكذا توصلت العلوم ــ دون قصد ــ الى : ان لهذا الكون بداية ، وهي

---

١ ـ دكتوراه من جامعة كاليفورنيا ، وقد سبق الكلام عن مراتبه العلمية .

٢ ـ المعبر عنه بقانون « ترموديناميك » : TERMODVNAMICS ، اي : الحرارة والحركة وقد يسمي بقانون : انتروبي ، وهذا القانون اكتشفه «بولتزمن» BOLTZMANN .

٣ ـ لا يعني بذلك ازلية الحياة بل طول بقائها .

بذلك تثبت وجود الله ، لأن ماله بداية لايمكن أن يكون قد بدء نفسه ، ولابد من مُبديء أو محرّك أوّل أو من خالق هو إلا له (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون) [١] .

ولا يقتصر ما قدمته العلوم على اثبات : أن لهذا الكون بداية ، فقد اثبت فوق ذلك : أنّه بدء دفعة واحدة منذ خمسة بلائين سنة [٢] والواقع : ان الكون لايزال في عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته ، واليوم لابد لمن يؤمنون بنتائج العلوم ان يومنوا بفكرة الخلق أيضاً . وهي فكرة تستشرف على سنن الطبيعة ، لأن هذه السنن انما هي ثمرة الخلق .

ولابد لهم أن يسلّموا بفكرة الخالق الذى وضع قوانين هذا الكون ، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول ان يكون هناك خلق دون خالق : هو الله ! .

وما أن أوجد الله مادة هذا الكون والقوانين التى تخضع لها ، حتى سخّرها جميعاً لاستمرار عملية الخلق عن طريق التطور » .

فرانك ألن [٣] FRANK ALEN

« اذ نحن والماديون نشترك في الاذعان بازلية مّا في الكون ، فإمّا ان ننسب الازلية الى عالم ميت وإما ان ننسبها الى إله حيٍّ يخلق ، وليس هنالك صعوبة

---

١ - بين القوسين استشهاد المؤلف بآية قرانية تناسب الكلام الأخير للمنقول عنه .

٢ - هذا التقدير لو كان بالنسبة لخلق اصل المادة فهو مما لا سبيل اليه وان كان بالنسبة لخلق اطوار المادة واشكالها فكذلك ايضاً وان كان هنا مجال للتقريب احياناً .

٣ - ماجستر ودكتوراه من جامعة كورنل ، استاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٤٤ م اخصائي في ابصار الألوان والبصريات الفسيولوجيه وانتاج الهواء السائل ، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا .

فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر .

ولكن قوانين «الديناميكا الحرارية» تدل على أن مكوّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض : هى الصفر المطلق [1] ويومئذ تنعدم الطاقة ، وتستحيل الحياة [2] ولامناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام الى الصفر المطلق بمضي الوقت .

أما الشمس المحرقة والنجوم المتوهّجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح : على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذاً حدَثٌ من الأحداث ، ومعني ذلك : أنه لابد لأصل الكون من خالق ازلي ليس له بداية ـ عليم محيط بكل شيء ـ قويٌ ليس لقدرته حدود ، ولابد أن يكون هذا الكون من صنعه .

رسل تشارلز آرتست [3] RUSSELL CHARLES ARTIST

« لقد وُضعت نظريات عديدة ، لكي تفسر لنا : كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات ؟ .

فذهب بعض الباحثين الى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمّع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة .

---

١ ـ الصفر المطلق لايعني الصفر المشهور ، بل هو الصفر الذي يفقد كافة درجات الحرارة والحركة الجزئية (المولكولية) والذرية (الاتومية) وما اليهما ، وفي هذه المرحلة تنعدم المادة اطلاقاً فانها تلازم الحركة كينونة فمن هذه الجهة قوانين الديناميكا الحرارية تحكم بفناء المادة ذاتية إلا ان تستمد مما ورائها : من الازلي المجرد اللانهائي .

٢ ـ يعني الحياة المادية وهي وجود المادة .

٣ ـ دكتوراه من جامعة منيسوتا ، وقد سبق تعريفه .

وقد خُيّل الى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدّت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات ، ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلّم به : هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين »

بيترو استونر[1] PETERW. STONER

«انني قبل الشروع في تدريس سفر التكوين ، كنت اعتقد : ان المادة ازلية أبدية ، وإن كنا نستطيع أن نغير شكل المادة ، إلا أن الحالة الثانية ايضا مادة وهكذا كانت عقيدة الكثير من العلماء .

فلما أن اكتشفت الطاقة الذرية ، تبيّن : أن المادة يمكن ان تبدّل الى الطاقة والطاقة الى المادة .

لذلك اصبحت فرضية الخلقة وحدوث العالم من الضروريات الواضحة العلمية .

نجد كثيراً من الأشياء ، حاسب العلم عمر تكوّنها وحدوثها : كالأرض ، والأحجار الشهابية ، والقمر والشمس و.. عمر العالم بأجمعه ، وعلى التقريب نجد عمر الكون زهاء ستة بلائين عاماً » .

●

---

١ ـ الحاصل على درجة M. Sc. ، دكتوراه في الفلسفة من جامعة كاليفرنيا .

علم النجوم يحيل ازلية المادة

ايرفنج وليام نوبلوتشي [1] IRVING WILLIAMK NOBLOCH

« المادية وحدها لا تكفي ..

« علم الفلك يشير الى أن هـذا الكون بداية قديمة ، وان الكون يسير الى نهاية محتومة وليس مما يتفق مع العـلم : أن نعتقد أن هذا الكون أزلي ليس له بداية ، أو أبدي ليس له نهاية ،فالكون قائم على أساس التغيّر ،وفي هذا الرأي يلتقي العلم بالدين» .

دونالد روبرت كار [1] DONALD ROBERT CARR

« يُستخدم في الوقت الحاضر عددٌ من الطرق المختلفة لتقدير عمر الارض بدرجات متفاوته من الدقة ، ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة الى حدّ كبير ، وهي تشير الى : ان الكون قد نشأ منذ نحو خمسة بلائين ، وعلى ذلك فان هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، ولو كان كذلك لمـــا بقيت فيه أي عناصر إشعاعية ، ويتفق هذا الرأي مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية »

هذا شطرُ من شهادات العلم والعلماء على استحالة أزلية المادة ،رغمَ ماتدّعون دون أي برهان ، من استحاله حدوثها ، فما لكم كيف تحكمون ! ؟

---

١ ـ استاذ العلوم الطبيعية ، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة ايووا ، اخصائي الحياة البرية في الولايات المتحدة ، استاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشيجان منذ سنة ١٩٤٥ ، اخصائي في وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري .

١ ـ استاذ الكيمياء الجيولوجية ، حاصل على الدكتوراه من جامعـــة كولومبيا ، مساعد بحوث بجامعة كولومبيا ـ استاذ مساعد بكلية شلتون ، اخصائي في تقدير الاعمار الجيولوجية باستخدام الاشعاعات الطبيعية .

أحادث بلا خالق ؟

المادي : فلنفرض أن الكون كله حادث ، ولكن على الفرض فليكن إلهكم ايضاً حادثاً مخلوقاً ،لو انه من الكون! وإلا ـ كماندعيه ـ فليس كائنا حتى يُبحث عنه ، اذاً فلا يفيدكم فرض حدوث الكون إلا حدوث الإله ، أو عدمه إطلاقاً !

الالهي : وهذا أيضاً محالٌ ـ كأزلية المادة ـ : ان يكون الكون كله حادثاً دون ان يوجد من أحدثه ! « ام خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والارض بل لايوقنون ؟ » ٥٢ : ٣٥

أجل ، ان الحدوث بهذا الشمول الذي لا يُبقي ازلية مّا فيالكون ، هكذا حدوث يحكم باستحالة الكون اطلاقاً ، اذ الحادث ، مهما كان ، انهّبحاجة ماسة الى مُحدث ازليّ ، وإذ لا محدِث فلا حادث ولن يكون ، وهذا يربو على الغلطة السوفسطائية: أنها تُحيلالكون اطلاقاً ،وهى ما كانتتحيلالحقيقة ،بلتنكرها بسند عدم وجدان الحقيقة بنفس ذاتها .

إذاً : فالكون الحادث بين محالٍ ـ ومحتاج الى كائن ازليّ أحدثه ـ أو أنه أحدث نفسه ـ أو الصدفة العشوائية هي التى أحدثته .

ازليٌ وحادث !

المادي : إننا لا نجد لهذه السلسلة الكونية بداية ـ فالكون برزخ بين الازلية والحدوث لابالمعنيالذي سلف،لكي يورد عليه بلزوم اجتماع المتباينين المتناقضين.

بل: إنه أزليٌ من حيثبداية السلسلة ،إذ لا بداية لسلسلة الكائنات،وحادث من حيث الأفراد .

فسلسلة العلل والمعاليل الكونية أزليةٌ ابدية ، كلمّا رجعنا القهقرى ، الى

سابق وسابقه ... نجد كائنا أحدثه كائنٌ قبله ـ والى ما لابداية له ـ لا أوّلية حقيقية من حيث المجموع، دون أن نجد في هذه السلسلة كائناً مّا : أزليّاً لاأول له شخصيّا ، حتى تربط به سلسلة الكون ، لا سواه .

فرغم ضرورة الحاجة الماسّة في كل حادث الى محدث مّا ، لا يحتاج الكون الى كائن شخصي أزلي ، يُعلّل به ويُبتدء منه ، إذ إن اللاّبداية في سلسلة الكون ـ رغم حدوثها ـ تحكم بعدم الحاجة الى ما ورائه : من إله أزليّ ، فانه أزليّ من حيث المجموع ، رغم حدوثه من حيث الأفراد .

لابرزخ بين الازلية والحدوث :

الالهي : كما فصلناه : إن تقسيم الموجود الى الأزلي والحادث ، ليس إلا بين السلب والايجاب في الموجود ، وهذا حصرٌ عقليٌ شامل لكافة مجالات الكون ـ دون أن يوجد بينهما إلا العدم ـ

فالمعدوم ـ لا أزلي ولا حادث ـ ضرورة خلوّه عن وصفي الوجود ، لأنه عدم الوجود ـ فليس فرض الحالة البرزخية بين الأزلية والحدوث للكون ، إلا قضاء على وجوده والتزاماً بعدمه ، حتى يتحمل البرزخ السلبي «لا أزلي ولا حادث»

وأما البرزخ الايجابي في الكون ـ بين الوصفين ـ فليس إلا الجمع بينهما في الكون ، أزليٌ تماماً وحادث تماماً ، وهو من اجتماع النقيضين .

اذاً فبرزخكم المزعوم ، بين ما يُنتج عدم الكون ـ : في الناحية السلبية ، أو استحالة وجوده ـ : في الناحية الايجابية : فالكون في برزخكم بين معـــدوم ومستحيل الوجود !

المادي : أقول : إن الأفراد حادثة والمجموع من حيث المجموع ازلي ـ وكلاهما هو الكون ـ لا أن كائناً واحداً نفرضه أزلياً حا لكونه حادثاً ، بل إنه أزليٌ من ناحية : « الجمع » وحادثه من حيث : «الأفراد» .

المناقضة بين حدوث الافراد وأزلية المجموع :

الالهي : هذا مستحيلٌ دون ريب ! فان فرض الحدوث والمحدودية في كافة الأفراد ـ فرداً فرداً ـ مع فرض الازلية واللا محدودية في المجموع ، هذا ليس إلا جمعاً بين النقيضين لما يلي :

اولا : إن مجموع السلسلة ليس ـ حسب الفرض ـ إلا الافراد باعتبار الجمع ، فهناك حقيقة خارجية هي الافراد ، واعتبارٌ نعتبره هو الجمع بينها في الوجود ، فالمجموع ليس إلا مجموع الافراد ، لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، إذ ليس إلا اياها ، اللهم الا في الاسم وفي الاعتبار ـ الذين لاواقع لها خارجيًّا ، إلا نفس الافراد متتابعة الوجود ، من علل ومعاليل .

ثانياً : انّ بين الازلية والحدوث ـ واللامحدودية والمحدودية ـ ان بينهما تناقضاً بيّناً ، اذاً فكيف يُحكم بالازلية اللامحدودية للمجموع ـ وبالحدوث والمحدودية للأفراد ؟ أجمعاً بين النقيضين في الكون أجمع !.

فمجموعة الكون بأفراده المتتابعة ، لاتتحمل الا واحداً من النقيضين : «الازلية اللا محدودية» أو «الحدوث والمحدودية» اعتباراً بضرورة العينية والوحدة الذاتية الخارجية بين السلسلة المجموعية وأفرادها ، ولفظيـــة الاختلاف بين العنوانين واعتباريته .

واذا فتّشنا عن سبب التناقض هنا ، وجدناه في فرض الازلية اللانهائية في المجموع ، كما تدّعون ! لا في فرض حدوث الافراد ، اذ نشترك في هذا ونختلف في ذاك :

نشترك في حدوث الكون بأفراده ـ حسب الفـــرض ـ ونختلف في أزلية السلسلة المجموعية ، وانما المناقض لما نتسلّمه كلانا ، فرضُ الازلية في السلسلة ، زعم أن السلسلة تختلف عن أفرادها !

ولو أن المجموع كان غير الافراد كالمتباينين ، لم يكن فرض الجمع بين الازلية

والحدوث ـ هنا وهناك ـ أيضاً برزخاً بينهما ، بل جمعاً بينهما في متباينين !

فأول ما يرد عليكم هنا محظور اجتماع النقيضين وليس إلا من فرض الازلية اللا نهائية ! .

ثالثاً : لا تخلو حال هذه السلسلة المجموعية المتسلسلة من امرين :

١ـ ان يوجد فيها فردٌ أزلي لابداية له شخصياً ـ فهو الخالق لسائر الافراد الحادثة على الفرض .

٢ ـ ألاّ يوجد أيُّ فرد أزليّ فيها ، بل الكل حادث على الفرض ، والعقل يُحيل الحدوث دون علة مّا .

اذاً ففرض حدوث الكون تماماً، وإن كان في سلسلة لابدائية رغم استحالتها، هذا يُحيل وجود الكون على فرض عدم الازلية فيه اطلاقاً، ضرورة استحالة المعلول دون أية علة محدثة ، فيصبح انكار أزلية مّا في الكون أوضح فساداً من الغلطة السوفسطائية المنكرة لكل حقيقة ، فانها ما كانت تحيل الحقيقة وانما كانت تنكرها ، ومنكر الخالق الازلي في الكون يُحيل الكون احالة تامة نتيجة فرض عدم علة مّا للحادثات الكونية .

ففرض حدوثٍ مّا في الكون يُفرض أزلية مّا كذلك يجنبه ، فرضاً لزاماً لا محيد عنه !

اذاً فلا مناص من اتصال هـذه السلسلة ـ المزعومة ـ الى نقطة رئيسية في البداية وهو الله تعالى شأنه :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » ٣٥ : ١٥

هذه الآية القرآنية توحي حكماً عقلياً وفطرياً ضرورياً : أن الكائن الحادث الفقير الذات ـ مهما بلغ من الكثرة ـ لا يستغني عن خالق غني يُحدثه ، اذ لا تزيد كثرة الفقراء إلا فقراً على فقر .

وفرض اللابداية واللانهاية في الفقراء لا يغنيهم عن حاجتهم الذاتية الى غني لا يفتقر .

فلو أن كثرة الحادثات الكونية تُثمر الغني والازلية ! اذاً لكان للفقراء ان يكوّنوا بنكاً عظيماً يغنيهم عن التكدّي .

وكان لنا أن نحصّل الملائين منجمع الملائين اللاّنقد ، أو فرض اللانهاية منه !

وكان لنا تشكيل عدد ضخم من الجمع بين الملائين صفراً أو اللانهايه منه !

فملائين اللا شيء أو اللانهاية منه لاتعني الا ّ دمج اللا شيء في مثله ،وكذلك اللانهاية في السلسلة الحادثة من الكون لاتعني الا الحدوث والفقر ، وهما بضرورة وحاجة ماسة الى محدث غني ، وإلا لاستحال الحدوث واستحال الكون المفروض حدوثه تماماً .

فالنتيجة الأخيرة من فرض حدوث الكون بكافة أفراده وبيئآته : أن مجموعة السلسلة الكونية حادثة فقيرة الى سواها ـ واللابداية المزعومة لا تجعلها أزلية ـ اذ المجموع عين الأفراد دون ان يربو عليها ، اذاً فالفقر والحاجه الى سواها ذاتها وكيانها ، لا تستطيع التحلّل عنه في الحدوث ، وفي البقـاء بعد الحدوث،« يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد » ! ..

فأين الحادث بلا خالق ؟ وأين الأزليُ الحادث ؟

●

شبهة اللانهاية العددية ؟!

المادي : الواقع الخارجي يصدّقنا في امكانية الجمع بين محدودية الافراد واللاّمحدودية في المجموع بمعنى اللابداية واللا نهاية ، وفرض اللا بداية في السلسلة المجموعية يُغني السلسلة عن اي كائن سواها ، في احداثها ، وكمثال على هكذا جمعٍ :اللانهاية العددية :

فإننا لا نجد عدداً ، مهما كان ، ان يقف عند حدٍّ ما ، فكل عدد يتحمل الزيادة دون حدّ ، وكذا النقيصة ، وانكانت كسرية ، دون حد ، اذاً فالعدد برزخ بين النهاية واللا نهاية : نهاية وحدٍّ في اشخاص الاعداد ، واللا نهاية في تحمّل الزيادة والنقيصة .

الالهي : انالواقع الخارجي ، على فرضه ، ليس مما يتنافى مع الحكم الضروري العقلي ، وقد حققنا استحالة الجمع بين النقيضين مهما كان ، فانما الخطأ هنا في تشخيص الواقع الخارجي ، وكما زعمتم : ان الجمع بين الليل والنهار في افقين جمع بين النقيضين !

وهنا نستأصل جذور المشكلة في اللا نهاية العددية المزعومة ، كالتالي .

اولاً : على فرض اللامحدودية في قبول الزيادة في كل عدد ، فالمحدود هو كل عددبالفعل ، واللامحدود هو العدد شاناً في تصور العقل ، ومن شروط التناقض الوحدة في الفعلية والشأنية .

ولكن النهاية واللا نهاية ، والحدوث واللا حدوث : في مفروض البحث : ليس إلا في الكون باجمعه بالفعل ، وليست الجمعية والانفراد في أفراد الكون إلا اعتبارين تصوريين لايعنيان إلا الكون كله .

ثانياً : إننا نبحث عن الكون باجزائه وهي محدودة: جمعيةً وفرادي ، بما فيه من علل ومعاليل حسب الواقع الخارجي ، وليست مسألة الازلية والحدوث واللامحدودية والمحدوية: فرضية عقلية لاتعدوفرض العقل، حتى تُقاس باللانهاية العددية الفرضية التي ليس لها واقع فعليّ خارجيّ ، فلا يؤخذ هذا القياس بعين الاعتبار وان اذعنّا باللانهاية العددية .

ثالثاً : إن اللا نهاية قسمان :

١ ـ فرضية عقلية لا فعلية لها ، كما في العدد .

٢ ـ فعلية واقعية كما في سلسلة الكون : علة ومعلولاً .

فالثاني مستحيل لاصطدامه بالواقع الخارجي والضرورة العقلية : الحاكمين بامتناع اجتماع النقيضين .

والاول على فرض امكانه ، لا يعد والفرض والتقدير ، فلن تجد عدداً شخصياً لا نهاية له بالفعل ، مع الحفاظ على حده الفعلي، وانما للعقل أن يفرض له مضاعفات كثيرة دون ان تقف لحد ، لا أن يدرك ويُحصي اللا نهاية في شخص هذا العدد ، أو ايّ عدد ، بالفعل ، بل انما يسمح بالزيادة لاي عدد ، دون ان يقف عند حد في تصور العقل .

لذلك ترى ان المعدودات ، وهي أجزاء الكون ، متناهية ، لانها واقعيات خارجية موجودة بالفعل ومحدودة ، رغم اللا نهاية ـ ولا حدّ شانياً في تصور العقل لتضاعف الاعداد ، والفارق إنما هو الفعلية هناك والشأنية هنا .

فاللانهاية في العدد لا تعني : أنّ هناك عدداً غير متناه، او ان سلسلة الاعداد غير متناهية ـ وانما تعني : أننا لا نجد عدداً مّا لا يقبل الزيادة عليه ، فكل عدد مهما بلغ من الكثرة يتحمل الزيادة وإلى غير النهاية ، مع غضّ النظر عن المعدود الخارجي ، إذ الخارج انما هو ظرف المعدودات المحدودة بالذات .

واما العقل ، فهو ايضاً لا يحيط تصوراً بعـدد معقول غير متناه بالفعل ،

ولاسلسلةمن الاعداد غير المتناهية، إذالمحدود لا يستطيع الاحاطة باللامحدود، والعقول محدودة مهما كانت قوية .

وهذا يختلف عن السلسلة غير المتناهية في الواقع الخارجي ، اذالحدوث في كافة الافراد يحكم بالحدوث في المجموع ، وكذا المحدودية .

ومع الفرض أن اللا نهاية في العدد تعني : ان هناك عدداً غير متناه بالفعل ، رغم استحالته ، ولكنها في العدد لا يقتضي اللاّ نهاية في المعدود لعدم الملازمة ، نتيجة اختلاف الفرض والواقع الخارجي .

رابعاً : أننا نُحيل اللاّ نهاية العددية حتى في فرض العقل شأناً ، اذ إنّ من المحال تركُّب اللاّ محدود من الاجزاء المحدودة، وإن كان في تصور العقل، شأناً، دون الفعلية والواقعية الخارجية ، لان المركب من المحدود محدود لا محالة ، ومما نستدل به على المحدودية : قبول الزيادة والنقصان ، والعدد مما يقبلهما ذاتياً مهما بلغ ، وإن كان الى اللاّ نهاية، كما يُزعم، حيث نتسائل عن العدد اللاّ محدود :

هل إنّه يقبل الزيادة والنقصان ؟ فان هو يقبلهما فهو محدود ، وان لا يقبل فليس عدداً !

هذا : وانما اللاّ نهاية العددية تعني : أننا لا نحيط علماً بالحدّ النهائي للعدد ، لا انه لا نهاية له !

خامساً : مع الغض عن كلّ ما ذكر : إنّ الحدوث والحاجة الذاتية في كافة اجزاء الكون ، وإن صحت اللا نهاية في السلسلة الكونية ، هذا يحكم بأنّ هناك وراء الحادثات كائناً احدثها ، اذ إنّ اجتماع الأعدام لا يقتضي الوجود ، وإنضمام الكثرة العظيمة من الصفر ، وان كانت غير محدودة ، هذا لا يُنتج عدداً ولا كسراً ضئيلاً منه .

اذاً فلا محيد للكائن الحادث عن محدث ما ليس هو حادثاً ، فعش مع البحث في تأملاتك تجد الحقيقة .

نموذج عاقل من نماذج فقر الكون ، هو الانسان !

يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد / ٢٥ : ١٥ / .

هذه الآية القرآنية تهتف بالانسان ان ينظر في علاقته بالله ، ١ – اذ إنّه اقرب ما في الكون الى نفسه ٢ – وهو في الوقت ذاته جزء عاقل كامل من هذا الكون ٣ – وهو المكلف لان يعتبر نفسه وما حوله فقيراً الى الله تعالى .

إن الانسان في حاجة الى تذكيره بهذه الحقيقة في معرض دعوته الى الهدى ومجاهدته ـ ليخرج من الظلمات الى النور ، في حاجة الى تذكيره بانه فقير الذات في محاويجه الى سواه وسوى الكون : الى الله ... لئلا يركبه الغرور .

حقيق للإنسان ان يَدهش ويُحار في فضل الله ومنّه وكرمه حين يرى هذا الانسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر الضعيف العاجز ، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل .

والانسان ساكن صغير من سكان هذه الارض ، والارض تابع صغير من توابع الشمس ، والشمس نجم مما لا عدّ له ولا حصر من النجوم ، والنجوم إن هي إلا نقَطاً صغيرة ، على ضخامتها الهائلة ، متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده ، وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقَط التائهة ـ إن هو إلا بعض خلق الله ...

والكل تنطق بلسان الذات انها بحاجة ذاتية الى الله تعالى ...

●

من خلق الله ؟!

أموجود دون خالق ؟ : نظرية الوجود :

المادي : لو تأكد لنا من : أن الله هو الذي خلق العالم ، لكننا نسأل : من هذا الذي خلق الله ؟ فإن الحاجة إلى العلة ذاتية للوجود ، فلا نتمكن من تصور وجود متحرر عن علة ما ، إذاً فكل وجـــود معلول ، مهما كان الهاً ام مألوهاً !

الالهي : هذه نظرية البعض من فلاسفة الماركسية ، مستندين في تبريرها علمياً الى التجارب زعمَ دلالتها في مختلف ميادين الكون : على أن الوجود بشتى الوانه وأشكاله في نطاق التجربة ، لا يستغني عن علة ما تعاصره ، وافتراض وجود ليس له علة يناقض هذا الناموس .

ولكنهم خفي عنهم : أن التجارب إنما تعمل في حقلها الخاص بها : النطاق المادي ، وقصارى ما تكشف عنه : خضوع الكائنات المادية لمبدء العلية ، لا أن الوجود بما انه وجود بحاجة الى علة ، بل الوجود المادي بما هو مادي ـ وبصيغة آخرى : إن المادة بما هي حادثة : تحتاج الى محدث .

ولكنهم لما زعموا : أن الوجود هو المادة ـ والمادة تشمل مجالات الكون ، لذلك حكموا : أن الوجود بما هو وجود ـ بحاجة ماسة الى علة : يعنون المادة ، حال أن المادة ايضاً إنما تحتاج الى علة لانها حادثة ، لا لانها موجود .

فإنما حاجة الشيء الى السبب مستندة الى حدوثه دون سواه ، ولذلك نرى الماديين الذين يعتقدون في : ازلية المادة الاصلية ، نراهم لا يفكرون في : أن هناك علة خالقة لها ، وليس هذا إلا لان الحدوث هو الذي يفتقر الى علة ـ وهو

الباعث الرئيسي الذي يُثير فينا سؤال : لماذا وجد؟ أمام كل حقيقة من الحقائق التي نعاصرها في هذا الكون المادي ، وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح مبدء العلية مقتصراً على الحوادث خاصة ، فاذا كان الشيء موجوداً بصورة مستمرة ـ ولم يكن حادثاً بعد العدم ، انقطع عنه السؤال : لماذا وُجد ؟ فانه لم يوجَد ، بل كان موجوداً بلا ابتداء .

فسواءٌ أكان هذا الموجود الازلي مادياً ـ لو امكن ـ ام مجرداً عن المادة ، فهذا السؤال منقطع دونه سواء .

كما أن الموجود الحادث يُسئل فيه : لماذا وجد ؟ مهما فرضته محدوداً ، او مجموعاً لابداية لأفراده ، فإن اللاّ بداية المجموعية ، على استحالتها في ذاتها ، لا تُبرّر وجود اي حادث من افرادها دون علة .

اذاً : فكما أن الماديين القائلين باصالة المادة وازليتها ، لا يوجّهون هكذا سؤال : لماذا وُجدت المادة ؟ الى انفسهم ـ ولا يوجّه اليهم ايضا ، كذلك ليس لهم ان يوّجهوا سؤال : لماذا وُجد الاله ؟ الى الالٰهيين ، لانهم ايضاً يرون الا له المجرد ازلياً ، اذ إن الازلية هي الاستغناء عن العلة ، مهما كانت في مادة ام سواها .

فالقبيلان : المادي والالهي ـ اذاً يؤمنان بوجود ازليّة مّا في الكون ، فإما ان تشمل كافة مجالاته « فلا خالق ولا مخلوق » كما يقول المادي ، ام انّ بعضه ازلي وهو الله ، والبعض الآخر حادث خلقه الله ، كما يقول الا لهي ـ فهناك خالق ومخلوق .

الخالقُ نفسَه ؟ !

المادي : فليكن الكون الحادث خالقَ نفسه دون حاجة الى سواه ، كما ويقول بعض العلماء الالهيين ايضاً : « الله يعني الحادث من نفسه » فكما يصح التفكير في: أن يخلق الله نفسه فلا يحتاج الى سواه ، كذلك فليكن الكون خالق

نفسه ، سواء ، فلا يحتاج الى سواه ! ..

محالٌ في محالٌ :

الالهي : كون الشيء خالق نفسه اي : موجدها من العدم : لامن شيء ، هذا محال وتناقض ، مهما كان هذا الشيء هو الله او الكون المادي ، ولكنه في الله محال في محال .

وأما الاستحالة اطلاقاً : في الاله وفي الخلق سواء ، فلا ستلزامه كون الشيء قبلَ كونه ، اذ إن الذي يريد ليخلق نفسه ، يجب ان يكون ولا يكون لحالة واحدة : يكون قبل وجود نفسه حتى يكوِّنها ، ضرورة لزوم وجود العلة قبل معلوله ، ولا يكون حين يريد يكوِّن نفسه ، اذ على فرض وجوده كان خلْق نفسه تحصيلاً للحاصل ، فليكن معدوماً حين خلقه ليُعطى نفسه الوجود ، اذاً فليكن هذا الخالق لنفسه موجوداً قبل وجوده ، لمكان عليته ، ومعدوماً في نفس الوقت لمكان معلوليته ، وهذا جمعٌ بين وجود الشيء وعدمه لحالة واحدة ، جمعاً بين المتناقضين -

ثم التفكير في : أن الله حدث من نفسه ، كما يقوله المبشر الانجيلي الدكتور بوست [1] فهذه خرافة عارمة تربوا على الاولى في انها تحمل تناقضاً ثانياً .

إذ إنّ الله في عقيدة الإلهيين ازلي لا أوّل له فلا حدوث - فالقول بأنه أحدث نفسه جمع بين الأزلية والحدوث في ذاته المقدسة - وهما نقيضان - كما أنه جمع بين وجوده وعدمه لحالة واحدة ، وهما أيضاً نقيضان ! !

وإنّ لنا مع العلماء المسيحيين مواقف جريئة من الحوار ، قد تكون أعجب من محاوراتنا مع الماديين ، إذ انهم يرون عقيدة التثليث توحيداً خالصاً ويسمونها بتوحيد التثليث ، حال أنها عقيدة في : الجمع بين النقيضين : ان يكون الإله واحداً حال أنه ثلاثة وثلاثة حال أنه واحد ، ومجـــرداً حا لكونه مادياً ومادياً

---

١ - في قاموس الكتاب المقدس تحت عنوان الله

حا لكونه مجرداً ، وأباً حا لكونه ابناً وإبنا حالكونه أبا ! ومحدوداً حالكونه غير محدود وغير محدود حا لكونه محدوداً ، وما الى ذلك من المناقضات التي تستتبعها عقيدة الثالوث حسب التفسير الكنائسي .

وقد سبق : أن امثال هذه الخرافات الجارفة هي التي تخلق روح الإلحاد في الكثير من المسيحيين ، حيث المنظمات والبيئات الكنائسية المسيحية تبذل غاية محاولاتها لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم : في إله هو على صورة الانسان ـ مثلّث الأقاليم ـ صُلِب بايدى عباده ضحيّة لذنوبهم ، من ناحية .

ثم العلم من ناحية أخرى يُحيل وجود هكذا إله ، في حين أنه لايتنافي وفكرة الإله جذرياً ـ هذا ـ والمتحللون من المسيحيين عن الفكرة الكنائسية في الإله لايجدون بدّاً من التصديق بوجود الإله ، كما وننقل الكثير من اعترافاتهم طوال بحوث هذا الكتاب !

●

الطاقة المادية وبيئتها

- انها حادثة كزميلها سواء
- مسانخة العلة والمعلول
- وحدة حقيقية الوجود او كثرتها ؟ .

هل ان الطاقة خالقة ازلية؟

المادي : فليكن الكون ـاعني المادةـ حادثاً بتمامه يحتاج الى محدِث، ولكن التجرد عن المادة ليس من شروط الخالقية ، بل ان المباينة الكلّية بين المادة واللامادة تُحيل كون المجرد عن المادة خالقاً لها ـ فلتكن الطاقة هي الخالقة لها ـ دون أن تكون المادة خالقة لنفسها ـ أو المجرد عنها كذلك ، إذ العقل يُحيل كلاًّ منهما سواء .

فإذ قد نجد برزخاً بين المادة واللامادة هي الطاقة ، فلا تُلجئنا الاعتقاد في : ضرورة ازلية مّا في الكون ، ان تكون هي في المجرد عن المادة ـالذى لم نصدّق حتى الآن وجودَه ـ ولا نستطيع أن نصدقه ، بل قد نُحيله .

فهاهي الطاقة في متناول احساسنا بالوسائل المادية ـ فهي الخالقة الأزلية للمادة ـ لاسواها ! .

البرزخ بين المادة واللامادة ! ؟

الالهي : ان الطاقة ـ مهما كانت ـ فليست إلا من جنس المادة أو اللامادة المجرد عنها ، إذ إن حصر الموجود في المادة واللاّ مادة حصرٌ عقلي: دائر بين الايجاب والسلب ، ولا برزخ بينهما عقليـــاً لأنهما في الموجود نقيضان لا يجتمعان معاً ولا يرتفعان معـــاً ، اللهم إلا أنْ نعتبر الطاقة معدومة حتى تنتفي عنها المادة واللامادة بما انهما وصفان للموجود فلتُسلبا عن الطاقة اعتباراً بانها معدومة !

فان قلتم : انها من جنس المادة ، قلنا : ان العقل يُحيل كون المادة علة خالقة تصدر عنها مادة أخري، الا أن تلد المادة وكما تتولد هي ايضاً من المادة، والولادة تختلف عن الخلق والعلية التامة ، كما سوف نوافيكم فيه ببحث فصل .

وان قلتم : انها مجردة عن المادة ، رغم انها الطاقة المادية حسب الفرض ، فقد اعترفتم بالازلي وراء المادة ـ وسوف نبرهن انه يباين المادة كلياً ، في الذات وفي الصفات ، لا مجانسة بينهما اطلاقاً .

الطاقة = المادة .

لكن الطاقة المادية ليست إلا نفس المادة ، تلدها وتتولد عنها ، ولا تختلف عنها إلا بالانطلاق والانتشار في الطاقة ، والتكاثف والاندماج في المادة .

فالمادة اذا انطلقت وانتشرت اصبحت طاقة ، كما أنّ الطاقة اذا تكاثفت وتجمّعت اصبحت مادة . اذاً فكلاهما مادة دون اختلاف بينهما إلا في البيئة الماهوية دمجاً وانطلاقاً .

فهناك بين الطاقة والمادة رابطة جوهرية ولادية تجعلها حقيقة واحدة .

« وأول من اكتشف الرابطة بين المادة والطاقة انيشتاين ، والعلم اليوم بمستطاعه تبديل الطاقة إلى المادة » (١) .

« وليست المادة إلا ظاهرة من مظاهر الطاقة كالعكس » (٢) .

ويقول العالم الكيميائي جون كليفلا ندكوثران : « والكيميا ، بحكم اختصاصها بدراسة التركيب والتغيرات التي تطرأ على المادة ، بما في ذلك تحوُّل المادة إلى طاقة وتحوُّل الطاقة إلى المادة ، تُعد من العلوم المادية التي ليس لها صلة بعالم الروحيات .. »

فالعلم الحديث بدء بمحاولة تبديل المادة إلى طاقة خالصة ، اي نزع الصفة المادية للمنصر بصورة نهائية ، وذلك على ضوء جانبٍ من النظرية النسبية لـ (آنيشتين) إذ تُقرر أن كُتلة الجسم نسبية ، وليست ثابتة ، فهي تزيد بزيادة السرعة ، كما تؤكّد التجارب التي اجراها علماء الفيزياء الذرية ، على الالكترونات

---

(١) نقلاً عن جان كلورر مونسما مولف كتاب : الله يتجلى في عصر العلم ، ينقله عن : جان ادلف بوهلر ،

(٢) كما يقـول « اولين كارول كارليتس OLIN CARROLL KARLITS المهندس الكيميائي والحاصل على درجة B. SC من انستيتو رايس و M. SC والدكتوراه في الفلسفة من جامعة ميشيكان .

التي تتحرك في مجال كهربائي قوي ، ودقائق (بيتا) المنطلقة من نويات الاجسام المشعة .

ولما كانت كتلة الجسم المتحرك تزداد بزيادة حـركته ، وليست الحركة إلا مظهراً من مظاهر الطاقة ، فالكتلة المتزائدة في الجسم هي اذن طاقته المتزائدة.

فلم يعد في الكون عنصران متمايزان : احدهما المادة التي يمكن مسها وتتمثل لنا في كتلة ـ والآخر: الطاقة التي لايمكن ان ترى، وليس لها كتلة ، كما كان يعتقد العلماء سابقاً ، بل اصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلا طاقة مركزة .

ويقول انيشتاين في معادلته : «ان الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء، (وسرعة الضوء تساوي «٨١٦٠٠٠» ميلاً في الثانية) كما ان الكتلة = الطاقة ÷ مربع سرعة الضوء » .

وبذلك ثبت : ان الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلا طاقة متكاثفة ، يمكن تحليلها وإرجاعها الى حالتها الاولى .

فهذه الطاقة هي الاصل العلمي للعالم في التحليل الحديث وهي التي تظهر في أشكال مختلفة وصور متعددة : صوتيـة ومغناطيسية وكهربائية وكيمياوية وميكانيكية .

وعلى هذا الضوء لم يعد الازدواج بين المادة والاشعاع بين الجسميات والموجات، أو بين ظهور الكهرب على صورة مادة أحياناً ، وظهوره على صورة كهرباء احياناً اخرى ، لم يعد غريباً ، بل اصبح مفهوماً بمقدار ، مـا دامت كل هذه المظاهر صوراً لحقيقة واحدة :هي الطاقة .

وقد اثبتت التجارب عملياً صحة هذه النظريات، اذ أمكن للعلماء ان يحولوا المادة الى طاقة والطاقة الى مادة .

فالمادة تتحول الى الطاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة الهيدروجين ونواة

ذرة ليثيوم . فتنتج عن ذلك نواتان من ذرات الهليوم ، وطاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذرّي لنواتين من الهليوم، والوزن الذري لنواه هيدروجين ونواة ليثيوم .

والطاقة تتحول الى المادة عن طريق تحويل اشعة « جاما » وهي أشعة لها طاقة وليس لهـــا وزن ، تتحول الى دقائق مادية من الكترونات السالبة والالكترونات الموجبة ، التي تتحول بدورها الى طاقة ، اذا اصطدم الموجَب منها بالسالب .

ومن اعظم التفجيرات للمادة ، الذي توصل اليهـا العلم ، هو التفجير الذي يمكن للقنبلة الذرية والهيدروجينية ان تُحقـّقه ، اذ يتحول بسببها جزءٌ من المادة الى طاقة هائلة .

وتقوم الفكرة في القنبلة الذرية ، على امكان تحطيم نواة ذرة ثقيلة ، بحيث تنقسم الى نواتين او اكثر ، من عناصر اخف ، وقـــد تحقق ذلك بتحطيم النواة في بعض اقسام عنصر اليورانيوم، الذي يُطلق عليه اسم اليورانيوم ٢٣٥، نتيجة لاصطدام النيوترون بها .

وتقوم الفكرة في القنبلة الهيدروجينية، على ضم نُوى ذرات خفيفة الى بعضها، لتكون بعد اتحادها نوى ذرات اثقل منها ، بحيث تكون كتلة النواة الجديدة اقل من كتلة المكوّنات الاصلية.

وهذا الفرق في الكتلة هو الذي يظهر في صورة طاقة ، ومن اساليب ذلك دمج أربع ذرات هيدروجين بتأثير الضغط والحرارة الشديدين ، وإنتاج ذرة من عنصر الهليوم، مع طاقة ، هي الفارق الوزني بين الذرة الناتجة والذرات المندمجة وهو كسر ضئيل جداً في حساب الوزن الذري .

وعلى هذا الاساس فالمادة لها اطلاقان فيما تعنيه :

١ ـ عامٌ يشمل المادة والطاقة كليهما ، اعتباراً بالخاصة المادية المشتركة فيهما.

٢ ـ خاصٌ يخص ما يقابل الطاقة ، اعتباراً بما تعرفه العامة من لفظة المادة، وأنها المحسوسة لدى الجميع .

إذاً فليست تخص المادة بالمخلوقية والطاقة بالخالقيـة ، فان كلاً منهما ينبثق عن قرينه ، بل هو نفس قرينه وانمـــا الاختلاف حسب مختلف البيئآت إندماجاً وانطلاقاً .

ومهما يكن من شيء فمن المحال ان يكون الشيء علة خالقةً لمـا يجانسه ويشاركه ، فضلاً عن الطاقة التي هي منبثقةعن المادة كما تنبثق هي عنهاسواء، واذ ذاك فمن المستحيل ازلية الطاقة مع فرض حدوث المادة ، فانها جمعٌ بين الازليةوالحدوث في ذاتٍ واحدة هي المادة ، دون أن يكون هناك فرقٌ إلافي الاسم والحالة « المادة لحالة التكاثف والطاقة لحالة الإنطلاق » .

ومن المحال ان يكون شيء واحدازلياً في حالة وحادثاً في أخرى، وخالقاً في حالة ومخلوقا في أخرى ، وليست خرافة ازلية وخالقية الطاقه ، وحدوث ومخلوقية المادة إلا هكذا محال !

مسانخة العلة والمعلول !؟

المادي : ومهما يكن من شيء فمحالان يكون بين العلة والمعلول تباين كلي، دون أية مجانسة ومسانخة في البين .

الفاقد لشيءٍ لا يُعطيه ؟!

فهذهقاعدة مطـّردة بينالفلسفتين: الإلٰهية والمادية، أنالفاقد لشيءلا يُعطيه، ومحالأن يعطيهفالكائنالمادي بماله منخواصوبيئآت لا يصدر من مصدر هو خِلوٌ عنالجوهرة المادية،وكما لا ينبثق الوجود من العدم ولا الغنى منالفقر ولا النور من الظلمة ولا ايّ شيء من مباينه ومناقضه ، قاعدة مطردة في كافة الفلسفات : العقلية والتجريبية .

وحدة حقيقة الوجود ! ؟

لذلك نرى الفلاسفة الإلهيين يرون حقيقة الوجود مشتركة بين الخالق والمخلوق، ويزيّفون موقف الفلسفة المشائية القائلة : ان حقيقة الوجود متباينة في افراده ، ومن براهينهم في وحدة حقيقة الوجود :

لأن معنىً واحداً لا يُنتزع   مما له توحُّدٌ ما لم يقع [1]

وتوضيح البرهان كالتالي :

في القضية القائلة : الله موجود ، والقائلة المادة موجودة ، ماذا يُعنى من الوجود فيهما ؟

١ – هلا نفهم من الوجود هنا وهناك اي معنى ؟

٢ – ام نعني من وجود المادة الحقيقة الخارجية ومن وجود الله مايباينها : اي اللا حقيقة ؟

٣ – ام لا نعني من : الله موجود؟ ، ايّ معنى : لا الوجود المفهوم من المادة ولا العدم ؟

٤ – ام نعني من الوجود في كلتا القضيتين معنى وحقيقة واحدة جنسية، لا شخصيــة ؟

فالاول يعني ما تبطله الضرورة ، فان مفهوم الوجود من اظهر المفاهيم التي تُفسَّر بها كل مفهوم سواه .

والثاني يعني : أنّ الله ليس موجوداً ، وهو ما كنانبغ طوال حوارنا ، من اصالة المادة ، وأنه ليس هناك إلّه مجرد وراء المادة .

والثالث : تزيّفه الضرورة المقبولة عند كل أحد : أننا ندرك من: الله موجود، معنى ما ، وإلا لبطلت المعرفة عند العارفين بالله ، وبطل معنى لغة الوجود

---

١ ـ المنظومة للفيلسوف السبزواري ص ١٩

عند سواهم ، ألفظاً بلا معنى ؟ ام نحن ولا ايُّ احد لا ندركه ؟

والرابع: يعني وحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق، وان كان في جهةٍ ما جوهرية خارجية : وحدة سنخية .

اذاً فمن المحال التباين الكلي بين الخالق والمخلوق في كافة الفلسفات ، فلا محيد عن تصديق المجانسة بين الخالق والمخلوق !

الوالد والمولود ، العلة والمعلول :

الإلٓهي : إن السنخية والمجانسة بين العلة والمعلول - في صيغتها العامة - قد تكون ضرورية ، وأخرى مستحيلة حسب اختلاف الموارد ، فهي ضرورية بين الوالد والمولود ، إذ الوالد لايتمكن أن يلد من جوهرة ذاته إلاّ ما يجده فيها ، وكذلك الولد يستحيل ان يُولد مما يباينه كلياً في جوهر الذات، ولكنها مستحيلة بين الخالق والمخلوق .

إذاً فكل مادة بإمكانها أن تلد أيّة مادة أخرى او تُولد منها ، إذاً إن السنخية الجوهرية المادية سائدة في المادة مهما كانت .

ومن المحال أن تنبثق اللاّ مادة من المادة ، او المادة من اللاّ مادة ، إنبثاقاً ولادياً من جوهر الذات ، لأن فاقد الشيء لا يلده ولا يولد منه .

فهذه القاعدة سائدة مطردة في المادة بكافة مجالاتها ، قضيةَ الولادة الحاكمة بالمسانخة ، والعلل المادية تعمها وتسودها هذه القاعدة ـ لأنها ليست عللاً حقيقية ، فإنما العلية في المادة تعني الولادة :

ولادةَ المادة عن الطاقة والطاقة عن المادة ، وولادة الذرة عن الإلكترون والبروتون، وولادة الجزيئي (مولكول) عن الذرات ـ وما إلى ذلك من ولادات في التبدُّلات الكيمياوية والفيزيقية .

هذا في العلل المادية ومعاليلها على ضوء كافة الفلسفات من مذاهبها العقلية والتجريبية ، ولا تختلف العلة عن المعلول هنا في حكم الأزلية أو الحدوث ، فعلى فرض حدوث المعاليل المادية ، كانت عللها المادية كذلك حادثه ، وعلى فرض الأزلية ايضاً كانت ازلية ـ سواء ، دون ان تختصّ إحداهما بالأزلية والأخرى بالحدوث ، إذ إنّ المادة إذا كانت حادثة ، لم تكن كذلك إلاّ لأنها مادة ، والعلل المادية تشارك معاليلها في المادّية فهي ايضاً حادثة بنفس السند ، وإننا لا نجد علة مادية إلا وأنها معلولة لعلة أخرى كذلك ، وسوف نوافيكم في تزييف نظرية أزلية المادة : أن المادة حادثه لانها مادة : لحركاتها وتغيراتها وتركباتها والتركّب الذي يحمل كيانها .

اذاً فمن المحال ان يُصبح الخالق الازلي للمادة : من سنخها ـ وإن كان واحداً في مليار ، كلاّ ! إلاّ تبايناً كلياً في الذات وفي الصفات الذاتية تماماً .

ثم واعطاء الشيء وايجاده على نوعين .

١ ـ اعطاءٌ على سبيل الولادة كما في العلل المادية ، فهي لابدّ أن تكون مادية كمعاليلها ـ سواء ، إذ إنّ فاقد الشيء : في جوهر ذاته ـ لا يعطيه ـ إخراجاً له من ذاته .

واعطاءٌ على سبيل الإيجاد والإصدار من العدم اي : لا من شيء : لا: من لا شيء ، وهكذا علة يجب أن تُباين معلولها ذاتياً ولا تجده في جوهر ذاتها ، وإنما تجد القدرة والعلم على إيجاده وإصداره لا من شيء .

فكما أن السنخية في العلل المادية ضرورية ، كذلك المباينة الكلية في العلة غير المادية مع معلولها : هذه ايضاً ضرورية ، وإلا اصبحت حادثة كمعلولها ـ ووالدة لها ، ام اصبح المعلول ازلياً كالعلة على فرض ازليتها .

وأخيراً : إن فرض حدوث المادة يتنافى تماما مع فرض ولادتها عن خالقها : المفروض أزليته ، فإن أزلية الخالق الواجد لذات المخلوق في ذاته ـ الوالد له

من ذاته ـ هذه الأزلية تحكم بأزلية المخلوق المولود منه كمثله سواء ، والحدوث لا يعني حدوث الولادة فيما يعنيه ، وإنما يعني حدوث جوهر الذات بما اليها من مادة وصورة .

اذاً ففرض ولادة الكون : الحادث ـ من خالقه الأزلي ـ إلتزامٌ بأزلية الحادث اطلاقاً : قبل الولادة وبعدها ، أم أزليته قبل الولادة وحدوثه بها بعدها ، وكلاهما محالٌ ، إذ إنها جمعٌ بين المتباينين المتناقضين .

وحدة حقيقية الوجود أو كثرتها ؟ :

وأما قصة وحدة حقيقة الوجود فانها لو كانت صحيحة مقبوله ! فلا تمتُّ بصله لإثبات السنخية المادية بين الخالق الأزلي ومخلوقاته ، فإن الفلاسفة الإلهيين مهما اختلفوا في البعض من المسائل الفلسفية ـ وهذه منها ـ فإنهم لا يختلفون في تجرد الإله الأزلي الخالق ، تجرداً تاماً عن المادة وخواصها ، ولا في أنه لا يشبه الكون ماديّاً ولا سواه .

ونظرية وحدة حقيقية الوجود ـ على خطئها العارم ـ إنها لم تكن تُثبت : ان الله يُسانخ ويجانس المادة ـ اطلاقاً ـ فإنهم يعتبرون حقيقة وجود المادة وسواها أمراً وراء المادة ، مهما كان هذا الاعتبار صحيحاً أم فاسداً .

ثم هذه النظرية بدورها الخاطىء ليست مما تُصدّقها كافة الفلاسفة الإلهيين ، وإنما الفهلويون منهم ، هم الذين اختلقوها ، زعم أنها السبب الوحيد للجواب عن شبهة ابن كمونة اليهودي في التوحيد، دون أن يُبرهنوا لها بشيء، إلا لزوم وحدةٍ مّا في المعنيّ من لفظة الوجود ، بين الخالق والمخلوق .

يقول الحكيم الفهلوي السبزواري في منظومة الحكمة :

الفهلويون الوجودُ عندهم — حقيقةٌ ذاتُ تشككٍ تعم
مراتباً غنىً وفقراً تختلف — كالنور حيثما تقوّى وضعُف

وعنـد مشائية حقـائق تباينت وهو لديّ زاهق

لأنّ معنىً واحداً لا يُنتزع ممّا له توحّد مّا لم يقـع

فهكذا يُثبت في زعمه خرافة حقيقة وحدة الوجود ويُزيّـف نظرات الباقين ومنهم المشائين القائلين بكثرة حقيقة الوجود .

ولقد فصلنا القول في جوابه في محاضراتنا الفلسفية[1] بما نختصره هنا كالتالي:

إن أيّة وحدة وسنخية ومجانسة بين الخالق والمخلوق : في حقيقة الوجود والصفات الذاتية للوجود ـ ومهما كانت ـ إنها تصطدم وتتنافي مع أزلية الخالق من الجهات التالية :

١ ـ اعتبار الخالق أزلياً وحادثاً !

٢ ـ أو أزلية المخلوق كالخالق سواء !

٣ ـ أو أن المخلوق أزلي وحادث معاً !

٤ ـ أو أن الخالق حادث كالمخلوق سواء !

٥ ـ وأخيراً ان الخالق ليس خالقاً سواء أكان والداً أم لا هذا ولا ذاك . !

وعلى أيّة حال ، فان فرض المسانخة بينهما إخراجٌ للخالق عن الأزلية تماماً أو بعضاً ، نِتاجاً لزاماً .

إذ إن المسانخة هنا إمّا أنها اعتباراً بولادة المخلوق عن الخالق ـ فهو والد فحادث كخلقه سواء ـ أو أن الخلق صادرٌ عنه بارادته دون ولادة ، إذاً فليس هو خالقاً كخلقه أيضاً ـ سواء ، حيث إن اختصاص العلة التامة بالعلية دون المعلول ـ مع الفرض انهما متجانسان ـ هذا ترجُّح دون مرجّح ـ إذ الفرض أن المعلول يجد كل ما تجده العلة .

---

١ ـ في كلية الالهيات بطهران وفي النجف الاشرف عند البحوث الفلسفية المقارنة .

وأخيراً : إن حدوث ومعلولية المعلول المجانس للعلة ـ يكشف عن ذاتية الحدوث لهكذا جنس، اذاً فلتكن العلة أيضاً حادثة لأنها تحمل مايحمله المعلول من الذاتية الحادثة .

ثم هذه العلة الأزلية على الفرض، تُشارك و تُماثل المعلول في ذاتية ٍ مّا ـ ولاتخلو جهة الشركة عما يلي :

١ ـ انها كجهة الفرقة .

٢ ـ أو هي تختلف عنها [1] .

وفي كلتا الحالتين كانت ذات العلة مركبة من الجهتين كذات المعلول ، اذاً فالعلة حادثة كالمعلول نتيجةَ التركب ، فانه من أظهر آيات الحدوث والحاجة ، وسوف نوافيكم في بحثه الفصل عن إستعراض ظواهر وبراهين الحدوث.

وعلى الفرض ، وكما مثّله بالنور حينما تقوّى وضعف ، أصبحت ذات الإلّه الأزلي مركبة من جهتي : الأزلية والحدوث ، الأولى من حيث العلية وهى الجهة المايزة عن المعلول ، والثانية من حيث يجد فيها سنخ ما في المعلول ـ فهو إذاً أزلي وحادث ـ رغمَ أن الذاتية الواحدة لا تحمل ـ ومحال ان تحمل ـ كلي وصفي الأزلية و الحدوث ، سواء أكانت مركبة منهما ، أم أن احداهما صفة والأخرى موصوف ، أم ـ وبالأولى ـ هما شيءٌ واحد مجرد !

فان قيل : إن هــذه الذاتية المشتركة ، هي في الخالق أزلية وفي المخلوق حادثة ، حتى يُصبح الخالق أزليّا تماماً والمخلوق حادثاً كذلك ـ قيل: إنه جمعٌ بين الأزلية والحدوث في ذاتية واحدة في حالتين !

وإن قيل: إنها فيهما حادثة ، أصبح الخالق حادثاً من جهة الشركة، وكذلك من الجهة الأخرى المايزة ، اذ المفرض أنها تجانس الأولى : كالنور حينما تقوّى

---

١ ـ فان الأشياء المتعددة بضرورة ماسة الى جهتين : جهة الوحدة ، جهة الامتياز ـ حتى يتحقق التعدد ـ والجهتان قد تتجانسان كالنور قويه مع ضعيفه ، وقد تختلفان كالانسان والبقر.

وضعف ، واذ ذاك أصبح ذات الخالق الأزلي حادثة تماماً .

وإن قيل: إن الخالق اختص بالأزلية والعلية لأنه يجد من سنخ ذات المعلول وزيادة بما لايتناهي-قيل : فالخالق مجموعة الذاتيات الحادثة غير المتناهية ،وهذه المجموعة الحادثة حادثة الذات ـ سواء أكانت متناهية أم غير متناهية ، بل هي أحوج الى العلة المحدِثة من الحادث المتناهى .

فكلما ازدادت الذاتية الحادثة كثرة ،ازدادت الحاجة والفقر ، كما أن الفقراء كلما كثروا كثرت الحاجة ، ولا سيما الفقر الذاتي الذي لايحمل أيّ غنىً،إذ إنه ليس إلا كالصفر،لايزداد تراكمه أو اللانهايةفيه: إلا التراكم واللا ّنهاية فيِ اللا ّعدد، وإن كان كسراً من العدد .

وبصيغة أخرى تحمل نموذجاً جامعاً لهـذه المشكلات: إن أيّة مشاركة ذاتية بين الخالق الازلي ومخلوقاته ـ تُنتج انكار خالقيته وأزليته معاً ـ حيث إنها تحمل :

١ ـ ازلية الحادث ٢ ـ حدوث الأزلي ٣ ـ تركب ذات الإلّه

٤ ـ عدم إختصاصه بالخالقية ٥ ـ أزلية الخلق كالخالق سواء ! !

إذاً : فوحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق تتنافي وأزلية وخالقية الخالق تنافياً بيّناً .

فالقول الفصل هنا: إن الله تبارك وتعالى«خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه ـ باينٌ من خلقه وخلقه باينٌ منه : بينونة ذات وصفة لا بينونة عُزلة: في الإحاطة العلمية والقيومية ، مباينٌ لجميع ما أحدث في ذواتها وصفاتها .

أجل : وإن مباينته أياهم مفارقته إنيّتهم وحقيقتهم ، فالحجاب بينه وبين خلقه لإمتناعه مما يمكن في ذواتهم ، ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته»[1] .

فالبينونة السائدة بين الإلّه الازلي وخلقه إنما هي بينونة كلية تسود كافة

---

١ ـ اقتباس من مختلف الروايات بشأن معرفة الله .

المجالات في هذا البين ـ دون أيّة شركة في الذات والصفات الذاتية ، ودون ان يجمعها شيءٌ وأيّة حقيقة وراء اللفظ : « موجودٌ ، عالم ، قادرٌ ...»

المادي : اذاً فضرورة وجود الكون تكشف عن ضرورة عدم الخالق ، اذ إن مباين الوجود ليس إلا العدم !

الله موجود والخلق موجود :

الالهي : الخلق موجود،يعني: الوجود الحادث، ولا يعني: أن وجوده يشمل كافة مجالات الوجود ، وإنما هو وجودٌ خاص ضئيل ضعيف حادث فقير .

إذاً فمباينه المناقضُ له ليس إلا عدمَ وجود الخلق ، عدم الوجود الحادث، لا العدم المطلق ، وهذا كماينطبق على المعدوم المطلق، لانه ليس وجوداً حادثاً، كذلك ينطبق على الوجود الازلي ، فانه ايضاً ليس وجوداً حادثاً ، وإنما هو ازليّ يباين بينونة التناقض مع الموجود الحادث .

وأحرى ان نقول : إن العدم المطلق ليس مناقضاً للوجود الحادث ، وإنما يناقض هكذا وجودِ الوجودُ غير الحادث: وهو الوجود الازلي ، فإن الشيء الواحد ليس له إلا مناقض واحد ، ضرورة أن المناقضة ليست الا بين السلب والايجاب ولا ثالث بينهما .

وهكذا نجيب عن مشكلة الفهلوى: إن المباين المناقض لوجود الخلق ليس هو العدم المطلق كما انتجه من فرضه الرباعي « ام نعني من وجود المادة: الحقيقة الخارجية ـ ومن وجود الله: ما يباينها اي: اللاّحقيقة » .

فنحن نقول : نعني من وجود الله اللاّحقيقة المادية واللاّوجود الحادث الـتخلقي ، وهو منطبق تماماً على الوجود الازلي .

اجل : فإن هناك فرضاً خامساً هو الصحيح ، دون الفروض الاربعة الغالطة ونحن ننتظم الفروض الخمسة كالتالي :

وجود الخالق والمخلوق في فروض :

في القضية القائلة : الله موجود، والخلق موجود ـ يُعنى احدى المعاني التالية:

١ ـ لا نفهم من الوجود هنا وهناك أيّ معنىً !

٢ ـ نعني من : الخلق موجودٌ : الحقيقةَ الخارجية ، ومن : الله موجودٌ : اللا حقيقة الخارجية !

٣ ـ لا نعني من : الله موجود ـ ايّ معنى ايجابي ولا سلبي !

٤ ـ نعني من الوجود في كلتا القضيتين: معنى وحقيقة واحدة جنسية ، لا شخصية !

٥ ـ نعني من وجود الخلق كما نعنيه من الحقيقة الخارجية المخلوقة الحادثة ، ومن وجود الخالق: الحقيقة الخارجية الازلية المباينة للخلق: ذاتاً وصفاتاً .

ونحن لا نعني هنا إلاّ المعنى الخامس ، والفهلوي يزعم انحصار المعاني في الاربعة الاولى .

المادي : فما هو الجواب عن مشكلة عدم الوحدة المعنوية بين الوجودين ؟

الالٓهي : إننا في حوارنا الفلسفي لا نبحث بحثاً لغوياً ، حتى يُعتبر اختلاف المعنيّ من الوجودين عويصة غامضة لا مردّ لها إلاّ الاعتناق بخرافة وحدة حقيقة الوجود ، التي تتنافى والازلية والخالقية في الإلٓه !

إنما نبحث عقليّاً ، مهما كانت نتائجه منافية للمفاهيم اللغوية او موافقة لها .

المفاهيم السلبية في فكرة الإلٓه :

فنحن إذ نبرهن على ضرورة وجود الإلٓه الازلي المجرد اللاّ محدود ، مجهول الكنه في ذاته وصفاته ، إذاً نُحيل تصوّره والإحاطة به : عقلياً ، والإشارة اليه ذهنياً ، وادراكَه بأيّة وسيلة من وسائل الإدراك .

اذاً فلا نعني من وجوده ـ ولا نتمكن ان نعني منه ـ : ما نعنيه من سائر الموجودات ، ولا ان نكتنه ذاته وإن كان في تصوّر المعنى ، وانما نصيبنا من معرفته تعالى: الناحية السلبية المنتظمة في :

« خارجٌ عن الحدين : حدّ الابطال وحدّ التشبيه » .

فحدّ الإبطال: ان نبطله وننكر وجوده كالماديين ـ وحدّ التشبيه: ان نُثبته اثبات التشبيه ، بان نُمثّله مثالَ خلقه وإن كان في معنى الوجود ، وان في اشارة عقلية بأدقّ معانيها !

فإنما لنا: ان نسلب عنه العدم والعجز والجهل والموت ، فلا نفهم ونعني من وجوده إلا : أنه ليس بمعدوم ، ولا من حياته : إلا انه ليس بميت ، ولا من قدرته : الا انه ليس بعاجز ، ولا من علمه : إلاّ انه ليس بجاهل .

هذا منتهى معرفتنا به: ان نسلب عنه كافة الذاتيات والصفات الحادثة وكافة النقائض .

الخلق بكافة مجالاته صفات سلبية لله تعالى :

وبكلمة أخرى : إنّ كمال تنزيهه تعالى: ان نسلب عنه كافة ما للخلق، وكلّ ما عندنا من معاني وذوات وصفات ، مع اثبات وجوده بمعنى أنه ليس بمعدوم.

فإنما مستوى ادراكنا : العدم المطلق والأعدام الخاصة والوجودات الحادثة المخلوقة ، واما الوجود الازلي المطلق بصفاته الذاتية ، فإننا لا ندركه ومحالٌ أن ندركه ، أإدراكاً لما ليس لنا ذاته ولامثاله ؟ او ادراكاً لما لا نحيط به علماً وهو محيط بنا ؟ !

فاذا قلنا : الله موجود حيّ عليم قدير : فلا نعني منها ما نعنيه بالنسبة لانفسنا ، فانّه تشبيه ـ ولا العدم المطلق فإنه إبطالٌ «فإنه خارجٌ عن الحدين:

حدّ الابطال وحدّ التشبيه »

إنما نعني : أنه ليس بمعدوم ولاميّت ولاجاهل ولا عاجز ، فنحن اقرب الى العدم منا إلى الوجود ولذلك نأنس بالعدم اكثرمما نأنس بالوجود .

هذا وكما نسلب عنه كافة الذوات والصفات لمن سواه، تنزيهاً لساحة ربوبيته، وسوف نوافيكم في كلمة أخرى لهذا البحث .

●

الصدفة في خلق العالم

المادي . كلّ هذه المعاني انما تنتظم وتصّدق على فرض حدوث العالم ، وأنه لا بدّ له من خالق ازليّ ، فقد يقضى على لزوم الازلية اطلاقاً ، في المادة وسواها ، أمكانُ الصدفة في خلق الكون بما فيه .

فان لنا محيداً واسعا للتخلص عن اعتناق فكرة الإله الازلي المجرد ، وذلك يبرز في ناحيتين :

١ – إن خالق الكون ليس إلاّ نفسه او انه الصدفة ، وذلك على فرض حدوث الكون .

٢ – ان ازلية المادة اقرب واسهل للقبول والتصديق ، من خلقها بارادة الإله الازلي المجرد عن المادة ، اذ لو أننا حصّلنا معنى الازلية ، لم نكن لنفهم شيئاً عن المجرد وراء المادة فضلاً عن ازليته !

الالهي : « ام خُلقوا من غير شيء ٍ ام هم الخالقون . ام خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون » .

فهل إن الصدفة امرٌ وجودي ام عدميّ ؟ فعلى الثاني يلزم حدوث الكون دون علة ، وعلى الاول نبحث عن هذه العلة الوجودية التي تسمونها صدفة ، هل انها مادّية ؟ فهي اذاً حادثة كالمادة نفسها حسب الفرض ، ام مجردٌ عنها وهذا ما كنا نبغ طوال البحث !

خلق العالم من العدم ؟

المادي : وانتم ايضاً تقولون : ان الله خلق العالم من العدم ، اذاً فالعدم هو الاساس لخلق العالم ، سواء اكان صدفة ام سواها !

فالكون خُلق من غير شيء ، رغم الاية المحيلة له ـ كما أن الإله فيما تزعمون ، خلق العالم من غير شيء ، سواء .

الالهي : من غير شيء في الاية ، تعني : دون اية علة خالقه ، بدليل ام هم الخالقون ، استناداً الى ضرورة وجود خالقٍ مّا لأي مخلوق .

فالخالق قد يخلق الشيء لا من شيء كان قبله ، دون ان يخلقه من اللا ّشيء ، فإنه محالٌ بل انما يخلقه لا من شيء: إلا بارادته النافذة المبدعة للكون ، كما خلق الكائن الاول ، مهما كان لاول وهلة ، وانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له : كن ـ فيكون .

وقد يخلق الشيء من الشيء كما يخلق الجنين من النطفة والشجرة من النواة وكلُّ فرعٍ من اصله الذي خلقه لاول مرة ، تبديلاً في الصورة والماهية وتطويراً للمادة في اطارات تترى .

وكما ترى : إن البون شاسع بين الخلق لا من شيء: بارادة الخالق الازلي ـ والخلق من لا شيء : دون أية علة خالقة اطلاقاً ، بونٌ كما بين وجود العلة وعدمها للمعلول.

وفرقٌ بين خلق الكون من لا شيء وخلقه لا من شيء فالاول هو الذي يعني الخلق من العدم [1] .

الصدفة الخالقة ؟

المادي : إنّ لنا برهاناً بيّناً على امكان الخلق دون ا ّية علة ، هو الواقـــع الخارجي في عملية الصدفة ، كالتالي :

---

١ ـ راجع حوار الامام الصادق (عليه السلام) مع الزنديق في هذا الموضوع كما يأتي .

١ - انك تغوص في البحر ، تقصد استخراج اللؤلوء ، فتبذل قصارى جهدك ، لكنك لا تعثر إلاّ على شيءٍ آخر ارخص منه او اغلى ، دون اية علة إلاّ الصدفة !

٢ - او تهدف بالرمي هدفاً خاصاً فتخطئه الى غيره ، فهل تعلل هذا وذاك إلاّ بالصدفة .

الالهي : أولاً : إنّ المثال ليس بالذي يعارض البرهان والضرورة المقبولة في كافة الفلسفات: إنّ المعلول، كائناًما كان ، إنه بحاجة ذاتية الى علة مّا يعلّل بها.

ثانياً : إنّ مثال الصدفة في الغوص والرمي يختلف عما تستهدف إثباته ، وهو الصدفة في اصل حدوث الكون ، فهناك صدرت بعض العلل الوجودية : من الرمي والغوص ، دون خلق الكون ، الذي لم تفرض له أيّة علة وجودية ولا بعضها !

ثالثاً : ان المثالين لا يخلوان عن العلة التامة ، ففي مثال الغوص لم يكن الحصول على غير المأمول إلاّ بعلة الغوص من نقطة خاصة على شكل خاص ومن طريق خاص ، وان هذا الطريق يوصل الى ما لا يقصده الغواص ، دون ان يعلم ذلك ، فلم يتلوّن هذا الغوص بلون الصدفة واسمها إلاّ نتيجةَ جهل الغواص : مدَخله ومخرَجه وجهله : أنّ الهدف في هكذا غوص ليس هو اللؤلؤ ، وانما هو جوهرٌ آخر .

وليس للعلم بوصول الهدف علية مّا في ذلك ، فكل حادثة في الكون مسبوقة بعلة تامة تُعلّلُ هي بها ، سواء أكان المتعامل مع العلة عالماً بالعلية ام لا، وانما تختص الحادثة في صورة الجهل باسم الصدفة قضيةَ جهل المتعامل او الناظر فيها: بالعلية والمعلولية .

ولنأخذ مثالاً على ذلك : حجرٌ يقع فيشجّ رأس انسان بشكل خاص ، فان موقفنا من الرامي يُحدّد على ضوء علمه او جهله ، فمع العلم ينسب العمل

اليه فيندَمُ به ، ومع جهله ينسب الى الصدفة مجازاً،مع ان الرامي هو هو بعينه، بلا أي تغيير للواقع الموضوعيّ للرمي .

فليست كلمة المصادفة هنا وهناك إلا نتيجة عدم التقصُّد في الحادثة ، ولا مدخل للقصد والنية في العلية ـ وانما العلة التامة في الحوادث هي الافعال التي تنتج الحادثة ، عَلِمَ المعامل مع العلة ام جهل .

واذا فتشنا عن اية حادثة تُسمّى صدفة وجدنا علة تامة المعالم تحدثها معاصرةً لها ، على جهل للفاعل او غيره ، بلا استثناء لذلك ، اذ إنّ القاعدة العقلية لا يستثنى منها .

المعارضة الميكانيكية : حركة بلا علة معها ؟ !

المادي : لقد حقق الميكانيك الحديث،على ضوء القوانين التي وضعها (غاليلو) و (نيوتن) للحركة الميكانيكية : ان الحركة إذا حدثت بسبب فهي تبقى حتماً، دون حاجة في استمرارها الى علة ، خلافاً للقانون الفلسفي القائل : ان كل حادث بحاجة ماسة الى علة تعاصره ، وهذه المعارضة الميكانيكية تؤدّي الى إلغاء مبدء العلية رأساً ـ اذ إن الحركة اذا امكن لها ان تستمر دون علة ، كان في امكانها ان تحدث ايضاً في البداية ، دون علة ، وعلى ضوء هـــذه الامكانية في حدوث واستمرار الحركة دون علة ، نستوحي امكانية حدوث الكون بكامله ، ابتداء بلا سبب، اذاً تُحرّر الحدوث عن العلة اطلاقاً .

الإلهي:هنا ايضاً نكرر: ان الواقع الخارجي المزعوم لايستطيع ان يتعارض مع البديهة العقلية ولا سيما أن السند العلمي لهذا القانون ليس إلاّ التجربة :التي توضح ان جهازاً ميكانيكياً متحركاً بقوة خاصة في شارع مستقيم، إذا انفصلت عنه القوة المحركة فهو يتحرك بمقدار مّا بعد ذلك ـ قبل أن يسكن نهائياً ،ومن الممكن لهذه الحركة ان يُزاد في أمدها بتدهين آلات الجهاز وتسوية الطريق وتخفيف الضغط الخارجي

فإذا ارتفعت كافة الموانع عن الحركة ، كان معنى ذلك استمرار الحركة الى غير حـــدّ بسرعة معيّنة ، فيعرف من ذلك : ان الحركة إذا أثيرت في جسم ولم تعترضها قوة خارجية مصادمة ، تبقى بسرعة معيّنة وان بطلت القوة ، فالقوى الخارجية إنما تؤثر في تغيير السرعة عن حدّها الطبيعي ، تنزل أو ترتفع بها .

وإننا نعارض هذا السند كالتالي :

أولاً : ان الواقع الخارجي في بداية الحركة للجسم المتحرك يُلزمهم أن المتحرك بحاجة ذاتية الى محرّكٍ مّا ـ وان غاليلو ونيوتون ـ انفسهما ـ لاينكران ذلك ، حيث يقولان : إنّ الحركة إذا حدثت بسببٍ ... ولا ان أحداً حتى الآن ينكر حاجة المتحرك في بداية الحركة الي محرّك مّا .

فهـــذه الحقيقة تدلنا : أن الحركة ، مهما كانت مبتدئه أو مستدامة ، فهي بحاجة الي محـــرّك مّا ـ سواء ـ فان استمرار الحركة ليس إلاّ حدوثها متوالية ، ومن المحال أن تحتاج الحركة ـ ذاتياً ـ الى المحرّك ـ حيناً مّا ـ ولاتحتاج إليه حيناً آخر .

وهذا يبرهن لنا : أن هناك علة لإستمرار الحركة ـ خفيت على المعارضين الميكانيكيين .

فقد زعموا : ان العلة الحقيقية للحركة هى القوة الخارجية المحركة فحسب ، وان الحركة استمرت بالرغم من انقطاع هذه القوة الخارجية .

ولكن الواقع : أنّ التجربة لاتدلّ على أن القوة الدافعة من خارج هي العلة الحقيقية للحركة ، وإنما تُشاهد الحركة عند عملية القوة الدافعة ، فمن الجائز أن يكون السبب الحقيقى للحركة شيئاً موجوداً على طول الخط ـ في الخط وفي المتحرك ـ والأسباب الخارجية انما تعمل لإثارة هذه القوة وإعدادها للتأثير ، فكلـّما كان الدافع الخارجي أقوى كانت الحركة أسرع وأطول .

ومهما يكن من شيء فإننا نعلم بيقين : أن الحركة المستمرة في الجسم تُعاصِر

محركاً لها ، وعدم العلم بهذا المحرك لا يوحي : أن ليس هنا محركٌ في الاستمرار أبداً ، وإلا كان لزاماً أن يتحرك كل جسم في بداية حركته دون محـــرك ، لغير النهاية .

ثانياً : لمَ لايجوز أن تكون القوة المحركة المعاصرة للمتحرك مستمرةً ،هذه القوة حدثت بالدافع في نفس المتحرك، فهي تحركها في مدى إستمرارها وبقاءها.

أو أن هناك توجيهاً آخر فيزيقياً لم يكشفوا حتى الآن عن وجهه النقاب ، فان التجربة الميكانيكية لم توضح ما هي العلة الحقيقية للحركة ، لنعرف ما إذا كانت تلك العلة قد زالت مع استمرار الحركة .

وإنما هؤلاء زعموا : ان العلة الحقيقية للحركة هي القوة الخارجية ، ولكن الواقع أن التجربة لاتدل على شيء هنا إلا :أن الحركة استمرت بعد انقطاع الصلة من الدافع الخارجي ، وبقى عليهم أن يبرهنوا في : أن العلة الحقيقية هنا إنما هو الدافع الخارجي ، فهذه التجربة الناقصة المبتنية على الحدس والتخمين لاتستطيع أن تُعاكس القانون الفلسفي الذي ذكرناه ، وهو ايضاً مقبـــول لديهم في بداية الحركة لكل متحرك .

ثالثاً : ان هذه التجربة لاتوضح إمكان ان تحدث الحركة دون علة ـ وان توجد الاشياء ابتداءً بلا سبب ـ رغم انهم برهنـــوا ـ في زعمهم ـ على إمكانه بالواقع التجريبي من استمرار الحركة دون علة .

فان لنا ان نعكس الامر استناداً الى الواقع المحسوس: ان الحركة الابتدائية ليست إلا بالدافع الخارجي ، فليكن استمرارها ايضاً بحاجة ذاتيه الى محرك مّا ـ سواء ـ مهما عرفناه او جهلناه ، دون ان يُستند الى : ان الحركة تستمر دون علة ، لإثبات امكان الحركة الإبتدائية دون علة ، فان السند والنتيجه كلاهما ساقطان ، إذ ان التجربة لم تثبت هذا السند ،وان نتيجة الإمكان لو كانت صادقة لما بقيت الاجسام الساكنة على سكونها ، رغم امكان حركتها الابتدائية دون علة

فان هكذا إمكان يساوي الوقوع ، اذ إن الممكن الوقوع انما يَترقّب الوقوع بعلة، فعلى فرض عدم الحاجة الى علة ـ كان الواجب وقوعه ، كما يجب وقوع المعلول المعاصر لعلته ، سواء .

رابعاً : ان استمرار الحركة لو كانت دون علة مّا ، لما اختلفت الحركات المستمرة سرعة وبُطئاً ولا امداً زمنياً ، حال ان الواقع الخارجي يوضح لنا ان هناك اختلافاً شاسعاً بين الحركات المستمرة ـ حسب اختلاف الدوافع ـ فلو ان الدافع لبداية الحركة لم يخلّف اثراً مّا في المتحرك او في الخط أو فيهما ـ أو انه يثير قوة مّا فيهما أو في أحدهما ويعدّها للتأثير ، حسب الطاقة التي أوجدها هذا الدافع قوةً وضعفاً ، اذاً لاستحالت هذه الاختلافات في الحركات المستمرة ، فان فرض عدم معاصرة علة مّا للحركة المستمرة يفرض ان تكون هـــذه الحركة متساوية المدى والسرعة ، للمساوات في عدم العلة !

خامساً : ان انتاج استمرار الحركة دون علة ، على فرض ارتفـــاع كافة الموانع ، هذا إحالة على المحال ، فإن من الموانع القاطعة هي الفضاء ، التي تصطدم المتحرك في اصطكاكه ـ وتمنعه وتقلل من حركته ، فهل من الممكن ان يُرفع مانع الفضاء أيضاً كما يُرفع الموانع الأرضية ـ حتى تصبح الحركة في غير خطٍ مّا ومكان مّا ؟ !

فهناك في هذه التجربة الميكانيكية بيننا وبينهم بون شاسع ـ فانهم ينقضون اليقين بالشك ونحن ننقض الشك باليقين ، ولتفصيل البحث عن: أن العلة المحدثة هي العلة المبقية ، وأن بقاء المعلول بحاجة الي علّة تُعاصره كحدوثه ـ سواء ـ له مقام آخر سنوافيكم فيه .

فليس شيءٌ من هـــذه المشكلات الشائلة في طريقنا الى الله ، من التجريبية الديناميكية وسواها ، ليست هذه بالتي تعرقل خطواتنا الجبارة في هذه السبيل والله من وراءِ القصد ـ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مشكلة التجرد والاجابة عنها

- المادة او الله ؟
- هل ان وجود الخالق يستلزم الايمان به ؟

مشكلة التجرّد

المادي : اننا بعد ماندرس مشكلة الحدوث،نصل الى مشكلة هي أصعب من الحدوث ، وهي مشكلة التجرد للعلة المحدثة ، فنحن لا نستطيع أن نتصور للمجرد عن المادة كياناً فضلاً عن أزليته وأنه المصدر الأصيل لخلق الكون أجمع!

فهب إن الكون ـ حسب الفرض ـ حادث ـ وهو بحاجة ذاتية جوهرية الى علة مّا ، ثم تحقّقنا أنّ العلة تباين الكون المعلول تبايناً كليّاً في الذات وفي الصفات ، وحتى في حقيقة الوجود ـ إلاّ أننا نتأكد بعد ذلك كلّه من: أن تجرّد الخالق عن المادة ليس إلاّ تجرده عن الوجود ! اذاً فنحن في فكرة العـــلة المحدثة بين أمرين :

١ ـ إنّ العلة المحدثة أيضاً مادية ، ولكنها تباين المادة الكونية كليّاً ،فهي مادة لا كالمواد ، كما تقولون : إنه شيءٌ لا كالاشياء !

٢ ـ أو أنها مجردة عن المادة ،ونحن لانستطيع أن ندرك أو نعقل عن المجرد عن المادة إلاّ المجرد عن الوجود !

إذاً فالاعتناق بالخالق المادي : لا كالمواد ـ أقرب الى الفهم والتصديق من أن نعتقد في : الخالق المجرد عن الماده.

خالق الكون : مادة لا كالمواد ـ أو : مجردٌ عن المادة ؟

الالهي : إنّما المشكلة الشّائلة في طريقكم الى الله ، هي زعم أن المادة هي الوجود والوجود هو المادة ـ سواء ـ وعلى هذا الاساس تُكرّرون هذه الغلطة الساقطة ليل نهار ـ أن : اللاّمادة = اللاّوجود ، واللاوجود = اللامادة !

حال أن المادة لا تعني الوجود، لا لغوياً ولا فلسفياً، ولا أن الوجود يعني المادة كذلك ، وإلا ، كما سبق ، أصبحت المادة والوجود مستحيلة ، بسند الحدوث الذاتي في كافة مجالات المادة حسب الفرض ، ولا تستطيع المـــادة

مهما كانت بيئتها، ولا كالمادة: أن تكون هي العلة الأزلية ، إذ إن ذاتية الحدوث تشمل كافة مجالات المادة ، وكما سوف نوافيكم في البحث عن حدوث المادة .

والقول : إن الخالق مادة لا كالمواد كما أنه شيءٌ لا كالأشياء ، مع الفرض أنه يباين المادة كلياً : تَبايُن التناقض ، هذا جمع بين النقيضين في ذات الخالق، إذ إن أمره لا يخلوا عن :

١ - أنه مادي ، مهما كان ، أو :

٢ - أنه مجردٌ عن المادة كذلك .

ومن المحال أن يحمل الوجود كلا وصفيه ، الحاصرين الأصيلين : « المادة واللامادة » : المتناقضين ، أو أن يتحلل عن كليهما ، جمعاً بين النقيضين أو خلواً عنهما !

والصيغة اللفظية : أنه مادة لا كالمواد ، لا تنفع في رفع مشكلة التناقض ، وليست هذه الصيغة إلا كما يقال : البَرَد بياضٌ لا كسائر البياض ، بُغية سلب البياض عن البَرَد !

إذ إن هذه المادة الازلية الخالقة التي ليست كالمواد ! ، إنما تعني في هذه السالبة أحد أمرين :

١ - ليست كسائر المواد في الشكل رغم أنها مادية .

٢ - ليست كسائر المواد حتى في أصل المادية ، أي : ليست مادة حال أنها مادة !

فعلى الاول كان مادياً وكفاه ذلك حدوثاً كسائر المواد ، سواء .

وعلى الثاني كان مجرداً عن المادة ، حيث الفرض أنه لا يشارك المواد حتى في اصل المادية ، فتسميته باسم المادة تسميةٌ باسم مناقضه ، والمحاورات الفلسفية ليست بالتي تُؤثّر فيها التسميات الجافّة ولا سيما هكذا تسميات !

شيء لا كالاشياء :

وأمّا النقض: بأن الله شيءٌ لا كالاشياء ، فانه ليس إلا مغالطة بيّنة ، إذ إن الشيئية تختلف عن المادية، فإن المادة مهما كانت فهي حادثة دون ريب ـ لانها لاتشمل كافة مجالات الكون، فالمادة لا كالمواد حادثة ـ لوصحت التسمية ـ كسائر المواد ، سواء ، ولكن الشيء : منه حادثٌ وهو المادة ، ومنه ازليٌ هو المجرد عن المادة ، والقول : أن الله تعالى شيءٌ لا كالاشياء ، فيه اثبات ونفي : اثبات أنه موجود ، ونفي أنه يماثل سائر الوجود ، وبصيغة اخرى : إنه خارج عن الحدين : حد الابطال وحد التشبيه .

وبتعبير آخر : كونه مادة لا كالمواد، يثبت ماديته ، ولازمها الحدوث ، مهما كانت ، وأما كونه شيئاً لا كالاشياء ، فإنه يثبت وجوده بما انه شيء ـ ثم ينفي عنه ذاتية الحدوث حيث يسلب عنه الكينونة الحادثة المادية ، فهو لا يشارك الكون حتى في حقيقة الشيئية الحادثة ، فله شيئية وحقيقة تباين الكون كلياً ، ولكن المادة محالٌ أن تباين مادة اخرى كلياً ، وعلى فرض التباين لا تتحلل عن الحدوث الذي هو لزام المادة !

اذاً فلا سبيل لكم إلا : أن تعتقدوا إما في : أن الكون محالٌ بكافة مافيه ، إذا كان حادثاً دون خالق مجرد ازلي ، او أن له الهاً مجرداً ازلياً !...

الله مجمع السلوب المادية ؟!

المادي : رجاء الإجابة عن الاسئلة التالية حول الاله المجرد ! :

هل له مكان أو زمان ؟ لا .

هل له حدٌ وأبعاد أو لونٌ من الالوان ؟ لا .

هل له أعضاء : يدٌ ورجلٌ وقلب ورئة وعينٌ وأنف ولسان وحاجبان و...؟ لا .

فهل له شيءٌ مما لهذا الكون ، مهما كان ؟ لا .

المادي : إذاً فالإله المجرد عن المادة بمجموعة اللاثات والأعدام ، فهو : لا ، عند كل سؤال عن أيّ كيان للكون ـ فمجرد عن اصل الوجود ـ فاين له الوجود وأنـّى ؟! ثم أنـّى هي الازلية والخالقية لما لا وجود له ؟!

الكون المادي من صفات الاله : السلبية :

الالهي : إننا نعارضكم بالمثل كالتالى :

هل إنّ الكون الماديّ أزليُّ ؟ ـ حسب الفرض : لا

هل إنه غير متناه ولا محدود ؟ لا .

هل إنه الحياة اللاّنهائية ؟ لا .

هل له العلم اللاّنهائي ؟ لا .

هل له القدرة اللاّنهائية ؟ لا .

هل إنه خالق نفسه أو غيره ؟ لا .

اذاً فالكون المادي بمجموعة اللآثات والأعدام ، فهو: «لا» عند كل سؤال عن أيّ كيان حقيقي ـ فالمادة اذاً صيغة أخري عن اللاوجود !

المادي : نفي هذه الصفات عن الكون المادي لا يعني نفي كونه ، وإنما يعني نفي ما ليس له من صفات أزلية ـ لانه ليس أزلياً ـ فالكون المادي موجود لكنه لا يحمل صفات الازلية لانه حادث .

الالهي : وكذلك نفي صفات المادة عن الإله المجرد الازلي ـ لا يعني نفي وجوده ـ وإنما يعني نفي ما لايحق له من صفات الحدوث والفناء .

فنفي الصفات الازلية عن المادة يعني : أنها ناقصة حادثة محتاجة الى إله أزلي وراء المادة .

كما أن نفي الصفات المادية الحادثة عن الله تعالى يعني: أنه تعالى في غايةالعزّ و والقدرة والعلم والغنى وكافة الكمالات اللائقة بذات الالوهية .

نفي ونفي !

فالله تعالى : ذاته وصفاته الذاتية كلتاهما من الصفات السلبية للكون ، إذ ليس عندهم شيءٌ مما عنده .

والخلق ذواتهم وصفاتهم : من الصفات السلبية لله تعالى ـإذ ليس فيه ما لهم ـ سلباً للحدوث عن ساحة ألوهيته تعالى ، فهو على حدّ تعبير الامير عليه أفضل الصلاة والسلام :

« لا اسمٌ ولا جسمٌ ولا مِثلٌ ولا شبهٌ ولا صورة ولا تمثال ولا حدٌ ولا حدودٌ ولا موضع ولا مكان ولا كيف ولا اين ولا هنا ولا ثمة ولا مَلأ ولا خَلأ ولا قيام ولا قعود ولا سكون ولا حركة ولا ظلماني ولا نوراني ولا روحاني ولا نفساني ـ فلا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع ـ ولا على لون ولا على خطر قلب ولا على شمّ رائحة . منفيٌ عنه هذه الأشياء »[1] .

فذالكم الله رب العالمين ، تُسلب عنه المادة : بحدودها وخواصها وآثارها ، لانها نقصٌ في نقص ، حدوث في حدوث ، فقر في فقر ، سلبٌ في سلب ! ..

فنحن إذ ننفي عن ذاته تعالى وصفاته : الحيثيات الذاتية والصفاتية :المادية ، فإنّما نعتبرها من صفاته السلبية .

واذ نثبت له الازلية والتجرد عن المادة،والعلم والحياة والقدرة المطلقة ، فهي منصفاته الثبوتية ، وان كانت هي ايضاً على حدّ أفهامنا ترجع الى السلبية

---

١ ـ البحار للعلامة المجلسي ج ٣ الطبعة الحديثة ص ٣٢٠ جع عن ابن الحنيفة عن امير المؤمنين (ع) .

ايضاً ، لا كالاولى .

فاذا قلنا : إنه : « لا اسم ولا جسم و ... » نعني بذلك السلب الحقيقي .

واذا قلنا : إنه موجود أزلي عليم حيّ قدير ... نعني : أنه ليس بمعدوم ولا حادث ولا جاهل ولا ميت ولا عاجز ، إذ إننا نعجز عن درك الناحية الإثباتية لهذه المعاني في ذات الله وصفاته ، لأننا ، لا نحيط بها علماً .

أجل إنه لو سُلِب عن ذاته وصفاته ذاتُ المادة واللاّمادة وصفاتها ـ إذاً كان مسلوب الوجود إطلاقاً ـ اذ يفقد حينئذ وصفي الموجود : « الازلية والحدوث » .

تنزيه الالّه في إطارات ثلاثة :

الصفات السلبية في مراحل ثلاث :

١ ـ فنحن نسبحّه ونُنزّهه تعالى عن ذوات الكائنات وصفاتهم ـ و : ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير .

وفي هذا الإطار تصبح كافة الكائنات الحادثة من صفاته السلبية .

٢ ـ ونُسبّحه ونَصِفه كما وصف به نفسه ، دون أن نختلق له أسماء وصفات كما نريد :

«فسبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين» ٣٧ : ١٦٠ فإنهم لا يصفونه تعالى إلا بما وصف به نفسه ، كما أنزل في كتابه الحكيم على نبيّه الكريم : «فللّه الاسماءُ الحسنى فادعوه بها وذَرِ الذين يُلحدونَ في أسمائه سَيجزون ما كانوا يَعمَلون » ٧ : ١٨٠ .

٣ ـ ونُسبّحه عن تفسير أسمائه الحسنى وصفاته العليا بالمعاني التي نعرفها ونتّصف بها ، فلا نعني من أنه تعالى : عليمٌ قديرٌ حيٌّ : ما نعنيه من مفاهيم

ومعاني فينا ـ بل : أنه لا يجهل ولا يعجز ولا يموت ، ولا من أنه تعالى : سميع بصير : أنه يسمع بأذُن وآلة أو يُبصر بعين ...

« فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ وكُن مِنَ السَّاجدين» ١٥ : ٩٨ « فَسبح بِاسم ربّك العظيم » ٥٦ : ٧٤ « سَبِّح اسم رَبّكَ الاعلىٰ » ٨٧ : ١ .

ولا يعني تسبيحُ الحمد والاسم ، إلا تنزيه تعالى :

١ ـ عن إختلاق أسماء وصفات له غير ما سُمّي ووُصف به نفسه .

٢ ـ أن تعني من أسمائه مثل ما نعنيه من مفاهيم : مفاهيم وجودية كما هي لنا : من الوجود والعلمُ .

٣ ـ ان نفسر أسمائه بكل ما تحمل من معاني ، مهما كانت لاتناسب وقدسية ذاته تعالى : كالسمع والبصر واليد والرجل .

٤ ـ ان نشبّهه بخلقه ، مهما كان التشبيه لطيفاً في أدق معانيه .

اذاً فنحن لانعني منه تعالى ولايحق لنا أن نعني ـ إلاّ : أنه ليس كمثله شيءٌ.

هذا الإله !

فهذا الإله كنهه في غاية الخفاء والحجاب ، خفيٌ بالذات وظاهرٌ بالآيات ، فلا ظاهر بالآثار أظهر منه ، ولا خفيٌ بالذات اخفى منه « عميت عينٌ لا تراك ، ألغيرك من الظهور ما ليس لك؟ أفي الله شك فاطر السماوات والارض» والكون محرابٌ تسجد فيه الكائنات لربها !

يقول روبرت موريس بيج ، عالم الطبيعة [1] « .... ولا بد لنا ان نسلم فوق ذلك بما يسلّم به الكثيرون . من أن قدرتنا على الملاحظة لا تستطيع ان

---

(١) حاصل على دكتوراه في العلوم من جامعة هاملين ، كان أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٣٤ ، سجل نحو ٣٧ بحثاً معظمها في الرادار ، ألف كثيراً من الكتب، يعمل في الوقت الحاضر مديراً مساعداً في معامل البحوث البحرية الاميركية .

تمتد لغير جزء ضئيل نسبياً من الحقيقة الكلية ، فالإله الذي نسلم بوجوده لاينتمي إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تـدركه ، وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول اثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية ، لانه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة .

فاذا لم يكن للإله وجود مادي فلا بد أن يكون ذلك الإله روحانياً [1] أو هو يوجد في عالم من الحقيقة غير ذلك العالم الفيزيقى على أية حال .

وبذلك فانه لا يمكن أن "تحده" تلك الأبعاد الثلاثة ، أو أن يكون خاضعاً لقيود الزمان التي نعرفها ، ولا بد لنا ان نسلّم أن هذا الكون المادي الذي يخضع لقيود الزمان والمكان ليس إلاجزءً يسيراً من الحقيقة الكبري التيينطوي عليها هذا الوجود ...»

ويقول ميريت ستانلي كونجدن ، العالم الطبيعي والفيلسوف : « ومما لا شك فيه أننا نحتاج في محاولتنا لوصف الخالق ومعرفة صفاته إلى مصطلحات ومعان تختلف اختلافاًبيّناً عن تلك التي نستخدمها عندمانصف عالم الماديات، فالصفات المادية والتفسيرات الميكانيكية التي تقوم على نظريات السلوكيين ـ تعجز عن أن تعيننا على تحقيق هذه الغاية ، وبخاصة بعد أن تبين لنا : أن هذا الكون الذي نعيش فيه لا يمكن ان يكون مادةً صرفاً ، وإنما هو مادة وروح ، أو مادة وغير ماده، ولا نستطيع أن نصف الاشياء غير المادية بالاوصاف المادية وحدها.

... فلو لم يكن هذا الكون ثنائياً لا ستطعنا أن نعرف الفكرة تعريفاً مادياً صرفاً ، وهو ما لم يحدث ابداً ، والنظريات المادية التي قدمها ديموقريطس، وهوبز ، والسلوكيون ، وكذلك النظريات المثالية الصرف التي تفسّر هـــذا الكون تفسيراً معنوياً خالصاً ممّا قدّمه ليبنتز ، وبيركلي ، وهيجل ، نقول : إن هذه النظريات الالحادية جميعاً لا تعدو ان تكون مجرد افتراضات تقوم على

---

(١) اي مجرداً عن المادة لا روحانياً كمثل ارواحنا .

التخمين ولا تستند الى ايّ اساس من الوجهة التجريبية ...

إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ـ حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار ايادي الله وعظمته .

ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل اليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ولكننا نرى آياته في انفسنا وفي كل ذرّة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته » .

... « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ...»

●

المادة او الله ؟!

المادي : أيها أظهر ؟ الله أو المادة ؟ : الظاهرة بالذات وبالآيات ، اذاً فهي احرى بالالوهية والازلية ! .

الالهي : إلى هنا كنا نبحث على فرض حدوث الكون ، وعليه فالكون الحادث كيف يستطيع أن يكون إله نفسه ، أو مستغنياً عن الخالق ؟ !

المادي : اذاً فلماذا لا يُظهر ذاته لكي لا ينكره خلقه ويرتفع الخلاف من البين ؟ . فهل لايستطيع أن يظهر ؟ اذاً فهو عاجزٌ ! أم يستطيع ويبخل ؟ فما على الخلق اذاً ألا يعرفوه لانه لم يعرّفهم ذاته ؟ .

المحال في جنب القدرة اللانهائية :

الالهي : إنه تعالى قادر ولايبخل ، وليس خفاء الذات لقصورها عن الظهور ـ إنما هو لقصور عقولنا وحواسنا عن دركه واكتناه ذاته ـ فمحالٌ أن نحسه لانه ليس بمحسوس ـ ولا أن نعقله فإنه ليس بمحدود ـ والمحال لاتتعلق به القدرة ـ مهما كانت إلهية ـ لالنقص في القدرة بل للإستحالة الذاتية في المفروض أنه محال.

وهذه خرافة من القول وزورٌ : أن المحال لا يستحيل في جنب القدرة اللا ّنهائية ، فاننا لاتتكلم عن المحال النسبي حتى يمكن أحياناً ويستحيل أخرى، وإنما نبحث عن المحال الذاتي ـ فهو محالٌ مهما كانت القدرة لانهائية ـ إذ إن القدرة إنما تتعلق بالممكن ـ فلو تعلق بأمر مّا ـ كان هذا برهاناً ساطعاً على إمكانه الذاتي ، وهو خروج عن فرض الاستحالة !

فالامور التالية وماإليها ـ هذه من المحالات الذاتية التي لاتتعلق بها القدرة اطلاقاً:

المحالات الذاتية :

١ - الجمع بين النقيضين . ٢ - كون الشيء قبل نفسه .
٣ - خلق الشيء نفسه . ٤ - كون الشيء واحداً و كثيراً لحالة واحدة
٥ - احساس غير المحسوس. ٦ - انعدام الازلي أو إعدامه نفسه.
٧ - خلق الشريك لله تعالى و . .

فكل هذه الموارد وأمثالها ترجع الى اجتماع النقيضين أو إرتفاعهما وهو محال ذاتياً.

لذلك ترى الامام الصادق عليه السلام إذ يسأله الزنديق : أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين ؟ يجيبه كلمة واحدة :

ليس للمحال جواب [١]

يعني بذلك : أن المحال ليس شيئاً يُذكر و يُسأل عنه .

وعنه عليه السلام قال : قيل لأمير المؤمنين علي عليه السلام هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة ؟ قال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسب الى العجز والذي سألته لايكون [٢] .

وهناك روايات أخرى توهم بادىء الرأي : بإمكان هكذا محال في جنب القدرة الالهية :

١ - « ان ابليس يقول للمسيح عليه السلام : أيقدر ربك على أن يدخل الارض في بيضة :لا تصغر الارض ولا تكبر البيضة ؟ فقال المسيح عليه السلام : ويلك! إن الله لا يوصف بعجز ومن أقدر ممن يلطّف الارض ويعظم البيضة ؟»[٣]

٢ - « سأل رجلٌ أمير المؤمنين عليه السلام : أيقدر الله أن يُدخل الارض في بيضة ولا تصغر الارض ولاتكبر البيضة ؟ فقال عليه السلام : ويلك إن الله لايوصف

---

١ - البحار ١٠ ص ٣١٠ .
٢ - نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن التوحيد بإسناده الى عمر بن اذنية عنه عليه السلام.
٣ - نفس المصدر بإسناده الى ابن أبي عمير عمن ذكره عن ابيعبد الله عليه السلام عن المسيح (ع)

بالعجز ، ومَن أقدر ممن يُلطّف الارض ويُعظّم البيضة ؟ »[1] .

والسيد المسيح والإمام أمير المؤمنين علي عليهما السلام ـ إنما يجيبان هنا عن الحالة الممكنة من إدخال الارض في البيضة ـ وهو تلطيف الارض برفع الخلل والفواصل عن أجزائها الى الحد الممكن ودمج أجزائها دمجاً تاماً ـ ثم إدخالها في البيضة ، دون أن تكبر البيضة حجماً وان عظمت ثقلاً ، فالحجم هو الحجم في البيضة والثقل ثقل الارض .

فهناك صورةٌ ممكنة وأخرى مستحيلة : فالممكنة هي تلطيف الارض بتصغير حجمها الى حيث تضمنها البيضة ، وتثقيل وزن البيضة بادخال الارض فيها مع بقاء حجم البيضة .

وأما المستحيلة فهي إدخال الارض على حجمها في البيضة مع بقاء البيضة بحجمها أو وثقلها ـ فإن في ذلك جمعاً بين المتناقضين ـ وجوابه : ليس للمحال جوابٌ والذي سألته لا يكون وان كان الله قديراً على كل شيء »

وعلى هذا يُحمل المعني من قول الرضا والصادق عليهما السلام في الجواب عن هكذا سؤال ـ حيث قالا : «نعم ! وفي أصغر من البيضة ـ وقد جعلها في عينك وهو أقل من البيضة ، لانك إذا فتحتها عاينت السماء والارض وما بينهما ، فلو شاء لأعماك عنها »[2].

ومن البديهي أن السماء والارض ـ حينما ينظر الانسان إليهما ـ لا يدخلان بذاتيهما في العين ـ ولا بصورتيهما المساوية لحجمهما ، وإنما تنعكس صورةٌ منهما في العدسية العينية ـ وهذا تلطيف للحجم ـ والصورة هي الصورة ، وكذلك الارض بإمكانها أن تدخل في البيضة بشرط تلطيفها بان يصغر الحجم ولكن الصورة هي الصورة والثقل هو الثقل ـ تأمل .

---

١ ـ نفس المصدر بإسناده الى ابان بن عثمان عن ابيعبد الله عليه السلام عنه عليه السلام.

٢ ـ نور الثقلين ج ص٣٣ عن التوحيد بإسناده الى أحمد بن محمد بن ابي نصر قال جاء رجل الى ابي الرضاء عليه السلام ..

هل ان وجود الخالق يستلزم الايمان به

المادي : وعلى فرض ان هناك الهاً خالقاً مجرداً عن المادة ، فنحن لا نرى الايمان به حتماً علينا ولا امراً راجحاً ، اذ إن الايمان بهكذا مبدء: قيد وأسرٌ وخروج عن الحرّية الى أسر العبودية ، اذاً فاحرى بنا ان ننكر وجوده او أن وجوده لا يملي علينا الايمان به .

الالهي : اجل : ان مجرد الاقتناع بوجود الله لا يجعل الانسان مؤمناً ، فبعض الناس يخشون من القيود التي يفرضها الإعترا ف بوجود الله على حريتهم، فان الايمان قيدٌ ولكنه قيد الفتك ، قيدٌ يضمن حرية الانسان عن أسر الهوى ويُنير الدرب لمن يدّق ابواب الفلاح والهدى ، فليس كلّ قيد مما يجب او يصحّ ان يُتحلل عنه ، إذ إن الانسان في قيد ، مهما كان قيد العقل أو الهوى، و «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى » .

ولا سبيل لتحلـّل الانسان عن قيود الهوى الجارفة المردية ، وأخطائه المتواصلة المادية والعقلية، ولا لتقدمه في مختلف المجالات الحيوية : عقلية ومادية، إلا سلوك سبيل الله ، حيث يهدينا سُبل النجاة ، دون أن يريد منا ما ينفعه وحاشاه ! فان الله غني عنّا ولا يرضى لعباده الكفر ، وإنما يريد منّا ولنا الخير ليس إلاّ ،

اجل : فاذا كنا نريد أن تبقى الحياة الارقى ، محافظة على ما عرف عنها من سُمو- فإننا بحاجة ماسة الى توجيه مقدس.. فالاحزان والكوارث التاريخية تثبت لنا : أن الاخلاق والحق والعدالة والرحمة والحرية ، هذه قد تفقد معانيها وتؤدي الى حياة ذليلة خسيسة ما لم تكن متصلة بإيمان عملي !

المادية والنازية اللادينية :

ففي دركات المادية والنازية اللادينية والنزعات الإلحادية ، ضاعت المواهب التي حبا الله بها الإنسان ، وتلطخت بالاوحال والاحوال الساقطة الشريرة .

إن الإنسان لا يستطيع أن يكون حراً أو ان يعيش معيشة انسانية إلا في عالم يقوم على الاخلاق وعلى تحمل المسؤوليات تجاه الإنسانية والإنسان، فالناس متساوون وأحرار ، لا لشيء : إلا لأنهم عباد الله ، اي لم تقم المساواة بينهم إلا بوصفهم عباد الله على سواء ، فهي مساواة من وجهة نظر الله ، إلا من هو أتقى وأرقى في العبودية« يا أيها الناس إنّا خَلقناكم مِن ذَكرٍ وأنثى وجَعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتعارَفوا إن أكرَمَكم عِند الله اتقاكم » الحجرات : ١٢ .

فإذا انكر وجود الله وانكر القانون الاخلاقي فلا سبيل إلى انكار الاستعباد ولا إلى محاربة المبدء الذي يَرى : أن القوة هي الحق ، أو إلى محاربة الجشع واستغلال البشر .

وإذا لم يكن لدى الناس قِيَمٌ داخلية ، فانـّى تكون لهم حرية اختيار مطلقة تنبعث من النفس أو واجب مطلق ، إن ذلك يؤدي إلى فهم هذه القيم فهما سطحياً ، وإلى امكان استخدامها لتحقيق الأثرة والتوسع في الصالح الشخصي ، كاستخدام الآلة والرقيق في أيدي ذوي السلطان .

إن الحقوق التي اعطاها الله للانسان لا يستطيع ان يستردْها سواه ، اما الحقوق التي يعطيها الإنسان لأخيه الإنسان ، او تعطيها له إحدى المؤسسات التي صنعها البشر ، فليس من العسير إنكارها او استردادها ، فإذا لم تكن حقوقنا الثابتة صادرة عن المصدر الأعظم : عن الخالق ، فمن الجهل والحماقة أن نظن : أن للبشر حقوقاً لا يستطيع إنسان أو مؤسسة من المؤسسات التى صنعها الناس أن يتغافلها أو ينكرها ، وعلى ذلك فإنه ليس للإنسان: الحق في أن يدعي أن له قيمة داخلية أو كرامة أو حقوقاً او واجبات مطلقة أو مسؤوليات

إلا بوصفه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى .

وأعود أنا فأقول : هل الاخوة بين الناس اتفاق مادي يقوم على أساس : أن القوة وحدها هي التي تحدّد سلوك الأفراد والجماعات ، أم إن هذه الأخوة ترجع إلى اشتراكنا في عبودية الله ؟ وأي المصدرين يهيىء لنا بقاءً أطول ودواماً أدوم ؟ وهل ترجع حريتنا الى حرية الروح، حرية اتخاذ القرارات وحرية العقل؟ ام إنها مجرّد إتفاق مادي له صبغة اجتماعية ؟ وكيف يمكن أن يستمع الانسان بالحرية إذا كان يُنظر اليه على أنه عبد من عبيد الدولة ؟ ... افعبادة الله الحيّ القيوم الغني احرى ، ام عبادة العباد الفقراء المحتاجين ؟ مع العلم اننا لا نستطيع ان نتحلل عن كافة الوان العبادة ، إذ إن الانسان ، كائناً من كان ، ليس بالذي لا يحتاج الى سواه ، وهذه الحاجة كيفما كانت ، هي عبودية وتذلّل لمن يحتاج اليه ، اذاً فهل من الاحرى أن نعبد من خَلَقنا ورَزقنا وهو غنّي عنا ويهدينا الى سواء الصراط ، دون زلل وخطَل ؟ او أن نعبد من هم كامثالنا او ادون، او هم محتاجون ـ مهما كانوا اغنياء واقوياء ـ او ان نعبد اهواءنا اوأهواء سوانا؟! ..

... فعندما ينعدم الاعتقاد بوجود القيم الداخلية وفي كرامة الفرد ، تظهر الكوارث الاخلاقية ، وتعمّ الوحشية ، وتجد لها مسوغات في فكرة الاجناس الراقية ، او الاجناس الممتازة ، وفي فكرة : أن صالح الدولة هو الغاية التي ليس وراءها غاية ، وفي مبدء : « الغاية تبرّر الوسيلة » .. ولقد كان هذا هو الأسلوب الذي استخدم في « نورنبرج » وإلاّ فكيف اعتُبِر زعماء النازيين ودكتاتوريوهم ـ ممن كانوا مسئولين عن جميع التصرفات الوحشية ـ نقول: كيف اعتبروا مذنبين فوجّهت إليهم الاتهامات وثبتت إدانتهم ، ولم يكونوا في كل ما قاموا به من هذه الأعمال المزرية إلا منفّذين لاوامـــر سادتهم وقوانين النازيين ومبادئهم ؟

إنهم لا يمكن أن توّجه اليهم الاتهامات ويُدانوا إلا في ظل القانون الالهي الابدي الذي يُطلق عليه اسم « مبادي الانسانية » .

ولو كانت القوانين الوضعية هي المصدر الوحيد لحقوق الانسان ، فعلى اي ّ أساس نستطيع أن ندين النازيين على إضطهادهم الاجناس كالفجر والبولنديين واعدائهم السياسيين ؟ وعلى ايّ اساس نستطيع أن نـــدين مالقيه الوطنيون الجريون المجاهدون من اضطهادات !

لقد اهدر النازيون حقوق غيرهم ولم يعتبروا أن للبشر حقوقاً ، وأن للاضطهاد حدوداً ، فاذا كان هنالك حقوق ثابتة للناس ـ فمن الذي ثبّت هذه الحقوق ؟ واذا لم يكن الانسان قد ُخلق ، فكيف يستطيع ان يدعي : انـه هو الذي خلق العزة والكرامة والحقوق الواجبات وحرية الارادة والتحرر ؟

. . اننا نجد في الحياة الامريكية المعاصرة كثيراً مـــن الأدلة على ان الديموقراطية الامريكية قد وهنت وزلزلت اركانها بسبب سيرها في الاتجاه المادي ، وابتعادها عن الاساس الديني والروحي ، وهناك محاولات في العالم الغربي للعمل على صيانة حقوق الانسان بعد ُنكران اصلها المقدس ، ولكن هذه الحقوق التي هي رصيد روحي وثمرة من ثمار الدين في العهود الماضية ، لا يمكن أن تبقى اذا اقتلعت جذورها واجتثّت من فوق الارض او ُشوّهت اعضاؤها وضاعت معالمها ، او لم يعن احد بزراعتها او غرسها .

المزايا الخالدة للاعتقاد بوجود الله :

وللاعتقاد بوجود الله مزاياه الخالدة ، وهناك ثلاثة اسباب تحملنا على الاعتقاد بأن الايمان بالله لا يضيع ابداً ، فمن ذلك :

اولا : أن النظام التربوي الذي يناسب كلّ الناس في سائر الأزمان ، يقوم على الايمان .

والنظام التربوي الذي يقوم على الفلسفة الطبيعية ويستهدف الصحة والمتعة ، فإنه لا يناسب ذوى الامراض المزمنة التي لا تبرأ ، ولا يناسب المشوّهين او المرضى الذين فقدوا الامل في الشفاء .

والنظام التربوي الذي يقوم على الفلسفة البرجماتية ، لا يناسب غير القادرين عليه وغير المهيئين له .

والتربية التي تقوم على الفلسفة الانسانية لا تناسب من لديهم استعدادات ميكانيكية ...

واما التعليم الذي يقوم على الايمان بالله فإنه يناسب سائر البشر ، على اختلافهم : في الكليات ، وفي الاسواق ، وفي البيوت وفي المستشفيات وفي الاحياء الفقيرة والسجون والمعارك .

إن الإيمان بالله يولّد قوة ً تضمن لصاحبها ألا ّ يحيق به ضرر مطلق ـ وأنه يُطـَمئِن القلوب بمـا تعتمد وتتوكل عليه وترجو الزلفى لديه « ألا بِذِكر الله تطمئنُ القلوب » ولا يطمئن القلب أبداً بما سوى الله لأنها على سواء في الحاجة والاضطراب ـ وان سبيلها الى الفناء .

إن الدين من الوجهة البيولوجية يمكن تعريفه بأنه عبادة الإنسان لقوة ُعليا لا نهاية لها ، نتيجة ً لشعوره بحاجة ٍ في قرارة نفسه الى هذه القوة .

ثانياً : إن الإعتقاد في وجود الله ضروري لإكمال معني الحياة والكون ـ ولا شك أن العقلاء من الناس سوف يبحثون دائماً عن هذا المعنى .

ثالثاً : بصرف النظر عن الهجمات المتكررة التي تشُنـُّها العقـــول الضالة المرتبكة ـ أو العقول المفكرة ، فإن الأطفال سوف يؤكدون في المستقبل ما شاء لهم أن يولدوا ، وسوف يخضعون في تكوين عقولهم لنفس القوانين التي خضعت لها العقول ، عندما تكونت في الماضي ، مادام هنالك تفاعل بين العقل والخبرة الحسية ، وما دام الكون يخضع لنفس القوانين التي خضع لها في الماضي ، وسوف يستمر العقل الناضج في استجابته لمباديء القانون الطبيعي والتفكير السوي ، إلا ّ إذا حيل بينه وبين السير في هذا الطريق الطبيعي ، بأن وُضعت العوائق في سبيله أو ُضلّ عن السبيل ، وان عقول الغالبية العظمى من البشر قد سارت في طريقها غير

منحرفة عن المبادىء الأساسية التي تقوم عليها القوانين التي تتحكم في الطبيعة وسائر وظائفها ،لقد ذهبت هذه العقول المفكرة تبحث فيما وراء الوقائع المباشرة التي يدركها الحسّ لعلها تعرف «السبب» وتكشف عن « الحقيقة » وقد وصلت إلى الاعتقاد بوجود الله .

ومن أجل ذلك يحق لنا أن نستبشر خيراً «فأمّا الزّبدُ فيذهبُ جفاءً وأمّا ما ينفعُ النّاس فيمكثُ في الأرض » « بل نقذفُ بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ ولكمُ الويل ممّا تصفون »

وما من بقاءٍ إلاّ للأشياء الملائمة التي ينتفع بها الناس جميعاً ، ولذلك فإن الايمان بالله قد بقي عالياً خفّاقاً على مرّ الأجيال ، وسوف تستمر عالية خفاقة كلما ولد الطفل بإحياء الله من الفطرة السليمة ، لو لم تظلم عليها ظلمات الإلحاد والمادية فـ « كل مولودٍ يولد على الفطرة »؛ فطرة التوحيد .

وكما قال ماكس بلانك ، العالم الطبيعي الذي فتح الطريق الى أسرار الذرة: إن الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معاً في معركة مشتركة ضدّ الشكّ والجحود والخرافة ، ولقد كانت الصيحة الجامعة في هذه الحرب وسوف تكون دائماً إلى الله [1].

---

١ – ان الكثير منهذه العبارات مقتبسة من: اندروكونواي ايفي العالم الفسيولوجي وقد اسلفنا التعريف به في اول الكتاب .

خرافة ازلية المادة

- العلوم العقلية والتجريبية تحيل أزلية المادة .
- الأزلية والحدوث في بحوث .
- المادة في مختلف بيئاتها .

خرافة ازلية المادة :

المادي : الى هنا كنا نتماشى معكم : الالهيين ، في فرض حدوث الكون تماماً ـ في ذاته وأطواره ـ إلا أن النظرية الأصلية المادية ـ التي لامراء فيها ـ : أن المادة أزلية الذات ، ثم الحوادث الطارئة عليها تحدث نتيجة للحركة والطاقة الكامنة فيها ، التي عملت على انبثاق هذه الصوَر والماهيات المختلفة المتعاقبة المتواردة على المادة ـ في طول العالم وعرضه ـ

إذاً فالمادة خالقة ومخلوقة ،خالقة أزلية في جوهر ذاتها ، نعني المادة الأولية ، وحادثة مخلوقة في تطوراتها ، فهي إذاً لاتحتاج الى خالق يخلقها ، كما أن الخالق المجرد عن المادة في العقيدة الميتافيزيقية ـ ليس له خالق ـ سواء ! .. وإنما هي خالقة من الجهة الذاتية ـ ومخلوقة من حيث التطورات العارضة لها ، ولاخالق لهذه التطورات إلا نفس المادة بما فيها من القوّات الجبارة ! .

الالهي : دعوى أزلية المادة هكذا ـ هذه مما لايساعدها أي برهان ـ لاعقلياً مجرداً ، ولا حسّياً تجريبياً ـ إلا توهماً وظناً : لا يملك أيّاً من مقـــومات الفلسفات إطلاقاً .

«وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى ومايهلكنا إلا الدهر ٤٥ : ٢٤

أجل ، وإن مقالات الماديين المنكرين لما ورائها ـ إنها لاتملك أيّة برهنة ، مهما كانت ضئيلة ، إلاّ دغاوي ودعايات وخرافات يزخرفون بها خـــرافة أصالة المادة للبسطاء !

ايهما ازلي : المادة او الله ؟

ونحن نتسائلكم في هذه الدعوى كالتالى : هل إنكم وجدتم أزلية المـــادة بالإحساس المادي وعلى ضوء العـلوم التجريبية ، إذ كنتم من الازل اللاّ أول فالفيتموها أزلية كأنفسكم ـ سواء ؟ !

أم إن آثار المادة وخواصها هي التي تدلكم على أزليتها ؟ .

المادي : نعكس السؤال هكذا : هل إنكم وجدتم حدوث المادة ، إذ كنتم حين حدثت ؟ . ولذلك تحكون بحدوثها فتختلقون كائناً مجرداً عنها وراءها ، زعمَ أنه الخالق لها ؟ .

الالهي : إننا وإياكم في عدم الوجدان الذاتي لأزلية المادة أو حدوثها ـ على سواء ـ إذ كما أنكم لم تكونوا من الأزل اللا أول حتى تدركوا أزليتها ـ كذلك نحن لم نكن حين حدثت ـ سواء .

فالدلالة الذاتية منفية عن المادة إطلاقاً : سواءٌ أكانت على الأزلية أو على الحدوث ، نعني من الذاتية : إدراك الأزلية أو الحدوث فيها ، بنفس الأزلية والحدوث : وجداناً ملموساً .

وإنما نفترق في آثار المادة : هل إنها تدلنا على أزليتها ؟ أم على حدوثها ؟ أم لاهذا ولا ذاك ؟ .

لا سبيل الى الثالث ـ إذ إنّ لكل منهما آثاراً تخصّه ـ دون أن يشتركا في أثرٍ مّا ـ إطلاقاً ـ قضيةَ المناقضة بينهما في الذات وفي الآثار .

إذاً نسألكم : لو كانت المادة حادثة،كيف كان يجب أن تكون آثارها وبيئآتها التي لاتجدونها الآن ؟ .

ولو كان الإله المجرد الأزلي موجوداً ـ كيف كان يجب أن تكون المادة ـ ليست هي الآن ؟ .

المادي : نعكس السؤال : لو كانت المادة أزلية والإله المجرد غير موجود ـ كيف كان يجب أن تكون المادة ـ ليست هي الآن ؟ .

الالهي : لو كانت أزلية لحملت أوصاف الأزلية ، ولكنها حادثة إذ تعتورها كافة آثار الحدوث ! .

نكرّر السؤال بصيغة أخرى : هل تجدون شيئاً من آثار الحدوث : يفقدها المادة ، أم تجدون شيئاً من آثار الأزلية تتصف هي بها ؟ .

ذاتية الازلية وعارضية الحدوث ! ..

المادي: لايجد شيئاً من آثار الحدوث إلاّ وهي تعتور المادة ، ولكنه يُغالط في الإجابة عن هذا السؤال ، ويرجع الي مبدئه الأول قائلاً : إن المادة ذاتية الازلية وعارضية الحدوث ، وليست آثار الحدوث المعتورة بها ، إلاّ للناحية الحادثة منها:وهي التطورات العارضة عليها .

الالهي : هل إنها لو كانت حادثة الذات ـ لم تكن هذه العوارض تعرضها ـ بل كانت ثابتة ؟ . أم كانت كما هي الآن ؟ .

المادي : لابدّ لنا ـقبل أن نسبر أغوار هذه الآثار ـ أن ندرس درساً فصلاً عن كلٍّ من آثار الأزلية والحدوث ـ لكي نكون على بصيرة من أمرنا .

●

الازلية والحدوث في بحوث

الالهي : وإليكم درساً فصلاً عن خصائص كل منهما ، لكي لا يختلط الامر فيهما طوال حوارنا حول : « المادة أو الله » ؟ .

الخصيصة الاولى للازلي :

الغنى المطلق في الذات وفي الصفات :

إنّ الكائن الأزلي بما أنه لا أول له ـ فلا حدوثَ ـ اذاً فهو غنيّ عن سواه، مهما كان أزلياً ، لو أمكن التعدد في الازلية ، فضلاً عن الحادث !.

فالازلي غنيٌ مطلق ـ لاينتفع بشيء ليستكمل به ـ ولا من ذاته لانه الكمال المطلق : غنيٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ـ غنىً مطلقة ـ دون أيّة حاجة للسعي نحو الكمال ، وان كانت بقدرته الذاتية .

والسند في غناه الذاتي من حيث الكيان ـ أنه غير متعلق الذات الى سواه ـ لا مقارناً ولا متأخراً ، فإن التعلق الذاتي الى الغير من خصائص الحدوث ـ مهما كان ـ

ثم الغنى الذاتيه تستلزم الغنى في صفات الذات ، التي هي عين الذات في الازلي فانه منزّه عن التركّب من ذات اوذوات وصفات ـ لاستلزام التركّب الحدوث ـ مهما كان ـ

وكذلك ـ وبالاحرى ـ غناه في أفعاله ، إذ إنها متفرعة على الذات والصفات

فلا انفكاك بين الازلية والغنى في الذات ـ وبينهما في الصفات والافعال ، غنىً مطلقة في كافة الجهات والحيثيات .

فالازليُّ الذاتأزليٌّ إطلاقاً ،دون أن يحمل فيذاته أو صفاته جهةً مّا حادثة قضيةَ المناقضة بين الأزلية والحدوث .

فمن المستحيل أن يكون أزليّاً في ذاته وحادثاً في صفاته - أم أزليّاً في صفاته وحادثاً في ذاته - وأما أفعال الازليّ فإنها حادثة ، ولا يُنافي حدوثُها أزليةً في الذات والصفات ، لانها تصدر عنه بارادته دون أن تشغل جانباً من ذاته أو صفاته ، وليس صدور الحادث من الازلي جمعاً بين الازلية والحدوث في ذات واحدة ولا صفاتها لأنه صدورٌ بإرادته لا ولادةٌ من ذاته .

ومن المستحيل ايضاً أن يحتاج الازلي في افعاله الى سواه ، أحاجةً في الفرع الحادث رغمَ الغنى في الذات وفي الصفات ، حال أن الافعال انما تصدر بالطاقة الكامنة في الذات التي تسمّى بالارادة ؟ !

ومما يترتب على خاصة الغنى المطلقةللأزلي :

اولا : أنه لا يتحرك : لا في المكان ولا في المكانة : أما في المكان فلانه ليس له مكان يشغله :

١ - نتيجةَ الغنى المطلقة عن سواه .

٢ - انه لا حدّ له حتى يضمنه المكان .

٣ - ان الحركة في المكان ليس الاّ نحو هدف مّا ، لا يحصل إلاّ بالانتقال اليه :

والغنيُّ المطلق ، ذو القدرة المطلقة اللانهائية،يفعل ما يشاء ، دون حاجة الى الانتقال ، فانه قيّوم على كل شيء، وعلمه وقدرَته يحيطان بكل معلوم ومقدور ، دون حاجة الى الحراك نحوهما : « وانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » .

واما الحركة في المكانة والكمال ، المعّبر عنها بالحركة الجوهرية ، فهذه ايضاً

تتنافى والغنى المطلقة،فان الازلي فعليُ الكمالات بما انه ازليّ الذات والصفات، فكيف ينحو نحو الكمال ، ألتحصيل ما هو واجده ازلاً ؟ او ما لم يجده ؟ فهذا بين محال وبين نقص يتنافى والغنى المطلقه اللانهائيه.

ثانياً : ان الازلي لا يتغير ـ لعين ما ذكر في استحالة الحركة .

ثالثاً : انه غير مركب ، مهما كان التركب : في الذات ، امفيها مع الصفات، تجرديّاً ام ماديّاً ، فلا تركّب في الازلي اطلاقاً ، لأنه آية الفقر والحدوث كما يأتي في ظاهرة التركب للمادة ، وانها من الادلة الذاتية في المادة على حدوثها.

الخصيصة الثانية : السرمدية .

إنّ الازلية تستلزم الأبدية ،ويعبّر عن التلاحم بينهما بالسرمدية اللاّحدية على الاطلاق،أولاً وأخيراً ،فليس للسرمديّ أيُ حدٍّ من حدود المكان أو الزمان ، في الذات أو الصفات ، فهو اللاّمحدود : اللاّبدائي واللاّنهائي الحقيقيان .

فالفروض المتصورة لاتصاف الكائن بالازلية والابدية ، ايجاباً وسلباً ، كالتالي :

١ ـ ازليٌّ وابديٌّ .

٢ ـ ازليّ لا ابدي ، فله نهاية .

٣ ـ ابدي لا ازلي ، فله بداية .

٤ ـ لا ازلي ولا ابدي .

وهذه الفروض بين ضروري ومحال وممكن :

فمن الممكن أن تجامع الابدية الابتداء والحدوث ، فانها أبدية بالغير كابتدائه ، وهكذا كائنٍ حادثٌ ، دون غنىّ للكائن الحادث في شيء منها ، وهذا كما قد نصدقه في الابدية الفلسفية في خلود جنة الآخرة ، اذ إن الخالدين فيها لهم فيها نعيم مقيم:عطاء غير مجذوذ ، حال انّ لهم ولدخولهم الجنة بداية .

هذا ، ولكن لا عكس ، إذ يستحيل أن يكون الازليّ غير ابديّ لما يلي :

١ - انه غنيٌّ الذات عن سواه ، وله القدرة المطلقة اللاّمحدودة ، فلماذا ينعدم ؟ :

ألضعف يطرء ذاته ؟ فهذا يتنافى وغناه وقدرته المطلقتين الذاتيتين غـــير الكسبيتين ! ام لقوة قاهرة تتغلّب عليه فتضطره الى الفناء ؟ فلا ثاني للازلي ، كما يأتي ، ولا يتصور فوق اللانهاية قدرة تتغلب عليها !

٢ - اذ ليس للازلي زمانٌ فكيف تتصور له نهاية ، والنهاية ـ مهما كانت : تستلزم الحدّ الزماني .

فلنفرض : أن الازلي يفنى بعد مليار سنة ، او قبله ، فهل إنّ هذه الزيادة والنقيصة تزيد في عمره او تنقص عنه ؟

فان لا تزيد ولا تنقص ، أصبح المليار زيادته كنقيصته ووجوده كعدمه ، وهذا خلاف البديهة !

وان كان المليار يزيد وينقص، اصبح الأزلي محدوداً ، لان عمره مرّكب من اجزاء الزمان ـ والمركب من المحدود محدودٌ لا محالة ، بداية ونهاية ، فليس اذاً ازليّاً .

ابديتان بينهما بون شاسع !

المادي : ما هو الفارق بين الابديتين : في الازليّ وفي الحادث الأبدي ؟

الالهي: الفرق بينهما بالذاتية والتجرد في الاوّل ، وبالغيرية والمادية فيالثاني، وهذا يكفي في اللامحدودية في الاولى والمحدودية في الثانية ، فالأبدية الغيرية المادية الزمانية محدودة من حيث البداية ـ وبحاجة ذاتية الى سواها: في البقاء الى غير النهاية ، ولكن الأبدية الذاتية التجردية غير الزمانية ، يستحيل لها الحدّ ، فان لازمه المادة والزمان والغيرية .

٣ - انعدام الازلي - بما أنه دليل الضعف والنقصان ومحدودية الطاقة الوجودية ، وإلا لم ينعدم - هذا يتنافى وغناه المطلق وكما له وقدرته اللا محدودين :

اذاً فالازلية تلازم الأبدية ، دون عكس ، إلا في الأبدية الذاتية فانها أيضاً تلازم الازلية ، فالازلية ذاتية لا سواها ، والابدية منها ذاتية ومنها غيرية ، لا على سواء .

والله تعالى سرمدي الذات والصفات ، وما سواه حادث فيهما ، وان كانت له ابدية بالارادة الالهية .

ومن الخلائق الحادثة بدءً ، والفانية اخيراً ، اهلُ العذاب[1] حيث يفنون بفناء النار .

الخصيصة الثالثة : التجرد .

ان الازلي بسيط مجردٌ عن المادة ، مهما كانت ، إذ :

١ - إنّ السرمدية اللا محدودية ، من ناحية ، ٢ - والغنى المطلق من أخرى ٣ - وعدم الحركة والتغيّر والزمان من نواحٍ أخر : هذه الملازمات الضرورية للازلي ، تُحيل أن يكون ماديّاً ، فان المادة تلازم جوهرياً : نقائص مركبة من هذه الصفات الخمس :

فالمادة فقيرة الذات، كما سنبين، ومحدودة مركبة متحركة متغيرة زمانية ، وكلُّ هذه من اركان أدلة حدوث المادة ، وأنها تُنادي من جوهر ذاتها وكافة معطياتها : بالحدوث والحاجة الذاتية ، فكيف بإمكان الازلي أن يتصف بأوصاف مباينه المناقض له : في الذات وفي الصفات .

---

(١) لقد حققنا في بحث الخلود في الجنة والنار ، انه في الجنة بمعنى اللانهايه ، وفي النار بمعنى المقام فيها مدة طويلة ، ثم الفناء بفناء النار ، كما تقتضيه الادلة العقلية والنقلية ، راجع ج ٢ المقارنات بين الكتب السماوية في مقارنات المعاد ، وقد اختص باسم « عقائدنا » حاليا .

فكلٌ من الازلي والحادث خلوٌ من صفات الآخر وذاتياته ، خلوَ المباين المناقض عن نقيضه .

خصائص الحادث :

اذاً فالحادث ، مهما كان ، ليس له شيء مّما للكائن الازليّ إطلاقاً : فقداناً للكمال والغنى المطلقين ، كما أن الازليّ ليس له شيء مما للكائن الحادث ، فقداناً للنقص والفقر .

اذاً فمن المحال أن يحمل أحدهما أيّة خصيصة ذاتية أو وصفية للآخر، ولو في آنٍ مـّا .

فإذا أمكن لكائنٍ مـّا أن يحمل شيئاً مما للحادث من صفات او ذاتيات ، دل ذلك على حدوثه ولمـّا يحمل ، وإذا استحال أن يحمل ، دل على أزليته كذلك .

وبالأحرى : محالٌ ان يتبدّل الازلي حادثاً او الحادث ازلياً ، وكلّ ذلك قضيةَ المناقضة الذاتية بين الأزلية والحدوث ، فلا مشاركة بينهما ولا ثالث بينهما في أيّ كائن .

●

استحالة ازلية المادة

ان هذه الخصائص للأزلية ، وكذلك بيئة المادة في ذاتها وصفاتها ، والعلوم التجريبية : كل هذه تُحيل أزلية المادة ، في ذاتها ومعطياتها .

وقد سلف : أن علم الكيمياء والفيزياء والنجوم وسواها من العلوم التجريبية تُحيل ازلية المادة ، ولا سيما قانون الديناميكا الحرارية ، فانها لا تكتفي باثبات الحدوث في عوارض المادة في تشكلاتها وتبدلاتها ، بل ويثبت ايضاً : أنها حادثة الذات .

اذاً فالكون المادي بكافة مجالاته في كافة الفلسفات ، يُحيل أزلية نفسه دون مراء .

مجمع الطريق ومفرقه :

المادي : إلى هنا نتفق معكم في : ١ - ضرورة أزلية مّا في الكون.
٢ - وأن العوارض الطارئة على المادة حادثة .

إلاّ إننا نعتقد في : أن تلكم العوارض إنما تحدث في المادة نتيجةَ الطاقة الذاتية الكامنة فيها منذ الازل ، كما الذات ازلية ، سواء ، وأن حدوث الطوارىء لا يدل على حدوث الذات ، كما انه لايساوي زمنُ أيّة طارئة على المادة عمرَ المادة في ذاتها ، وشاهداً على ذلك توارد مختلف الحوادث على مادة واحدة !

الالهي : إن امكان عروض أيّ عارض على المادة يدلنا على أنها حادثة ، فضلاً عن عروض العوارض عليها تترى ، إذ إن الازليّ ، كما سلف ، لا يحمل ولن يحمل صفة الحادث ، كما العكس ايضاً كذلك .

الوحدة السائدة في المادة جذرياً :

المادة في بينتها الذاتية والعارضية

وقبل أن نسبر أغوار البحث عن حدوث المادة بقول فصل ، لا بد ان ندرسها : كما وصل اليه العلم حتى الآن ، ولكي نكون على خبرة وافية في البحث عنها .

... إن الفيزياء في دورها الحديث ، على ضوء اكتشفاتها في عالم الذرة ، كشفت عن حقائق جديدة ، لم يكن من الممكن التوصل اليها سابقاً بالطرق العلمية العادية .

فقد استكشفت الفيزياء أكثر من مأة من العناصر البسيطة ، التي تتكون منها المادة الاساسية للكون والطبيعة بصورة عامة ، فالعالم وإن بدء لأول نظرة : مجموعة هائلة من الحقائق ، والانواع المختلفة المتباينة ، ولكنه يرجع في التحليل العلمي الى تلك العناصر ، أو وزيادة : لم يكشف عنها العلم حتى الآن .

وقد برهنت الفيزياء الحديثة علميا : على أن العناصر البسيطة في النظرات القديمة هي مؤلفة من ذرات صغيرة ودقيقة ، إلى حدّ أن المليمتر الواحد من المادة يحتوي على ملايين من تلك الذرات ، والذرة تعني : الجزء الدقيق من العنصر ، الذي تزول بانقسامه خصائص ذلك العنصر البسيط .

كيان الذرة :

والذرات تحتوي على نواة مركزية لها ، وعلى كهارب تدور حول النواة بسرعة هائلة « ٥٠،٠٠٠ مرة في الثانية » .

وهذه الكهارب هي الإلكترونات ، والإلكترون هو وحدة الشحنة السالبة ، كما أن النواة تحتوي على بروتونات ونيوترونات وبوزيترونات ، فالبروتونات هي الدقائق الصغيرة ، وكل وحدة من وحداتها تحمل شحنة موجبة ، تساوي شحنة

الالكترون السالبة ، والنيوترونات دقائق أخرى تحتويها النواة ، وليس عليها أيّة شحنة كهربائية .

وقد لوحظ، على ضوء الاختلاف الواضح بين طول موجات الأشعة ، التي تنتج عن قذف العناصر الكيماوية بقذائف من الالكترونات : أن هذا الاختلاف بين العناصر إنما حصل بسبب اختلافها في عدد الالكترونات ، التي تحتويها ذرات هذه العناصر ، واختلافها في عدد الالكترونات يقتضي تفاوتها في مقدار الشحنة الموجبة في النواة أيضاً ، لان الذرة متعادلة في شحناتها الكهربائية ، فالشحنة الموجبة فيها بمقدار السالبة ، سواء ، وعلى هذا الاساس أعطيت الأرقام المتصاعدة للعناصر كالتالي :

فالهيدروجين = (١) بحسب رقمه الذرّي ، إذ إن نواته تحتوي على شحنة واحدة موجبة ، يحملها بروتون واحد ، ويحيطها الكترون واحد ذو شحنة سالبة .

والهليوم = ٢ والليثيوم = ٣ وهكذا تتصاعد الأرقام الذرية وفق تصاعد تعداد الشحنات ، إلى اليورانيوم ، وهو أثقل العناصر المستكشفة حتى الآن ، ورقمه الذري = ٩٢ ، بمعنى أن نواته المركزية تشمل على (٩٢) وحـــدة من وحدات الشحنة الموجبة ، ويُحيط بها ما يماثل هذا العدد من الالكترونات ، أي : من وحدات الشحنة السالبة .

ومن الحقايق التي أتيح للعلم إثباتها هو إمكان تبدُّل العناصر بعضها ببعض ، فقد لوحظ أن عنصر اليورانيوم يولّد أنواعاً ثلاثة من الاشعة هي أشعة « الفا ، بيتا ، جاما » ، وقد وجد (رذ رفورد) حين فحص هذه الانواع ، ان اشعة (الفا) مكوّنة من دقائق صغيرة ، عليها شحنات كهربائية سالبة ، وقد ظهر نتيجة الفحص العلمي : أن (الألفا) هي عباره عن ذرات هليوم ، بمعنى ان ذرات هليوم تخرج من ذرات اليورانيوم ، أو بتعبير آخر : ان عنصر هليوم يتولد من عنصر اليورانيوم ، كما وان عنصر اليورانيوم ، بعد ان شعّ آلفا وبيتا وجاما ، يتحول تدريجياً إلى عنصر آخر ، وهو عنصر الراديوم ، والراديوم أخف في وزنه

الذري من اليورانيوم ، وهو بدوره يمرّ بعدة تحولات عنصرية حتى ينتهى إلى عنصر الرصاص .

وقام (رذ رفورد) بعد ذلك، باوّل محاولة لتحويل عنصر إلى عنصر آخر، وذلك أنــه جعل نوى ذرات الهليوم (دقائق الالفا) تصطدم بنوى ذرات الآزوت ، فتولدت البروتونات ، اي نتجت ذرة هيدروجين من ذرة الآزوت ، وتحولت ذرة الآزوت إلى اوكسجين .

واكثر من هذا : فقد ثبت أن من الممكن أن تتحول بعض أجزاء الذرة إلى جزء آخر، فيمكن لبروتون أثناءَ عملية انقسام الذرة أن يتحول إلى نيوترون، وكذلك العكس .

وهكذا اصبح تبدّل العناصر من العمليات الأساسية في العلم ، ولم يقف العلم عند هذا الحد بل بدءَ بمحاولة تبديل المادة إلى الطاقة والطاقة إلى المادة ، كما اسلفناه في البحث عن وحدة الطاقة والمادة في الجذور المادية فلا نعيد .

نتائج الفيزياء التقدمية حول الذرة :

ومن نتائج هذه الحقايق العلمية المعروضة ما يلي :

١ – ان المادة الاصيلة للعالم، كما وصل إليه العلم اليوم: حقيقة واحدة مشتركة بين كافة العناصر، وانما الاختلاف ناشىءٌ من اختلاف التراكيب الذرية والجزيئية، من حيث الارقام الذرية والجزيئية ، ومن مدى دمجها وانتشارها .

٢ – ان خواص العناصر الاولية ، نفسها ، ليست ذاتية للمادة أيضاً ، فضلاً عن خصائص المركبات، والبرهان العلمي على ذلك ما اسلفناه : من امكان تحول بعض العناصر إلى بعض ، وبعض ذراتها إلى أخرى : طبيعياً أو اصطناعياً، إذاً فهذه الخصائص العنصرية إنما هي صفات تعرض المــــادة المشتركة بين كافة العناصر الاولية .

٣ – نفس صفة المادية اصبحت على ضوء هــذه الحقائق العلمية صفة

عرضية أيضاً، فإن المادة لاتعدو ان تكون لوناً من الوان الطاقة، وليس هذا اللون - مهما كان - ذاتياً لها، وإلا لم يتبدل ولم يُعلَّل، فان الذاتي للشيء لا يُبدَّل ولا يُعلَّل بشيء سواه.

فالمادة، على أية حال، لا تملك لا ذاتها ولا عوارضها، وإنما هي بحاجة ضرورية قاطعة إلى سواها، في أصل كينونتها وتبدلاتها وصوَرها المختلفة، فكيانها الفقر إلى سواها، مهما كانت بيئتها وطاقتها.

حدوث المادة في ذاتها وتحولاتها :

تدلنا على حدوث ذات المادة، ذاتها، بما هو لزامٌ لكيانها، من :

الحركة والتغير والزمان والتركب، اسس أربعة تبرهن لنا حدوث المادة الاصلية، وتدلنا على حاجتها الذاتية إلى سواها مختلفُ الوانها وتراكيبها عن حالتها الاولية البسيطة ...

المادي : هنا ينقسم حوارنا في بيئة المادة ازليةً وحدوثاً إلى البحث عن :

المادة في ذاتها وطوارئها :

ونحن نقول : إن المادة ازلية الذات، والعوارض الطارئة عليها ليست إلا نتيجة حركاتها الدائمة، فحدوث هذه العوارض لا تدل على حدوث الذات.

الالٓهي : سبق أن الذات الازلية محالٌ أن تتصف بالصفات الحادثة، وزيادةً على ذلك : فهذه الأفعال والحركات المختلفة محالٌ أن تنبثق من ذات المادة على وحدتها في اصلها، وعلى جهلها وعدم ارادتها واختيارها، وكما تنادون ليلَ نهار: ان المادة جاهلة، فالواحد المادي لا يصدر منه إلا سنخ واحدٌ من الأفعال، ولا يعرضها إلا عارض واحدٌ من العوارض.

فكيف تستطيع المادة الازلية ا غير المحتاجة إلى سواها اطلاقاً، ان تخلق تلك الاطوار المختلفة ؟ والافعالُ المختلفة دليلٌ إما على فواعل مختلفة، أو على

فاعل ذي علم واختيار ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد !

الواحد لا يصدر منه إلا واحد ؟!

المادي : وتلك إذاً قسمة ضيزى ان تُحيلوا انتم صدور الكثير من الواحد المادي ، حال أنكم تُسندون مختلف الكائنات إلى إلَه واحدٍ ، فلو أن وحدة الفاعل تُحيل أن يصدر عنه إلا الواحد ، لكانت هذه الإحالة بالنسبة للإلَه الواحد أحرى ، إذ إن وحدته حقيقية دون أي تركب إطلاقاً ، ولكن وحدة المادة الاولية نسبية !

ولعله لذلك تضطر النظرية الفلسفية المتافيزية إلى القول: أن الواحد لايصدر منه إلا واحد ، والصادر الاول من الله ليس إلا العقل الاول ، ثم هذا العقل خلق العقل الثاني ، وهكذا إلى عالم المادة والصورة في القوس النزولي .

الالَهي : إنّ النظرية الفلسفية القائله : الواحد لا يصدر منه إلاّ واحد لاتعني الواحد الالهي : المجرد ـ وإنما تعني الواحد المادي : غير العالم المختار ، وأما الواحد الالهي الذي له العلم والإرادة والاختيار: غير المتناهية ، فهذا يصدر منه الكثير حسب إرادته وإختياره. وان هناك بين الواحدين بوناً شاسعاً ، بين العلم والحكمة والإرادة وأضدادها .

ولئن كانت النظرية الفلسفية تعني الواحد الالهي ـ كما قد يظهر من بعض أقاويلها ـ لكنّا نعارضها كما نعارض غير الموحدين القائلين بتعدد الإله الخالق ـ سواء ! .

الصدفة في خلق العالم من المادة الاولية ؟!

المادي : أجل ـ ولكن الصدفة قد تعمل عمل الفاعل ذي العلم والاختيار ـ سواء ـ أو وأرقى منه وأعلى وأدقّ ! .

كافة العلوم تُحيل الصدفة :

الالهي: بعد ما اسلفناه من إستحالة حدوث معلولٍ مّا دون أيّة علة ـ فالصدفة في حادثةٍ مّا ـ مهما كانت ـ إنها لا تعني عدم العلة ، بل الجهل بالعلة أو جهل العلة ، فإذا كانت المادة الأصلية تفعل هذه الافاعيل المختلفة حسب الصدفة المزعومة ، فإمّا أن هناك علة مّا لإختلاف هذه الافاعيل: نجهل ذلك العلة، أم ليست لها علة؟.

لا سبيـــل الى الثاني ، إذ كما أن أصل الخلق بحاجة ماسة الى علة خالقة ، كذلك وكثرة الخلق ونظمه يحتاجان الى علة مكثّرة منظّمة ، والعلة الثانية ليست إلاّ العلم والإختيار : سواء أكان في العلة الفاعلة أم في سواها : الموجد لها .

اذاً فمن المحال صدور مختلف الافعال على نظام بارع دقيق ، دون عامل العلم والإرادة ، كاستحالة صدور الفعل الواحد دون نظام بلا فاعل ـ سواء .

فخالق الكون ـ مهما كان مادة ! أو مجرداً عنها ـ فلا ريب في : أنه حيٌّ عليمٌ قديرٌ فوقَ ما يُتصور ، إذ إن النظام والحكمة : اللذين ينتظمان كافة مجالات الكون المتناسقة ، تناسقاً جميلاً كاملاً لحدّ النهاية ، هذا النظام يُرشدنا الى مصـــدر عليم حكيم حي قدير لا نهائي ، كما ويُرشدنا الى ذلك إختلاف صُور الخلق .

حياة الخالق وارادته :

فآية حياة الخالق، إضافةً الى أنها اللائقة بالازلية :

١ - أنه خالق الحياة .

٢ - وخالق مختلف صنوف الخلائق ،فلولا الحياة والإرادة لكان فعله واحداً إذ الاختلاف آية الانتخاب والخيرة ، ولا سيما فيما ينبثق من مادة واحدة .

٣ - لو لم يمتلك الخالقُ الحيــاةَ والارادة لكان خلقه أزليّاً لا أول له - لإستحالة إنفكاك المعلول عن العلة : غــير المختارة ، حال أن الازلية تتنافى والمخلوقية إطلاقاً ! .

فهذه التراكيب المختلفة في الكون - في الذرّات والجزيئآت والعناصر - لم يكن من الممكن أن يوجـد فيها إختلاف كيفيّ : إذا لم تكن لخالقها إرادة وإختيار .

فالخالق تعالى هو الحياة المطلقة اللانهائية ، ومنه الحياة ، وإليه يُرجع الامر كلُّه، وقد حكـّم في الكون مختلف الطاقات والقوانين العامة ، وعللا طبيعية شتّى، دون تفويض الامر إليها ، وهو القيّوم عليها من ورائها .

القدرة :

والقدرة الناتجة عن الحياة وعن الطاقة الذاتية في جوهر الذات ، هي العلة الرئيسية لإحكام الصنع وتدبيره وتقـديره ، كلما إزدادت إزداد الصنع بداعة وحكمة ، وكلما نقصت ضاع ونقص .

فهل تجدون في مختلف آثار الصنع وبدايعه آثار العيّ والعجــز ! ؟ أم هل تقدرون على شيءٍ ممـا أبدعه خالق الكون ، على قوّاتكم الموهوبة والتي تُحصّلونها ؟

فهل إننا قادرون على عجزنا - فـيما نريد ؟ ! والخالق عاجزٌ على قدرته

اللا نهائية الظاهرة في خلقه فيما يريد ؟ ، نحن ! وقد نعجز عن خلق بعوضة فما فوقها في الصغر ؟ ... :

« إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها .. » ٢ : ٢٥

« إنّ الذين تعبدون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب» ٢٢ : ٧٣.

العلم والحكمة :

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ ٦٧ : ١٤

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن خلقهن العزيز الحكيم » ٤٣ : ٩ .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » ١٦ : ١٧ ..

فكيف لا يعلم الخالق ، أو يمكن ألا يعلم ؟ وآثار العلم والحكمة ـ والعزة والخبرة ـ وفيرة كثيرة فيما خلق ، دون خلل وفتور ، دون تفاوت وفطور ؟ !

فهل تجدون في هذا الصنع البارع البديع آثار الجهل والصدفة العمياء ـ أم آيات العلم والحكمة والتقصد في كافة أنحائه ، دون شذوذ ؟ .

فلو أن هكذا إتقان في الصنع يصبح آية لجهل صانعه ،فلنستدل بكل صنع متقن على جهل صانعه ، ثم نكتفي بالجهل عن العــلم ، ولا نتكلف في ابتغاء مختلف العلوم !

كلا : ولايظن أي ذي شعور : أن الإتقان آية الجهل، فكيف يمكن تكون هذا الكون البارع المنظم من مكون فاقد العلم والحكمة : وهو المــادة الاولية ؟ ! .

فما أكذوبة الصدفة في صنع العالم ـ بما فيه من بدايع الحكمة ، التي عجزت عن الإحاطة بها عميقات مذاهب التفكير ، وبوارع ثاقبات العقول ـ ما ذلك

إلا جهلاً وخرافة مستحيلة .

نتيجة البحث :

١ - فالوحدة السائدة في المادة الاولية . ٢ - والجهل السائد فيها .
٣ - وان المادة لا تملك شيئاً من مقوماتها : ذاتية وصفاتية : هـذه شهود صدق على حدوثها ، وأنها ليست خالقة لاطوارها .

١ - ثم الأطوار السائدة في كافة مجالات المادة. ٢ - والنظم البديع فيها.
٣ - والقوانين المحكّمة عليها : هذه تبرهن لنا : أن خالقها مجردٌ عنها : ذاتياً وصفاتياً ،وأنه ذو علم وقدرة وحياة وحكمة بارعة فوق مايتصور ،وأن الصدفة في تطوُرات الكون مستحيلة من جهات .

●

العلوم التجريبية تحيل الصدفة في الخلق واطواره

علماء العلوم الطبيعية يحيلون الصدفه العشوائية في خلق الكون :

جون كليفلاند كوثران [1] : JOHN CLELAND COTHRAN

« إننا لنرى : أن التطورات الهامة ، التى تمت في جميع العلوم الطبيعية ، خلال المائة السنة الأخيرة ـ بما في ذلك الكيمياء ـ قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في المادة والطاقة ، وعند استخدام هذه الطريقة تُبذل كل الجهود للتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة : التي تجعل النتيجة التي نصل اليها راجعة الى محض المصادفة .

خضوع الكون للقانون :

وقد أثبت جميع الدراسات العلمية بصورة ثبتت في الماضي ، ولا تزال ثابتة في الحاضر : أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة ـ مهما صغر أو تضاءل حجمه ـ لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً ، بل إنه على نقيض ذلك يخضع لقوانين طبيعية محددة ، وفي كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل إكتشاف أسبابه ، أو فهم طريقة عمله بفترة طويلة من الزمن .

ولكن بمجرد معرفة القـــانون وتحديد الظروف التي يعمل في ظلها ، يثق الكيمويّون فيه كل الثقة ، ويظل القانون عاملاً ومؤدّياً الى نفس النتائج ، وليس من المعقول: أن يكون لدى الكيمويين كل هذه الثقة في القوانين الطبيعية ، لو أن

---

١ ـ من علماء الكيمياء والرياضة وقد اسلفنا وصفه ومعتده العلمي .

سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائي الذي تتحكم فيه المصادفة ، وعندما يتم أخيراً إدراك الأسباب التي تجعل هـــذا القانون الطبيعي عاملاً وتفسّر لنا حقيقته ، فإن أي أثر لفكرة العشوائية أو المصادفة في سلوك المادة أو الطاقة سوف يندثر إندثاراً تاماً .

القانون الدوري يحيل الصدفة :

ومنذ مائة سنة تقريباً رتب العالم الروسي « مانداليف » : العناصر الكيموية تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ــ ترتيباً دورياً ــ وقد وجد : أن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة ويكون لها خواص متشابهة ، فهل يمكن إرجاع ذلك إلي مجرد المصادفة ؟ ! .

وكذلك تمكّن العلماء بفضل هذا الترتيب ان ينبأوا بوجود عناصر : لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد ، بل أمكن التنبـؤ بخواص هـــذه العناصر المجهولة وتحديدها تحديداً دقيقاً ــ ثم صدقت نبوءاتهم في جميع الحالات ــ فاكتشفت العناصر المجهولة ، وجاءت صفاتها مطابقة كل المطابقة للصفات التي توقعوها ، فهل يبقى بعد ذلك مكانٌ للإعتقاد في: أن أمور هذا الكون تجري على أساس المصادفة؟.

ان اكتشاف «مانداليف» لا يطلق عليه إسم المصادفة الدورية ، ولكنه يسمّى : القانون الدوري ! .

وهل يمكن أن نفسر على أساس المصادفة : ما وصفه وتوصل إليه العلمـــاء السابقون من تفاعل ذرات عنصر « أ » مع ذرات عنصر «ب» وعدم تفاعلها مع عنصر « ج » كلا ! إنهم قد فسّروا ذلك على أساس أن هنــاك نوعاً من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات عنصر « أ » وجميع ذرات عنصر «ب» ولكن هـذا الميل أو الجاذبية منعدمٌ بين ذرات عنصر « أ » وذرات عنصر « ج » .

وقد عرف العلماء كذلك : أن سرعة التفاعل بين ذرات المعادن القلَوية والماء ــ مثلاً ــ تزداد بازدياد أوزانها الذرية ــ بينما تسلك عناصر الفصيلة «الهالوجينية» سلوكاً مناقضاً لهذا السلوك ــ كل المناقضة ــ ولا يعرف أحدٌ سبب هذا التناقض

ومع ذلك فإن أحداً لم يرجع ذلك الي محض المصادفة ، أو يظن: أنه ربما يتعدل سلوك هـذه العناصر بعد شهر أو شهرين ، أو تبعاً لإختلاف الزمان أو المكان أو يخطر بباله : ان هذه الذرات ربمـــا لا تتفاعل بنفس الطريقة ـ أو بطريقة عكسية ـ أو طريقة عشوائية .

وقد اثبت اكتشاف تركيب الذرة : أن التفاعلات الكيموية التي نشاهدها، والخواص التي نلاحظها ـ ترجع الى وجود قوانين خاصة وليست محض مصادفة عميـــاء .

أنظر الىالعناصر الكيموية المعروفة التيبلغ عددها اثنين بعد المائة ،ولاحظ ما بينها من أوجه التشابه والإختلاف العجيبة .

فمنها الملون وغير الملون ، وبعضها غاز يصعب تحويله الى سائل أو صَلِبٌ ، وبعضها سائل والآخر صَلِبٌ يصعب تحويله الى سائل أو غاز ، وبعضها هشٌ والآخر شديد الصلابة ـ وبعضها خفيف والآخر ثقيل ـ وبعضها موصل جيد والآخر رديءٌ التوصيل ، وبعضها مغناطيسيٌ والآخر غير مغناطيسي،وبعضها نشيط والآخر خامل ، وبعضها يكوّن أحماضاً والآخر يكوّن قواعد،وبعضها معمّر والآخر لا يبقى إلا لفترة محدودة من الزمن .

ومع ذلك : فإنها جميعاً تخضع لقانون واحد : وهو القانون الدوريّ الذي اشرنا إليه .

ومع ما يبدو من التعقيد في تركيب كل ذرة من ذرات العناصر العديدة ، فإنها تتكون جميعـــاً من نفس الأنواع الثلاثة من الجزيئات الكهربية ، وهي البروتونات الموجبة والالكترونات السالبة والنيوترونات ، والتي يعتبر كل منها ناشئاً عن إتحاد بروتونواحد مع إلكترونواحد،وجميع البروتوناتوالنيوترونات التي بالذرة الواحدة تقع في نواة مركزية ، أما الالكترونات فإنها تدور حول محاورها في مدارات مختلفة حول النواة وعلىأبعاد شاسعة منها مكونة :مايشبه

مجموعة شمسية مصغرة ، وعلى ذلك فإن معظم حجم الذرة يعتبر فرعاً كما هي الآن في المجموعة الشمسية ...

النظام لا الفوضى :

فالكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط ! .

فهل يتصور عاقل أو يفكّر أو يعتقد : أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد اوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ ! أو أنها هى التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضتـــه على نفسها ؟ لا شكّ أن الجواب سوف يكون سلبيّاً ، بل إن المادة عند ما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فان كلّ ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين الـتي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها .

وتدلنا الكيمياء : على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ، إذ إن لها بداية [1] .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم : على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تُحدّد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد .

وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محدودة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان» .

---

(١) نفس ان الماده ليست ابدية تكفى برهاناً قاطعاً لا مرد له انها ليست ازلية كما سبق .

المخ الالكتروني يحيل الصدفة العشوائية

كلودم . هاثاواي [1] CLAUDEM . HATHAWAY

« ... لقد اشتغلت ، منذ سنوات عديدة : بتصميم مخّ إلكتروني يستطيع ان يحلّ بسرعة بعض المعادلات المعقّدة المتعلقة بنظرية « الشد في اتجاهين » ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرّغة والأدوات الكهربية والميكانيكية والدوائر المعقّدة ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم اكبر « بيانو » ولا تزال الجمعية الإستشارية العلمية في (لانجلى فيلد) تستخدم هذا المخّ الإلكتروني حتى الآن .

وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين ، وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التي تطلبها تصميمه ووصلت الى حلّها ، صار من المستحيلات بالنسبة إليّ أن يتصور عقلي : أنّ مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا إلاّ مجموعة هائلة من التصميم والإبـــداع والتنظيم ، وبرغم استقلال بعضها عن بعض ، فإنها متشابكة متداخلة ، وكلّ منها أكثر تعقيداً في كل ذرة من ذرات تركيبها ، من ذلك : المخّ الإلكتروني الذي صنعته ، فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم ، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي

---

(١) مستشار هندسي ، حاصل على درجة الماجستير M. SC. B. SC. EE من جامعة كلورادو ، مستشار هندسي بمعامل شركة جنرال الكتريك ، مصمم العقل الاكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة « لانجلي فيلد » اخصائي في الآلات الكهربية الطبيعية للقياس.

الكيمي البيولوجي الذي هو جسمي ، والذي ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه ، إلى مُبدع يُبدعه ؟

إن التصميم أو النظام او الترتيب ، أو سمّها ماشئت ، لا يمكن أن تنشأ إلاّ بطريقين: طريق المصادفة أو طريق الإبداع ، وكلما كان النظام أكثر تعقيداً ، بعُد إحتمال نشأته عن طريق المصادفة ، ونحن في خضم هذا اللاّ نهائي لا نستطيع إلاّ أن نسلّم بوجود الله ، ومصمّم هذا الكون لا يمكن أن يكون مادّياً ، وإنني أعتقد أن الله لطيف غير مادي ، وإنني اسلّم بوجود اللاماديات ، لانني بوصفي من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سببٍ أول غير مادي ، وان الفيزياء قد علمتني : ان الطبيعة اعجز من ان تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها ... »

●

مخ الانسان يحيل الصدف

في مقالة لـ « مارلين بوكس كريدر » تحت عنوان : تعريف القدرة الخلاّقة في نظرية انيشتاين [١] : « ... ثم من وجهة النظر في علم وظائف الاعضاء تتمكن ، كذلك ، من تصديق خلاّق عليم وراء الكون : (المادي) .

فيا للإنسان وسائر الحيوان في جسمه من بدايع مرموزة متداخلة ، يعجز عن إختلاق عضو واحد صغير منها ، أعقل فحول العلم وعباقرة الدكاترة الحذّق :

من ذلك مخ الإنسان : الحاوي لعجائب الآثار والأفعال ، ولم يهدِ لعلماء الكيمياء والفيزياء، حتى اليوم، إلا شيءٌ يسير منها ، كمثل الهداية الالكتريسيتية وغيرها ، ولقد بقيت أكثرها حتى الآن مجهولة .

من وظائف المخ جميع الحركات العضلانية ، وسائر الأعمال الرئيسية الحيوية للانسان اطلاقاً .

فهو محل الحافظة ، تحتفظ فيها مليارات من الصور والنقوش ، ولا يوجد هناك أيّ تفسير وتوجيه مادي لعمليات المخ ، ولاسيما حلُّ المسائل وربط مختلف المواضيع .

وكذلك لا يمكن تفسير الذوق السليم والأمل والحب وصفاء الباطن : بالوسائل والقرارات العلمية المادية .

---

(١) قد اسلفنا المجلات السالفة على ما ننقلها هنا ، في البحث عن نظرات العلماء في تناصر العلوم لفكرة الاله .

فأية قدرة توجب تحول ذرة منوية في الرحم إلى الجنين ، ثم تطلع حيواناً حيّاً مع نسوج وأعضاء مختلفة ، وفيها مثل المخ ، هذا الصنع البديع المرموز!.

فلو فرضنا محالاً : أننا نوفق لصنع جسم حي ، آنذاك تبقى الطاقة الإلكتريسيتية والحرارة وسائر العوامل الكيمياوية ، التي تسبب بها لاختلاق هذا الموجود الحيّ ، تبقى مجهولة عنا ، مرموزة ، ولم نكن لنعلم العلة في الحياة ، ولا كيفية تلكم الأسباب في إحداثها .

من المسلم حتى اليوم : أنّه لا يحيط أحد بكيفية التكوين ، علماً أو تفسيراً ، إلاّ أن المشاهدات والشواهد العلمية تدلنا : أن احتمال خلق الحيوان من المادة والطاقات المادية فحسب ، هذا غير قابل للتصديق ، وأخيراً أنه :

لا مناص عن الإقرار بوجود طاقة قهارة وراء المادة ، هي التي تخلق الحياة على علم وحكمة » .

●

علم النبات بحيل الصدفة العشوائية
نبات يوكا

جون وليام كلوتس [1] JOHN WILLIAM CLOTZ

« ان هذا العالم الذي نعيش فيه، قد بلغ من الإتقان والتعقيد الي درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة ، إنه مليءٌ بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج الي مدبرٍ ، والتي لايمكن نسبتها الي قدرٍ أعمى ، ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة ،وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن ايماننا بوجوده .

ومن التعقيدات الطريفة في هذا الكون ، ما نشاهده من العلاقات التوافقية الاضطرارية بين الأشياء أحياناً ، ومن أمثلتها العلاقة الموجودة بين فراشة اليوكا ونبات اليوكا-وهو أحد النباتات الزنبقية-فزهرة اليوكا تتدلّى الى أسفل ويكون عضو التأنيث فيها أكثر إنخفاضاً عن عضو التذكير أو السداة ، أما الميسم وهو الجزء من الزهرة الذي يتلقي حبوب اللقاح - فإنه يكون على شكل الكأس - وهو موضوع بطريقة يستحيل معها أن تسقط فيه حبوب اللقاح ، ولا بد أن تنتقل هذه الحبوب بوساطة فراشة اليوكا : التي تبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل ، فتجمع كمية من حبوب اللقاح من الأزهار التي تزورها وتحفظها في فمها

---

١ ـ عالم في الوراثة ، حاصل عن درجة الدكتوراه من جامعة بيتسبرج ، استاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا منذ سنة ١٩٤٥ ـ عضو جمعية الدراسات الوراثية ، متخصص في الوراثة وعلم البيئة .

الذي بُني بطريقة خاصة لاداء هذا العمل ، ثم تطير الفراشة الى نبات آخر من نفس النوع ، وتثقب مبيضها بجهاز خاص في مؤخّر جسمها ، ينتهي بطرف مدبب يشبه الإبرة وينزل منه البيض ـ وتضع الفراشة بيضة أو أكثر ـ ثم تزحف الى أسفل الزهرة حتى تصل الى القلم ، وهناك تترك ما جمعته من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق ميسم الزهرة ـ وينتج النبات عدداً كبيراً من الحبوب ـ يستخدم بعضها طعاماً لأولاد الفراشة وينضج بعضها لكي يواصل دورة الحياة .

وهناك أيضاً علاقـــة مشابهة بين نبات التين ومجموعة من الزنابير الصغيرة ، وكذلك بين الزهرة المسماه « جاك في المقصورة » وذبابة دقيقـة تدخل الى المقصورة .

وهنالك كثير من الأزهار التي تسجن الحشرات داخلها .

أفلا تدل كل هذه الشواهد على وجود الله ؟ ! إنه من الصعب على عقولنا أن نتصور : أن كل هذا التوافق العجيب قد تم بمحض المصادفة ، إنه لابد ان يكون نتيجة توجيه محكم احتاج الى قدرة وتدبير ! ..»

●

الوردة والحشرة تحيلان الصدفة

سيسل هامان :[1] عالم بيولوجي : « اينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم ، رأيت الأدلة على التصميم والإبداع ـ على القانون والنظام ـ على وجود الخالق الاعلى

سر في طريق مشمس وتأمل بدائع تركيب الأزهار ، واستمع الى تغريد الطيور ، وأنظر الى عجائب الأعشاش ، فهل كان محض المصادفة ان تنتج الازهار ذلك الرحيق الحلو الذي يجتذب الحشرات فتلقح الازهار وتؤدي الى زيادة المحصول في العام التالي ؟ !

وهل هو محض مصادفة إذ تهبط حبوب اللقاح الرقيقة على مبسم الزهرة فتثبت وتسير في القلم حتى تصل الى المبيض فيتم التلقيح وتتكون البذور ؟ !

أفليس من المنطق : أن نعتقد بأن يد الله التي لا نراها هي التي رتبت ونظمت هذه الاشياء تبعاً لقوانين : ما زلنا في بداية الطريق نحو معرفتها والكشف عنها ؟ ! .

وهل من الممكن أن يغرد الطير ـ لا لأن له أليفاً فحسب ـ بل لأن الله يحب تغريده ويعلم أننا نطرب بتغريده ؟ » .

من القطرة الى الجرة ـ تحيل الصدف :

ثم يستمر هامان قائلاً : « عندما نذهب الى المعمل ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها ، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون فتلك الأميباء تتحرك في بطوء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها ـ فإذا به داخلها

---

١ ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة بوردو ، وأستاذ في جامعة كنتاكي وجامعة سانت لويز سابقاً ، استاذ في كلية آسبوري ، اخصائي في تقسيم الطفيليات الحيوانية .

وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخـــل جسمها الرقيق ، بل اننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبـــل أن نرفع أعيننا عن المجهر ، فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول ، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ثم ينمو كلٌ من هذين الشطرين ليكون حيواناً جديداً كاملاً ، تلك خليّة واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الاخرى في أدائها الى آلاف الخلايا او ملايينها .

لاشك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حدّ النهاية تحتاج الى أكثر من المصادفة !

ولقد كشفت قوانين الكيمياء الحيَويةمن أسرار الحيـــاة وظواهرها ما لم تكشفه القوانين في أيّ ميدان آخر من ميادين الدراسات العلمية ، لقد كان الناس ينظرون الى خفايا عمليات الهضم والإمتصاص ، ويستدلون بها على وجود التدبير المقدس .

أما في الوقت الحاضر فقد أمكن شرح هــذه العمليات ومعرفة التفاعلات الكيموية التي تنطوي عليها ،والخبرة التي تقوم بكل تفاعل..ان نظرةً واحدة الى إحدى الخرائط التي تبين التفاعلات الدائرة العديدة وما يدور بين كل منها والآخر من تفاعلات أخرى ، كفيلة بأن تقنع الانسان بأن مثل هذه الملاقات لايمكن أن تتم بمحض المصادفة .

فإذا رفعنا أعيننا نحــو السماء ، فلابد ان يستولى علينا العجَب من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها ... انها تدور في افلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بمـا يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة ، فهل يظن أحد بعد ذلك : أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من الماده تتخبّط على غير هدى في الفضاء ! ؟

قد لايسلّم بعض الناس بوجود الله ومع ذلك فإنهم يسلمون بأن هذه الاجرام

السماوية تخضع لقوانين خاصة وتتبع نظاماً معيناً ، وانها ليست حرةً تتخبّط في السماء كيف تشاء !

الحق أنه من قطرة الماء التي رأينا تحت المجهر الي تلك النجوم التي شاهدناها خلال المنظار المكبّر ، لا يسع الانسان إلا أن يمجدّ ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة ، والقوانين التي تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه ! . . »

●

علم الحيوان يحيل الصدف

ادوين فاست [1] EDWIN FAST

« إذا انتقلنا الي العالم العضوي - فإننا نلاحظ أن سلوكه يزداد تعقيدا - وعلى ذلك فإن احتمال تفسير هذا السلوك على أساس المصادفة المحض يتضاءل الى حدّ لانهائي .

فالمواد الاساسية التى تدخل في بنـــاء المواد العضوية هي الإيدروجين والاوكسجين والكربون ، مع كميّات قليلة من النتروجين والعناصر الاخرى ، ولابد أن تجتمع ملايين من هذه الذرات حتى تتكون ابسط الكائنات الحية ، فإذا نظرنا الى الانواع الاخرى ، التي هي أكبر حجماً وأشدّ تعقيداً ، فإن احتمال تألف ذراتها على اساس المصادفة المحض يقل الى درجة لايتصورها العقل !

وإذا نظرنا الى الكائنات الحية الراقية ، فإننا نرى أن من بينها ما لديه من الذكاء ما يجعله قادراً على التخطيط والإبتكار والقيـــام بأعمال تقرب من حدّ الاعجاز ، فقد تتغلب على القـوانين الطبيعية ، فإذا تصورنا : ان كل ذلك يتم بمحض المصادفة ، التى تجعل الجزيئات تجتمع بصورة معينة ، لكي تكون ذرات يتألف بعضها مع بعض ، لكي تكون أجساماً تقوم بدورها بالتكاثر وأداء سائر وظائف الحياة ، ويكون لها عقل وتفكير ، دون أن يكون وراء كل ذلك إله مدبّر - هو الذي خلق فصور فأبدع - فإن ذلك ما لا يقبله عقلٌ أو يتصوره فكرٌ ، وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرض مستحيل من الوجهة

---

١ - حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة أو كلاهوما ، وعضو هيئة التدريس بقسم الطبيعة فيها سابقاً ، يشتغل الآن بالطاقة الذرية .

العملية ، وطرحنا وراء ظهورنا فرضاً منطقياً بسيطاً ، ألا وهو وجود الله الذي انشأ هذا الكون وبدأه بقدرته ـ فالله هو المبدئ ـ كلمات بسيطة ولكنها بساطة تتسم بالجلال .

إنه جلال الحق وقدسيته ! »

ميريت ستانلي كونجدن [1] MERRITT STANLEV CONGDON

« وتُعالج العلوم كثيراً من الظواهر الطبيعية التي تحدث في هذا الكون ، وبرغم ان العلوم لا تؤيد وجود عالـَم غير مادي تأييداً كاملا[2] فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي ، ونستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الانسان وذكائه ، في عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل الي وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة تدير هذا الكون وتدبّر أموره وتعيننا على فهم ما يغمض علينا من أمر منحنيات التوزيع ـ ودورة المـــاء في الطبيعة ـ ودورة ثاني أوكسيد الكربون فيها ، وعمليات التكاثر العجيبة ، وعمليات التمثيل الضوئي ذات الأهمية البالغة في اختزان الطاقة الشمسية وما لها من أهمية بالغة في حياة الكائنات الحية ـ وما لا يحصى من عجائب هذا الكون .

إذ كيف يتسنىّ لنا أن نفسر هذه العمليات المعقدة المنظمة تفسيراً يقوم على أساس المصادفة والتخبّط العشوائي ؟ وكيف نستطيع أن نفسر هذا الانتظام في ظواهر الكون ، والعلاقات السببية ـ والتكامل ، والغرضية ، والتوافق ، والتوازن : التي تنتظم سائر الظواهر ، وتمتـــد آثارها من عصر الى عصر ؟ كيف يعمل هذا الكون دون أن يكون له خالق مدبّر ، هو الذي خلقه وأبدعه ودبّر سائر أموره ؟ ! .

---

١ ـ دكتوراه من جامعة بورتون ، استاذ سابق بكلية ترينيتي بفلوريدا ، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية ، أخصائي في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الانجيلية.

٢ ـ بل انها تؤيد تأييداً كاملا ، كما ترى طوال بحوث هذا الكتاب .

ان جميع ما في الكون يشهد على وجـــود الله سبحانه ـ ويدل على قدرته وعظمته ـ وعندما نقوم ـ نحن العلماء ـ بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لانفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته ، ذلك هو الله الذي لانستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ،ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود ،وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته » .

« سَنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتّى يَتبين لهم أنّه الحقّ ، أو لم يكف بِربّك أنه على كلّ شيء شهيد » ٤١ : ٥٣ .

●

علم الجنين بحيل الصدف

تكوّن الانسان في ظلمات ثلاث في ثلاث :

« يَخلقكم في بُطون أمّهاتِكم خلقاً مِن بعد خلقٍ في ظُلماتٍ ثلاثٍ ، ذٰلكم الله رَبّكم له الملك لا إله إلاّ هُو فأنّى تُصرفون ٣٩ : ٦ .

هذه الظلمات هي :

١ ـ ظلمة البطن . ٢ ـ ظلمة الرحم . ٣ ـ ظلمة المشيمة .

ثم في جدار الرحم ظلمات ثلاث أخرى ـ هي: الجُدر الثلاثة من بقايا النطفة الامشاج ، المعتورة للجرثومة الأصلية .

وفي نطفة الأنثى أيضاً ظلمات ثلاث : فإنها حويصلة هي في مّح ، وهو في بيضة تدفق من ترائب الانثى .

فهذه ظلمات ثلاث في بيئات ثلاث .

بيضة الانثى :

« خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » ٨٦ : ٦-٧ .

هذه البيضة الدافقة من ترائب الأنثى ، هي كبيضة الدجاجة ، لكنها أصغر منها بكثير ، قطرها يتراوح بين جزئين أو جزء من عشرة أجزاء $\frac{٢}{١٠}$ او $\frac{١}{١٠}$ من المليمترات . ووزنها جـــزء من مليون جـزء من الغرام ، وفيها مح (CYTOPLAME) وفي المح الحويصلة الجرثومية (NUELEDE)التي يبلغ قطرها جزءٌ من القيراط ، وفيها تكمن النطفة الجرثومية (NOYAU) التي يبلغ قطرها

جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط .

زواج بعد زواج ـ عجيب !

فهذه البيضة تتكون في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الآلبوميني فإذا نمت هذه الحويصلة وإزداد السائل الذي في باطنها ، يتمدد غشاؤها ويرق ثم ينفجر وتخرج البيضة منها ومن المبيض كله .

فإلى اين تذهب هذه البيضة الصغيرة العزيزة العذراء وحدها في هذا الظلام؟

إنها على موعد مع العشير الذي تحلم به من غير أن تعرفه ولا أن يعرفها . فهي تسعى إليه وهو يسعى إليها ويتلاقيان في الطريق ، ثم يسيران متعانقين متراوحين الى بيت الزوجية الأمين المهيأ لها ، ليصنعا فيه من نفسيهما بشراً سوياً .

ولكن هذا الطريق الملتقى عبارة عن بوق مظلم مظلم ـ ضيق ضيق ، رفيع رفيع ، قطره قطر شعرة يختبئ وراء الرحم ويمتد فيه الى المبيض ، فمن اين وكيف يأتي إليه الحبيب لقاء الحبيبة ؟ في ظلام ضيق دون معرفة سابقة .

فهل ان هذا الحيوان المنوي الذكر ـ لخبير ذكي شاطر ـ جريءٌ وقح ماكر؟ فيعرف ان البيضة تنتظره في فم البوق ، وان لا طريق إليها إلا من الرحم ، فدخل إليه وخرج منه ـ لا يلوي على شيء ـ حتى وصل الي البوق فلاقاها ؟

ورأي نفسه صغيراً بالنسبة للبويضة الضخمة ، لأن طوله ستون جزء من ألف جزء من المليمتر ، فعلم أنه إن لم يكن له رأس مكورة لم يستطع خرق جدار البيضة !

وعلم أنة ان أتاها سابحاً سبحاً بطيئاً مثل سبحها ، فاته الوصول إليها في الوقت المناسب !

وعلم أن السبح يكون اسرع ان كان في حركة لولبية !

وعلم أن السبح السريع لا يكون إلا بتبلط في الماء !

وعلم أن جوهره في رأسه لا في دنبه !

علم الحيوان الصغير المنوي كل هذا فجعل لنفسه رأساً مكوّراً ، وجعل لرأسه عنقاً لولبياً ، وجعل لعنقه ذنباً طويلاً يضرب به الماء الذي يسبح فيه ويتبلّط .

وجعل هذا الذيل معقوداً بأنشوطة لينفك عنه إذا دخل إلى البيضة .

ثم هل ان هذه البيضة الانثى الذكية ، وفيّة عفيفة حصان ؟

انها عرفت انها وحيدة ، وان الذكور يربو عددهم على ٢٠٠ مليون ـ تشتدّ سعيها إليها وتدور حولها تغازلها من وراء الجدار ، تستفتح !

فإذا أتاها القويّ السابق رضيت به زوجاً وفتحت له الى قلبها باباً خاصاً يسمى باب الجاذبية (CONEDUTTUACION) فإذا دخل أغلقت بابها وقطعت جذبها واستغلقت واحصنت وصدّت الملائين الأخرى من الخطّاب وردّتهم خائبين ليموتوا حزناً وأسفاً .

فهل ان ذلك كله عن علم لهذين الزوجين ، حينما هما دودان صغيران يختلقان على علم بشراً سوياً ، ثم هذا البشر يعجز أن يخلق بعوضة فما فوقها ؟ !

أو عن صدفة عشواء هي أسوء حالاً !

أو ان ورائها خلاقاً حكيماً قديراً يدبرهما ، سبحان الخلاق العظيم ! .

فلله ما أعلم هذه الخلايا بالخلق وما أقدرها عليه حين تخلق من أنفسها انساناً كاملاً وهي حيوان صغار ، ثم ما أعجزها حين تصبح هي انساناً ، عن ان يخلق ذبابة ! ! ! سبحان الخلاق العظيم .

العلوم الرياضية تحيل الصدف

كرسي موريسن [1] :

« لسنا إلاّ في فجر العـــلوم ، ولكن كل إلمامه جديدة ، وكل تزايد لنور المعرفة ، تأتينا ببرهان جديد على: أن كوننا هو حقاً صنيمة عقلٍ خلاق فعّال.

كذا يعتمد الايمان على المعرفة ، ويشعر العالم في كل مرحلة جديدة يقطعها : إنه يقترب من الله .

وقد وجدت في العالم شخصياً سبع علل كبرى أرسى عليها دعائم ايماني :

١ – إن الرياضيات التي تُسلحني بالحجة الأولى،غير القابلة التنفيذ ، وتمكّن لكل منّا ان يقيم البرهان العلمي على صحة هذه الحجة :

ضع في جيبك عشر قطع نقود مرقمة . من الواحد الي العشرة ، خضخضها جيّداً حتي تختلط ، حاول الآن أن تخرجها مبتدئاً بالرقم الواحد الى العاشر متدرجاً بالترتيب ، وأنت بالطبع في كل مرة تخرج قطعة تعيدها الى جيبك ، وتُخضخض قبل أن تسحب القطعة التالية .

إن إحتمال إخراج القطعة رقم (١) من المرة الأولى ـ هو رياضياً ـ بنسبة واحد الى عشرة .

فأمّا أن تخرج بالتتابع (١) وبعده (٢) فذلك قد يصدف مرة من مائة ، وقد تقع مرة من ألف ، على : ١ – ٢ – ٣ بالتتالي .

---

١ ـ رئيس المجمع العلمي في نيويورك سابقاً ، ينقلها عنه كتاب «الله محبة ، من ص ٨٦».

أما إحتمال نجاحك في استخراج القطع العشر في ترتيبها العددي ، فلا يمكن أن يتفق إلا مرة من عشر مليارات مرة ـ هو رقم خيالي ـ أليس كذلك ؟

فلنحاول تطبيق طريقة التفكير ـ هذه ـ على الشروط التي يسّرت ظهور الحياة على الارض ، سنضطر الى الاقرار بأنه: من وجهة النظر الرياضية بإمكان اتفاق الصدف وحدها ان تحققها مجتمعة :

شرطٌ أوّل: تدور الأرض على محورها بسرعة (١٦٠٠) كيلومتراً في الساعة إذا حسبنا السرعة على خط الاستواء ، فلنفرض أن سرعة الدوران هذه انخفضت الى عشر قيمتها ، سينتج أنه : خلال نهار يدوم عشرات مرات، مايدومه نهارنا الحالي ، ستمحق حرارةُ الشمس نباتَ كرتنا ، وانه : لو بقي شيءٌ منها حياً ، لتعرّض في غالب الإحتمالات للتجمّد ، خلال ليالٍ تساوي إحداها عشراً من ليالينا الحاضرة .

شرطٌ آخر : لوجودنا ـ الشمس ـ وهي منبع الحياة ، تبلغ حرارة سطحها (٥٥٠٠) درجة مئوية ، والارض تقع بالضبط على مسافة تسمح لهذه النار الدائمة بأن تدفئنا بالقدر الذي نحتاج إليه .

ولو لم تكن الشمس تجود إلا بنصف إشعاعها القيمة ، لتجمّدنا برداً .

ولو تلقينا من هذه الإشعاعات مقدار ما نلتقى مزاداً عليه نصف المقدار لأحرقنا .

فصول الشمس يوّلدها ميل محور الارض ميلاً يشكّل زاوية قدرها (٢٣) درجة ،ولولا هذا الميل لتبخرت مياه البحار في إتجاهين فقط: الشمالي والجنوبي ولتراكمت قارّات من الجليد تدريجياً على القطبين .

إنّ القمر يتحكم بحرارة البحار ، فلنفرض أنه اقترب حتى مسافة (٨٠٠٠٠) كيلو متراً من الارض ، فستغمر لجج مدّ جبّار قارات بتمامها ، وذلك مرتين في اليوم الواحد .

لننتقل الآن الي قشرة الارض ، ولنفرض ان سماكتها زادت ثلاثة أمتار ، فسيتلاشى عندئذٍ مولّد الحموضة (الاكسجين) اللازم لكل حياة حيوانية .

وان فرضنا على العكس : ان المحيطات أعمق ممـا هي عليه بمتر أو مترين ، إذن لتبع ذلك تلاشى الحياة النباتية ، لإنعدام الفحم(الكربون) ومولّد الحموضة (الاكسجين) .

هذه الحقايق وكثيراً غيرها تثبت انه :

لم يكن إحتمالٌ من مليارات الاحتمالات: انتظهر الحياة على كوكبنا، لو كان ظهورها عائداً للصدف.. »

وأقول أنا : ان تكرار الحياة وتواترها ،يجعل الصدف فيها مستحيلاً ، لا انه إحتمال ولو واحداً في ملائين المليارات المليارات ! .

يوسف مروّة اللبناني[1] :

« من الملاحظ لدى جميع العلماء من فلكيين وفزيائيين وكيميائيين وبيولوجيين: ان الكون يسوده النظام والترتيب ، وهذا مايدعو الانسان العاقل للرجوع بفكره وعقله الى المدبر الاعظم المنظم العـاقل الذي يشرف على كل عمليات التنظيم والترتيب ، التي تتصف بها حركات وتصرفات جميع الجمادات والمخلوقات الحيّة في هذا الكون .

نسوج العناكب تحيل الصدف :

انّ دقة التنظيم والترتيب ، التي كشفت عنها أبحاث العلم الحديث في ميادين عديدة ، تدعو للعجب والتأمل والتفكر ، فقد كشف بعض علماء الحشرات الألمان ، عن ان بعض العناكب تنسج خيوطاً دقيقة جداً ، إذ إنها تنسج بيوتها من خيوط ، كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحد من هذه الخيوط الاربعة مؤلف من ألف خيط ، وكل واحد من الالف يخـرج من قناة

---

١ ـ في كتابه : العلوم الطبيعية في القرآن .

خاصة في جسم العنكبوت، وهذا يعني أن كل خيط ينقسم الى (٤×١٠٠٠=٤٠٠٠) خيطاً .

وذكر بعض العلماء الالمان الباحثين في هذا الميدان: انه إذا ضم أربعة بلائين خيط (٤٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) بعضها الى بعض ، لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته مع العلم ان متوسط شعر اللحية لايتجاوز ١ر٠ ميليمتر، وبذلك فإن قطر مقطع الخيط الذي تنسجه العنكبوت يساوي (١) على (٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) من الميليمتر، وان الكيفية التي خلق الله بها في جسم العنكبوت ألف ثقب يخرج منها ألف خيط في آن واحدٍ ، حيث يخرج الخيط الدقيق فيتجمع كل ألف خيط في خيط أغلظ ، ومن الخيوط الجديدة يتجمع كل أربعة سوية لتشكيل خيط أكبر، وهكذا تتجمّع الخيوط لتنشأ مسكناً ومصيدة للعنكبوت، لتدعو العاقل والعالم والمؤمن الى التفكير في عظمة الخالق .

وهذا ما يقول الله تعالى «وانّ اوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون»

وقد أثبت البحث العلمي من تحليل وتجزئة حقيقية وهن بيت العنكبوت ، كما أسلفنا .

فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحدّ المعروف في الدقة وتناهت في التجزئة وجاءت برهاناً ساطعاً على النظام البديع والإتقان الفائق للصنعة الآلهية .

اعصاب المخ تحيل الصدف :

وبينّت الابحاث الجارية حول تركيب المخ البشري أنه يتألف من :

٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ـ عصب ـ لكل واحد منها وظيفته الخاصة به ، وإذا قام احدها بوظيفة سواها، أو أخطأ في حسّ أو ادراكٍ مّا ، إذاً يفسد عمل الجهاز العصبي باسره .

ويشير حساب الاحتمالات (PROBABILITY) الى أنه ليس هناك أية صدفة عشوائية (RANBOM) تجعل عشرين مليون عصب تترتب بهذا الترتيب الدقيق، حتى تتوارد عليها الإحساسات فتشعر بواسطتها روح الجسم بالأحداث الخارجية

ان روح الجسم مستقل عن أجهزته ، كاستقلال الصوت الذي ينقله جهاز الراديو عن الاجهزة والانابيب الدقيقة التي يتألف منها ، أو كاستقلال الصورة التي تظهر على شاشة التليفزيون نفسه .

ان الاحتمال الذي يجعل عشرين مليون عصب تترتب ترتيباً هندسياً معيّناً فتؤدي عملها الدقيق ، هو واحد من ١٠ متبوعة بعشرين مليون صفر ـ أي :

$$\frac{١}{١٠ ٠٠٠ ٠٠٠_{١٠}} = \frac{١}{٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠_{١٠}}$$

ومآل هذه النسبة الصفر .

ولأن ما خلقه الله من عوالم وأكوان ، بما فيها من جمادات ومخلوقات حيّة لايقع تحت العدد والحصر والإحصاء ، إذاً تكون النسبة .

$$\text{صفر}\ ٠ = \frac{١}{\infty} = \frac{١}{\infty\ ١٠}$$

وهذا يعني : أن العقل البشري العلمي الرياضي والفلسفي ، لايمكن أن يقبل أبداً بوجود صدفة عشوائية وراء ترتيب الكون وتنظيم أحداثه .

وقد وضع الرياضي (دي موافر) نظـــرية الاحتمال العشوائي التي وضعها العالمين « لابرنويللي وتشيبيشيف » بالمثال التالي ، الذي يدحض نظرية الخلق العشوائي :

«إننا لو وضعنا في صندوق عشر قطع معدنية مصنوعة من نفس المعدن ومتماثلة في الشكل والوزن واللون ، ورقمناها من ١ ـ الى ـ ١٠ بالترتيب ، فالاحتمال في أن نعثر على الرقم (١) هو واحد من عشرة ، والاحتمال أن نظفر بالرقمين (١ ـ ٢) بصورة متتالية ، يكون واحد من مائة ، وإذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية (١ ـ ٢ ـ ٣) فدرجة الاحتمال تكون واحد من ألف ، وإذا

أردنا أن نوفق الى سحب الارقام من (١ - إلى - ١٠) بصورة متتالية ، لمرتبة الإحتمال تكون واحداً من عشرة آلاف مليون .

وإذا علمنا ان المخلوقات المنتظمة المرتبة في هذا الكون مختلفة ومتعددة جداً وأن ماخلق الله من الموجودات تكاد لاتتناهى، وان الترتيب في هذه الموجودات يختلف ويتمايز بعض من بعض ، إذن ستكون مرتبة الاحتمال للصدف العشوائية :

$$\frac{١}{١٠^{\infty}} = \frac{١}{\infty} = ٠ \text{ صفر}$$

وهذا يعني: ان ليس هناك في خلق الكون من صدفة عشوائية أبداً ، بل إن كل ما في الكون قد رُتب ونظم من قبل المهندس الأعظم : الله تبارك وتعالى».

حروف التكوين :

... وأقول أنا : إن حروف التكوين في المرحلة التي وصلت الى علم البشر حتى اليوم - هي ١٠٦ حرفاً - أي : ذرة ، على انها ليست هي الحروف البسيطة الأصلية .

ثم إن مختلف تراكيب التكوين إنما هى حصيلة المزاوجات الخاصة بين هذه الذرات المركبة من الالكترون والبروتون والنوترون والبوزيترون و ... على حد العلم اليوم ، فالجُزَيْئاَت المختلفة إنمـــا تتشكل وتتحصّل من مزاوجة هذه الذرات المختلفة ثقلاً وخفة ،حسب اختلاف التعداد من الاجزاء الذرية الأربعة و..

فأبسط الذرات-فيما يعرفه العلم اليوم- هي الهيدروجين المركب من إلكترون وبروتون و .. واحد - وأثقلها وأكثرها تركيباً - أورانيوم ، المركب من ٩٢ عدداً من كل منها ، ثم بينهما متوسطات :

فـ : هليوم من ٢ و ٢ .. - وليتيوم من ٣ و ٣ .. والحديد من ٢٦ و ٢٦ .. والفضة من ٤٧ و ٤٧.. وراديوم من ٨٨ و ٨٨ .. من هذين الجزئين والاجزاء.

فهذه أوّل مواليد التكوين فيما يعرفه العلم اليوم ـ ثم سائر التراكيب ـ وهي جُزَيْئات الاجسام والعناصر المختلفة ، هذه تتركب من مختلف التراكيب الذرية على مختلف أعدادها وأجناسها وفواصلها ، فتتحصّل منها مئـــات المئات من المواد والاجسام .

واننا نجد هذه المزاوجات على أنظمة دقيقة دون تخلّف إطلاقاً .

وحينذاك لايكون احتمال الصدفة العشوائية هنا وهناك إلّا صفراً ،ولا واحداً في بليارات البليارات ، حيث لا خطأ في عمليات الصنع اطلاقاً .

إننا نجد في الصناعات العلمية العميقة المؤسسة على أسس علمية قيّمة : نجد فيها أخطاءً وأخطاء ، تضطرنا هذه الاخطاء الوفيرة ، الى تجديد النظريات في كل عصر وعصر ، ومع كل ذلك فلا تخلو من أخطاء ونقائص كثيرة .

وإذ ذاك فكيف يُحتمل الصدفة في نظـــام الكون ، صدفة تترى على مرّ الدهور الكونية ، دون أيّ خطأ ونقص ، حال أننا نجـد في النظرات العلمية تلكم الاخطاء الوفيرة ! ! !.

* * *

تقريباً لإستحاله الصدفة في مزج حروف التكوين ، نمثـل مثال حروف التدوين :

إن هناك في المطبعة عاملين ينظمان الحروف الفلزية في أماكنها للطبع : احدهما حاذق بصير في فنه ، والآخر لا يعرف شيئاً ولا يميز الحروف وهو أعمى .

إذ ذاك فهل يحتمل أن يصبح عملية الآخـر ـ على كرورها بالمائة ـ تصبح صحيحة ليس فيها أيّ خطأ ، ولكن الاوّل يوجـــد في عمليته أخطاء كثيرة تحتاج الى التصحيح وتجديد النظر .. فهل إن هذا من المحتمل ولو واحداً في اللاّ نهاية .

وتقريباً آخـر أقرب : ان هناك فلزاً مذاباً عمل فيه ريح عاصف ففرقته

أجزاء ، فصادف أن أصبحت حروفاً فلزية ، ثم عصفت مرة أخرى فصيّرتها في القوالب المطبعية ، ثم طلع من ذلك كتاب ضخم في اللغة -دون أيّ خطأ- أو كتاب علمي فيه من دقائق العلوم ورقائقها - الكثير الكثير ! .

فهل هذا من المحتمل ولو واحداً في اللاّ نهاية ؟ ! .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ ! .

يوسف مروّة :

« إن القوانين الرياضية والفيزيائية -التي اكتشفها العلماء- منذ فجر الحضارة البشرية حتى اليوم ، في حقول العلوم الطبيعية عامة والفيزياء الفلكية والنظرية خاصة ، تدل دلالة واضحة : على أن الكون يسوده النظام ويخضع لقوانين وأنظمة وقواعد مرسومة ، لا مجال فيه لاحتمالات الفوضى والصدفة العشوائية والخطأ والشذوذ ، بل يبدو واضحاً في كل حركة ونسبة من حركات ذرّاته وأجرامه ، النظام والتدبير والارتباط والدقة والارادة والقصد .

ويُستدل من دراسة مواضيع الرياضيات العادية والعالية - مثل التوافق - ARRANGEMEMTS - والتبادل - PERMUTATIONS - والتراكيب - COMBINATIOYS - والأعداد التخيلية المركبة وحسابات التفاصل والتكامل العادية والمطلقة ، على وجود براهين رياضية متعددة تدل على الوحدانية في هذا الكون » .

الوحي يجيل الصدف

نظرة عامة جامعة في الكون بأطرافه من طرف دقيق ونظر رقيق :
تفكير شامل فيه الانظار المستوحاة من خالق الكون .
يصدرها ويلقيها الامام الهمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام [1] .
جواباً عن شكوك الاوهام وشبهات الافهام ومزالق الاقدام :
إذ يقول ابن أبي العوجاء ـ كلمته العوجاء :

...دع ذكر محمد ﷺ :فقد تحيّر فيه عقلي ـ وضلّ في أمره فكري ـ دعه ـ وحدّثنا في ذكر الاصل الذي يمشي به ، وهو الله ، فلا بدءَ للأشياء وهي مهملة لا صنعة فيه ولا تقدير ، ولا صانع له ولا مدبر ، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبّر ، وعلى هذا كانت الدنيا ، لم تزل ولا تزال !

يقوله في مسجد النبي ﷺ بمَسمع من الناس ومنهم مفضل ابن عمر ، ذلك المتكلم المفضال .

فيجيبه هشام بن الحكم :

يا عدو الله: ألحدت في دين الله ، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك

---

١ ـ هو السادس من خلفاء الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ المعصومين ـ الذي نشر الاسلام طيلة خلافته وامامته كما يحق ـ وقد تسمى برئيس المذهب الجعفري ، لا لأنه مشرعه ، بل لكونه الناشر لحقائقه حيث أتيحت له الفرصة ، وقد تتلمذ عليه أئمة المذاهب الأربعة وعلماؤها وعدد كثير كما اعترفوا به ، وسوف نري محاوراته القيمة الاخري حول اثبات الصانع وتوحيده.

٢ ـ هذه النقط علامة إسقاط شيء من جملات الحديث مكانها .. فليراقب ذلك .

في أحسن تقويم ـ وصوّرك في أتم صورة ـ ونقلك في أحوالك حتى بلغ بك الى حيث انتهيت ، فلو تفكرت في نفسك ، وصدّقك لطيف حسّك ، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة ، وشواهده ، جـلّ وتقدس ، في خلقك واضحة ..

ابن أبي العوجاء :.. وان كنت من أصحاب جعفر بن محمد عليه السلام ، فما هكذا يخاطبنا ، ولا بمثل ذلك يجادلنا ، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا ولا تعدّى في جوابنا ، وإنه َللحليم الرزين ، العاقل الرصين، لايعتريه حزق ولا طيش ولا نزق ، ويسمع كلامنا ويصغي إلينا ويستعرف حجتنا ، حتى إذا إستفرغنا ماعندنا وظننّا انا قد قطعناه، أدحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير ، يلزمنا به الحجة ، ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً ..

فها هي حجة الامام البالغة تدحض مغالطات وشبهات الضالين كما يلي :

* * *

الامام: ان الله كان ولا شيء قبله وهو باق ولا نهاية له، فله الحمد على ما الهمنا، وله الشكر على ما منحنا ، وقد خصنا من العلوم بأعلاها ، ومن المعالي بأسناها ، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه ، وجعلنا مهيمنين عليهم بحكمه .

حينذاك ، حيث سمع المفضل مقالة الامام ، يقول : يا مولاي ! أتأذن لى أن أكتب ما تشرحه ... قال : افعل :

تنديدٌ بالجهال المنكرين للخالق الحكيم :

آنذاك ، أنشأ الإمام قائلاً :

ان الشكاك جهلو الأسباب والمعاني في الخلقة ، وقصرت افهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فيا ذرأ الباري جل قدسه ، وبرء من صنوف خلقه في البرّ

والبحر والسهل والوعر [1] فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود ، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعُنود ،حتى انكروا خلق الأشياء ، وادّعوا ان كونها بالإهمال ، لا صنعة فيها ولا تقدير ، ولا حكمة من مدّبر ولا صانع ، تعالى الله عما يصفون ، وقاتلهم الله أنّى يؤفكون .

فهم في ضلالهم وعماهم وتحيرهم ، بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بُنيت اتقن بناء واحسنه ، وفرشت باحسن فرش وأفخره ، وأعدّ فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب ، التي يُحتاج اليها لا يُستغني عنها ،ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير ، وحكمة من التدبير :

فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً ، ويطوفون بيوتها إدباراً وإقبالاً ،محجوبة أبصارهم عنها ، لا يبصرون بنية الدار وما أعدّ فيها ، وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه ، وأعدّ للحاجة اليه ، وهو جاهل بالمعني فيه ولما أعدّ ! ولماذا جعل كذلك ! فتذمّر وتسخّط وذم الدار وبانيها .

فهذه حال هذا الضعف في انكارهم ماانكروا من امر الخلقة وثبات الصنعة ، فانهم لما عزبت اذهانهم [2] عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء ، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى ، ولا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقته وحسن صنعته ، وصواب تهيئته ، وربما وقف بعضهم على الشيء لجهل سببه والإرب فيه فيسرع إلى ذمّه ووصفه بالإحالة والخطأ :

كالذي أقدمَت عليه المانوية الكفرة ، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة واشباههم من أهل الضلال ، المعللين انفسهم بالمحال .

فيحق على من أنعم الله عليه بمعرفته وهداه لدينه ، ووفقه لتأمل التدبير

---

١ ـ اي الصلب .

٢ ـ في نسخة وفي اخرى غبت وفي ثالثة وعرت .

في صنعة الخلائق ، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التعبير ، بالدلالة القائمة الدالة على صانعها ، أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك ، ويرغب اليه في الثبات عليه والزيادة منه ، فانه جل اسمه يقول :

« لئِن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » .

اوّل العبر : ... الآيات الآفاقية :

أوّل العبر والادلة على الباري جل قدسه : تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه .

فانك إذا تأملت العالم بفكرك وميّزته بعقلك ، وجدته كالبيت المبنّي ، المُعدّ فيه جميع ما يحتاج اليه عباده .

فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منضودة ، كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكلّ شيء فيها لشأنه مُعدّ ، والإنسان كالمملّك ذلك البيت ، والمخوّل جميع ما فيه ، وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان معروفة في مصالحه ومنافعه .

ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ، ونظام وملائمة وان الخالق له واحد ، وهو الذي ألّفه ونظمه بعضاً إلى بعض ، جلّ قدسه وتعالى جدّه وكرم وجهه ولا إله غيره ، تعالى عما يقول الجاحدون ، وجل وعظم عما ينتحله الملحدون .

مم نبتدىء من آيات الكون ؟ ... نبتدىء بأنفسنا فهي أقربها الينا :

نبتدىءُ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به :

فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم ، وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاءٍ ولا دفع اذىً ، ولا إستجلاب منفعة ولا دفع مضرة .

فإنه يجري اليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات ، فلا يزال ذلك غذائه ، حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه ، وقوي أديمه على مباشرة الهواء ، وبصره على ملاقات الضياء ، هاج الطلق بأمه فازعجه أشد إزعاج ، واعنفه حتى يولد .

وإذا وُلد صُرف ذلك الدم : الذي كان يغذوه ، من دم امه ، إلى ثدييها ، فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء ، وهو أشد موافقة للمولود من الدم ، فيوافيه في وقت حاجته اليه ، فحين يولد قد تلمظ (أخرج لسانه) وحرّك شفتيه ـ طلباً للرضاع فهو يجد ثديي امه كالإداوتين المعلقتين لحاجته اليه ، فلا يزال يغتذى باللبن مادام رطب البدن ، رقيق الأمعاء ، ليّن الأعضاء ، حتى إذا تحرّك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ، ليشتد ويقوى بدنه ، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس ، ليمضغ به الطعام فيلين عليه ، ويسهل له إساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك ، فإذا أدرك وكان ذكراً ، طلع الشعر في وجهه ، فكان ذلك علامة الذكر ، وعِزّ الرجل ، الذي به يخرج عن حدّ الصبا وشبه النساء ، وان كانت أنثى يبقى وجهها نقياً من الشعر تبقى لها البهجة والنضارة التي تُحرّك الرجال ، لما فيه من دوام النسل وبقائه :

فهل ترى : يمكن ان يكون كل ذلك بالاهمال (او الصدفة) [1] ؟ فان كان الاهمال يأتي بمثل هـــذا التدبير ، فقد يجب ان يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال ، لأنهما ضد الاهمال ، وهذا فظيعٌ من القول وجهلٌ من قائله ، لان الاهمال لا يأتي بالصواب ، والتضاد لا يأتي بالنظام ، تعالى الله عمـــا يقول الملحدون علواً كبيراً !!!

الحكمة في بكاء الاطفال :

.... إعرف يا مفضل ما للاطفال في البكاء من المنفعة ، وأعلم ان في أدمغة

---

١ ـ ما بين الهلالين كله من توضيحات المؤلف واضافاته .

الأطفال رطوبة ، ان بقيت فيها احدثت عليهم أحداثاً جليلة وعللاً عظيمة من ذهاب البصر وغيره ، فالبكاء يُسيل تلك الرطوبة من رئوسهم ، فيعقّبهم ذلك الصحة في أبدانهم والسلامة في أبصارهم .

أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك ، فهما دائبان لِيسكتاه ويتوخّيان في الامور مرضاته لئلا يبكي ، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة .

فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الاشياء منافع لا يعرفها القائلون بالإهمال ـ ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء : انه لا منفعة فيه ، من اجل انهم لا يعرفونه ، ولا يعلمون السبب فيه ، فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون ، ... محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت حكمته .

الحكمة فيما يسيل من افواه الاطفال .

فأما ما يسيل من أفواه الاطفال من الريق ، ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في ابدانهم لاحدثت عليهم الامور العظيمة ، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة فأخرجته إلى حدّ البَله والجنون والتخليط ، إلى غير ذلك من الامراض ، كالفالج واللقوة وما اشبهها .

فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من افواههم في صغرهم ، لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم ، فتفضّل على خلقه بما جهلوا ، ونظر لهم بما لم يعرفوه .

ولو عرفوا نعمه عليهم لشَغلهم ذلك عن التمادي في معصيته ، فسبحانه ما أجل نعمته واسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه ، وتعالى عما يقول المبطلون علواً كبيراً .

اعضاء البدن :

... فكرّ يا مفضل في أعضاء البدن وتدبير كل منها للارب : (الحاجة)

فاليد ان للعلاج ، والرجلان للسعي ، والعينان للإهتداء ، والفم للاغتذاء ، والمعدة للهضم ، والكبد للتخليص ، والمنافذ لتنفيذ الفضول ، والاوعية لحملها والفرج لإقامة النسل ، وكذلك جميع الاعضاء إذا تأملتها ، وأعملتَ فكرك فيها ونظرت ، وجدت كل شيء منها قد ُقدر لشيء على صواب وحكمة .

قال يا مولاي ! :

هل هذا من فعل الطبيعة ؟

ان قوماً يزعمون ان هذا من فعل الطبيعة !

قال سلهم عن هذه الطبيعة ، أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الافعال ، ام ليست كذلك ؟

فان اوجبوا لها العلم والقدرة ، فما يمنعهم من اثبات الخالق ، فان هذه صنعته ـ وان زعمو انها تفعل هذه الافعال بغير علم ولا عمد ، وكان في افعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، علم ان هذا الفعل للخالق الحكيم ، وان الذي سموه طبيعة هو سنّة في خلقه الجارية على ما اجراها عليه .

مكائن البدن وعجائب الصنع فيها :

فكرّ يا مفضل في وصول الغذاء إلى البدن ، وما فيه من التدبير : فـــان الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه وتبعث بصفوه إلى الكبد في عروق رقاق ، واشبحة بينها ، قد جعلت كالمصفي للغذاء ، كيلا يصل إلى الكبد منه شيء فينكأها ، وذلك : أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ، ثم إن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً ، وينفذ إلى البدن كلّه في مجاري مهيأة لذلك ، بمنزلة المجاري التي ُتهيؤ للماء حتى يطرّد في الارض كلها ، وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفائض قد أعدّت لذلك .

فما كان منه من جنس المرّة الصفراء جرى إلى المرارة ، وما كان من جنس

السوداء جرى إلى الطحال ، وما كان من البلّة والرطوبة جرى إلى المثانة .

فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن ، ووضع هذه الاعضاء منه مواضعها ، وإعداد هذه الاوعية فيه لتحمل تلك الفضول ، لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه ، وتبارك من أحسن التقدير وأحكم التدبير وله الحمد كما هو أهله ومستحقه ....

... أطل الفكر ، في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان :

فالحنجرة كالأنبوبة (1) لخروج الصوت ، واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم ، ألا ترى من سقطت أسنانه لم يُقم السين ، ومن سقطت شفته لم يُصحح الفاء ، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء ، وأشبه شيء بذلك المزمار الاعظم :

فالحنجرة يشبه قصبة المزمار ، والرئة يشبه الزقّ الذي ينفخ فيه لتدخل الريح ، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت ، كالاصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزمار ، والشفتان والاسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً ، كالاصابع التي تختلف في فم المزمار ، فتصوغ صفيره ألحاناً ، غير أنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالدلالة والتعريف ، بالحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت ، ثم فيها مآرب أخرى :

فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم إلى الرئة فتروّح على الفؤاد بالنفس الدائم المتتابع : الذي لو احتبس شيئاً يسيراً لهلك الإنسان .

وباللسان تذاق الطعوم... وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام والشراب.

والأسنان تمضغ الطعام حتى تلين ويسهل إساغته ، وهي مع ذلك كالسند للشفتين تُمسكها وتدعمها من داخل الفم ، واعتبر ذلك بأنك ترى من سقطت

---

(1) كالارجوزة ، بين العقدتين من القصب .

أسنانه مسترخي الشفة ومضطر بها ، وبالشفتين يترشف الشراب حتى يكون الذي يصل إلى الجوف منه بقصد وقدر لا يثجُّ ثجاً فيغص به الشارب او ينكأ في الجوف .

ثم هما بعد ذلك كالباب المطبق على الفم يفتحهما الإنسان إذا شاء ، ويطبقها إذا شاء ...

ولو رأيت الدماغ إذا كشف عنه ، لرأيته قد لفّ بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض وتمسّكه فلا يضطرب !

ولو رأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة كيا يُفتّته والصكّة [1] التي ربما وقعت في الرأس !

ثم قد جُللت الجمجمه بالشعر حتى صار بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحرّ والبرد .

فمن حصّن الدماغ هذا التحصين ؟ الا الذي خلقه وجعله ينبوع الحسّ والمستحق للحيطة والصيانة بعلوّ منزلته من البدن وارتفاع درجته وخطر مرتبته !

... من غيّب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشائه وحصّنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب ؟ لئلا يصل إليه ما ينكؤه !

من جعل في الحلق منفذين ، احدهما لمخرج الصوت وهو الحلقوم المتصل بالرئة ـ والآخر منفذ الغذاء وهو المريء المتصل بالمعدة الموصل الغذاء اليها ، وجعل على الحلقوم طبَقاً يمنع الطعام أن يصل إلى الرئة فيقتل ؟

من جعل الرئة مروّحة الفؤاد ؟ لا تفتر ولا تخلّ لكيلا تتحيز الحرارة في الفؤاد فتؤدي إلى التلف !

---

١ ـ الضرب الشديد او اللطم .

من جعل لمنافذ البول والغائط أشراجاً تضبطها ؟ لئلا يجريا جرياناً دائماً فيفسد على الإنسان عيشه !

فكم عسى أن يُحصي المحصي من هـذا ؟ بل الذي لا يُحصى منـه ولا يعلمه الناس أكثر !

مَن جعل المعدة عصبانية شديدة وقدّرها لهضم الطعام الغليظ ؟

ومَن جعل الكبد رقيقة ناعمة لقبول الصفو اللطيف من الغذاء ـ ولتهضم وتعمل ما هو ألطف من عمل المعدة ؟.

إلا الله القادر !.. أترى الاهمال يأتي بشيء من ذلك ؟!.

كلاّ : بل هو تدبيرٌ من مدبّر حكيم ـ قادر عليم بالأشياء قبل خلقه إياها ـ لا يعجزه شيءٌ وهو اللطيف الخبير !

فكّر يا مفضّل ! لمَ صار المخ الرقيق محصّناً في أنابيب العظام ؟ هل ذلك الاّ ليحفظه ويصونه ؟

لِمَ صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الظروف ؟ ـ الاّ لتضبطه فلا يَفيض !

لِمَ صارت الأظفار على أطراف الأصابع ؟ إلا وقاية لها ومعونة على العمل !

لِمَ صار داخل الأذن ملتوياً كهيئة اللولب[1] ؟: ـ إلا ليطّرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع وليتكسّر حمّة الريح فلا ينكأ في السمع !

لِمَ حمل الانسان على فخذيه وأليتيه ـ هذا اللحم ـ؟ إلاّ ليقيه من الارض فلا يتألّم من الجلوس عليها !

---

١ ـ وهو آلة من خشب او حديد ذات محور ذي دوائر ناتئة .

(فهنالك الاهداف العالية تظهر من خلايا الصنع فكيف الاهمال) :

من جعل الانسان ذكراً وأنثى ؟ إلا من خلقه متناسلاً !
ومن خلقه متناسلاً ؟ إلا مَن خلَقه مؤمّلاً !
ومن خلقه مؤملا ـ ومن اعطاه آلات العمل ؟ الا من خلقه عاملا !
ومن خلقه عاملا ؟ إلا من جعله محتاجاً !
ومن جعله محتاجاً ؟ الا من ضربه بالحاجة !
ومن ضربه بالحاجة ؟ إلا من توكّل بتقويمه !
ومن خصّه بالفهم ؟ الا من اوجب له الجزاء !
ومن وهب له الحيلة ؟ الا من ملّكه الحول !
ومن ملكه الحول ؟ الا من ألزمه الحجة !
من يكفيه ما لا تبلغه حيلته ؟ الا من لم يبلغ مدى شكره !

فكّر ودبّر ماوصفته ـ هل تجد الاهمال على هذا النظام والترتيب؟ تبارك الله عما يصفون !

... الفؤاد .

أصف لك الآن الفؤاد : إعلم ان فيه ثقباً موجّهة نحو الثقب التي في الرئة تروّح عن الفؤاد ـ حتى لو اختلفت تلك الثقب ـ وتزايل بعضها عن بعض ـ لما وصل الروح إلى الفؤاد ـ وَلهلك الإنسان !

افيستجيز ذو فكرة ورويّة ان يزعم : ان مثل هذا يكون بالاهمال ؟ ولا يجد شاهداً من نفسه ـ ينزعه عن هذا القول ؟.. فتباً وخيبة لمنتحلي الفلسفة[1] ـ كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها ؟

---

١ ـ المراد من الفلسفة هنا هي المادية أو ما يشاكلها في الانحراف عن خالق الكون وصفاته .

... لقد قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التميّز وقصور العلم : لو كان بطن الانسان كهيئة القباء يفتحه للطبيب إذا شاء فيعاين ما فيه ويدخل يده فيعالج ما أراد علاجه ، ألم يكن أصلح من أن يكون مُصمتاً محجوباً عن البصر واليد ؟

لا يعرف ما فيه إلاّ بدلالات غامضة كمثل النظر إلى البول وحسّ العرق وما أشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة - حتى ربما كان ذلك سبباً للموت !

فلو علم هؤلاء الجهلة أن هذا لو كان هكذا - كان أوّل مافيه أنه كان يسقط عن الانسان الوجل من الأمراض والموت - وكان يستشعر البقاء ويغتر بالسلامة فيخرجه ذلك إلى العتوّ والأشر (أكثر فأكثر) !

ثم كانت الرطوبات التي في البطن تترشح وتتحلّب فيفسد على الانسان مقعده ومرقده - وثياب بذلته وزينته - بل كان يُفسد عليه عيشه !

ثم ان المعدة والكبد والفؤاد إنما تفعل أفعالها بالحرارة الغريزية - التي جعلها الله محتبسة في الجوف - فلو كان في البطن فرجٌ ينفتح - حتى يصل البصر إلى رؤيته واليد إلى علاجه - لوَصل برد الهواء إلى الجوف فمازج الحرارة الغريزية وبطل عمل الأحشاء فكان في ذلك هلاك الإنسان .

أفلا ترى ان كل ما تذهب اليه الاوهام - سوى ما جاءت به الخلقة - خطأ او خطل؟!

... تأمّل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الانسان : أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك .

الحفظ والنسيان :

أفرأيت لو نقص الانسان من هذه الخلال: الحفظَ وحده، كيف كانت تكون

حالته ؟ وكم من خلل كان يدخل عليه في أموره ومعاشه وتجاربه ، إذا لم يحفظ ما لَه وما عليه وما أخذه وما أعطى ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ، ولم يَذكر من أحسن إليه ممن أساء به ،وما نفعه مما ضرّه ، ثم كان لايهتدي لطريقٍ لو سلكه ما لا يحصي ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره - ولا ينتفع بتجربة - ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى ، بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الانسانية أصلاً ، فانظر إلى النعمة على الانسان في هذه الخلال ، وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع .

وأعظم من النعمة على الانسان في الحفظ ، النعمة في النسيان ، فإنه لولا النسيان لما سَلا أحدٌ عن مصيبة ، ولا انقضت له حسرة ، ولا مات له حقدٌ ، ولا استمتع بشيء منمتاع الدنيا مع تذكُر الآفات ، ولا رجي غفلة من سلطان، ولا فترة من حاسدٍ .

أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادّان وجعل له في كل منهما ضرب من المصلحة !

وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين - في هذه الأشياء المتضادة المتباينة - وقد تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة !

من عجائب الصنع في الحيوان :

فكّر في الفطن التي جُعلت في البهائم لمصلحتها بالطبع والخلقة - لطفاً من الله عز وجل لهم- لئلا يخلو من نعمه عز وجل أحدٌ من خلقه - لا بعقل ورويّة .

... الأيّل :

فإن ألا ّيل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع من شرب المـــاء خوفاً من أن يدبّ السمّ في جسمه فيقتله ، وتقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيعج عجيجاً عالياً ولا يشرب منه - ولو شرب لمات من ساعته - فانظر إلى

ما جعل من طباع هذه البهيمة من تحمّل الظمأ الغالب خوفاً من المضرّة في الشرب وذلك مما لا يكاد الإنسان العاقل المميّز يضبطه من نفسه .

النجوم :

فكّر في النجوم واختلاف سيرها ، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك ولا تسير إلا مجتمعة ـ وبعضها مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في سيرها ـ فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عامّ مع الفلك نحو المغرب والآخر خاص لنفسه نحو المشرق .

فاسأل الزاعمين: أن النجوم صارت على ما هي عليه ـ بالإهمال من غير عمدٍ ـ ولا صانع لها: ما منعها أن تكون كلها راتبة ؟ أو تكون كلها منتقلة ، فإن الإهمال معنى واحد ، فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير ؟

ففي هذا بيان أن سير الفريقين على ما يسيران عليه ، بعمدٍ وتدبير وحكمة وتقدير وليس بإهمال ، كما تزعم المعطلة !

الله يباين الكون من كل جهة :

إن قالوا : كيف يُعقل أن يكون مبايناً لكل شيءٍ متعالياً ؟

قيل لهم : الحق الذي تُطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه :

فأولها : ان يُنظر : أموجود هو ام ليس بموجود ؟

والثاني : ان يُعرف: ما هو في ذاته وجوهره ؟

والثالث : ان يعرف : كيف هو وما صفته ؟

والرابع : ان يُعلم : لماذا هو ولأيّة علة ؟

فليس من هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق أن يعرفه من الخالق ـ حق معرفته ـ

غير أنه موجودٌ فقط ، فإذا قلنـا : كيف وما هو ؟ فممتنع علم كنهه وكمال المعرفة به .

وأما لماذا هو ؟ فساقطٌ في صفة الخالق ، لانه جل شأنه علة كل شيء وليس شيء بعلة له .

ثم ليس علم الإنســان بأنه موجود يوجب له أن يعلم ما هو ، كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم ما هي وكيف هي ؟ وكذلك الامور الروحانية اللطيفة » .

فهذه نماذج من النظرة العميقة المستوحاة من خالق الكون ، يصدرها سادس الائمة الاثنى عشر جعفر بن محمد عليهما السلام والتفصيل إلى محلّه الاليق .

●

هل ان المادة عالمة حكيمة ؟

المادي : إلى هنا نصدقكم في : أن الكون يسوده العلم والتصميم والقدرة والحكمة ، إلاّ أنّ من الجائز كون هذه المعدّات كامنةً في نفس ذات المادة ، دون أن يسودها كائن سواها ! فللمادة الاوّلية كافة هذه القوّات ، تفعل بها ما تشاء وتحكم ما تريد !

الالهي : إذاً فلتكن المادة الاولية الازلية ! عالمة حكيمة فوق النهاية ـ أينما حلّت ـ وخالقة حيثما كانت ـ لا لشيء إلاّ لأنها مادة ! دون اختلاف في مراتب علمها في مختلف بيئاتها ، ولا أن تجهل حيناً وتعلم حيناً سواه .

بل ومن الواجب أن تتكامل في هذه المعدات حسب تكاملها في البيئات والتطورات التي تشق بها المادة سبيلها إلى الكمال والأكمل .

حال أننا نرى إختلافاً شاسعاً بين مختلف أطوار المادة ـ من حيث مراتب العلم ـ من حيث أصل العلم والجهل ، كما وأن الإنسان يعلم بمخّه دون أن يعلم أيّ شيء بسائر أعضاء بدنه ، إلاّ إحساساً حيوانياً على مختلف مراتبه .

ثم إن العقل الإنساني البالغ في الكمال المادي إلى القمّة ، هذا العقل ! لا يُدرك الكثير من القوانين الحاكمة على المادة ، ولا تسعة وتسعين بالمائة ـ حتى وعلى نفسه ـ إلاّ طرفاً يسيراً من قانون الجاذبية .

فهذا العقل ما كان ليدرك هذه القوانين ، فضلاً عن تقنينها : تكويناً لها وتنظيماً في عملياتها !

فهذه هي المادة المستكملة حتى القمّة ، فكيف بالمادة الأصيلة المتحلّلة عن كافة التطورات الطارئة ، ولمّا تصل إلى الكمالات التطورية فضلاً عن القمة !

إذاً فهذه القُدُرات والأنظمة والتصميات والقوانين المحيرة لثاقبات العقول وطائرات التفكير الانساني ، هذه ليست من نفس ذات المادة ، وإنما هي من كائنٍ مجرد عن المادة : هو الأزلي وراء المادة القيوم عليها ! « الله لا إله إلاّ هُوَ الحيُّ القيُّومْ ...»

وأخيراً : لو كانت المادة جاهلة عاجزة غير حكيمة ، ماذاكانت بيئتها : ليست هي الآن ؟ والحق يقال : إن قصور العقل عن الإحاطة بالكثير من القوانين المادية ـ دليلٌ لا مردّ له ـ أن المادة فيما سوى العقل الإنساني من أطوارها ، أضعف بكثير في هذه القدرات العلمية وسواها !

ازليتان : ١ ـ في المادة الجاهلة . ٢ ـ في سواها العليم الحكيم ؟!

المادي : حتى الآن نصدقكم في ضرورة حاجة المادة إلى سواها في تطويرها وتحويرها ، ولكنه ليس لِزاماً إلاّ لحدوث الأطوار في المادة ، لا حُدوثها في جوهر ذاتها أيضاً .

ازليةٌ واحدة في المجرد عن المادة :

الالهي : هذا من المستحيل : أن تكون المادة أزلية الذات ، غنية في أصل كينونتها ، وفقيرة إلى سواها في تطوراتها وسيرها إلى كمالاتها في شتى ميادين التطوير والتحوير .

وسبق : ١ ـ أنّ أزلية الذات تستلزم أزلية الصفات كما العكس كذلك .

٢ ـ أن عروض العوارض ـ وهي من صفات الحادث ـ على الازلي ـ هذا مما يُحيله العقل ـ إحالة اجتماع النقيضين .

٣ ـ أنّ الازلية هي اللاّنهائية المطلقة المستحيل تعدّدها .

٤ ـ أنّ العلوم التجريبية تحيل أزلية المادة .

٥ ـ وهنا نختم الحوار في سرد سائر البراهين على استحالة أزلية المادة ، بحدّ ذاتها .

براهين الحدوث تحيط المادة من كافة نواحيها

● ١ – التغير .

● ٢ – الزمان .

● ٣ – الحركة .

● ٤ – التركب : ... الجزء الذي لايتجزى ؟ ... المادة الاولية .

بحث آخر في حدوث المادة

الالهي : إننا لا نتمكن من العلم بحدوث المادة أو أزليّتها ـ بإدراك احدهما ذاتياً ـ اذ لم نكن من الأزل لكي ندرك أزليّتها ، ولا حين الحدوث لكي ندرك حدوثها .

إذاً فلاسبيل لنا إلى إستنباط أحد الامرين في المادة إلاّ من آثارها وخواصها ـ وكافةُ الخواص والآثار المادية تُصبح عسكراً عظيماً تقذف خرافة أزلية المادة بالمدفعيات الجبارة .

لقد اسلفنا البحث عن آثار الأزلية والحدوث في قول فصل ، وهنا نجد كافة آثار الحدوث والفقر والحاجة والمحدودية ، كل ذلك نجدها بكاملها في المادة مهما كانت :

من : الزمان والتغير والحركة والتركب و ..

ثم لا نجد أياً من آثار وخواص الأزلية فيها ـ إطلاقاً ـ أفلا يكفي هذا وذاك شاهدي صدق على أنها حادثة في ذاتها وفي تطوراتها ؟ .

مثالاً على ذلك الليل والنهار ، فإنها نتيجتا حركات الأرض : الوضعية والانتقاليه ، بشروق الشمس عليها وغروبها ، فإننا وإن لم نشاهد حدوثهما إذ حدثا ، إلاّ أنّ حاضرهما يخبرنا عن غابرهما : بالحدوث اطلاقاً ، فإن احدهما يأتي تِلوَ صاحبه بعد انعدامه ، ثم صاحبه بعده وهكذا ، دون أن يجتمعا معاً في أفق واحد ولا في حالة واحدة ، والحدوث بعد العدم والإنعدام آية الحدوث بل نفسه .

إذاً فليكن الليل والنهار حادثين في غابر الزمان أيضاً كما في حاضره ـ دون أزلية على أيّة حال ، واللاّ نهاية المزعومة في سلسلة الليل والنهار ، محكومة بحدوث أفــراد السلسلة وإلا أصبح اجتماع المحدود واللاّمحدود هنا : «اجتماع النقيضين» فرضاً لزاماً .

المادي : حدوث الليل والنهار ـ مهما كانا ـ لايدل على حدوث نفس الأرض ـ كما وأن حدوث العوارض الطارئة على المادة لايستلزم حدوثها في ذاتها ، فلايساوي زمنُ أيّة حادثة عُمرَ المادة في ذاتها ، وشاهداً عليه توارد مختلف الحوادث على مادة واحدة .

المظاهر الاربعة لحدوث المادة :

١ ـ التغيُّر :

الالهي ، العوارض والتغيرات الطارئة على المادة تدلنا على حدوثها في ذاتها ، مهما كانت هذه العوارض توأمة مع المادة طوال كينونتها ، أم لزمن خاص منها.

أمّا العوارض القصيرة المدّة ، فلأنها تحكي عن حاجة المادة وفقرها ، وإلاّ فلماذا تعرضها ؟ فهل إن العارضة للمـــادة آية الأزلية أم آية الحدوث أم لا هذا ولا ذاك ؟ .

لا سبيل الى كونها آيةً للازلية ـ فإن آيتها الثبات والفعلية والغنى المطلقة دون حاجة الى إستدراك حالة أو عارضة وحادثة ، فإنما الإستدراك في الناقص الحادث دون الأزلي الكامل .

فلو أننا فرضنا مادةً مّا عرضت لها عارضةٌ مّا دون تكرار ، لكانت هذه آيةً بينة : أن ذاتها حادثة ـ لقبولها التحوّل وحاجتها الى الاستدراك .

هذا ـ فكيف بمـا إذا كانت المادة ملازمة الذات مع كافة الحوادث وآثار الحدوث ، دون أن تستطيع التحلّل عنها ، ولا أقل من أنها محكومة بالتغير الدائم والحركة الدائمة وبالزمان والتركب ، فلاتجد أية مادة أو طاقة إلاّ وهي

أسيرة هذه الأغلال الأربعة ـ طيلة عمرها ـ ولا سيا الاخيرة : التركب . وهي من أكبر آيات الفقر والحدوث .

« فحيث إن الأجسام لا تخلو من ان تكون مجتمعة او متفرقة، او متحركة او ساكنة، والاجتماع والافتراق والحركة والسكون: محدثة، علمنا : ان الجسم محدثٌ لحدوث ما لا ينفكُ منه ولا يتقدّمه » [1] .

فهناك زِمالةٌ وقِرانٌ بين المادة وأمثال هذه التغيـّرات، فهما توأمان: لا يسبق أحدهما الآخر ولا يلحقه ، إذ إن المادة متغيرة ـ مهما كانت ـ فلا نجدها متحللة عن التغير ، ما كانت وما تكون .

هب إنّ جسماً مّا متحركٌ دون سكون ـ وآخر ساكن دون حراك ـ أو مجتمع دون فراق ـ أو متفرق دون إجتماع ، إلاّ أن فعليّة هذه الحالات في مادة مّا ، هذه تُحتّم جوازها وتحققها في سواها أيضاً، ويكفينا في التأكّد من حدوث المادة: جواز وإمكان توارد مختلف الحالات الحادثة عليها ـ طيلة عمرها ـ بل وحالة واحدة أيضاً ـ إذ لا شك أنها حالاتٌ حادثة ـ ومن المستحيل عروض صفات الحادث وعوارضه على الأزليّ ـ كالعكس .

إذاً فعدم خُلوّ الأجسام ـ مهما كانت ـ عن عروض تلكم الحالات، بل وجواز وإمكان طريانها عليها طيلة عمرها أيضاً ، بل لزمن خاص كذلك، كلّ ذلك آيات بينات على : **« ان المادة حادثة لحدوث ما لاينفك منه ولا يتقدمه »** .

وإننا ، إذ نهدف إثبات حدوث المادة ، لسنا بحاجة ماسّة الى إثبات أنها معروضة الحوادث : تترى ـ طيلة عمرها ـ وان كانت هذه حقيقة ناصعة لا تُنكر حيث يكفينا عروض عارضة مّا يحدث فيها ـ أو جوازه : شاهداً على حدوثها ذاتياً ، للضابطة الكلية الثابتة :

---

١ ـ التوحيد للصدوق ص ٣١٢ عن علي أمير المؤمنين عليه السلام .

« أن بين الازلية والحدوث تبايناً كلياً ـ فكذلك بين أوصافهما ، فكما أنه من المستحيل أن يُصبح الازليُّ حادثاً ، أو الحادث أزلياً ، كذا يستحيل إتصاف كلٍّ بأوصاف الآخر ، إذ لا يتصف كلٌّ منهما إلا بما يناسبه ذاتياً ، فعروض أيّة صفات على ما تُدّعى أزليته ـ وان حيناً مّا ـ هـــذا دليل واضح لامرد له : أنه حادث » .

إذاً فسواءٌ : أكانت المادة معروضة حوادث تترى طيلة عمرها ، أم معروضة واحدةٍ منها دون سواها ـ دائما أو لوقت مّا ـ أم إننا نجد مادة مّا لم يعرضها ولا يعرضها عارضٌ ـ ما كانت وتكون ـ رغم سواها : المعروضة لتلكم العوارض مهما كانت !

فقد يكفينا جواز وإمكان عروض عارضٍ مّا على مادةٍ مّا ـ لإثبات حدوث المادة أينما كانت ومهما كانت .

إذاً فالقول : إنه من الجائز أزلية المادة ـ وأن العوارض إنما تعرضها بعد الازل ـ هذا على سخافته وبطلانه في حدّ ذاته ـ كما سيأتي ـ لا يفيد المادة جواز الازلية ـ لما سلف ، ولان تلكم العوارض الطارئة بعد الازل ـ على الفرض ـ لاتخلو من كونها معلولةً لذات المادة ، أو سواها .

فعلى الاوّل كان اللازم عروضها من الازل ، قضية عدم انفكاك بين العلة غير المختارة ومعلولها ، رغم التناقض بين الازلية والعروض ! .

وعلى الثاني يلزم حاجة الازلي الى سواها في الاوصاف ، رغم غناه عن سواه في الذات ! .

هذا على تصديق فروض لا يصدقها العلم ، إلاّ أنّ عسكر العلوم المادية ، ولا سيما علم الكيمياء والفيزياء ، يُحيل تحلّل المـــادة وتخلّصها عن التغيرات والحالات المتواترة ، الى حيث يكاد العلم يعتبر المادة تغيراً والتغير مادة :

« المادة = التغير »

اذاً فكما أن التغير عبارة أخـرى عن الحدوث ، كذلك المادة التوأمة مع التغير دون فكاك :

« المادة = الحدوث »

وبصيغة أخرى : « اننا لانجد شيئاً صغيراً ولا كبيراً الا واذا انضم اليه مثله صار اكبر وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى ، ولو كان قـديماً ما زال وما حال لان الذي يزول ويحول يجوز ان يوجد ويبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدوث، وفي كونه في الاولى دخوله في العدم ، ولن يجتمع صفة الازل والعدم في شيء واحد »[1].

يُوضّح هذا البرهان : أن الأزلية والحدوث متقابلان ـ كلياً ـ في الذات وفي الصفات ، ومن صفات الأزلية : الثبات ، ويباينه التغيـّر ، فهو من صفات الحدوث ، كما سلف لمرات .

فتحقـّقُ أو امكان الزوال وتحوُّل الأحوال في المادة ، هذا يُفرض حدوثها كما انّ امتناع ذلك في المجرد عنها يُفرض ازليّته .

ومحالٌ أن تكون المادة أزليّة ، ثم تجتمع معها صفة الحادث ، أو يمكن ذلك في حقها .

فاذ قد نرى المادة ـ ولاتزال ـ : في زوال وانتقال ، وإنّ كان بعد الأزل على فرض المحال ، أو لزمن مّا ـ كذلك ـ إذاً فهي حادثة حيث تعرضها صفات الحادث « ولن يجتمع صفة الازل والعدم في شيء واحد »

« فما يزول ويحول يجوز ان يوجد ويبطل » إذ إن التحول والحدوث

---

١ ـ من براهين الامام جعفر بن محمد الصادق في حواره مع ابن أبي العوجاء .

من وادٍ واحد ، أو انهما تعبيران عن حقيقة واحدة ، يرتضعان من ثدي واحد .

هذا - إلاّ أن تعكسوا الأمر : فتعتبروا التحوّل والزوال من صفات الأزليّ ، والثبات والبقاء من صفات الحادث ، تسميةً للشيء بخلاف اسمه ورسمه ؟ ! .

المادي: « هبك عَلِمت الحال في جري الحالتين والزمانيين ، على ما ذكرت - واستدللت على حدوثها ، فلو بقيت الاشياء على صِغَرِها ، من اين كان لك ان تستدل على حدوثها ؟ » [١] .

الالهي : « انما نتكلم على هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر ، كان لا شيءَ ادلّ على الحدوث من رفعنا اياه ووضعنا غيره ، ولكنّا اجبناكم من حيث قدّرتم انكم تُلزموننا ، في هذا العالم الموجود ، ونقول : ان الاشياء لو دامت على صِغَرِها لكان في الوهم انه : متى ما ضُمَّ شيءٌ منه الى مثله كان اكبر ، وفي جواز التغيُّر عليه خروجه من القدم ، وجواز خروجه الى العدم ، كما بان في تغيُّره دخوله في الحدَث » [٢] .

فالعالم المادي - بكافة أحواله - بغابره ومستقبله وحاله ، في واقعه وفيما يجوز له ويتصور فيه ، إنه على أيّة حال آيةٌ بينة لحدوثه وفقره الى سواه ، دون ريب .

ويكفي إمكان التغير في المادة لإثبات استحالة أزليتها ، اذ انّ التغير من خواص الحوادث .

« فالعالم متغير وكل متغير حادث فالعالم حادث » :

هذا الشكل الأوّل المنطقي ، وهو من أوليّات وضروريات أشكاله -

---

١ - هذا ما أورده ابن أبي العوجاء على احتجاج الامام الصادق (ع) .
٢ - هذا ما اجابه الامام (ع) عن ايراده .

هذا يُبرهن لنا إستحالة أزليّة المادة وضرورة الأزليّة في المجرد عنها ـ الخالق لها ـ ولا سيما إذا عرضنا صفات الأزلية على المادة ، فوجدناها تحيـــد وتندحر عنها وتحِنّ الى ما يباينها كلياً : من كافة صفات الحدوث دون شذوذ .

فذلكةٌ :

كما أنّ الأزلي مستحيل الفناء ، كذلك صفاته ـ سواء ـ إذاً ففرض أزلية المادة ، وأن العوارض إنما عرضتها بعد الأزل ـ هذا مزيّف من جهات :

١ ـ استحالة تبدّل الحالة والصفة الأزلية .

٢ ـ استحالة عروض العوارض الحادثة على الذات الأزلية .

٣ ـ استحاله خلوّ المادة عن العوارض والتغيّـرات .

فذلكةٌ ثانية :

بما أنّه يستحيل إجتماع المتباينين كلياً ، وأنّ أظهر مصاديق الإجتماع إجتماع الصفة والموصوف ، لذلك يستحيل إتصاف الأزليّ بالحوادث ، كإستحالة إتصاف الحادث بالازليات ـ ذاتاً وصفاتاً .

... فإذا وجدنا المادة تجد صفات الحدوث ، دون أن تتمكن من التخلص عنها ، فهي الحادثة دون ريب .

وفي ذلك يقول : « جورج هربرت بلونت » [١]

GEORGE HERBERT BLOUNT

« الادلة الكونية تثبت : أن العالم متغيّر ، إذاً فليس أزلياً أبدياً ، لذلك فالضرورة الكونية تلجئنا الى الإعتقاد : أن هناك ـ وراءَ الكون المادي ـ

---

١ ـ حاصل على درجة الماجستير من معهد كاليفورنيا التكنولوجي ، كبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا .

حقيقة سرمدية عالية ، بإرادته وحكمته اللاّ نهائية يتغير الكون على نظام بارع .. »

ويقول : اوسكار لئو برايونر [1] OSCAR LEO BRAUER

... « هناك فرضيتان بالنسبة للاجرام السماوية :

١ - انها لابدءَ لها ، أي أزلية .   ٢ - انها مخلوقة حادثة .

إن الفرضية الاولى ساقطة مردودة ، حيث المادة متغيرة ، تنمو وتتسع ، ثم العلوم الطبيعية - على دقة عميقة - تُقدّر بداية كلّ جسم ..

إن العلوم باستطاعتها أن تُثبت : أن الكون مخلوق طاقة وحكمة عالية ولكنها لا تستطيع أن تبين الكيفية العجيبة المرموزة والقوانين الطبيعية وعللها كما يحق .. »

---

١ - الحاصل على درجة M. Sc والدكتور في الفلسفة من جامعة كاليفورنيا ، واستاذ الفيزياء والكيمياء في الكالج الحكومي ؛ سان جوز كاليفورنيا ، والمتخصص في الكيمياء الآلي ..

الزمان

الظاهرة الثانية لحدوث المادة :

المادي : هب أنّ التغير هو الظاهرة الاولى من آيات حدوث المادة ، فأين دلالة الزمان ، فإن لنا أن نفرض اللا ّ نهاية واللا ّ بداية في الزمان ! ؟ .

الالهي : فرض اللا ّ نهاية في الزمان يناقض : أنّ آناته محدودة حادثة ، وقد حققّنا غير مرة : أنّ حدوث الافراد وحدودها تجري في المجموع ، لانه لايزيد ولا ينقص عن الافراد حدوداً وحدوثاً .

المادي : إنما الزمان ـ الليل والنهار ـ حدث في الكون منذ حركة الارض ، وكلّنا نعلم : أنّ الحركة حدثت في الارض، فقد كانت الارض والسماء ، وكانت المادة اطلاقاً : دون الحركات المنتزع عنها الليل والنهار ، فلم يكن قبلئذٍ ليلٌ ولا نهار ، اذاً فحدوث الزمان لايستدعي حدوث الكون المعروض للزمان.

الالهي : ليس الزمان إلا ّ إنتزاعاً عن فواصل الاكوان ، وظاهرةٌ من تغيّر وحراك المادة ، إذاً فلا يخص الارض لحراكها الخاص ـ ولايخص الليل والنهار ـ وان كان من أظهر مصاديقه التي يعرفها العرف البسيط .

فلولا التغيُّر والحراك في المادة لم يكن هناك زمانٌ ، حيث لاتصرُّم ولاانقضاء وليس الزمان مما يستقلّ دون المادة ، ولا المادة مما تتخلص عن الزمان ، لأنها متحركة متغيرة دون أيّة وقفة فيها .

وهذا هو السرّ في مقالتنا نحن الالهيين: إنّ الإله المجرد ليس له عمر ولازمان، إلا ّ السرمدية اللا ّ زمانية ، حيث لا حراك ولا تغير وتصرّم في ذاته .

مصادر الزمان :

فكلّ حركة مصدر لزمان يناسبها : إن كانت حركة الأرض فزمان الليل والنهار ، أو حركات الجُزَيئآت والذرّات وأجزائها الداخلية ، التي يُعبر عنها بالحركة الجوهرية الماهوية ، وإن إختلفت المقادير حسب مختلف المقائيس.

فالسنة الالكترونية تعادل $\frac{١}{٥٠٫٠٠٠}$ ثانية من الثواني الأرضية ،حيث يدور الالكترون حول مركزه البروتوني ٥٠٫٠٠٠ مرة في كل ثانية أرضية !

المادي: لو صدّقنا : أن الزمان من لوازم المادة ـمهما كانتـ فما هي الملازمة بين حدوث الزمان وحدوث المادة ؟ .

الالهي: أليس الزمان آنات متلاحقة دون ثبات على أية حال؟ إذاً فهو بكافة أجزائه حادث ـ فإن كيانه الوجود بعد الإنعدام ـ وجــودُ الآن اللاّحق بعد السابق .

إذ ذاك فملازمة المادة للزمان دون تحلّل عنها ، هذه تحكم بحدوث المادة ، قضية أنها توأمان : يرتضعان من ثدي واحد كالتالي :

« المادة = الزمان = الحدوث »

فالمساوات الثلاثية ـ هكذا ـ لا محيد عنها .

فلنفرض : أنّ الزمان حدث في المادة بعد الأزل ـ رغم استحالتهـ لما سلف من إستحالة عروض الحوادث على ذات الأزلي، نفرض : أنه حدث بعد الازل، فقد صارت زمانية فمحدودةً في العمر ، بالبيان التالي :

نفرض أنّ الزمان حدث في المادة قبل مليار سنة ـ أليس عمر المادة إذاً : الازلية مضافة إلى المليار ؟ !

إذ ذاك ، فهل إن عمر المادة قبل المليار يساوي عمرها الحالي : أم ينقص عنه بمليار ؟ .

المادي : مِن البديهي أنه ينقص ملياراً واحداً ، وقد زاد المليار على عمرها الازلي ـ وستزيدها الأزمنة المستقبلة .

الالهي : إذاً فلا أزلية للمادة ، وإن كان قبل المليار : حالة الازلية المقترحة المزعومة ! لان الازلية لا تقبـــل الزيادة ولاالنقصان ، وكيف تقبلها وهي اللاّمحدودية المطلقة : اللاّ أولية واللاّ آخرية ، واللاّ حركة ، واللاّ تغير : فاللاّ زمان ! .

ومن البديهي : أنّه لا يُحكم بالزيادة والنقصان في شيء إلاّ أن يُزاد عليه أو يُنقص عنه ما هو من سنخه وجنسه ، فالازلية المزعومة في المادة ، قبـــل حدوث المادة ، هي مثل ما أُضيف إليهـــا من الزمان ، وإن أُختلق لها إسمٌ يختلف عن الزمان ، فعمر المادة زمانٌ اطلاقاً ، سواء أكان في الازلية المزعومة أو بعدها .

مثالاً على ذلك : أننا نستطيـع أن نضيف الثواني الى السنين والقرون أوأن ننقصها عنها ، قضية المشاركة في ماهية الزمان بينهما رغم إختلاف الإسم .

ولكننا لا نستطيـع أن نضيف درجات الحرارة أو الأمتار والكيلومترات على القرون والسنين ، كأن يقال : قد مضى من عمر العالم ٥ بليار سنة وكيلومتر ، أو إلا كيلومتر ، أو مائة درجة سانتيغراد ، أو إلاّ المائة .

والسرّ في ذلك كله وجود السنخية هناك وعدمها هنا .

هل لله عُمر ؟

المادي : إذاً فليكن كذلك الآله المجرد عن المادة ، فإنه أزليٌ قبل وجود المادة وحراكها وزمانها ، ثم اعتراه الزمان كالماده التي خلقها ـ سواء ـ .

فلو أننا إعتبرنا قبل مليار سنة أو بعده ، كان عمره : الازلية مضافة إلى مليار أو ناقصة عنه ، فقد أصبح هو أيضاً محدوداً كالمادة ـ بحكم الزمان الشامل لها ، فهو أيضاً حادث كحدوث المادة ـ سواء .

الالهي . إن الزمان لا يعرض ولن يعرض إلاّ المتغير المتحرك ، فلا يضاف أو ينقص إلاّعن المادة ، دون سواها ، فإنها المقسم والمنتزع عنها الزمـــان ، قضيةَ الحراك والتغير ، وليست إضافة الزمان إلى الله المجرد عن المادة ، إلا كإضافة الثواني على الأمتار ، وإضافة الامتار على القرون ، بل واسوء حالاً واضل سبيلا !

كما وأن نفي العوارض المتقابلة المتباينة المادية عـــن المجرد عنها ليس نفياً للنقيضين ، كما تُنفى عنه الحركة والسكون ، والحرارة والبرودة ، والطول والقصر ، والسواد والبياض ، كذلك نفي مليار وإثباته بالنسبة لساحة الالوهية ، فإنّ المليار سنة ومثله نفياً واثباتاً ، إنّما هو من خواص المادة دون سواها .

فكما أنه تعالى لم يكن له عمرٌ زماني قبل حدوث المادة ، إذ لم يكن له تغير ولا حِراك ، كذلك بعد حدوث المادة ، إذ إن المادة لم تُفرِض في ذاته تعالى حِراكاً ولا تَحوُّلاً ، فهو قبل المادة وحينها وبعدها على السواء « في ذاته وفي صفاته » إذ « لا يتغير بانغيار المخلوقين كما لا يتّحد بتحديد المحدودين » فلا يقال له : متى؟ فإنه متّى المتى- ولا اين؟ فانه أينّ الاين ، ولا جوهر ولا عرض ولا حدّ ، فإنه الخالق لها كلّها ، ومن المستحيل أن يشبه الخالق الحقيقي مخلوقه : « فهو خِلوٌ من خلقه وخلقه خِلوٌ منه » خلوٌ عن النقص وخلوهم عن الكمال ، فإنه الكمال كله والخلق نقص وفقر كلّه .

ومن السرّ في كلّ ذلك : أنّ الزمان يلحق المادة قضية الحراك والتغير ، فهي زمانية لعروض الزمان ذاتها ، ولكنه لم يلحق ولن يلحق ذات الإله ، إذ لا تَغيرُ ولا حِراك في ذاته ، فلا توصف بوصف الزمان ، أو وَصفاً له بما عَرَض غيره ، وهو الخالق له بما عرض ؟ ! بل ويَستحيل أن يعرضه الزمان لإستحالة مبدئه وهو الحركة والتغير ، ولكن المادة بِحَسْبها امكان الحركة ، فضلاً عـــن واقعها ، : أن يُصبح الزمان لذاتها لزاماً : ما كانت مادةً ، ولن تتحلّل عنها إلاّ إذا تحللت عن الوجود .

ولكن الإله المجرد : لا زمانيّ الذات ، لاستحالة الحركة في ذاته ، فضلاً عن واقعها ، فكما أن ذات الإله تُقابل ذوات ما سواه : تقابلَ التباين الكلي ، فكذلك الزمان واللا زمـــان فيها متقابلان : تقابل السلب والإيجاب فرضاً لزاماً .

كما وأن الأزلية لا تعرض المخلوق لكونها صفة الخالق ، حيث لا خلط ولا تبادل ولا مشابهة بين الخالق والمخلوق ذاتاً وصفاتاً ، لمناقضة العروض مع الأزلية .

فلنفرض : أن هناك مشابهة ، وحاشاه تعالى ، إلاّ أنّ عروض حالة على مخلوق مّا - لا يقتضي اتصاف غيره بها فضلاً عن الخالق .

إذاً فلا عمر للخالق ولن يكون :

أولا : لأنه الخالق للعمر والزمان والزماني ، فلا يعرضه ما خلق ، لمناقضة العروض والازلية .

ثانياً : أن الزمان إنما عرض ويعرض المادة لانها مادة - فكيف يُوصف به غير المادة .

فالأزلية الإلهية قبل المليار وبعده ، قبل الكون وبعده - كل هذه على سواء ، بالنسبة لذاته المقدسة : لا يزيده وجود العالم وعدمه شيئاً ، وليست إضافة الزمان إليه إلاّ إضافة عارض المادة على المجرد عنها ، اضافة النقيض إلى نقيضه .

فعمر الزمان ، زائده وناقصه : مسلوبٌ عنه تعالى لسلب المادة عن ذاته المقدسة ، كما تُسلب الحرارة والبرودة عن العـــدد قضية اختلاف الموضوع والمعروض هنا وهناك .

فلا يُقدر ذاتُه تعالى بما يقدر به الكون لاختلاف مناط التقدير ذاتياً وصفاتياً :

« فهو خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه ، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه ، مباينٌ لجميع ما أحدث في الصفات ، خارج عن تطور الحالات ، ذاته حقيقة وكنهه تفريق بينه وبين خلقه ، لا تضمنه الأماكن ولا تأخذه السّنات ، ولا تحدّه الصفات ولا تقيده الأدوات ، سبق الأوقاتِ كونُه ، والعدمَ وجودُه ، والإبتداءَ أزلُه ، لا يُغيّبه مُذ ، ولا تُدنيه قد ، ولا تَحجبه لعلّ ، ولا يُوقّته متى ، ولا يشمله حين ، ولا يُقارنه مع ـ

لا تجري عليه الحركة والسكون ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، أو يعود فيه ما هو ابتداه ، اذاً لتفاوتت ذاته ، ولتجزّء كنهه ، ولا امتنع من الأزل معناه ، ولما كان للباري معنىً غير المبروء »[1] .

ف : التغير والحدوث = الزمان ، ف : الثبات = الازلية ، كذلك الله ربنا .

●

---

١ ـ حديث شريف نأتي على تفصيله .

الحركة

الظاهرة الثالثة لحدوث المادة :

المادي : ... ثم بعد هذين : فما هي دلالة الحركة على حدوث المادة ، حال أنّ المادة قد تسكن دون حراك ، وإن كانت دائمة التغيّر والزمان !

الالهي : إنّ الحركة في المادة هي الأصل المنتزع منه الزمان ، والحادث عنه مختلف الأشكال والتغيرات ، فالحركة مع وليديها توأمات ثلاث مندغمة في جوهر ذات المادة وكيانها .

اقسام الحركات :

لا نعني من الحركة :الطولية المحسوسة فحسب ، فإنها أبسط مراتب الحركة رغم أنها أظهرها ، بل والحركة الجوهرية الشاملة لحركات الجُزَيئات في مختلف العناصر ، وحركات الذرات بمجموعاتها في الجُزَيئات ، وباجزائها الداخلية : كحركة الإلكترون الدورانية ، حول شمسه البروتونى ، ٥٥٠٠٠ مرة كلّ ثانية .

فقد تتحلّل المادة عن الحركات الطولية أو الجُزَيئية المولّدة للحرارة ، بأن يبرد الجسم في ٤٧٠ درجة تحت الصفر ، برودةً مطلقة ، ولكنها لن تسكن عن الحركات الداخلية الذّرية ، ولا عن حركات الذّرات أنفسها ، ولا الحركة الجوهرية المغيرة للمادة والسائرة بها نحو الكمال أو النقص .

فلا تجد مادةً ما تسكن عن الحركة الجوهرية أو ، وبالاحرى ، عن الحركة الذرية الداخلية .

وكلمة الفصل هنا : أنّ الحركة كيان المادة وماهيتها ، دون أن تستطيع التحلل عنها على أيّة حال ، وهذا إجماعٌ من علماء الطبيعة حتى اليوم : أن وقفة المادة عن الحراك اطلاقاً إنما هي وقفتها عن الوجود وانعدامها اطلاقاً .

فقد يقال : إنها ملازمة للحركة دون فكاك .

وقد يقال : إنها نفس الحركة ، لا حقيقة لها إلاّ الحركة الداخلية الذريّة ، وكما يقول انيشتاين:« المادة هي الحركة ، والحركة هي المادة بعينها » .

لا يعني : الحركة المصدرية ـ بل حقيقة الحركة وواقعها في داخل الذرات ، المتحصلة عنها الطاقات .

ازلية الحركة ! ...

المادي : لا علينا إذ نفرض أزلية الحركة في المادة ، كما نفرض أزليتها في الذات ـ فهما توأمان في الأزلية ، كما هما متلازمان في الكينونة !

الالهي : ذاتُ الحركة ومعناها وواقعها ـ إنّها تصرخ : أنها حادثة كيفما فرضت وأينما وجدت .

فهل إنّ كل حركة دورية الكترونية حول شمسها البروتوني ، هل إنها تستطيع ان تجتمع مع سائر الدورانات الغابرة والمستقبلة لها؟ام إنها كآنات الزمان متصرمة الذات ، لا تحدث إلاّ بعد انعدام ما سلفها ، ثم تنعدم آنَ تحدث ، لما يخلفها من الدَّورانات التالية لها ؟

المادي : اجل إنها متصرمة الذات ، ولكنها ازلية ، حيث لا نجد المادة مهما كانت ، إلاّ متحركة ، ولا الإلكترونات إلا كذلك : أزلية التصرم والتلاحق.

الالهي : هل إنّ التصرم إلاّ عبارة أخرى عن الحدوث ، دون ايّة ازلية في أيّة حركة في الدورانات الإلكترونية ، اذاً فكيف يمكن الجمع بين الأزلية والحدوث في الحركة ؟

كلا ! إنّ المادة حادثة الذات كما هي متحركة الـــذات ، ولقد اسلفنا القول حول إستحالة الأزلية لمجموعةٍ هي خلوٌ من الازلية في افرادها،فلا نعيد.

المادة والحركة توأمتان .

اذاً ـ ف : المادة = الحركة = الحدوث ، فالمادة = الحدوث .
فالحدوث والفقر كيانها وماهيتها .

كما أن المادة ـ الحركة = العدم ، والحركة ـ المادة = العـدم .

المادي : فلنفرض : ان الإلكترونات في الذرات حادثة لحراكها الملازم لكيانها ، الا أنّ ذلك لا يحكم إلا بحدوث الالكترونات انفسها ، لا وشموسها البروتونية الثابته في مراكز الذرات ، فحدوث واحد من جزئي أو أجزاء المادة ، لا يحكم بحدوث سائر الاجزاء ، إلا إذا كانت كأمثاله .

الالهي : اول ما نقول : إنّ المادة كانت متحركة ما كانت ، فعمر المادة يساوي عمر الحركة فيها ، دون زيادة ولا نقصان ، فهما توأمان ، إذاً فاجزاء الذرات متساوية العمر : المتحركة منها والساكنة ، فالساكنة ايضاً حادثة كالمتحركة لانهما توأمان .

ثم نقول : ملازمة المادة للحركة تقتضي حراكها في كافة اجزائها ، ولاسيما على نظرية انيشتاين : «أن المادة ليست إلا الحركة» وان كان في البروتون ! ...

المادي . ليس علينا تصديق نظريات العلماء في ملازمة المادة للحركة ـ فقد تخلفها نظريات أخرى تخالفها ، كما في الكثير من النظرات الغابرة حيث أصبحت مقبورة مع الأبد ، على ضوء تقدم العلم .

فرضية مختلقة لا قائل بها :

فلنفرض أن المادة ثابتة في اجـــزائها الاصيلة ، أو في البعض منها : مثل

البروتون ، وهذا رغم الحراك في غيرها وفيما تركب عنها .

أو أن المادة كانت ثابتة الاجزاء إطلاقاً ، في الازل ، ثم أخذت في الحراك بعد الأزل .

وعلى الفرضين فالحركة لا تحكم على المادة بالحدوث قضيةَ حدوثها ، إذ لا ملازمة بين المادة والحركة .

الالهي : اول ما نقول : ألاّ خلاف بين العلماء حتى اليوم ، في : أنّ المادة محكومة لحركةٍ مّا ، ما كانت وتكون ، ونحن الآن نُلزم البشرية حتى اليوم بما التزموا به علمياً ، دون خلاف ، فلا مناص لهم عن تصديق حدوث المادة لحدوث ما يُلازمها : من الحركة ، لزوماً بالذات ، سواءٌ أكانت حركة جوهرية كما في كافة المواد ، أو الحركات الداخلية للذرات والجزيئات .

فالوقفة المطلقة عن أيّة حركة في المادة تُعبر عن الوقفة في كافة الطاقات المادية ، وإذ لا طاقة فلا مادة ، لأنها منتوجة الطاقات أو تُلازمها في أصل كينونتها ، والطاقة لا تتكون إلاّ من جرّاء مختلف الحركات في المادة ، ذرّية وجزيئية وما اليها ، وهذه هي النقطة الرئيسية في نظرية انيشتاين : « أنّ المادة ليست إلاّ الحركة ولا الحركة إلا المادة » فهما في هذه النظرية تعبيران عن حقيقة واحدة : هي المادة ، لو سُلب عنها الحركة لأصبحت مسلوب الوجود اطلاقاً .

وأخيراً نقول : إنّ براهين حدوث المادة لا تنحصر على الاسس التي يُصدقها العلم ، حتى اليوم ، بل إنها منطلقة إنطلاقة واسعة شاسعة تسع كافة المجالات في مختلف ميادين الإفتراضات حول المادة ، وفيما يلي أقضية حاسمة لأزلية المادة ، على أساس الإفتراضات الاخيرة :

١ - أزلية الذات في المادة وسواها ، تقتضي أزلية الصفات والحالات المتورة لها ، فحدوث الحركات في المادة يأتي آية بيّنة على حدوثها في ذاتها ، دون ريب .

٣ - اشكال ثانٍ أنه : ما هي علة الحركة بعد الأزل ، فهل إنها من نفس ذات المادة أم من علةٍ سواها ، ام إنها أخذت في الحراك دون علة فاعلة ؟

المادي : أقول من نفس الذات .

الالهي : إذاً فلماذا أخذت الحركة تحدث بعد الأزل ، رغم أنّ المادة جاهلة غير شاعرة ولا مريدة حق تُؤّخر ما تشاء وتقدّم ، إذاً فلمَ تأخرت الحركة عن الأزل ، رغم وجود علة الحركة - وهي ذات المادة - من الازل !

المادي : الحركة في المادة إنما تأخرت بعد الأزل لامرين :

١ - إن المادة شاعرةمريدة تُقدم ما تشاء وتُؤخر ما تشاء - كما الإله زعم الالهيين كذلك ، سواء .

٢ - إنها دائمة السير نحو الكمال . والحركة من اسبابه الأصيلة ، فلذلك أخذت فيالحراك بعد الازل .

الالهي : فرضية العلم والارادة في المادة تختلف عما اجمع عليه الماديون حق الآن ، واضافةً على ذلـــك إنّ الحسّ يأتى شاهد صدق ثانٍ على الجهل واللاّشعورية المستكنة المندغمة في المادة ، مهما كانت ، وكما فصلناه سابقاً .

ثم إن السير نحو الكمال هو الحركة الجوهرية بعينها ، ودوام هذا السير في المادة عبارة أخرى عن دوام الحركة فيها : فالحدوث الذاتي .

ومن ناحية اخرى: إن نفس السير إلى الكمال حدوثٌ بعد حدوث في استكمال ، وهذا ينافي في الازلية .

وثالثة : أن الازلية هي تمام الكمال والغنى المطلقةاللاّنهائية ، فلا يُعقل السير نحو الكمال والأكمل في الازلي .

المادي : هب إنّ الحركة أخذت من الإزل كأصل الذات ، اذاً فهي أزلية الذات والحركات .

الالهي : نفس الحركة حادثة كما قدمنا البحث الفصل في ذلك ، اذاً فتوأمتها الملازمة لها ،المساوية لها في زمنها ، هذه ايضاً حادثة مثلها .

المادي: فلنفرض : أن الإله وراء المادة هو العلة لحراكها ، إذاً فلماذا خلقها وحرّكها بعد الازل : سوآلا عليه ـ كما علينا ـ في تأخر الحراك عن الازل ؟

الالهي : حراك الذات يختلف عن الحراك خارج الذات ، فله تعالى أن يخلق متى شاء فيحرّك منذ يخلق ، دون أن يمس ذلك من كرامة ربوبيته تعالى ، فإن ذلك ليس إستكمالاً في ذاته ، بل في خلقه الفقير الذات المتحرك الجوهر نحو الكمال ، وبعد كل ذلك : إنّ الخلق من الازل مستحيل في نفس الذات ، إذ إنّ الخلق إحداثٌ فالمخلوق حادث ، متى خُلق ومهما وجد ، والازلية تقابل الحدوث ـ تقابُلَ الايجاب والسلب .

وبصيغة اخرى : إنّ الخلق من الازل جمعٌ بين الحدوث والازلية وهذا تناقضٌ بيّن .

وأخيراً : إن هذا السؤال لا يتجه على الازلي الذات والكمالات ، والعالم المريد الحكيم الفعّال لما يشاء ، إنما يوجه الى الجاهل ، أو العالم المستكمل فيأتي الجواب كلمة واحدة :

إن الحراك في المادة غير منبثقة عن نفس ذاتها ، بل إنها كأصل ذاتها صادرة عن المصدر الازليّ وراءها ، خالق كلّ شيء ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

إنه تعالى فاعل لا باضطرار ، فليس علة موجَبة تلازمها المعلول منذ كانت ، فلقد كان من الازل اللاّاول[1] ، وكان وكان ولا مخلوق ، ثم َخلق الخلق بعلمه وقدرته وحكمته ، وكان وله حقيقة الخالقية إذ لا مخلوق ، ومعنى البارئية اذ لا مبروء ، ليس منذ خلــق استحق معنى الخالقية ، ولا منذ برءَ استحق معنى البارئية » .

إنّه خلق الخلق بعد الازل باختياره ، وَفَعل فيه ما فعل باختياره ، دون

١ - إن صحت - من »

إبتغاء إستكماله قبل ، قبل ولا بعد ، إلاّ اظهاراً لرحمته وعنايته ، ولأن يعرفه عباده ويعبدوه « كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف « حديث قدسي » .

ثم لنفرض ، بعد الغض عن ذلك كله : أن حركة المادة معلولة ذاتها بعد الازل ، رغم البراهين القاطعة على أستحالته ، إلاّ ان تحرك المادة بعد الازل ! هذا أخذٌ في الحدوث ، ومحالٌ على الازليّ أن يأخذ في الحدَث ، كما يستحيل على الحادث الازلية ، للتباين الكلي الذاتي بين الازلية والحدوث .

ازلية الذات وحادثة الحركات !

المادي : لو صدقنا : أن حركة المادة معلولة لما ورائها ، فهذا لا يصطدم وازليتها في نفس ذاتها : أن تصبح أزلية الذات وحادثة الحركات .

الالهي : اضافةً إلى كل ما اسلفناه : في إستحالة أخذ الازلي في الحدث : سواء أكان في الذات أو في عوارض وصفات الذات ، هنا نزيدكم برهاناً ساطعاً قاطعاً لا مردّ له ، كالتالي :

إذا كانت المادة أزلية الذات فلماذا تحتاج حراكها وصفاتها إلى ما ورائها ، أليست هذه الحاجة إلى الغير في عوارض الذات دالة على حاجة الذات ـ بالاحرى ـ إلى ذلك الغير ، فان ذات الشيء أهمّ من الحالات المعتورة عليها ، أهمية الاصل على الفرع ، فالحاجة في فروع الذات إلى سواها تستلزم حاجة الذات نفسها ، وبالاحرى ، إلى سواها .

مثالاً على ذلك: من يستطيع أن يحمل طُناً فأحرى له ان يستطيع تحريكه أو يحمل نصف طُن ، فإذا فرضنا : أنه لا يقدر على تحريك طنّ أو حمل نصف طن ، فبالاحرى لا يقدر أن يحمل طناً دون مراء !

فإذا كانت المادة ازلية الذات وغنيّها عما ورائها في أصل الذات ، فأحرى بها : أن تكون غنيةً في حالاتها وحركاتها المعتورة العارضة عليها ، إذاً فحاجة

المادة في عوارضها تأتى أية بيّنة على حاجتها في ذاتها و بالاحرى الى سواها .

كلمة الجمع والفصل :

...وعلى أية حال : فسواءً أكانت الحركة في المادة من نفس ذاتها أو سواها: مادياً ام مجرداً عنها ، فنفس الحركة في المادة ولو في آنٍ ما - ولو كانت بإمكانها دون واقعٍ فعلي- : هذه تكشف عن أنها حادثة الذات،لإستحالة إجتماع الازلية والحدوث في شيء واحد ، ووحدة ذات المادة مع صفاتها مصداقاً تمنع وتتمنَّع عن اتصاف الذات بالازلية رغم أنّ الصفات حادثة ، فكل ذات إنما تتصف بما تجانسها وتناسبها من صفات ، إن ازلية فازلية ، وإن حادثة فحادثة ، دون أن يتصف الازلي بصفات الحدوث ، أو الحادث بصفات الازلى ، أإتصافاً بما يباين الذات ويناقضها !

فإلى هنا المدفعيات الجبارة الثلاث: « التغير ، الزمان ، الحركة » ادّت ماعليها : أن قذفت أزلية المادة،المزعومة ! فأحالت إلا أن تكون المادة حادثة الذات والصفات ومفتقرة الكينونة إلى سواها .

وإليكم المدفعية الرابعة الرائعة والاخـــيرة ، التي لا تبقى كياناً للمادة ولا تذر: إلا أنها فقر في فقر، وان حاجتها الى سواها المجرد عنها والمباين لها،هذه الحاجة دعجت في ذاتها لحد أصبحت المادة حاجة في اصل ذاتها وتطوراتها ، إلى حيث يصبح فرضِ تحللها عن سواها في الكينونة والتعلق ، وفرض تحللها عن الوجود ، هما على سواء ، كالفور مول التالي :

المادة - المجرد الازلي = العدم .

المادة + المجرد الازلي = الوجود الحادث [1].

---

١ - إن علامه الجمع هنا لا تعني إلا تعلق المادة وحاجتها إلى المجرد عنها لا صرف الجمع في الوجود او الخلط والمزج فيه .

ظاهرة التركب

المادة مركبة مهما كانت وكيفما كانت ، والتركّب آية الحدوث أينما حلّ .

المادي : إننا لانصدق : لاملازمة المـــادة للتركّب ، ولا ملازمة التركب للحدوث ، لجواز البساطة في المادة ـ كالمادة الأصلية ـ كجوازها في المجرد ،ثم جواز الأزلية في المركب كجوازها في البسيط .

المادة البسيطة :

فهناك من أجزاء المادة ما لا تتجزّى،فلا تركّب فيها رَغم أنّ المادة مركبة عنها ـ كأجزاء الذرات ـ الأولية : مثـــل الالكترون والبروتون والنوترون والبوزيترون، فانها الحروف البسيطة الأصلية لكتاب التكوين ، بمختلف تراكيبه من جُزَيْئاته وعناصره ، فلاتركّب في الأجزاء الأوّلية الأصلية التي ركبت منها تراكيب المادة .

فهذه التراكيب : الذرية والجُزَيْئية والعنصرية وسواها ، هذه إنما عرضت المادة بعد الازل ـ لا مُنذ الأزل ـ وعروض التركّب رَغم كونه آيةً للحدوث، هذا لا يستلزم حدوث أصل المادة ، إذ إنهما ليسا توأمين ، فلا ضير في عروض التركب ، بعدَ أنّ الأجزاء الاولية الاصلية أزلية .

الالهي : فلنفرض : أن التركّب عارضٌ بعد الأزل ، رَغم إستحالة خُلوّ المادة عن تركّبٍ مّا ، إلاّ أنّ عروض الحادث على المادة ، وإن كان بعد الازل ـ وإن آناً مّا ـ هذا يكشف عن حدوث المادة في ذاتها ، وإلاّ لأحالت الإتصاف بصفات الحادث ، كما فصّلناه غير مرة.

المادة = التركب = الحدوث :

ثم المادة كيفما كانت في الصغر والبساطة ، محالٌ أن تكون غير مركبة ، إلاّ إذا صارت لا مادة أي معدومة إطلاقاً .

وذلك لأنّ الثقل والأبعاد - أو البُعدين - فالتركب ، هذه كيان المادة وماهيتها وإنيّتها ،فلو سُلبعنها التركُّب لاصبحت مسلوبة الذاتوالكينونة .

فالمادة : غير المركبة ، هي غير ذات أجزاء : فغير ذات أبعاد ، ثم النتيجة الحاصلة: أنها غير مادة ، لتحلّلها عن كافة اللوازم المادية .

إذاً فإفتراض نفي التركّب عن مادّةٍ مّا لا تساعد وماديتها ، سواءً أكان النفي في الاجزاء الاوّلية الاصلية الذرية أم سواها ، مما تشملها كلمة المادة وتفرضها حقيقتها .

ثم إنّ عدم تجزّءِ الاجزاء الذرية حسب القدرة البشرية حتى الآن ، هذا لا يكشف عن : أنها ليست لها أجزاء - ولا أجزاء لاجزائها - إنما يكشف عن محدودية الطاقة البشرية ،وأن البشر مهما بلغ من العلم والطاقة الجبّارة ، لن يصل ومحالٌ أن يصل إلى القدرة اللاّ نهائية النافذة الفعالة في كافة الممكنات .

إذاً فعدم التجزئة في مادة مّا لايكشف عن أنها مجردة لا أجزاءَ لها .

فلقد كانت البشرية تزعم أن العناصر الاربعة بسائط ، تزعمها كذلك طيلة قرون ، ثم أخـــيراً كشفت النقاب عن وجه الذرّات الكثيرة ، زهاء ١٠٢ - ١٠٦ و ... دون أن تعلم أن لها أيضاً أجزاء تتجزىءهي اليها ، ولا أنّ للذرّات أجزاءً أخر غير الالكترون والبروتون ، حتى كشفت أخيراً عن أجزاء أخرى للذرات ، واستطاع أن يفتح القلاح الذرية بالمدفعيات الجبّارة - وأن يُجزّئها إلى شيءٍ من أجزائها ، وعلى ضوء هذا الفتح المبين استطاع أن يُبدّل عناصر إلى أخرى بقذف القلاع الذرية وتبديل أجزائها ، وهذا هو الذي يسميه العلماء بالكيمياء النواتي ، حيث التبدُّل فيالذرات من جرّاء قذف النواتالذرية

وتبديلها الى ذرات أخرى فعناصر كذلك .

اذاً فمن اين لكم وأنـّى: أن الالكترون والبروتون هما الاجزاء الاصلية للمادة ـ التي لا تتجزىء ـ لا سواها ؟ بلى إنها تتجزىء وتتجزىء ، في جنب القدرة اللا ّ نهائية : حتى لاتبقى إلا ّ الأجزاء التي هي الاصول الاولية الجـُذرية للكيان المادي ، وهي التي تساوي تجزئتها إنعدام المركـّب والأجزاء : إنعدام المادة إطــــلاقاً .

الجزء الذي لا يتجزىء ؟ ! .

المادي : إذا كان لكلّ جزءٍ ماديّ أجزاءٌ ، دون أن ينتهي الى بسيطٍ لا جزءَ له ، إذاً فالمادة مركبة عمـــا لا نهاية له من أجزاء : اللا ّ نهاية الفعلية الخارجية ، دون الفرضية الشأنية العقلية ، وهذا جمع بين النقيضين في المادة : أن تكون محدودة كما نُحسه منها ، وغير محدودة حسب الفرض : أنها مركبة مما لا نهاية له من أجزاء .

وليس هذا المحظور من ناحية المحدودية المحسوسة الظاهرة في المادة ، المقبولة لدينا جميعاً ، فليكن من جرّاء اللا ّ نهاية المفترضة في الاجزاء ، وإنكار الجزءِ الذي لا يتجزّىء ، أي : البسيط المادي ، إذاً فلا محيد ومحيص عن تصديق المادة البسيطة الاولية ، دون أجزاء ولا جزئين ! .

نقضٌ وحلٌ لمشكلة اللاّ يتجزىء :

الالهي: هناك في مشكلة الاجزاء نقض وحلّ ، يزيفان خرافة المادة البسيطة.

فالنقض : هو أن المادة إذا كانت في الحد الاخير مركبة من أجزاء بسيطة ، أصبحت المادة لا مادة : كائنة ً مجردةً عن المادة أو معدومة ، حيث الفرض : أن المادة مهما كانت ، فإنها تنتهي في أجزائها المادية الى ما لا جزءَ له إطلاقاً ، وما لا جزء له عبارةٌ أخرى عن اللا ّ مادة ، حيث الابعاد والاجزاء كيان المادة

وماهيتها ، فإذا سلبت عنها أصبحت أجزاء غير مادية : مجردة عن المادة أم معدومة ، أمّا مجردة فلتركّبها عن الاجزاء المجردة البسيطة ، وأما مجردةً عن الوجود ، فتركبها عن الأعدام .

فالمركب من كلّ شيء يُصبح نفس ذاك الشيء ، لايختلف عنه إلاّ في إجتماع الاجزاء وإنفرادها ، دون أن تنقلب الاجزاء ـ حين تركبها ـ الى غير ذواتها وماهياتها ، كأن تنقلب الاجزاء المعدومة موجودة مادية ، أو الاجزاء المجردة البسيطة : مادية ـ لا هذا ولا ذاك ـ إذاً فمشكلة الجزء الذي لايتجزىءلاتنحل بإفتراض الاجزاء الاولية البسيطة ، اللاّ مادية .

وعلى أيّة حال يستحيل تكوّن مركب ذي أبعاد ـ من أجزاء غير ذات أبعاد ـ فإن إنضمام «اللاّ» الى مثله ، وإن كان الى غير النهاية ، هذا لا ينتج إيجاباً قطُّ إلاّ اندغام وتضاعف اللاثات والأعدام .

إذاً فمشكلة التناقض لا تخص فرض تركب المادة من الاجزاء المركبة ، بل وتعم فرض البساطة في الاجزاء الاصلية المادية أيضاً كالتالي :

المادة المركبة من البسائط اللاّبعدية = اللا مادة ـ فهي لامادة حين أنها مادة!

كما وأن المادة المركبة من الاجزاء اللاّ نهائية = المادة المحدودة ، فهي محدودة حال أنها لا محدودة .

إذ ذاك يصبح الجزء الذي لا يتجزّىء ، وكذلك الذي يتجزّىء لغير النهاية ، يصبحان مستحيلين .

المادة المحدودة والاجزاء المحدودة :

إلاّ أننا لا نقول بتركّب المادة عما لا نهاية له من أجزاءٍ ، فلاتناقض فيما نذهب إليه .

المادي : إذاً فما هو الحلُّ لمشكلة الجزء الذي لا يتجزىء أو أنه يتجزىء .. ؟

التجزئة المادية في صور :

الالهي : إنّ عدم تجزئة الجزء المادي يتصور كالتالي :

١ – عدم قبول التجزئة في تصور العقل .

٢ – عدم قبوله للتجزئة الفيزيائية – الخارجية – بالنسبة للقدرة المحدودة ، مع إمكانها في جنب القدرة اللاّ محدودة.

٣ – عدمالتجزئة الفيزيائية بالنسبة للقدرة اللاّنهائية الخلاقة ، لالعيٍّ ونقص في القدرة ، بل لان الاجزاء المفروضة هي الحد الاخير لأجزاء المادة ، فليست دونها وبَعدها أجزاء ، ولذلك لاتقبل التجزئة إلى أجزاء أخرى حيث لاأجزاء لهـا في أنفسها ، وإنما إعمال القدرة اللاّ نهائية في التجزئة حينذاك ينتج : إنعدام المادة بأجزائها ، فتفكيك هذه الاجزاء الاخيرة للمادة تفكيك للمادة عن الوجود .

التجزئات المادية في قول فصل :

١ - اللاّ يتجزىء العقلي:

فلا يوجد هناك في الكون جزءٌ لا يقبل التجزئة في تصور العقـل ، حيث المادة –مهما كانت– لاتخلو عن أبعاد ، ولا أقل من بُعدين: فيزيائيين أو هندسيين، وافتراض اللاّ نهاية العقليـة لتجزّء أجزاء المادة ، هذا لا ينافي ومحدودية المادة خارجاً ، حيث الإمتناع في اللاّ نهاية إنمـا هو في الفعليات الخارجية ، لا الشأنيات والإمكانيات العقلية : غير الفعلية .

فمعنى اللانهاية في الاجزاء العقلية للمادة ،ليس أن للعقل أنيتصور ما لانهاية له من أجزاء للمادة في تصور واحد بالفعل، أو في تصورات لانهاية لها : متسلسلة متتابعه ، فإن ذلك مستحيل ، لإستحالة إحاطة العقـل المحدود باللاّ نهاية الأجزائية المادية أو غيرها ، على فرض إمكان اللا نهاية المادية في نفسها .

بل إنما ذلك إعتباراً : أن للعقل أن يتصور للجزء المادي أجزاءً ، ثم لكل جزء منها أجزاءً دون وقفة في هذه التصورات في موطن العقل، ومع ذلك فإن العقل يرى للمادة حداً محسوساً ملموساً يصدّقه العقل والحس .

فاللا نهاية العقلية للأجزاء المادية كا للا نهاية العقلية في العدد على التفصيل السالف .

٢ ـ اللا يتجزىء الفيزيائي للقدرة المحدودة :

وأما التجزئة الفيزيائية الخارجية بالنسبة للقدرة المحدودة ،فهي واقفة لامحاله الى حد مّا ، حسب محدودية الطاقات غير الالهية .

إلا أن هذه الوقفة ليست ذاتية : تكشف عن أن هذا الجزء هو الحد الاخير للأجزاء المادية ، وإنما تنبيء عن وقفة القدرة لحدها ــ وعن عجز المجزّء قضيةً محدودية الطاقة .

إذاً فتسمية الجزء المادي حينذاك بالذي لا يتجزى ليست إلا نسبية ــ للقدرة المحدودة ــ فلا تكشف عن أنه ليست هناك أجزاء يمكن تجزئتها ،بل يبقى إمكان التجزئة : إما بتفريق الجزء أجزاءً ، كا قبل الحد الاخير من التجزئة ــ او تفريقه عن الوجود كما في الحد الاخير من الاجزاء المادية .

٣ ـ اللا يتجزىء الفيزيائي للقدرة اللامحدودة :

إن التجزئة الفيزيائية الخارجية في المادة ــ بالقدرة اللا نهائية ــ هذه تصل حسب الإمكان الخارجي الى آخــــر حدود الكينونة المادية ــ وهو كونها ذات جزئين ، على اقل التقدير ،جزئين فيزيائيين او هندسيين! لكي تصدق عليها المادة فإن الجزء الذي لا تركيب فيه إطلاقاً ، ليس مادة ولا مادياً ، لخروجه عن حد المادة وكيانها وميزانها .

والجزءُ الذي لا يتجزىء إطلاقاً : من بين شتات الاجزاء المادية ، إنمــا هو

هذا الاخير ، حيث التجزيء فيه تفكيكاً لجزئيه ينتج إنعدام المركب بجزئيه لان هذه المادة ليس لها أجزاء خلا هذين الجزئين ، الذين يحافظان على كيانها المادي ، كما وان أول مراتب تكوُّن المادة انمـا هو ذلك الجزء الذي ليس له إلا جزئين : فهما الاساس الاول والاخير للكينونة المادية ، ثم بين البدء والختم مختلف الاجزاء والتراكيب والصور .

هل يتجزء أم لا ؟ :

المادي : . . .وأخيراً هل يتجزىء هذا الجزء الاول والاخير للحد المادي أم لا ؟ . فإن : نعم ـ والى ما لا نهاية له ، فمحظور التناقض الثاني : الجمـــع بين محدودية المادة ولا محدودية أجزاءها ، وإن : لا ، فليس هذا الجزء مادياً حيث المادة تقبل التجزء ـ مهما كانت ـ ولو بالنسبة للقدرة اللا محدودة ! ؟ .

الالهي : نعم ولا ! :

أما نعم : فتجزئة هذا الجزء الاخير تنتج إنعدام المركب بجزئيه ، فإنـّه الكيان الاخير الماديالذي ليس بعده إلاّ الفناء والمحو الكلي ! .

وأما لا : فإعتباراً ببقاء الجزئين بعد التجزئة ، بقاء كلٍ مستقلاً منفصلاً عن الآخر ، إذ لا يتمكن كلُ واحدٍ أن يبقى موجوداً عند إنفصاله عن الآخر ، لانه حينذاك ليس مادة فليس موجوداً .

وعلى أيّة حالفلابد للأجزاء المادية من حدٍّ وجودي أخير هو آخر حدود كينونتها ، بحيث لو تجزئت حينذاك لكان ذلك تجزئاً وإنعزالاً عن الوجود ، لا عن التركب فحسب ، وإن شئت فقل : إذا تحلـّلت المـــادة عن التركب إطلاقاً ، فقد تحللت عن الوجود اطلاقاً ، لا انها تبقى مادةً مجردةً بسيطة ، أمادةٌ لا مادة ؟! : مادة تحمل نقيضها ! .

المادة الاصلية الاولية لمختلف تراكيب الكون :

وهذه الأجزاء هي البرزخ بين التراكيب العارضة على المادة وبين عدم المادة أو إنعدامها إطلاقاً ، فلا أن كل واحد من الجزئين مادة ، ولا لامادة ، وإنما هو مادي : برزخ بينهما ، يؤهل أن يتسّم بسمة المادة وحقيقتها ، وذلك إذا كان قريناً للجزء الآخر ، بل هو برزخ بينهما حينذاك أيضاً حيث لا جزء له على الفـــرض .

فهذان الجزئان هما الحروف الاصلية لمختلف تراكيب الكون المادي ، منهما تبتدء المادة وإليهما تنتهي ، فهما الماهية الأولى والاخـــيرة للكيان المادي ، يوجدان معاً في البداية ـ بداية الوجود المادي ـ وينعدمان معاً في النهاية ، نهاية الوجود المادي: = للعدم ـ دون تصور وإمكان الإنفصال بينهما مع بقاء كل واحدٍ منفصلاً عن الآخر : وجوداً مادياً ، أو غيره ! .

أجل وإنها ملكوت المادة وحقيقتها الأولى والاخيرة: التي لايعلمها إلا مُبدءها وبارءها ، وإنهما اللذان تتطلبهما البشرية ليل نهار ، ولا يجدهما ولن يجدهما ، مهما تقدم العلم ! . . .

وهذا الجزء المادي المركب من جزئين هو الذي يشير إليه أحسن الخالقين بقوله : **هو الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أيّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** ١١ : ٧

فما يسميه القرآن هنا ماءً إنما هو امُّ المواد الكونية ـ والسماوات والأرض في لفظ الآية تعبيران عن الكون المادي بكافة تراكيبه وحالاته ، وإنما عرش الخلق ـ يعني : بنايته الاولية ـ كان على الماء : مادةٍ بسيطة متسانخة الأجزاء ، لاتركيب فيها قابلاً للتجزئة ـ تولدت منها كافة المواليد الكونية بتراكيبها الثانوية و . . . الذرية والجزيئية والعنصرية .

وحيث لاخبرة للانسان عن الجزء الأصيل المادي ، فلا اسم له فيما اصطلحوا من أسماء ، فأصبح مجهول الحقيقة والإسم معاً ، إذاً فحريٌ أن يشير إليه الذكر الحكيم بما هو الأنسب والأقرب له من الأسماء التي يعرفها الانسان بمسمّياتها ، وما هذا الإسم إلاّ لفظة الماء بما تعنيه ــ حيث يعرفه الكلّ ــ وأنه مركّب من جزئيات متساتخة متجانسة متسقة متناسقة ، وليس كذلك سائر عناصر الكون .

فليس المعنّي من الماء في هــذه الآية : هو المايع الذي نعرفه H^2O ، ولا الذرات المركب هو عنها $H + O$ ، ولا الأجزاء الداخلية الذرية لانها أكثر من جزئين ، ولا كل ما عرفه الانسان حتى اليوم وسوف يعرفه .

لا .. إنما هو الحد الاول والاخير للكيان المادي، جزء ذو جزئين: ليس معنى انفصالهما إلاّ انفصال الكل بجزئيه عن الوجود .

فإنما َنسَبَ الخلق بما فيه الى ما يسميه ماءً ولم يجعل للماء نسباً ،إذاً فلانسب له يُنسب إليه ولم يتولد من والدين: «جزئين أو أجزاء»حتى يكون منسوباً اليها وإنما ُخلِق مركباً ، أي مادةً أوليــة هي بداية التراكيب العارضة المادية ونهاية حالة تجزءها .

ورغمَ أن البشر ينحو نحو البحث والتنقير عن حقيقة المادة ــ بغية الحصول على المادة الاولية ، فرغم ذلك لا يزداده الفحص والبحث عنها إلا زيادة الحيرة، كيف ولم تصل حتى اليوم إلا الى إشعاعات يسيرة من قانون واحد من مليارات القوانين الحاكمة على المادة :هو قانون الجاذبية العمومية ،التي هي أمّ العلوم التجريبية حتى اليوم .

كيف والعلم بحقيقة المادة الاولية يساوق ويعانق العلم والقدرة على إبداعها وإعدامها ، حيث القدرة هي العلم والعلم هو القدرة ــ سواء ــ إذا بلغا مبلغهما اللاّنهائي ، وإنما السر في خروج الكثير مما يعلمه الانسان عن طوقه ــعلى علمهــ أنه لم ُيحط به وبمدّاته وحقيقته ــعلماًــ وإنما عرفه دون إحاطة كاملة مسيطرة

ف : « سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»٣٦: ٣٦ .

ومما لا يعلمون ـ ولن يعلموا ـ هو المادة الفـــردة الاولى ، أمّ التكوين ، وكثيرٌ غيرها .

وآيةٌ بينةٌ على عموم الزوجية والتركيب في المادة كيفما كانت :

« ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا الى الله إني لكم منه نذير مبين » ٤٨ : ٤٩ .

فالزوجية الشاملة كل شيءٍ مخلوقٍ إنما تعني التركيب : مهما كان من أجزاء أو من جزئين ، كأم المواد ، ولعل الزوجيةَ في التراكيب الفرعية ، بعد الذاتية الاولى المندغمة في ماهية المادة ، علّها هي الشحنة الموجبة والسالبة وان تكاثرت واختلفت ـ إعتباراً بزوجية الإثبـــات والنفي في كل شيءٍ ، الى حيث لا يستطيع الشيءُ المادي ان يتحلل عنها أو عن احدهما ، بتاتاً .

هذا ولكن الزوجية في المادة الفردة البسيطة : أم المواد ، هذه الزوجية زوجية حقيقية بكافة معـــانيها ـ عدديّة وما هوية ـ بُعدين فيزيائيين أم هندسيين دون تعدد وتركب في كل واحدٍ منها اطلاقاً ، قضية أنها آخر حدود المادة وكيانها .

ذلك ، رغمَ أن العلم لم يستطع أو يسطـّع بضوئه أن يتعرف الى أقل من أبعاد ثلاثة هندسية ـ في المادة ـ مهما صغرت ، إلا أنه ليس له انكار هكذا تركيب ثنائي : مهما كان فيزيقياً أو هندسياً .

فلفظة الشيء في الآية تشمل كل كائن مخـــلوق وحق الام الاولى : ذات جزئين دون تجزُءٍ ، فلا تخلو أيّة مادة عن تركب وزوجية مّا ، مهما بلغت في الصغر واللطافة .

ولقد « فرق الله بالاشياء بين قبل وبعد ليُعلم ألا قبلَ له ولا بَعد »[1].

.. قبلاً وبَعداً زمنياً وذاتياً ماهوياً ، زمنياً : لحدوث كل زوج قضية زوجيته ـ وذاتياً : حيث الحد الاول والاخير من كيان المادة أن تكون ذات بُعدين: جانبين : قبل وبَعد ـ أو جزئين ـ دون ثالث إطلاقاً : لافيزيائياً ولا هندسياً .

« وليُعلم ألا قبل له ولا بعد » فهو سرمديٌ : فوق الزمان : ، قبل الزمان وبعده ومعه ـ لا فيه ، فإنه ليس بتغيرحتى يعتوره الزمان ، فلا قَبل له ولا بعد ، فإنه قبل القبل وبُعد البَعد .

ولاله تعالى قَبلٌ وبَعدٌ فيزيائي أو هندسي لانه مجرد عن المادة وعن الزوجية المندغمة في ماهية المادة .

المادة الاولى ـ الفردة :

إنها رغم كونها أمُّ العـــالم المادي ، تصرخ من أعماق ذاتها : بحاجتها الى ما ورائها ، فإنها مركبة من جزئين: لن يستقل كل واحد عن الآخر في الكينونة، فإنما حالتها قبل تركبها حالُ العدم ، لا يستطيـع كلٌ من جزئيها أن يوجـــد إلا مركباً مع الآخر ، فالتركب والكينونة فيها توأمان دون انفصال.

إذاً فحقيقة كل منهما منفصلاً عن زميله أن يكون «لا» وحقيقتهما منضمين: هي الكينونة الاولى والحد الأخير للكيان المادي ، فلم يُخلقا إلا معاً ـ منذ خمين ـ ولن ينعدما إلا معاً ، وإنعدامهما نتاجُ إنفصالهما ، وإنفصالهما نتاج إعدامهما ـ سواء ـ كما أن ايجادهما تركبهما وتركبهما وجودهما .

... ففرّوا الى الله ...

فِروا من الكون المادي الفقير الذات ، فروا الى الله الغني الكبير المتعال .

---

١ ـ بين الهلالين من استدلال الامام الرضا(ع) بالآية المذكورة في الخطبة التوحيدية الآتية .

فالتركب الذاتي المادي فقر ذاتي الى سواها .

المادي : أجل ـ ولكنه أية دلاله في ذاتية التركب في المادة على أنها بحاجة ضرورية ماسة الى ما ورائها ، حاجة وجودية وصفاتية ؟ .

الالهي : إذا كان كلٌ من جزئي المادة الأولى لا كينونة لها ولا بقاءَ إلا متصلاً ومندغماً في قرينه ، إذاً فكل منهما خلوٌ عن الاستقلال الذاتي ، وخلوٌ عن الكينونة المـــادية في نفس ذاته إلا عند الإتصال ، دون اختصاص لأحدهما بالقيومية والإستقلال .

وحيث ان هذين الجزئين منتهى أعماق القلاع المادية ، في عرض الكون وطوله ولا نجد فيهما أي استقلال وكيان ذاتي ، فلا حقيقة لهما إلا الفقر المحض ومحض الفقر الى سواهما ، فهما عدمٌ مضاف الى عدم في نفس ذاتيهما ، لولا القــدرة القيومية المستقلة القهارة الأزلية ـ الخالقة والمبقية لهما ـ ورائهما .

مثالاً على ذلك الصفر : فلو جُمع بين عديدٍ منه ولو الى غــير النهاية ، لن يصبح عدداً أو كسراً من العدد من هــذه الجمعية الوفيرة ، الا أن يوضع ورائها عدد مّا ـ فـ .... الى ... والى غير النهاية ـ عبارة عن اللّا شيء .

ولكن صفراً واحداً اذا كان خلفها عددٌ مّا يطلع عدداً مّا ـ قل أو كثر ـ

كذلك كل من جزئي المادة الأولية صفر الوجود في نفس ذاته ، وما لم يكن هناك ورائهما القدرة اللا نهائية الالٓهية المجردة عن المـادة ـ استحال وجودهما اطـــلاقاً .

المادي : كل واحد في نفسه « لا » ولكنه منضماً الى الآخر «شيءٌ » ، كما أن الواحد بوحدته ليس اثنين ولكنه اذا انضم الى آخر صار اثنين ، فلا حاجة الى الوراء .

دورٌ مصرّح :

الالٓهي : هذا دورٌ مصرّح يُحيل وجودَ المـادة اطلاقاً ، اذ المفروض أن الجزئين مشتركان في عدم الإستقلال في أنفسهما ، يفقد كلٌ ـ حسب ذاته وجودَه ـ

فكيف يُفيض الوجود لزميله ، فقبل الإنضمام ليس هناك وجـــودٌ إطلاقاً : اتصالياً ولا إنفصالياً .

والجزئان لايتصور لكل منهما أيّ كيان قبل الإنضمام، وفمحالٌ ان يكوّنا من الانضمام ، أو يكوّن كلٌ زميله ومثيله، حيث لا يوجد فيهما أنفسهما إلاّ الفقر وأنهما «لا» والإنضمام ليس أمراً يستقل دون المنضمين ، فكيف يُفيـــض لهما الوجود ، وكلٌ منهما خلوٌ عن الوجود وعن أيّـة حقيقة ، فكيف يُفيض الوجود لغيره ، اللهم إلاّ على إمكان الدور المصرّح :

مثالاً عليه : نفرض أن : الف علة لوجود الباء و كذلك الباء علة لوجـــود الألف ، فهما يوجدان بهذه العلية العليلة المستحيلة ، حيث تقتضي وجودَ كلٍ قبل وجوده ، ضرورة لزوم تقدّم العلة على معلوله ، فالألف في مقـام عليتها متقدمة على الباء ـ والباء في مقام عليتها متقدمة على الألف ، فاللازم تقدم كلٍّ من الألف والباء على نفسها ، وهو في معنى وجود الشيء قبل وجـوده ، واجتماع الوجود والعدم في حالة واحدة ، وهذا من اجتماع النقيضين .

هذا : مضافاً الى أن فرض علية كل من الجزئين للآخـــر يتنافى وما نعرفه منهما: أنّ حقيقتها قبل الإتصال أنهما «لا» وهما مشتركان في هذا الفقر الذاتي.

كل ذلك ضرورة إنتهاء المادة الى جـــزءٍ ذي جزئين مستحيلي التجزء ، إلاّ بانعدامهما ـ حيث انفصالهما = إنعدامهما معاً ـ فليس فيهما ، ومن جرائهما في كافة مواليدهما ، ليس هنا وهناك إلا الفقر المحض والعدم ـ القابل للوجود ـ

ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين :

فلولا القدرة اللا نهائية الإلهية المجردة عن المادة وراءَها قيّو ما عليها ـ لاستحال وجود المادة بالضروورة ، ضرورة إستحالة الدور المصرّح .

.. فهذه ملكوت وحقيقة السماوات والأرض : أنّ حقيقة المادة كيفما كانت، ألاّ حقيقة لها ولا كينونة إلاّ متعلقة مفتقرة الى الله :

« أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء »
٧ : ١٨٥ .

« قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه » ٢٣ : ٨٨ .

« فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » ٣٦ : ٨٣ .

... أجل: إنه لا ينتج النظر في هذا الكون ـ مهما دق وجل ـ إلا أنه محض الفقر والحاجة ، لا انه شيء يحتاج الى الله ـ كلا ـ بل هو الحاجة بكافة معانيها، هو الفقر والفاقة الى ما ورائه :

فلا وجود ولا علم ولا قدرة ولا حول ولا قوة ولا .. في الكون : الا بالله العلي العظيم .

كل ذلك قضية أن المادة مركبة الذات دون أن تستطيع التحلل عن هذه الزوجية الشاملة المندغمة في حاق ذاتها .

فما سوى الله : الفقر كيانه وماهيته ، حقيقته أنه لا حقيقة له ، وكيانه أنه لا كيان له ولا .. إلا بالله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

المادة حاجة لا في حالة واحدة :

إنه ليس الفقر المندغم في ذات المادة يخص حالتها البسيطة الأولى: الأمية ، بل إنه يحيط بها في كافة حالاتها ومجالاتها الواسعة الأخرى ـ بالأحرى: من كيانها الذري والجزيئي والعنصري ، وما اليها من مختلف الحالات والتطورات .

إنها بحاجة ماسة الى تركب ما في كافة هذه الفعليات والإنتاجات، والحاجة آية الحدوث بكافة معانيه كما وأن الغنى آية الأزلية بما اسلفناها .

المادة الأولى ذات الجزئين البسيطين ! ..

المادي : أخيراً نوجه السؤال الى كيان الجزئين في الحد الأخير المادي في

التجزئات الفيزياوية حسب القدرة اللا نهائية ، فهل إن كل واحد منهما مادة ؟ . فليكن هو أيضاً مركباً ! للزوم تركّب المادة مهما كانت ـ كما تأمرون ! . أم ليست مادة ؟ . فكيف تركبت المادة من جزئين غير ماديين ـ إذاً فكلّ مادة غير مركبة ـ حيث التركب من الأجزاء إلى غير النهاية يُبطله لزوم اجتماع المحدود واللا محدود في الكيان المادي !

الالهي : «مادة غير مركبة» إعبارة أخرى عن «مادة لامادة» ، إذاً فالمشكلة تعمكم دون اختصاص بنا ، فانا وإياكم بين مشكلتين :

١ ـ اجتماع المحدود واللا محدود ، إذا بنينا على إنكار الجزء الذي لايتجزىء والتزمنا : أن هناك للمادة أجزاءً خارجية قابلة للتجزئة الى غير النهاية .

٢ ـ اجتماع المادة واللا مادة ، أو تكوُّن المجموع المادي من أجزاء بسيطة لا جزء لها ـ فهي غير مادية ـ إذا بنينا أن الاجزاء الاولى للمادة بسائط دون أيّ تركّب .

والقول الفصل هنا أننا نبحث عن المادة المتحصلة الموجودة ، لا الفرضية : كلاّ ـ بل عن المستقلة الوجود ـ وهذا يستحيل إلاّ في المركّب ، ولا أقل من جزئين ، إذ إن تصور الفصل بينهما تصورٌ لإنعدامهما معاً .

إننا لا نبحث عن كل واحدٍ من هذين الجزئين منفصلاً عن الآخر ، حيث يستحيل تحصّله وكينونته إلاّ منضماً بتوأمه الذاتي كالعكس سواء ، فلا سؤال ولا خبر عن كل جزء إلاّ حين الإنضمام والتركب ، وهذه الزوجية البسيطة المرموزة هي أول حدود كينونة المادة وآخرها وبينهما متوسطات .

أجل : إنه لا خبر عن كل جزء قبل التركُّب إلاّ عدم الخبر ـ أو : أنه لا حقيقة له بتاتاً .

وعندنا خبرٌ مّا حين الوجود المركب : أنهما معاً مادة ، وكلٌّ لدى انضمامه مع الآخر مادي ، لا مادة مستقلة ولا لامادة ـ بل برزخ بينهما ـ إلاّ أن الحالة

البرزخية ليست حالة فعلية لها ، حيث لا فعلية لكل واحد مستقلاً عن قرينه وان كان حين الانضمام ، بل إن الانضمام تعبير قاصر ، فلا نعبّر عن الجزئين أخيراً إلا" أنها مركّب واحد في الحد الأخير المادي ـلايقبل التجزئة ـ ولايعلم حقيقته إلا" الله .

فلقد تخلصنا اخيراً من المحظورين ، واسترحنا الي حقيقة ٍ مرموزة للكيان المادي لا نستطيع أن ننكرها ، رغم اننا لا نحيط بها علماً ، ويحق لها هكذا اختفاء فإنها ملكوت المادة وملكوت فعل الرب الخالق المتعال، فلا يعلمها إلا هوِ سبحان الخلاق العظيم ! .

وإن شئت فقل : كما أن الإلهي يعلم بإتقان : أن هناك إلهاً ولكنه لايعرف حقيقة ذاته تعالى اطلاقاً ولن يعرف ، كذلك البشرية تعرف أن هناك مادة" ، ولكنها لا تعرف ولن تعرف حقيقة المادة في الحد" الاول والاخير من كينونتها ، إلا" انه لامناص عن الاعتراف بأنها :

جزئان فيزيقيان أو بُعدان هندسيان :

مركبة ذات جزئين : ـعلى أقل التقدير ـ جزئين فيزيائيين، أو بُعدين هندسيين صيانة لماديتها .

إذ إن التركب كيان المادة وماهيتها ، ولا سؤال عن هـــذين الجزئين ولا خبر إلا أن" :

انفصالهما ـ كل" عن الآخر ـ ليس إلا انفصالهما عن الوجود ، وكل جزء حال الوجود بالنسبة لنفسه برزخ بين المادة واللا مادة بل لا نفسية له كما الحق يقال : فلا هو مادة في تلك الحالة حيث لا جزء له ، بل هو جزء" للحد الاخـير لها ، ولا مجرد" عن المادة لاستحالة تركب المادة من الاجزاء المجردة عنها ، بل لا هوية فعلية لها إلا مركباً مع قرينه ! .

وان شئت فقل : إنما هو مادي لنفسه ومادة مع زميله ، وحيث لا نفسية

لكل واحد حتى حالة الإنضمام ، فهما إذاً ماديان ، وهما مادة واحدة : جزء واحد مادي .

.. فهذه نظرة عميقة في ملكوت الكيان المادي ، كلما ازدادت عمقاً ازددنا حيرة من ناحية ، ومعرفةً بحاجة ماسة مركّزة في نفس ذات المادة ، من ناحية أخرى الى سواها ، على حيرة لا تزال تصدنا عن الاحاطة بحقيقتها .

كلمة الختم والفصل :

إن كل جزء من الجزئين ليس له كيان مادي قبال الآخر حتى يُسأل عن أجزائه ، ولم يُركب مع الآخر بعد أن كان واحداً مستقلاً موجوداً منفصلاً عنه حتى يلزم كونه مادة مركبة كذلك : قبل هذا التركب ، وإنما أوجدا معاً ، معيّة مركزةً في أصل الذات المادية ، وإنما مشكلة التركب عن جزئين غير مركبين، هي في المركب من جزئين أو أجزاء - كانت قبل التركب موجودة بالكيان المادي ، دون ما لا يتصور له وجود قبل الكيان التركيبي .

فهذا الجزء الأخير المادي المركب لم يركب من جزئين مستقلين ماديين ، حتى يستلزم كون كل واحدٍ أيضاً مركباً مادياً ، بل ان حقيقته التركب الذاتي الحاصل لدى حصوله ، والموجود حال وجوده، لا التركب اللاحق لوجوده .

والمادة المتحصلة الخارجية لا تعني ، الا المركب من أجزاء أو جزئين على أقل التقدير ، وليس لكل واحد من هذين الجزئين الضروريين لتحصل المادة ، ليس له كيان مادي خارجي لانه لاتركيب فيه ، وهو مادي ضمن المركب ، والمجموع هو المادة الفردة الاولى، وهذه غاية ماندركه بعد التعمل العقلي العميق - لا سواه - فلا يدركها الا الله الذي خلقها وأبدعها وهو بكل شيءٍ عليم ! .

ثم التركب آية لحدوث المركب ، سواء أكان حادثاً بعد الاجزاء المنفصلة ، أم معها ، لانه يكشف عن أن كل جزء لا يكفي بوحدته في أصل كينونته ،

كما في الثاني : في الجزء الاخير المادي ، أو يكشف عن انه لا يفي بوحدته لما يراد من المركب من كيان ـ اذاً فكل ناقص محتاج وهذا يتنافى والازلية ، دون مراء.

* * *

اذاً : فالتغير والزمان والحركة والتركب شهود أربعة ذاتية صارخة في نفس ذات المادة ، تشق طريقها طوال هذا الحوار الى إحالة أزلية المادة ! .

وأنها محتاجة الذات في كافة الحالات وحادثة : وراءها أزليٌ غني الذات قيّوم عليها ، هو الذي خلقها وأبقاها ما هي كائنة .

الفات نظر الى اعتراف علمي فيما نروم

بول كلارنس ابرسولد [1] PAVL CLARENCE AEBERSOLD

«... هنالك أمر واحد لا شك فيه ، فبقدر ما بلغ الإنسان من معرفة وما لديه من ذكاء وقدرة على التفكير ، لم يشعر في وقت من الأوقات بأنه كامل في ذاته ، والناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم قد عرفوا منذ القدم ، وبصورةٍ تكاد تكون عامة : يبلغ قصور الإنسان عن إدراك سرّ الحياة وطبيعتها في هذا الوجود .

وقد لمس الناس عامة ، سواء بطريقة فلسفية عقلية أو روحانية : أن هناك قوة فكرية ونظاماً معجزاً في هذا الكون ، يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحية ، التي تتحرك أو تسير على غير هدىً .

ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلّعه إلى البحث عن عقلٍ أكبر من عقله ، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع ، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون ، يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم : هي قوة الله وتدبيره .

وقد لا يستطيع الإنسان أن يسلم بوجوب الخالق تسليماً تاماً على أساس

---

١ ـ استاذ الطبيعة الحيوية ، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كالفورنيا ، مدير قسم النظائر الطاقة الذرية في معامل اوك ريدج ، عضو جمعية الابحاث النووية والطبيعة النوويه .

الأدلة العلمية المادية وحدها (١) ولكننا نصل إلى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الادلة العلمية والادلة الروحية ، أي: عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع إلى اقصى حدود الإتساع، المعقّد إلى اقصى حدود التعقيد، مع إحساسنا الداخلي ، والإستجابة إلى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث من أعماق نفوسنا ، ولو ذهبنا نُحصي الأسباب والدوافع الداخلية التي تدعو ملايين الاذكياء من البشر إلى الإيمان بالله ، لوجدناها متنوعة لا يُحصيها حصرٌ ولا عدّ ، ولكنها قوية في دلالتها على وجوده تعالى ، مُؤدية إلى الايمان به .

ولقد كنت عند بدء دراستي شديد الاعجاب بالتفكير الإنساني وبقوة الاساليب العلمية ، إلى درجة جعلتني اثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أيّة مشكلة في هذا الكون ، بل على معرفة منشأ الحياة والعقل وإدراك معنى كل شيء ، وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالاشياء من الذرة إلى الاجرام السماوية ، ومن الميكروب الدقيق الى الانسان ، تبين لي أن هناك كثيراً من الاشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً ، او تكشف عن اسرارها النقاب ، وتستطيع العلوم ان تمضي مظفّرة في طريقها ملايين السنين ، ومع ذلك فسوف تبقى كثيرٌ من المشكلات حول تفاصيل الذرة والكون والعقل كما هي ـ لا يصل الانسان الى حل لها او الاحاطة بأسرارها ، وقد ادرك رجال العلوم : أن وسائلهم وان كانت تستطيع ان تبين لنا بشيء من الدقة والتفصيل كيف تحدث الأشياء ؟ فانها لا تزال عاجزة كل العجز عن ان تبين لنا ، لماذا تحدث الاشياء ؟

إن العقل والعلم الانساني وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا : لماذا وجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة والانسان ؟ بما اوتي من قدرة رائعة !

---

١ ـ وهذا القصور ليس في العلوم التجريبية ، انما هو لعدم المحاوبة الفكريه للبعض من هؤلاء الذين يجولون في مجالات العلوم ، قاصرين نظراتهم الى المادة دون ان يعبروها الى سواها !

وبرغم ان العلوم تستطيع ان تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولد المجرات والنجوم والذرات وغيرها من العوالم الاخرى ، فانها لا تستطيع ان تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء هذا الكون ؟ او لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي ؟ والحق ان التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله .

.... وبرغم اننا نعجز عن ادراكه إدراكاً مادياً أو وصفه وصفاً مادياً ، فهنالك ما لا يُحصى من الادلة المادية على وجوده تعالى ، وتدل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه ، الحكيم الذي لا حدود لحكمته ، القوي إلى اقصى حدود القوة .... »

●

الفطرة تدلنا على خالق الكون

المادي : الى هنا نصدق : أن للكون إلهاً عليماً حكيماً ، بما دلنا عليه العلم بمختلف ألوانه ، ولكن العلماء هم الذين يحق لهم ويستطيعون أن يؤمنوا بالله ، دون البسطاء غير أولى العلم ، حال أنهم الأكثرية الهامة في البشرية.

فهل إن هؤلاء محرومون عن معرفة الله ، رغم أننا نجدهم أكثر إيماناً بالله ـ أفراداً ودرجات ـ دون من يزاول مختلف العلوم المادية ـ حيث المؤمنون منهم أيضاً ـ على قلتهم ، ليسوا على صفاء القلب وصلاح العمل مثل العوام المؤمنين.

الالهي : تجد الجواب في الآية التالية :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » ٤١ : ٥٣ .

فكما أن الله تعالى إله الكون وخالقه ـ أجمع ـ كذلك معرفته تعم كافة الخلائق بشتى أساليب المعرفة وسُبلها .

فهناك في الكون آيات ودلالات آفاقية ، بحثنا عن طرفٍ منها في بحوث علمية ، وأخرى أنفسية : عقلية وفطرية ـ تعم كافة العقلاء ـ بل والمجانين أيضاً حيث لايفقدون الفطرة الإنسانية والحسّ مهما فقدوا العقل .

فآيات وجود الخالق الحكيم ـ قبل كل سِفر ـ مسطورة في سفر الفطرة ، وهي التي تنادي : أن هناك في الكون الهاً بيده ناصية كلّ شيءٍ ، وقد أمرنا أن نقيم وجوهنا لهـــذه الفطرة المعبّر عنها بالدين الحنيف ، أو الدالة عليه وكما يقول :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ٣٠ : ٣٠ .

فلا تنحصر السبيل إلى معرفة الله في سلوك تلكم المسالك الصعبة الغامضة ، التي قل من يستطيع السير فيها إلاّ بأجنحة العلم الخفاقة ـ كلاّ ! . فإن ذلك حصرٌ للمعرفة على نوابغ العلم وعباقرة العقل والتفكير ، رغم عموم التكليف بالمعـــرفة ! .

بل السبيل إليه تعالى تعمّ كافة المكلفين ، دون حاجة الى دراسة أيّ كتاب إلاّ كتاب الفطرة السليمة ـ التي فطرهم الله عليها ـ وذلك هو الدين القيّم ، حيث لا يتبدّل ولا يعيى عن الدلالة على الله ، دون الطُرق العلميـــة التي تخلج فيها الشكوك والإرتباكات ـ أحياناً .

والقرآن يبرهن لنا بلسان الفطرة ـ في كافة مجالاتها الناطقة بالحق : عندما يحيط بالإنسان الخطر من كل جانب ـ دون أن يجد سبيلاً الى النجاة ـ فحينذاك يتعلق قلب الإنسان بنقطة مرموزة لا يعرفها ـ ولا يستطيع أن يعرفها ، إلاّ انه يجدها حينما يفقد علاقات الكون أجمع من نفسه حيث لا ينصره ولا يستطيع أن ينصره سواها ـ فهو إذاً يقطع رجائه عن كل شيء ـ ويبقى متعلقاً بهذه النقطة المرموزة ، وكما يقول تعالى :

« ربكم الذي يُزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسّكم الضُر في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه فلمّا نجاكم الى البرّ اعرضتم وكان الإنسان كفوراً » ١٧ : ٦٩ ـ ٧٠ .

فهذه إشارة الى دليل الفطرة ، في مجالاتها الواسعة المتحلّلة عن كل سبب مادي ، وتفسيراً لهذه الآية نوجه إليكم الأسئلة التالية :

هل ركبت سفينة قط ؟ ... نعم .

فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك ولا أية وسيلة من وسائل النجاة ؟ . . . نعم .

حينذاك ، وقد تحلّلتَ وانقطعتْ رجاءُك عن كل شيءٍ تعرفه ، فهل تعلق قلبك بنقطه مرموزة لا تعرفها وتعتمد عليها ، وانها تقــدر أن تخلصك من ورطتك ؟ . . . نعم .

فذالك الشيء هو الله تعالى، القادر على الإغاثة حيث لامغيث - يتجلى لفطرتك إذ تتحلل عما سواه - وتتجرد عن كل تعلق سواه .

فتلك الآية تعرّفنا ربنا عندما تمسنا الضرّ : انه هو الذي يجده الإنسان حينما يضلّ عنه كل شيءٍ - حتى نفسه - فإن كان الأصل في الكون هو المادة ، وهي التي تُلجئُ المضطرين ! فلماذا لم تُلجيء حتى نفسها في هذا الغريق .

إن الإنسان في سائر الأحوال والأحيان يظن أن هناك في الكائنات المادية ملاجيء ومراجع يلجأ إليها عند البأساء والضراء ، حتى إذا أتاه الخطر وأحاط به الضر والشر حيطة شاملة لا تبقي له راحة ولاتذر - فآنذاك ضلّ كلُّ هــذه إلاّ من تنحو نحوه الفطرة وهو الله تعالى شأنه .

فالإنسان كائناً من كان - إنه على حجة بينة متواصلة في شتى الألوان، تدله على الله تعالى : آيات بينات آفاقية وأنفسية .

فالآفاق : وهي كل كائنٍ سوى نفس الإنسان - تدله على ربّه - ثم العقل والفطرة يدلانه ، ثم الدعاة الى الله يدلونه إتماماً لهداية العقل والفطرة والدلالات الآفاقية ، فلله الحجة البالغة تبلغ كل عالم وجاهل وكل ذي شعور له أدنى تمييز - فكل ما يشعر نفسه - ثم يرى أنه لم يكن ثم حدث ، يكفيه هذا برهاناً بيّناً لا مرد له : أن هناك خالقاً خلقه ، ثم أنه ليس من جنسه وإلاّ لم يتقدّمه في الخالقيــة . . .

وعبارة أُخرى عن شمول الحجة لله تعالى على كل نفس : ان لكلٍ سبيلاً الى

ربه كما يساعد عقله وإدراكه ـ سواء أكان في أدنى مراتب الإدراك والعلم ـ أم أعلاها ، فالطرق الى الله بعدد انفاس الخلائق .

فالإنسان ـ كائناً من كان ـ وفي أيّة بيئة عقلية وعلمية وتربوية ، إنه يجد نفسه محاطة غريقة في يمّ محيط مسيطر عليه : من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على وجود إله الكون ـ لا يستطيع ان يتحلل عن تلكم البراهين .

أجل: وكما أن الله تعالى إله الكل ، فلابد للكل ان يجدوا سبيلاً الى معرفته دون شذوذ ، وكما يجدون آثار وجوده تعالى وبراهينه الساطعة في الآفاق وفي أنفسهم: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ٤١ : ٥٣ .

وإننا نجد في كافة أنحاء الآفاق ،والمجالات الواسعة للإبصار والتفكير ، نجد مَثَله الأعلى: في السماوات وفي الأرض وفي أنفسنا « ولله المَثَل الأعلى وهو العزيز الحكيم » ١٦ : ٦٠ .

ومع كون الآيات الآفاقيــة والا نفسية ، هي في متناول أبصار وبصائر المكلفين في طول العالم وعرضه ، رغم هذا تبتدء إرائه تلكم الآيات في المستقبل « سنريهم » إعتباراً بأن لتقدم العقل والعلم نصيباً مفروضاً في تقدم هذه الآيات إيضاحاً لحق الألوهية .

فالآيات الأنفسية : من العقل والفطرة ومن عجائب صنع البدن ، والآيات الآفاقية : الجسمية الخارجة عن أجسامنا ، والروحية الخارجة عن أرواحنا ، هذه الآيات بكافتها شواهد الألوهية لله تبارك وتعالى .

فسير العقل وسبحه في بحار البراهين العقلية .
وسير الفطرة وحكمها في مجالات الاحكام الفطرية .
وغوصها في يمّ البدن بما فيه من بدايع الصنع والخلقة .
وغور الحس في آفاق السماوات والأرض .
وغوص العقل والفطرة في الآفاق العقلية والفطرية وفي كافة آفاق الكون:

هذه السابحات الفائرات الغواصات لا ترجع عن وظائفها الا شاهدة لربها بما رأت من آيات قدرته وعلمه وحكمته :

« او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟.

إنه تعالى شهيدٌ على كل شيء؛ حاضرٌ عليه علماً وقيومية ، لافي كل شيء بل عليه ، فانما هي شهادة؛ حضورٌ لدى الخلق كما يتناسب وألوهيته الاحلولٌ فيه ، سبحانه وحاشاه ! .

دلالة الفطرة :

عند اللاهوتيين الكنسيين :

لودويغ اوث ، الالماني [1] ... هل الإنسان مطبوعٌ على فكرة الله ؟

.. بعض اللاّهوتيين الكاثوليك يعلّمون مستندين إلى الآباء : أنّ فكرة الله لا تأتي الإنسان عن طريق التفكير الإستنتاجي المعتمد على الإختبار [2] بل هو الإنسان مطبوع عليها ، لا ريب : أن بعض الآباء مثـــل « يوستينوس واقليمندوس الإسكندري » قد وصفوا معرفة الله على أنها « مغروسة » ، « لم نتلقّنها بالتعليم » ، « معروفةٌ بذاتها » ، « هي للنفس كالبائنة » . ويقول يوحنّا الدمشقي : « إن معرفة وجود الله قد غرسها الله لدى جميع الناس في الطبيعة »ولكن لما كان هؤلاء الآباء أنفسهم يعلّمون بأننا إنما نكتسب معرفة الله عن طريق النظر إلى الطبيعة ، فإنهم يرون ، بموجب نظريتهم ، لا بأن فكرة الله على أنها فكرة هي مطبوعة ، بل بأن إمكان معرفة وجود الله عن طريق أعماله هي سهلة وبنوع مّا عفوية ، والقديس توما : « نقول إن معرفة الله هي مطبوعة فينا : بمعنى أننا نستطيع بسهولة ، بواسطة المبادىء المطبوعة فينا ، أن نعرف وجوده » .

---

١ ـ في كتابه : مختصر في علم اللاهوت العقائدي ج ١ ص ٢١ ، نقله الى العربية : الاب جرجس المارديني ، ط بيروت توزيع المكتبة الشرقية.

٢ ـ يعني : ان هذه ليست هي الطريقة الوحيدة لمعرفة الله وان كانت تكميلية لبرهان الفطرة.

هل العلة الموجدة هي المبقية ام ؟

المهتدي : « رغم التفكيرات الإلحادية السالفة من جرّاء الجهل والغفلة ، إنني الآن اعترف بكل إتقان وايمان ، أن هناك وراء المادة قدرة عليمة حكيمة أزلية خلاقة ، ليس للكون معنى إلاّ ما عناه ، ولا وجود إلاّ ما أوجده وهداه : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ٢٠ : ٥٠ .

ولكنني في ريب أتردد : هل إنّه أبدي كما هو أزليّ ؟ حيث المعلول لايفتقر إلى العلة إلاّ لأن يُوجد ، ثم بعد الإيجاد هــــو موجودٌ بطبعه دون حاجة إلى إستمرار وجود العلة ولا عليته ، فحدوث المعلول كافٍ في بقائه ، فلا يفتقر الكون إلى علة البقاء إفتقاره إلى علة الحدوث .

مثالاً على ذلك كل مصنوع يسوّيه الإنسان أو بناء يبنيه ، فانها يستمران دون حاجة إلى إستمرار عمل الصانع والباني بل ولا وجودهما بعد التسوية !

الالهي : لقد بيّنا لكم في البحث عن الأزلية والحدوث : أن الأزلية تلازم وتستوجب الأبدية ، وان المادة بحاجة ماسة مستمرة مندغمة في ذاتها إلى علة إيجادها ، دون ان تستطيع التحلل عنها في آنٍ مّا ، إلا بالتحلل عن الوجود .

فلعل المحاولة حول إثبات الصانع ونفيه ، طيلة هذه البحوث القيمة ، هذه المحاولة حالت بينكم وبين الإمعان فيا يخص الأمرين :

١ - الأزلية تلازم الابدية .

٢ - المادة لا تستطيع البقاء ، منفصلة عما يمدّها ويبقيها من ورائها .

وإذا حققنا هذين الاصلين،وسوف نفصّلهما فيما يلي،فلا يبقى مجال الإستدلال بالمثال ، إذ إنّ المثال لا يؤتى به إلا لتقريب ما ثبت بالبرهان ، أو لا يُحيله العقل ، فماذا يُصنع بمثال البناء والبنّاء في الاصلين الثابتين العقليين ؟ .

فهل يستطيع هذا المثال نقض القاعدة العقلية : أن المعلول الحقيقي مفتقر الذات إلى علته ، لا كيان له إلا بها ، ولا بقاء له إلا ببقاء العلة وحفاظها عليه ؟.

فهكذا معلول لا تختلف حاله بعد الوجود عن حاله قبله ، حيث لم يكسب من العلة إلا الوجود المفتقر الذات اليها ، لا هو واستقلال الذات عنها .

لا فحسب ! بل وهذه قاعدة مطردة عقلية دون شذوذ ، في كافة العلل والمعاليل : أنه لا يستقل معلولٌ ما ولا يتحلّل عن علته ، كيفما كانت المعاليل والعلـــل .

ففي مثال البناء والبنّاء لا نجد معلولاً مّا بقي منفصل الوجود عن علته ، ولو آناً مّا !

فإن معاليل البنّاء تنعدم ، كلٌ عند انقطاع علته ، ثم بعد اختتام البناء لا صنع له ولا عليّة ، وإن كان حاضراً لديه وناظراً إليه .

إن معاليل البنّاء ليست إلا حركات خاصة تصدر عنه ، وتتولد عنها صور مخصوصة ووحدةٌ تركيبية هي شاكلة البناء .

هذه معاليله لا سواها : لا مواد البناء واجزائه الحديدية والخشبية والحجرية والجصية وسواها ، فإنما وَضَع لبنة على أُخرى ، وأشالَ خلالها الجص والطين ـ ووَضَع الأعواد على السطوح ، وما إلى ذلك من الحركات الخاصة ، ولقد إنعدمت هذه إطلاقاً ، كلٌ : آنما يترك البنّاءُ التحريك الخاص ، دون بقاءٍ وان كان لحظة يسيرة .

فما بقيت من المعاليل في البناء فلوجود عِللها ، ومـــا انعدمت فلانعدام أو انفصال عللها .

فالحركات المختلفة التي سوّت هذه الشاكلة الخاصة للمواد ، هذه الحركات انعدمت،حيث البنّاء قطع أعماله ، وشاكلة البناء باقية إلى أمدٍ ، ما بقي عللها، من خاصة التقابض والتلاصق بين الاجزاء نتيجة الجصّ والطين الموجودين ، وقضية ثقل الاجزاء وجاذبية الأرض .

فكلما نقصت بواعث هذا التلاصق زاد البناء في انفصام عروته فسقوط المعلّق منها على الأرض ، قضية الجاذبية ، ورخوة القائم منها على اجزاء اخرى نظرَة السقوط نتيجةَ الزلازل والرياح .

أجل ، وإننا بعد التفتيش الدقيق عـــن المعاليل البنائية لا نجد معلولاً مّا تتحلل عن علته دون استثناء ، ولم نجد إلاّ معاليل مختلفة لعلل شتى .

هذا في العلل غير الحقيقية ، فكيف بها ! ونحن لا نجد لها مثلاً في الكون إلا نفس الكون بالنسبة لخالقه ، دون المعاليل الطبيعية لعللها الطبيعية ــ فإن هذه العلل لا تستقل في العلية ، ولا تصدر عنها الوجود ، وإنما هي معدات ووالداتٌ ليست إلاّ .

ومثالاً على العلية الحقيقية بوجه مّا ، الإشعاعات الكهربائية ــ فإنها متوالية تترى ،بينها إنقطاعات لا تُرى ،وإنما يُرى شعاء واحد،إذ إن البصر لا يستطيع أن يدرك الإنقطاعات الفاصلة بين هذه الإشعاعات .

فعند انقطاع الإشعاع ينقطع النور : آنه دون تأخير ، إذ ان النور معلول الشعاع ووليده .

وكذلك الصور المرتسمة في الذهن ، فإنها معلولة مخـــلوقة للنفس الفعالة الإنسانية ، فآن غفلة النفس الخلاقة عنها ، او تغافلها ، عين آن الإنعدام للصورة، دون تخلف وان كان جزء في مليارات من آنٍ واحد من الزمان .

كل ذلك نتيجة : أن المعلول هنا لا كيان له دون علته ، وإنما هو فعل العلة وتمام الفقر اليها والتعلق بها .

هذا في علية الإشعاع للضوء والنفس للصور ، رغم انها غير حقيقية ، فكيف بخالق الكون ؟ وليس الكون بما فيه إلا غاية الفقر إليه ، دون أن يصير غنياً بعد الوجود .

فالجزآن للحد الاخير من كينونة المادة لا استقلال ولا قيومية ولا وجود لاحدهما شخصياً ، ولا لهما منضمين، لولا القدرة القيومة القائمة عليهما وراءهما، وحال هذين الجزئين قبل الوجود نفس حالهما بعده : في الفقر الى الخالق .

والسرُّ في ذلك : أن الكون ليس شيئاً يحتاج الى الخالق « شيء وحاجة » بل إن حقيقته وماهيته ليست إلاّ مجرد الحاجة ، لا سواها ـ وهذا ما يُعبر عنه في الفلسفة العقلية بالإمكان الفقري ، وفي اصول الفقه بالمعنى الحرفي .

فهناك امران : ١ ـ شيءٌ فقير ٢ ـ شيءٌ هو الفقر كله ، دون ان يوجد في ذاته إلاّ الفقر ـ والكون بالنسبة للخالق المتعال كالثاني دون الاول ، وإنما الفقر العارض كالاول نجده في أجزاء الكون : بعضها الى بعض ، كالولد بالنسبة لوالده ، فلذلك يبقى الولد بعد موت الوالد، ولا يحتاج اليه الا في أصل المقاربة المولدة للنطفة ، وسر البقاء هنا : ان الولد ليس فقير الذات الى الوالد ـ وانما يفتقر اليه في أصل بذر النطفة .

العلة الحقيقية والمجازية :

ومهما يكن من شيء فهناك ولادة وعلية ، والعلل الطبيعية كلها من باب الولادة ، دون علية حقيقية مهما كانت ، واما العلل الارادية ، ولا سيما ارادة الله تعالى ، فانها علة حقيقية تصدر عنها ذات المعلول ، وهو باق ما بقيت الارادة الالهية لإبقائه .

إذاً فبقاء الكون مع فرض عدم بقاء الإلَه ـ أو عدم إرادته للبقاء ـ هذا من المستحيل عقلياً ـ ولا تقاس عليته تعالى بسائر العلل التي أكثرها توليدية ـ إذ

إن العلة تتبدّل الى حالة أخرى فيقال أنه معلول ووليد ـ أو انها تُبدّل عنصراً الى آخر فيقال أنها علة ـ مع أنها والدة أو سبب الولادة فحسب .

بل ولا يحق أن يقال : إنه تعالى علة ،إذ يستشعر من لفظه العلة عدم الإرادة والاختيار ، فهو الخالق العليم القدير سبحانه وتعالى عما يشركون .

هذا الإله ، كلَّ يومٍ هو في شأن : من إحداث بديعٍ لم يكن ، وابقاء كائن خلقه ، ولا نعني من الإبقاء : الخلق الثاني والثالث و... في الآنات التالية عن خلقه أوّل مرة ، فمن المستحيل فناءُ مـــا أحدثه إلاّ بانقطاع فيضه عنه ، وإنقطاعُ الفيض عن مخلوقٍ مّا يقتضى انعدامه رأساً ، ثم إيجاده ثانياً ليس إلاّ ايجاد شيء آخر يماثله ، لا ابقاء الاوّل !

إنما نعني استمرار الكائن لحد مّا ، حسب ما يريده الله تعالى : بدوام فيضه عليه لهذا الحدّ .

حصيلة البحث :

وحصيلة البحث : أن انعدام الإله ـ مع استحالته الذاتية ـ أو انقطاع فيضه عن كائن مّا ، هذا يساوي إنعدام هذا الكائن ، كما وأن عدم الإلَه في البداية يساوي عدم الكون اطلاقاً ، فالعلة الموجـــدة هي العلة المبقية في كافة العلل الإيجادية ، وبالاحرى في علة العلل : الله تعالى شأنه .

فانعدام الكون بأجمعه ليس بحاجة إلى أن يريد الله تعالى إعدامه ، وإنمـــا يكفيه ألاّ يستبقيه ، فالمحتاج إلى الإعدام ماله استقلال في الكيان وطاقةٌ ذاتية للبقاء ، دون الكون بالنسبة لخالقه ،حيث الفقر كيانه وماهيته،والتعلّق المحض إلى الله إنيّته وهويّته ، كما أن إنعدام الضوء لا يحتاج إلى الإعدام ، وإنما يكفيه إنقطاع الإشعاع فحسب ، مثالاً ساذجاً على الإمكان الفقري للكون أجمع .

المهتدى : إنني الآن مليءٌ من الإيمان بالله السرمدي لا اشك فيه ولا ارتاب

« افي الله شك فاطر السماوات والأرض » ١٤ : ١٠ ؟ !

هذا على ضوء هذه الدلالات والدلائل الناصعة والبراهين الساطعة ، التي اشرقت بها على قلبي المظلم من مَشرق قلبك المنير !

الالهي : ... هذا ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فكل من يريد الهداية ولا يعاند الحق فالله مؤيده وهاديه وهو مولاه نعم المولى ونعم النصير .

وليست هذه البراهين إلا قطرة من يمّ وقبساً من جمّ من أضواء الوحي: من كتاب الله وسنة بنيه .

المهتدى : أرجوك يا استاذ أن تجعل ختام الحوار مسكاً كما بدأت لكي نستقي من هذه العيون الفوارة ونستزيد في المعرفة بعد الاجمال .

الالهي : أجل ، وانّ في النصوص الاصليه الدينية براهين ساطعة ، اقتبسنا طيلة بحوثنا وفيراً من أضوائها وإليكم طرفاً من هذه النصوص :

●

الاحتجاجات الصادرة من مصادر الوحي

حول اثبات وجود الله

- اضواء من القرآن .
- من مهابط الوحي :
- الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله .
- الامام امير المؤمنين عليّ عليه السلام .
- الامام الرضا عليه السلام .
- الامام الصادق عليه السلام .

اضواء من القرآن

فيما له صلة باثبات الخالق وصفاته تعالى :

١ – انفطار العالم برهانٌ لا مردَّ له على ضرورة وجود خالقٍ غير منفطر:

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ » ١٤ : ١٠ .

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ » ٥٢ : ٣٥ .

« أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » ٧ : ١٨٥ .

« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » ٥٠ : ٤٩ – ٥٠ .

« سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » ٣٦ : ٣٦ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ الحَكِيمُ » ٤٣ : ٩ .

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » ١٠ : ١٠١ .

« سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » ٤١ : ٥٣ .

٢ - تطور الخلق :

برهان لا مرد له على علم الخالق وقدرته وحكمته ، ولا هكذا المادة :

« ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بماينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » ٢ : ١٦٤ .

« ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم وألوانكم إن في ذلك لايات للعالمين . ومن اياته منامكم بالليل والنهار وابتغاءكم من فضله ان في ذلك لايات لقوم يسمعون . ومن اياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لايات لقوم يعقلون . ومن اياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الارض إذا أنتم تخرجون » ٣٠ : ٢٢ - ٢٥ .

ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون ٣٠ : ٢٠ .

ومن اياته ان يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ٣٠ : ٤٥ .

ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجد والله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون ٤١ : ٣٧ .

ومن اياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت ٤١ : ٣٩.

فهذا طرفٌ من آيات الله البيّنات تدل على وجوده وعلمه وحكمته وقدرته وارادته ، والكون كله آيات قوية بينة تدل على الله تعالى ، ولا نجد أية حقيقة في الوجود تتوفر لإثباتها وللبرهنة عليها ـ من كلّ موجود وكائن ، سوى الله تعالى شأنه .

الرسول الاعظم محمد [1] صلى الله عليه وآله وسلم يحتج على الدهرية

.. لما أتته قادة الأحزاب الخمسة : الدهرية والثنوية والمشركون واليهود والنصارى ، كلٌّ يحتج عليه بما عنده زعْمَ البرهان ، أقبل على الدهرية القائلة : أن الأشياء لا بدءَ لها ، قائلاً :

للاشياء بداية :

وانتم ، فما الذي دعاكم إلى القول : بأن الأشياء لا بدءَ لها وهي دائمة لم تزل ولا تزال ؟ !

الدهرية : لأنا لا نحكم إلاّ بما نشاهد ، ولم نجد للأشياء حَدَثاً ، فحكمنا بأنها لم تزل ، ولم نجد لها انقضاءً وفناءً ، فحكمنا بأنها لا تزال .

الرسول الاعظم ﷺ : أفوَجدتم لها قِدماً ؟ أم وجدتم لها بقاء أبـــد

---

١ ـ هو خاتم النبيين وسيدهم ، الذي بشر به الأنبياء من قبل في كتبهم السماوية ، وقد نقلنا من هذه البشارات زهاء ستين في كتابنا : البشارات السماوية بحق الرسول الأعظم محمد ص ، ومن ميزاته بين النبيين: ان كتاب تشريعه ام معجزاته الخالدة غير المحرفة، وتقدم العقل والعلم، رغم انهما تؤخران التفكيرات المتبقة توضحان من معارف القرآن الكريم ـ الشيء الكثير ـ والبشرية لا تجد سبيلاً الى نبوات الانبياء من قبل ، ولا معجزاتهم ، فانها قضيت بما قضوا نحبهم، ولكن قرآن محمد باق في برهانه خالداً مع الأبد : يبرهن عل نبوته بكافة البراهين القاطعة المقنعة . (راجع البشارات والمقارنات ج ١ تجد بحثاً وافياً في إعجاز القرآن وصيانته عن التحريف ـ وتحريف التوراة والانجيل، و ج ٢ في المقارنات العقائدية بين الكتب السماوية و ج ٣ في بشارات الكتب المقدسة بحـــق الرسول الأعظم (ص)) و ج ٤ في المقارنات بحق الأنبياء و ج ٥ في المقارنات الأحكامية .

الابد ؟ فان قلتم : إنكم وجدتم ذلك ، أثبتم لأنفسكم : أنكم لم تزالوا على هيئتكم وعقولكم بلا نهاية ، ولا تزالون كذلك ، ولئن قلتم هذا دفعتم العيان وكذّبكم العالمون الذين يشاهدونكم .

الدهرية : بل لم نشاهد لها قدماً ولا بقاء أبد الأبد .

براهين اربعة على حدوث العالم .

١- الرسول الأعظم ﷺ : فلمَ صرتم : بأن تحكموابالقدم والبقاء دائماً ، لانكم لم تشاهدوا حدوثها وانقضائها ، أولى من تارك التميّز لها ، مثلكم ، فيحكم لها بالحدوث والإنقطاع ، لأنه لم يشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبد الأبد .

٢ ـ أوَ لستم تشاهدون الليل والنهار وأحدهما بعد الآخر ؟ ... نعم .

أفترونها لم يزالا ولا يزالان ؟ ... نعم .

أفيجوز عندكم اجتماع الليل والنهار ؟ ... لا .

فاذاً ينقطع أحدهما عن الآخر ، فيسبق أحدهما ويكون الثاني جارياً بعده ؟ ... كذلك هو .

الرسول الأعظم ﷺ : فقد حكمتم بحدوث ما تقدم من ليل ونهار ، ولم تشاهدوهما ! فلا تنكروا لله قدرة .

٣ ـ أتقولون ما قبلكم من الليل والنهار متناهٍ أم غير متناه ، فإن قلتم : غير متناهٍ ، فقد وصل اليكم آخر بلا نهاية لأوّله ، وإن قلتم : أنه متناه ، فقد كان ولا شيء منها (والجمع بين الازلية والانتهاء لشيءٍ جمعٌ بين المتناقضين ، حيث الأزلية هي اللاحدية فلو كان للازلي آخر كان محدوداً ، كما فصلناه في ظاهرتي الحركة والزمان) .

الدهرية : نعم إنه (متناه) .

الرسول الاعظم ﷺ : أقلتم : ان العالم قديم غير محدث وانتم عارفون بمعنى ما اقررتم به ، وبمعنى ما جحدتموه ؟ ..

الدهرية : نعم ! ...

٤ ـ فهذا الذي نشاهده من الاشياء ، بعضها إلى بعض مفتقر ، لأنه لا قوام للبعض إلاّ بما يتصل به ، كما ترى البناء محتاجاً بعض أجزائه إلى بعض ، وإلا لم يتسّق ولم يستحكم ، وكذلك سائر ما نرى (استدلالٌ على حدوث الكون بظاهرة التركب) ـ

فإذا كان هذا المحتاج بعضه إلى بعض لقوته وتمامه هو القديم ، فأخبروني أن لو كان محدثاً كيف كان يكون ؟ وماذا كانت تكون صفته ؟

فصمتوا وعلموا : أنهم لا يجدون للحدَث صفة يصفونه بها إلاّ وهي موجودة في هذا الذي زعموا أنه قديم، فوُجموا وقالوا : سننظر في أمرنا » [١]

قال راوي الحديث الإمام الصادق عليه السلام : «فوالذي بعثه ﷺ بالحق نبياً ما أتت على جماعتهم إلا ثلاثة أيام حتى أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وكانوا خمسة وعشرين رجلاً ـ من كل فرقة خمسة ـ وقالوا :

ما رأينا مثل حجتك يا محمد ! نشهد انك رسول الله ﷺ » .

بيان :

إن الرسول الاعظم ﷺ في حجاجه هذا يمشي مع الدهريين سيراً حثيثاً رفيقاً ـ فيُمشّيهم بخطواتهم أنفسهم إلى تصديق ما كانوا ينكرون ـ تدرّجاً في حجاجه عليهم ، يُدعمه على دعائم أربع :

١ ـ تزييف القول : أن عدم الوجدان دليلٌ على عدم الوجود ـ بأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ـ فعدم وجدان الحدوث لا يدل على الازلية ـ كعدم وجدان الفناء حيث لا يحكم على الأبدية ـ إذاً « فلمَ صرتم بأن تحكموا

---

١ ـ ج ٩ البحار الطبعة الحديثة ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ ، نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي .

بالقدم والبقاء دائماً ـ لأنكم لم تشاهدوا حدوثها وانقضائها ـ اولى من تارك التميّز لها مثلكم ـفيحكملها بالحدوث والانقضاء والانقطاع لانه لميشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبد الابد » ؟

٢ ـ امكان الإستدلال بحدوث الحاضر من شيءٍ على حدوث الغابر من سنخه: **« أولستم تشاهدون الليل والنهار ...»**

٣ ـ الحكم بتناهي الحادث مهما كثرت أفراده: « **فان قلتم : غير متناه ـ فقد وصل اليكم آخر بلا نهاية لاوّله** » .

٤ ـ الحكم بحدوث كافة الاشياء بسناد حاجة بعضها إلى بعض ـ والحاجة والإفتقار آية الحدوث ـ حيث القديم والحادث يختلفان في الصفات كما في الذات إختلاف المتناقضين ، ومحالٌ أن يكون القديم مفتقراً ، حيث الإفتقار من آيات الحدوث ، وكافة صفات الحدوث مندغمة في الكون إطلاقاً .

ولقد فصلنا القول ـ في طيّات بحوث الكتاب ـ في هذه البراهين الساطعة لحدوث المادة ، وهذا الحجاج يضم من ظواهر حدوث المادة :

ظاهرة التركُّب والزمان ، بما هما الأصلان القويمان بين ظواهر حدوث المـــادة .

●

الامام امير المؤمنين علي عليه السلام[1]

في براهين لفكرة الإله :

فمن برهان له على حدوث المادة : ..[2] « فحيث إن الأجسام لا تخلو من أن تكون مجتمعة أو متفرقة أو متحركة أو ساكنة، والإجتماع والإفتراق والحركة والسكون محدثة ، علمنا أن الجسم محدَث، لحدوث ما لاينفكُ منه ولايتقدمه[3]

---

١ ـ هو التلميذ الأول للرسول الاعظم (ص) ومثيله وأخوه ووزيره ووصيه وخليفته ونفسه المقدسة وأعلم الامة واعدلهم بعده (ص) راجع كتابنا «علي والحاكمون» وفيما نقله السيد الشريف الرضي عنه في نهج البلاغة برهان لا مرد له على انه استمرار لشخصية الرسول الاعظم (ص) .

٢ ـ البحار ج ٣ ط الجديد ص ٢٣٠ جع عن ابن الحنفية عنه(ع) .

٣ ـ يستدل الامام (ع) بآثار الحدوث في المادة على استحالة ازليتها وانها حادثة الذات ، اذ ان الازلي لا يتصف ـ ومحال أن يتصف ـ بصفات الحادث ، لاستحالة الجمع بين المتباينين المتناقضين ، وان كان جمعاً بين الصفة والموصوف ، اذ ان الموصوف لا يتصف الا بما يلائمه من الصفات ـلا ما يناقضه كلياً ـ

والاجتماع والافتراق من صفات الجسم ـ كالحركة والسكون ـ اذ انه لا اجتماع الا بعد الافتراق ولا افتراق الا بعد اجتماع ـ وهما حادثان ـ وكذلك لاحركة الا عن سكون ، ولا سكون الا عن حركة ـ وهما حادثان ـ فالمادة اذاً حادثة لحدوث ما لاينفك منه من الأحداث .

ثم المادة لا تتقدم هذه الاحداث بأن كانت متحللة عنها قديماً ثم اتصفت بها ! اذ لا معنى للجسمية الا ما تعتوره هذه الحالات ، او يمكن ان تعتوره ، وكفى بامكان عروض العوارض الحادثة ـ حكماً على حدوث هكذا معروض ـ اذ ان الأزلي يستحيل فيه عروض الحوادث .

ثم على فرض تقدم المادة على العوارض ، كان عروضها عليها متأخراً برهاناً لا مرد له على حدوثها ، اذ إن الازلي لا تعرضه صفة الحادث ، كما فصلناه في بابه فراجع .

ومن كلام له (ع)

في ماهيته تعالى ، في تأويل الصمد [1]

« لا اسمٌ ولا جسم ولا مثل ولا شبهٌ ،ولاصورة ، ولاتمثال ، ولاحدٌ ، ولاحدود ، ولاموضع ولا مكان ، ولا كيفٌ ، ولا اين ، ولا هنا ، ولا ثمة ، ولا ملأ ، ولا خلأ ، ولا قيامٌ ، ولا قعودٌ ، ولا سكونٌ ، ولا حركةٌ ، ولاظلمانيٌ ، ولا نورانيٌ ،ولا روحانيٌ ،ولانفسانيٌ ،ولا يخلو منه موضعٌ ، ولا على لونٍ ، ولا على خطر قلبٍ ، ولا على شم رائحة» .

بيان : يضم هامة المعارف الالهية في هذا الحديث :

« لا اسم » [2] : لفظي ولا تكويني-عيني ولا معنوي (فمن عبد الإسم دون المسمّى فقد كفر ، ومن عبد الإسم والمسمّى فقد أشرك ، ومن عبد المسمّي فقد وحّد) فالإسم اللفظي ليس شأنه إلاّ الحكاية اللفظية ،دون أن تكون له أيّة أصالة (فأسمائه تعبير)والإسم العيني وهو كلما يدل بوجوده و كيانه على وجوده تعالى وصفاته العليا ،هذا الإسم يباين ذاته كلياً ، فكيف يكون ذاته أو من ذاته تعالى .

والإسم المعنوي وهو المعنى المحكي عنه بالأسماء اللفظية ، كالعلم بالعالم ، والقدرة بالقادر ، والحياة بالحي ، : صفات ذاتية هي عين ذاته تعالى دون أي تعدد وتركّب ، و كالسمع بالسميع ، والخلق بالخالق ، وما إليها من صفات الفعل : التي ترجع الى الذاتية رجوع الفرع الى أصله ، فهذه الأسماء والصفات الذاتية والفعلية ليست بالتي تحكي عن حيثيات مختلفة مركبة منها الذات ، وإلاّ أصبحت الذات مركبة فمحتاجة فممكنة ، وإنما هي - ولا سيا الصفات الذاتية - تعابير عن ذات واحدة ، إختلفت لفظياً ، لكي نتعرف الى جمعية

---

١ - التوحيد للصدوق ص ٣١٢ بالإسناد عنه (ع) .

٢ - بين القوسين الزوجين : « » متن الحديث وبين القوسين : ( ) من سائر الاحاديث او الآيات والباقي بيان المؤلف .

الذات لكافة الكمالات ، ولكنه علينا من وراء ذلك أن نُجرّد ذاته تعالى عن الكثرات والتركّبات، إذاً فليس ذاته إسماً : لالفظياً ولاتكوينياً :- من خلقه - ولا جوهرياً معنوياً : في ذاته، وإنما هو الذات المجردة عن أي تركُّب وعروض وحدوث ، وعن كل ما يتنافى وألوهيته وسرمديته وغناه .

« ولا جسمٌ » : إطلاقاً - وقول من قال : إنه جسم لا كالأجسام-لا يُخرجه عن الجسمانية ، أو أنه تناقض ، فإن كيان الجسم - مهما كان - هو التركُّب وإمكان وواقعية الحركة والسكون والحدّ والتغيرّ ،وأخيراً لا أقل من تركب مّا وحدة مّا- وهما ينافيان الأزلية اللاّنهائية،فان كان ذاته تعالى جسماً لا كالأجسام في الكثير من لوازم الجسمية ، فلا بدّ أن يشاركها في أصل الجسمية حتى يصدق عليه أنه جسم ، ولو عنى هـذا القائل من نفي الجسيمة عنه تعالى نفيه إطلاقاً فلماذا يقول إنه جسم ؟

ألفظاً دون أن يحمل معناه الموضوع له - فمهمل - أو يحمله فتناقض ، ويرجع القول : انه جسم لا كالأجسام - الى القول : أنه جسمٌ لا جسم - بجمع المتناقضين في الذات .

وأما النقض بالقول : أنه شيءٌ لا كالأشياء - فغير ناقض - لأن أصل الشيئية لا تقتضي إقتضاء الجسمية من التركب والحدّ و . . . - بل تعني الشيئيةُ هنا أصلَ الوجود ولكن لا كسائر الوجود - صيغة أخرى عن القول : (أنه خارج عن الحدين : حدّ الابطال وحدّ التشبيه) فهـو تعالى شيءٌ ولكنه يباين - لحد التناقض - كافة ما سواه في الذات وفي الصفات .

« ولا مَثَلٌ » بمعنى الآية الدالة على ذي الآية - فالكون كله مَثَله : آيته على شتى المراتب (وله المثَل الاعلى في السماوات والارض) كا أن له المثل الاوسط والادنى،والمثَل فرعٌ يدلّ على المثّل عنه - وليس الله فرعا للكون حتى يُصبح مثلا له - لا مثلا أعلى ولا سواه .

« ولا شِبه» : لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، إذ إن المشابهة تقتضي الشركة

في حقيقة مّا بين المتشابهين ـ ذاتاً وصفاتاً ـ وهذه الشركة بين الخالق والمخلوق تقتضي إمكان الخالق ـ أو وجوب أزلية المخلوق ـ أو الجمع بين نقيضي: الحدوث والازلية ـ في ذاتي الخالق والمخلوق ـ كما فصلنا في تزييف وحدة حقيقة الوجود.

« ولا صورة » : من تمثال أو سواه ـ فإنها فرع ذي الصورة ومحدودٌ بحدوده .

« ولا تمثال » : لان التمثال شبهٌ ومَثَل لأصلٍ مّا ، وهو تعالى لاصورة تمثال أو سواه ولا تمثال ولا ذو الصورة والتمثال ـ لاشتراكها في الحد والتركب والحاجة .

« ولا حدٌ ولا حدود » : لا حدٌ واحد كما في كل واحد من جزئي المادة الاوّلية ، فإن لكلٍّ حداً مرموزاً حين الاتصال ، ثم بالانفصال يتحلّل عن هذا الحدّ ايضاً تحلّله عن الوجود ، فهذا الحدّ الواحد وهو أقل ما يلازم المادة ، هو ايضاً منفيٌ عنه تعالى ـ لانه ليس ماديّاً اطلاقاً .

فهو ليس أصل المادة في أحد جزئيها : « لا حدٌ » ولافرعها : « ولا حدود » وهي المركبات اللاّحقة للمادة بعد الحد الاول ، وهي المادة التي لها حدود : حدين كما في الجزء الذي لا يتجزىء ـ واكثر منها كما في التركبات اللاّحقة لها في الذرات والجزيئات والعناصر و ... ـ كل ذلك : لانه ليس ماديّاً ولامادة ، والحدّ مهما كان فإنما هو للمادة .

« ولا موضع » : لا ان يكون هو موضعاً يحلّ في ذاته مَن سواه ـ ولا ان يكون له موضع يحل هو فيه أو يجلس عليه : من عرش أو كرسي ـ وحاشاه !.

« ولا مكان » : وإن كان هو الكون اجمع ـ فإنه لايضمنه كائن ولا يضمّه مكان ـ لانه الخالق للموضع والمكان وقبلها فكيف يحلُ فيهما ؟ ! .

« ولا كيف » : لا جسماني لانه ليس جسماً ـ ولا روحاني ولا سواهما ـ

إذ الكيف يستلزم الحدّ والصورة ـ وذاته تعالى لا كيف لهـــا ولا رسم ولا حدّ ! . .

« ولا اين » : لأنه لا يخلو منه مكانٌ : من علمه وقدرته ، وإنما يقال اين ؟. لمن يخلو عنه أينٌ آخر .

ويقال : اين ؟ لمن يتمكن في مكان ـ وهو تعالى لا يتمكن في مكان ـ وعلمه وقدرته نافذان في كل مكان .

« ولا هنا ولا ثمة » : تمكنا جسمانياً ، ولكنه هنا وثمة وفي كل مكان علماً وقدرةً ، بل هو أقرب الى كل شيء من الشيء نفسه .

« ولا ملأ ولا خلأ » : فانهما ـ ماديًّا ـ من لوازم الجسم ، ولكنه مـــلأ الكمالات غير المادية وهو الصمد .

« ولا قيام ولا قعود » : لانهما حالات وتغيرات تعرض الجسم .

« ولاسكون ولاحركة » : إذ لا سكون إلاّ بعد حركة ، ولا حركة الا بعد سكون ، فهما إذاً حادثان فلا تتصف بهما الذات الأزلية .

« ولا ظلماني ولا نوراني » : في قياس الأجسام الظلمانية والنورانية ، بل هو نور السماوات والأرض : خالقهما ومدبرهما وهادي الخلق الى ما يُصلحه .

« ولا يخلو منه موضع » : خلوّ العلم والقدرة ، لا خلوّ الذات (فإنه خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه) .

« ولا يسعه موضع » : سعته لذاته ان يضمّه فيه .

« ولا على لون » . فإنه عارض الجسم دون المجرد .

« ولا على خطر قلب » : فالقلوب تعرفه دون أن تكتنهه ، فلا يخطر على

قلب خطور الإدراك والاحاطه به والتصور والتحديد له . . .

« **ولا على ثم رائحة** » . فإنها من لوازم الجسم .

« **منفي عنه هذه الاشياء** » : أي المادة بلوازمها ، وكما فصلنا القـــول في : أن ما سوى الله يُعتبر بذواتها وصفاتها : صفات سلبية له تعالى ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

•

ومن برهان له (ع) من الآفاق

«ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ـ ولكنّ القلوب عليلة ـ والابصار مدخولة ـ

أفلا ينظرون إلى صغير ما خلق ؟ كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر .

انظروا الى النملة :

أُنظروا إلى النملة وصِغَر جثتها ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنال بلحظ البصر ، وبمستدرَك الفِكر ـ كيف دبّت على أرضها ـ وصنت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها في مستقرها ، تجمع في حرّها لبردها ، وفي ورودها لصدورها ، مكفولٌ برزقها ، مرزوقة بوَفقها ـ لا يغفلها المنّان ، ولا يحرمها الديّان ، ولو في الصفا اليابس ، والحجر الجامس .

لو فكّرت في مجاري أكلها ، وفي علوّها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها (أطراف الاضلاع المشرفة على البطـــن) ، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر .

ولو ضربت في مذاهب فكرك تبلغ غاياته ، ما دلتك الدلالة إلاّ على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كل شيء ، وغامض إختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف ، والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف : في خلقة إلاّ سواء .

كذلك السماء والهواء والريح والماء: فانظر الى الشمس ، والنبات والشجر، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجُّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرُّق هذه اللغات والألسن المختلفات .

فالويل لمن أنكر المقدّر وجهد المدبّر ، زعموا أنهم كالنبات ، ما لهم من زارع ولا لاختلاف صوَرهم صانع ، لم يلجأوا الى حجة فيما ادعوا ولا تحقيق لما وعوا .

وهل يكون بناءٌ من غير بان او جناية من غير جان ؟.

انظروا الى الجرادة :

وان شئت قلت في الجرادة ، اذ خلق لها عينين حمراوين ، وأسرج لها حدقتين قمراوين - وجعل لها السمع الخفي ، وفتح لها الفم السويّ ، وجعل لها الحسّ القويّ ، ونابين بهما تقرض ، ومنجلين بهما تقبض ، ترهبها الزرّاع في زرعهم ولا يستطيعون َذبّها ولو اجلبوا بجمعهم ، حتى ترد الحرث في َنزَواتها ، وتقضي منه شهواتها ، وخلقُها كله لايكون أصبعاً مستدقة !..

فتبارك الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، ويعفّر له خدّاً ووجهاً ، ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ،ويعطي له القياد رهبة وخوفاً:

فالطير مسخره لأمره ، أحصى عدد الريش منها والنفس ، وأرسى قوائمها على الندى واليَبس ، قدّر أقواتها ، وأحصى أجناسها .

فهذا ُغراب وهذا ُعقاب ، وهذا حمامٌ ، وهذا نعام ، دعى كلّ طائر باسمه وكفّل له برزقه ، وانشأ السحاب الثقال فأهطل ديمها [1] وعدّد قسمها ، فبلّ الأرض بعد جفوفها ، وأخرج نبتها بعد جدوبها [2] .

---

١ - انزل متفرقة

٢ - البحار ، الطبعة الحديثة ج ٣ ص ٢٦ ح ١

٣ ـ يُسئل عليه السلام عن اثبات الصانع، فيقول: «البعرة تدل على البعير والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكلٌ علويٌ بهـــذه اللطافة، ومركز سفليٌ بهذه الكثافة، كيف لا يدلان على اللطيف الخبير»[1].

.. تمثيله عليه السلام بالبعرة والروثة وآثار القدم، لفرض إثبات الأولوية في الإستدلال، أن كيف تدل هذه الآثار التافهة الساقطة على مؤثرها، ولايدل هذا الكون البارع على صانعه.

٤ ـ وسُئل عليه السلام: ما الدليل على اثبات الصانع؟ قال: ثلاثة أشياء: تحويل الحال وضعف الأركان ونقض الهمة[2].

بيان: هذه الأمور الثلاثة مما لا حيلة فيها للإنسان ولا حول ولا قوة، إذاً فهي من غيره، وكما يستدل الإمام بفسخ العزم حين يُسئل: «بم عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزم ونقض الهمم، لما أن هممت حال بيني وبين هميّ، وعزمت فخالف القضاءُ عزمي، فعلمت أن المدبّر غيري..»[3].

ومن حوار له عليه السلام في سرمديته تعالى ـ مع الحبر اليهودي:

الحبر: يا أمير المؤمنين متى كان ربك؟.

امير المؤمنين عليه السلام: .. ومتى لم يكن حتى يقال: متى كان؟. كان ربي قبلَ القبل بلا قبلٍ، ويكون بعدَ البَعد بلا بَعدٍ ـ ولا غايةٍ ـ ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنه فهو منتهى كل غاية[4].

بيان: «قبل القبـل» أي قبل أسبق الزمان «بلا قبل»: دون أن يسبقه

---

١ ـ البحار، الطبعة الحديثة ج ٣ ص ٥٥ ح ٢٧.

٢ ـ البحار، الطبعة الحديثة ج ٣ ص ٥٥ ح ٢٩.

٣ ـ البحار ج ٣ ص ٤٢ ح ١٧.

٤ ـ البحار ج ٣ ص ٢٨٢ عن ابي عبد الله (ع) عنه (ع).

زمان وسواه ، ويكون بعد البعد : بعد انتهاء الزمان بما فيه ، وليس له بَعدٌ زمانيٌ ـ ولا سواه ـ فهو قبل الزمان وبعده ، ولا يشمله الزمان إذ إن المجرد اللاّ متناهي لا يعتوره الزمان .

ومن حوارٍ له عليه السلام آخر في سرمديته تعالى مع يهودي اخر :

اليهودي : يا أمير المؤمنين ! متى كان ربنا ؟ .

امير المؤمنين عليه السلام : إنما يقال : متى كان ؟ . لشيءٍ لم يكن فكان ، وربّنا هو كائن بلا كينونة كائن ، كان بلا كيفٍ يكون ، كان لم يزل بلا لم يزل وبلا كيفٍ ـ يكون تبارك وتعالى : ليس له قبل ، هو قبلَ القبل بلا قبلٍ وبلا غايةٍ ولا منتهى غاية ولا غاية إليها غاية ، إنقطعت الغايات عنه فهو غاية كل غاية [1] .

بيان : « بلا كينونة كائن » أي : كان إذ لا كان ، ولا كائن يقال : إنه كان .

« بلا لم يزل » أي : بلا زمان أزلي قد يدعيّ ، ولا موجود أزلي آخر معه يشاركه في أزليته ؛ إذ إن العقل يُحيل التعدد في الأزلي كما اسلفناه .

« وبلا كيف » كيفٍ وتحوّل حالٍ يعمّ كلّ زماني حادث .

ومن حجاج له عليه السلام في نفي الاين والكيف والماهية عنه تعالى:

قال له رجل : اين المعبود ؟ .

قال عليه السلام : لا يقال له : اين؟ لانّه ايّن الأينيّة ، ولايقال له: كيف؟ لأنه كيّف الكيفية ، ولا يقال له : ما هو ؟ لأنه خلق الماهيّة ـ

سبحانه من عظيمٍ تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته ، وحصرت الألباب

---

١ ـ البحار ، ج ٣ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

عند ذكر أزليته ، وتحيّرت العقول في أفلاك ملكوته [1].

بيان : الماهية المنفية هنا عنه تعالى هي الحد للمحدود ، لا الحقيقة والانيّة والحق ماهيته إنيّته ، وقد اثبت الإمام عليه السلام له تعالى الماهية في بعض الروايات بالمعنى الثاني .

---

١ ـ البحار ، ج ٣ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

الامام الرضا عليه السلام في حوار

ومن حوار للامام ابي الحسن الرضا عليه السلام [1] :

مع زنديق يدخل عليه وعنده جماعة : فيخاطبه مبتدءً :

الامام عليه السلام : أرأيت إن كان القول قولكم ـ وليس هو كما تقولون ـ ألسنا وإياكم شرعاً سواء ؟ ولا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكّينا وأقررنا ، فسكت الزنديق .

الامام عليه السلام : إن يكن القول قولنا ـ وهو كما نقول ـ ألستم قد هلكتم ونجونا ؟ .

الزنديق : رحمك الله فأوجدني كيف هو ؟ واين هو ؟ .

الامام عليه السلام : ويلك ! إن الذي ذهبتَ إليه غلطٌ ، هو أيّن الاين [2] وكان ولا اين ـ وهو كيّف الكيف وكان ولا كيف ، فلا يُعرف بكيفوفةٍ ، ولا بأينونةٍ ، ولا بحاسة ولا يُقاس بشيءٍ .

الزنديق : فإذن إنه لا شيء ، إذا لم يُدرك بحاسة من الحواس ! .

الامام عليه السلام : ويلك ! لما عجزت حواسُك عن إدراكه أنكرت ربوبيته اونحن

---

١ ـ هو ثامن خلفاء الرسول الاعظم ، المعصومين عليهم السلام وقد كانت له محاورات كثيرة مرغمة مع مختلف علماء الأديان في اجتماعات وفيرة عالية ، وهو عليه السلام بمفرده كان يتغلب عليهم بحججه الدامغة البالغة ، انتظروا محاوراته التوحيدية مع العلماء .

٢ ـ فلو كان له اين لزم حدوثه لحدوث الاين ، أو قدم الأين رغم حدوثه لقدمه تعالى .

إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنّا أنه ربّنا ، وأنه شيءٌ بخلاف الأشياء[1]

الزنديق : فأخبرني متى كان ؟ .

الامام عليه السلام : أخبرني متى لم يكن فأُخبرك متى كان .

الزنديق : فما الدليل عليه ؟

الامام عليه السلام : إني لما نظرت الى جسدي فلم يمكنني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ، ورفع المكاره عنه ـ وجرّ المنفعة إليه ـ علمت : ان لهذا البنيان بانياً فأقررت به ، مع ما ارى من دَوَران الفَلَك بقدرته ـ وإنشاء السحاب ـ وتصريف الرياح ، ومَجرى الشمس والقمر والنجوم ، وغير ذلك من الآيات العجيبات ، علمت : ان لهذا مقدراً ومُنشأً .

لم احتجب الله ؟

الزنديق : فلِمَ احتجب ؟ (أي عن المعرفة ـ لا الرؤية ـ لأنه عليه السلام يقرُّ الحجاب المسئول عنه ولا ينفيه في الجواب).

الامام عليه السلام : إن الحجاب على الخلق لكثرة ذنوبهم (ان الخلق محجوبون عن معرفته لكثرة ذنوبهم وهو غير محجوب عنهم لغاية علمه). فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل (أي : حجاب الخلق عنه ، فإنه لا تخفى عليه خافية).

الزنديق : فلِمَ لا تُدركه حاسة البصر ؟ (لكي يشترك في معرفته المذنب والمطيع فلا ينكره المذنبون) .

الامام عليه السلام : للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الابصار : منهم ومن غيرهم ، ثم هو اجلّ من ان يُدركه بصرٌ ، او يُحيط به وهمٌ ، او يَضبطه عقلٌ

---

١ ـ فان المدرك بالحاسة محسوس والمحسوس مادي وهو حادث، فلو كان محسوساً كان لاشيء أدل على حدوثه من كونه محسوساً ، فعدم محسوسيته يخرجه عن الحدث ـ وخروجه عن الحدث ألوهيته ، ولقد سبق البحث العقلي تحت عنوان مشكلة التجرد راجع (ص ١٠٨) .

(يريد عليه السلام ان إدراكه بالحاسة مستحيل لاستلزامه كون المدرَك محسوساً ومادة ، فحادثاً) .

الزنديق : فحدّه لي .

الامام عليه السلام : لا حدّ له .

الزنديق : ولِمَ ؟

الامام عليه السلام : لأنّ كلّ محدود متناهٍ الى حدّ ، وإذا إحتمل (قَبِلَ) التحديد ، إحتمل الزيادة وإذا احتمل الزيادة إحتمل النقصان ، فهو غير محدود ولا متزائد ولا متناقص ولا متجزيءٌ ولا متوهم.. (إحتمال الزيادة مستلزم لعدم اللا نهاية في ذاته تعالى فهو إذاً يحتمل النقصان كما احتمل الزيادة لأنه غير أزلي ـ فقير ـ فلا يملك ذاته .

فما برح الزنديق حتى أسلم [1] .

---

١ ـ البحار ، ج ٣ ص ٣٦ ح ١١ .

الامام الصادق (ع) في محاورات

محاورات للامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مع الزنادقة :

فمن حوار له عليه السلام مع ابن أبي العوجا حين إلتقيا بالمسجد الحرام :

ابن أبي العوجا : الى كم تدوسون هذا البيدر ، وتلوذون بهذا الحجر ، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدَرَ ، وتُهرولون حوله هَروَلة البعير إذا نفرَ ؟ مَن فكّر في هذا وقدّر ، علم أنّه فعلُ غيرِ حكيم ولا ذي نظر ، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسّه ونظامه .

الامام عليه السلام : إنّ من أضلّه الله وأعمى قلبه ، استوخم الحــق ولم يستعذبه ، وصار الشيطان وليّه وربّه ، ويورده موارد الهلكة ولا يُصدره .

وهذا بيتٌ استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه ، فحثّهم على تعظيمه وزيارته ، وجعله قبلة للمصلين له ـ فهو شعبةٌ من رضوانه ـ وطريق يؤدي إلى غفرانه ـ منصوبٌ على إستواءِ الكمال ـ ومجمع العظمة والجلال ، خلقه الله تعالى قبل دحو الأرض بألفي عام ، فأحقّ مَن أطيعَ فيما أمرَ ، وانتهى عما زجر : الله المنشيء للأرواح والصور .

ابن أبي العوجا : ذكرت فأحلت على غائب ! .

الامام عليه السلام : كيف يكون ـ يا ويلك ـ غائباً : من هو مع خلقه شاهد ، وإليهم أقرب من حبل الوريد ، يسمع كلامهم ويعلم أسرارهم ـ لا يخلو منه مكان ، ولا يشغل به مكان ، ولا يكون من مكان أقرب من مكان ، يشهد

له بذلك آثاره ـ ويدل عليه أفعاله ـ والذي بعثه بالآيات المحكمة ، والبراهين الواضحة : محمد ﷺ ، جاءنا بهذه العبادة ، فإن شككت في شيءٍ من أمره فسَل عنه أوضحه لك .

ابن أبي العوجاء : أبلس ولم يدرِ ما يقول ، وانصرف من بين يديه عليه السلام ، فقال لأصحابه : سألتكم أن تلتمسوا لي جمرة فالقيتموني على جمرة[1] .

●

---

١ ـ البحار ج ١٠ ص ٢١٠

ومن حوار له عليه السلام مع الزنديق

الزنديق : كيف يَعبد الله الخلقُ ولم يَروه ؟

الامام عليه السلام : رأته القلوب بنور الايمان، واثبتته العقول بيقظها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها، والكتب ومحكاتها ، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته ، (لا اقتصاراً يمكن التجاوز عنه إلى الإبصار بالأبصار ، بل اكتفاءً بذلك عما يستحيل دون أن يقصر عنه لولا الاستحالة) .

الزنديق : أليس هو قادراً أن يَظهَر لهم حتى يروه ويعرفوه، فيُعبد على يقين؟

الامام عليه السلام : ليس للمحال جواب (إلا إنه محالٌ لا تتعلق به القدرة) .

... الزنديق : من أي شيء خلق الاشياء ؟

الامام عليه السلام : لا من شيء .

الزنديق : فكيف يجيء من لا شيء شيءٌ ؟

الامام عليه السلام : إن الاشياء لا تخلو ان تكون خُلِقَت من شيء أو من غير شيء ، فإن كانت خُلقت من شيء كان معه (مع الله ازلياً) فـــإن ذلك الشيء قديم لا يكون حديثاً، ولا يفنى ولا يتغير. ولا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً ، فمن اين جاءت هذه الالوان المختلفة والجواهـــر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى؟ ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الاشياء حياً ؟ أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً ؟ ولا يجوز ان يكون من حي وميت قد يبين لم يزالا، لان الحي لا يجيءُ منه ميّت،

وهو لم يزل حياً ، ولا يجوز ايضاً ان يكون الميت قديماً لم يزل بما هو به الموت ، لان الميت لا قدرة له ولا بقاء » .

بداية الخلقة : من شيء او من لا شيء او لا من شيء ؟

كأن الزنديق لم يفتهم أو لم يرد أن يفهم المعنى من قوله عليه السلام «ان الله خلق الاشياء لا من شيء» حيث اعترض: «كيف يجيء من لا شيء شيءٌ» والامام بدل أن يكرر قوله : «لا من شيء» كما بدء، اخذ في البرهنة على الخلق لامن شيء : أن الاشياء أما أنها مخلوقة في البدء من شيء، أو لامن شيء، فرضين معقولين ، دون ان يعتبر خلقها من: لاشيء ولو احتمالاً، ثم زيّف إحتمال خلقها من شيء ـ بأن هذا الشيء المخلوق منه الاشياء لا بد أن يكون مع الله أزلياً ، إذ إن حدوثه ، مهما كان ، إنتقالٌ إلى الفرض الاول : أن الاشياء خلقت لا من شيء ، ثم الازلي لا يفنى ولا يتغير .

وهذا الشيء على فرض أنه كان جوهراً ولوناً واحداً ، يستحيل ان يتبدل إلى ألوان مختلفة ، إذ إن التغير والتبدل من صفات الحادث ، المستحيلة على الازلي .

ثم ان كان هذا الجوهر الاول حياً فكيف جاء منه الموت ؟ أو كان ميتاً ، كيف يجيء منه الحي ؟ مع أن الميت لا يمكن أن يكون ازلياً ، إذ إن الازلية غنى مطلقة دون أي نقص وحالة منتظرة .

فهذه البرهنة سنادها في حدوث العالم إنما هو التغير المحسوس فيه ، ظاهرة بيّنة تدلنا على الحدوث ، دون مراء ، كما اسلفناه في قول فصل .

الزنديق : فمن أين قالوا : إن الاشياء أزلية ؟

الامام عليه السلام: هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الاشياء فكذّبوا الرسل ومقالتهم ، والأنبياء وما أنبؤوا عنه ، وسموا كتبهم أساطير الاولين ، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم وإستحسانهم .

(الحركة والتغير والزمان من براهين الحدوث) :

إن الاشياء تدل على حدوثها : من دوران الفلك بما فيه ، وهي سبعة أفلاك ، وتحرك الارض ومَن عليها ، وانقلاب الازمنة واختلاف الوقت ، والحوادث التي تحدث في العالم من زيادة ونقصان وموت وبلى ، واضطرار النفس إلى الإقرار بأن لها صانعاً ومدبراً ، أما ترى الحلو يصير حامضاً ، والعذب مُرّاً ، والجديد بالياً ، وكلٌّ إلى تغير وفناء ؟ (هذا استدلالٌ بالحركة والتغير والزمان في المادة مع حدثها وكما مضى البحث عنها) .

الزنديق : فلم يزل صانع العالم عالماً بالأحداث التي أحدثها قبل أن يحدثها ؟

الامام عليه السلام : لم يزل يعلم فخلق ما علم .

الزنديق : أمختلف هو أم مؤتلف ؟

الامام عليه السلام : لا يليق به الاختلاف ولا الإئتلاف ، إنما يختلف المتجزّىء ويأتلف المتبعّض ، فلا يقال له : مؤتلف ولا مختلف .

الزنديق : فكيف هو الله الواحد ؟

الامام عليه السلام : واحد في ذاته ، فلا واحد كواحد ، لأن ما سواه من الواحد متجزّىءٌ ، وهو تبارك وتعالى واحدٌ لامتجزيء ولا يقع عليه العدُّ (أي : أن وحدته لا تنقلب ، ومحالٌ أن تنقلب ، إلى التعدد والكثرة ، كما أنها ليست بعد الكثرة ، وهذا معنى قولهم عليهم السلام : واحد لا بعدد ، لا عن عـــدد ، لا بتأويل عدد) ... [1] .

---

١ ـ البحار ج ٩ ص ٦٤ و ١٦٦ وهذا الحوار يضم الكثير من المسائل الهامة وانما نقلنا هنا ما يناسب موضوع الحوار .

ومن حوار له (ع) مع ابن ابي العوجاء

يدخل عليه عليه السلام ابن المقفع وابن ابي العوجاء في المسجد الحرام ، يقصد ابن العوجاء ليستخبره ، فابتدأ الامام عليه السلام قائلاً :

« ان يكن الامر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون (أهل الطواف) فقد سلموا وعطبتم ، وان يكن الامر كما تقولون ، وليس كما تقولون ، فقد استويتم وهم !

ابن ابي العوجاء : وأيّ شيء يقولون ؟ ما قولي وقولهم إلا واحداً .

الامام عليه السلام : كيف يكون قولك وقولهم واحداً ! وهم يقولون : إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ، ويدينون بأن للسماء إلهاً وانها عمران ، وانتم تزعمون ان السماء خراب ، ليس فيها أحد !

ابن ابي العوجاء: ما منعه إن كان الامر كما تقول، ان يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لايختلف منهم إثنان ، ولما احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان اقرب إلى الإيمان به !

الامام عليه السلام : ويلك وكيف احتجب عنك من اراك قدرته في نفسك!؟:

نشوك ولم تكن ، وكبرك بعد صغرك ، وقوتك بعد ضعفك ، وضعفك بعد قوتك ، وسقمك بعد صحتك ، وصحتك بعد سقمك ، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك ، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبك بعد بغضك ، وبغضك بعد حبك ، وعزمك بعد أبائك ، وأباءك بعد عزمك ، وشهوتك بعد كرهتك ، وكرهتك بعد شهوتك و ... مازال يعدّ

عليّ قدرته التي في نفسي ، التي لا أدفعهـــا ، حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه »[1] .

حاصل استدلاله عليه‌السلام انه تعالى وان لم يظهر بذاته ـ ومحال أن يظهر ـ ولكنه ظاهر بآياته ومنها آثار قدرته في كل نفس ، حيث نرى انفسنا مقهورة لها ، لا لنا ، فهي من غيرنا وهو الله تعالى .

●

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٤٣.

ومن حوار له (ع) مع الزنديق

الزنديق : ما الدليل على حَدَثَ العالم ؟

الامام عليه السلام : وجود الأفاعيل التي دلّت على أن صانعها صنعها (حيث الأفاعيل حادثة مختلفة منسجمة منظمة ـ فالفعل يدل على الفاعل ـ وإختلافه على نظمه يدل على علمه وحكمته ووحدته ، وسواءٌ في دلالة الفعل على حدوثه ، أكان الفاعل نفس المادة أو سواها ، إذ إن عروض الفعل والتغير للمادة أصدق شاهد على حدوثها لأن التغير صفة الحادث وهي لاتعرض الأزلي إطلاقاً ، فالفعل مهما كان،يدل على أنه حادث دون مرآء ، كما فصلناه سابقاً) .

ألا ترى انك إذا نظرت الى بناءٍ مشيدٌ مبني علمت أنّ له بانياً ، وان كنت لم تر الباني ولم تشاهده ؟

الزنديق : ما هو ؟ (سؤالٌ عن ماهيته تعالى، والحق ماهيته انيته الالهية)

الامام عليه السلام : هو شيءٌ بخلاف الأشياء ، أرجع بقـــولي : شيءٌ ، الى إثباته ، وأنه شيءٌ بحقيقة الشيئية ، (فمن مَجازٍ لا يملك من الوجود إلاّ تعلقاً بالحقيقة) غير أنه [1] لاجسم ولا صورة ولا يُحسّ ولا يُدرك بالحواسّ الخمس ـ لا تدركه الأوهام ـ ولا تنقصه الدهور ولا يغيّره الزمان .

الزنديق : فإنا لم نجد موهوماً إلاّ مخلوقاً [2]

---

١ ـ تفسير لقوله عليه السلام بخلاف الأشياء .

٢ ـ يريد السائل انك إذا وجدت ربك فقد توهمته، وكل متوهم مخلوق ، لما أنه صورة ═

الامام عليه السلام : لو كان ذلك كما تقول لكان التوحيد منا مرتفعاً ، فإنا لم نكلّف ان نعتقد غير موهوم (وهماً بمعني العلم ان هناك وجــوداً أزليّاً دون إحاطة به لا بمعني التصور العقلي والإشارة المحيطة به تعالى) .

لكنا نقول : كلُ موهوم ٍ بالحواس مدرك ٍ بها ، تحـدّه الحواس ممثلاً ، فهو مخلوق ـ ولا بدّ من إثبات صانع الأشياء خارجاً من الجهتين المذمومتين :

إحداهما النفي ، إذ كان النفي هو الابطال والعدم .

والجهة الثانية التشبيه بصفة المخلوق ، الظاهر التركيب والتأليف .

فلم يكن بدٌ من إثبات الصانع ـ لوجود المصنوعين ـ والإضطرار منهم إليه: إنهم مصنوعون ، وأن صانعهم غيرهم ، وليس مثلهم ، إذ كان مثلهمُ شبيهاً بهم في ظاهرة التركيب والتأليف ، وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد ان لم يكونوا ، وتنقّلهم من صِغَرٍ الى كبَرٍ ـ وسواد إلى بياض ـ وقوة الى ضعف ، وأحوالٍ موجودة لا حاجة بنا إلى تفسيرها ، لثباتها ووجودها .

الزنديق : فأنت قد حدّدته إذ أثبتت وجوده ! .

الامام عليه السلام : لم أحـدّده ولكن أثبته ، إذ لم يكن بين الإثبات والنفي مـــنزلة [1] .

= ذهنية عن الحقيقية الخارجية ، والصورة الذهنية مهما كانت إنما هي مخلوقة النفس فليكن ذو الصورة أيضاً محدوداً مخلوقاً وان لعين النفس ـ

ويجيبه الامام عليه السلام بأن الوهم على قسمين : ١ ـ وهم على سبيل الاحاطة بالموهوم ، فهذا منفي عنه تعالى ٢ ـ ووهم بمعني مجرد أنه نعلم أن هناك وجوداً دون أن نتصور منه أمراً ايجابياً حتى يستلزم الاحاطة ، بل انا نعلم انه موجود ـ اي ليس بمعدوم ـ دون ان ندرك من وجوده شيئاً إلا نفي العدم .

١ ـ فإما انه تعالى ثابت الوجود ، او منفي الوجود ، وليس بعد النفي ، الذي هو انكار الخالق ، إلا إثباته ، وليس إثباته : كما يناسب وساحة قدسه ، تحديداً له ، الا اذا كان اثباتاً مع التشبيه والتحديد ، وليس وجود الخالق يجنب وجود الخلق تحديداً لوجود الخالق؛ لتباين =

الزنديق : فله إنّيه ومائية ؟ [1]

الامام عليه‌السلام : نعم : لا يثبت الشيء إلاّ بإنية ومائية .

الزنديق : فله كيفية ؟

الامام عليه‌السلام : لا ـ لأن الكيفية جهة الصفة والإحاطة ، ولكن لابد من الخروج من جهة التعطيل والتشبيه ، لأن من نفاه أنكره ودفع ربوبيته وأبطله ، ومن شبهه بغيره فقد أثبته بصفة المخلوقين المصنوعين الذين لا يستحقون الربوبية ولكن لابدّ من إثبات ذات بلا كيفية ، لا يستحقها (الذات) غيره ـ لا يشارك فيها ، ولا يُحاط بها ، ولا يعلمها غيره .

أقول وصدر الحوار حسب نقل البحار ـ ج ١٠ ـ ص١٩٧ ـ ١٩٨ هكذا :

الزنديق : ما الدليل عليه ؟

= الوجودين تباين التناقض ، وإنما التحديد فيما إذا اشترك في حقيقة الوجود مع خلقه ، فإذ ذاك يصبح وجود الخلق تحديداً لوجوده تعالى ،ولكن وجوده يباين وجود سواه، فليس وجود الخلق بجنبه تحديداً لوجوده تعالى ، كما أن وجوده أيضاً ليس تحديداً لوجود خلقه ، وإنما الخلق هم المحدودون في ذواتهم قضية الخلق والحدوث .

١ ـ يعني بالانية أصل الوجود وبالمائية حده ،وحد الوجود على ضربين ١ ـ حد بمعنى الكيفية المايزة عما يشاركه في الحقيقة ٢ ـ حد بمعنى مطلق الميز عما لا يشاركه بنفي المشارك عنه ، والامام عليه السلام يثبت لله تعالى المائية مضافة الي الوجود لابالمعنى الأول إذ لايشاركه شيء حتى يحد بما يميزه عن المشارك ، وإنما يعنيها بالمعنى الثاني ، ويفسره بعدم الكيفية التي هي جهة الصفة والاحاطة ، لأنه ذات بسيطة غير متناهية الحقيقة ، وأن حده ومائيته أنه لايشبه خلقه إطلاقاً ، ولما كان الخلق محدوداً : «حده ومائيته غير وجوده» كان سلب ما للخلق ذاتاً وصفاتاً ،عن ذاته وصفاته تعالى ، كان ذلك سلباً للحد عنه تعالى، وهذا السلب هو حده! ومائيته تعالى ـ ولكن مائية الخلق ليست إلا الحدوث والمحدودية ، فإنها مهما كانت ، تعني سلب الأزلية والالهية واللانهاية عن الخلق ، وتعني المشاركة مع أمثاله ـ

إذاً فمائية الحق والخلق ليست إلا على نحو المعاكسة والمباينة ، لأنه خلو من خلقه وخلقه خلو منه ، والحق ماهيته إنيته إذ مقتضى العروض معلوليته ،

الامام عليه السلام : وجود الأفاعيل التي دلت على أن صانعاً صنعها ...

الزنديق : فنقول : انه سميع بصير

الامام عليه السلام : هو سميع بصير ، سميع بغير جارحة ، وبصير بغير آلة ، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه ، ليس قولي : إنه يسمع بنفسه ويبصر بنفسه : أنه شيءٌ والنفس شيءٌ آخر ، ولكن أردت عبارةً عن نفسي إذ كنتُ مسئولاً ، وإفهاماً لك إذ كنتَ سائلاً ـ وأقول : يسمع بكلّه ، لا أن الكل منه له بعضٌ ولكني أردت افهامك والتعبير عن نفسي ، وليس مرجعي في ذلك إلاّ الى أنه السميع البصير العالم الخبير ، بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى [1] .

الزنديق : فما هو ؟

الامام عليه السلام : هو الرب ، وهو المعبود ، وهو الله ، وليس قولي : الله ، إثبات هذه الحروف : ألف ، لام ، لاه ـ ولكني ارجع الى معنى : هو شيءٌ خالق الأشياء ـ وقعت عليه هذه الحروف ـ وهو المعني الذي يسمّى به الله والرحمٰن والرحيم والعزيز وأشباه ذلك من اسمائه ، وهو المعبود جلّ وعزّ .

الزنديق : فإنا لم نجد موهوماً (الى آخر ما سلف من ج ٣)

بيان : يثبت الامام عليه السلام أصل وجوده تعالى سناداً الى حَدَث الكون بما فيه من شتى آثار الحدوث ، وينفي إتصافه بصفات الكون ، حذراً من كونه كمثل الخلق حادثاً :

---

١ ـ لب هذا الكلام ان ذاته تعالى لا تختلف عن صفاته ولا ان صفاته تختلف فيما بينها أو تختلف عن الذات ، وانما الكل تعبير عن ذات واحدة بسيطة مجردة لا عروض فيها ولا تبعض لها ، وانما اسمائه وصفاته تعابير تعبر لنا عن ذاته تعالى كما نستطيع ان نعرفها ، وسوف يأتي في باب التوحيد الصفاتي استحالة كون الذات معروضة للصفات او كون الصفات مختلفة عن الذات ، بل ان الصفات الذاتية هي عين ذاته تعالى لا بتاويل عيلية المغاير ـ هذا وان كنا لا نفهم المعنى من هذه الوحدة المرموزة ـ رغم انها مما لابد منها في باب التوحيد .

« خارج عن الحدين : حدّ الابطال وحدّ التشبيه » .

ثم يذكر من آيات حدث الأجسام ظاهرة التغير والتركب ، وهما من الأصول القوية في براهين الحدوث ، يبنى عليهما الأصلان الآخران : ظاهرة الحركة والزمان ، وقد أسلفنا القول الفصل في ذلك إستيحاءً من امثال هذه البراهين الساطعة الصادرة من مصادر الوحي .

ومن حوار له (ع) مع ابن ابي العوجاء

يعود الى مجلس الامام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، بعد ما وُجِمَ بحجته ، فجلس وهو ساكت لا ينطق ، فقال عليه السلام كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه ؟ فقال : أردت ذلك يا بن رسول الله ! . فقال عليه السلام : ما أعجب هذا ! . تنكر الله وتشهد أني ابن رسول الله ! فقال : العادة تحملني على ذلك ، فقال له العالم عليه السلام : فما يمنعك من الكلام؟ قال : إجلالاً لك ومهابةً ، ماينطق لساني بين يديك ، فإني شاهدت العلماء ، وناظرت المتكلمين ، فما تداخلني هيبة قطُّ مثل ما تداخلني من هيبتك، قال : يكون ذلك ولكن أفتح عليك بسؤال وأقبل عليه فقال له :

الامام عليه السلام : أمصنوع انت أو غير مصنوع ؟

ابن أبي العوجاء : بل أنا غير مصنوع .

الامام عليه السلام : فصف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون ؟ .

ابن ابي العوجاء : بقي ملياً لا يُحير جــواباً ، وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول : طويلٌ عريضٌ عميــقٌ قصيرٌ متحــركٌ ساكنٌ ، كلُّ ذلك صفة خلقه .

الامام عليه السلام : فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها ، فاجعل نفسك مصنوعاً (اعتبرها كذلك) لما تجد في نفسك مما يحدث من هذه الأمور .

ابن ابي العوجاء : سألتني عن مسألة لم يسألني عنها احد قبلك ولا يسألني احد بعدك عن مثلها .

الامام عليه السلام : هبك علمت انك لم تُسأل فيما مضى ، فما علمك انك لا تُسأل فيما بعد ؟ على أنك نقضت قولك ، لانك تزعم : ان الأشياء من الأول سواء ـ (في الازلية ، فلا زمانَ لأنه حادث ـ فلا قبلَ ولا بعدَ لأنهما في الزمان) فكيف قدّمت واخرت ! ؟ .

ازيدك وضوحاً : ارأيت لو كان معك كيس فيه جواهر ، فقال لك قائل : هل في الكيس دينار ؟ فنفيت كون الدينار في الكيس . فقال لك قائل : صف لي الدينار ـ وكنت غير عالم بصفته ـ هل كان لك أن تنفي كون الدينار عن الكيس وانت لا تعلم ؟

ابن ابي العوجاء : لا

الامام عليه السلام : فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس ، فلعلّ في العالم صنعة من حيث لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة (١) .

فانقطع ابن أبي العوجاء واجاب الى الإسلام بعض اصحابه وبقي معه بعض فعاد في اليوم الثالث فقال :

ابن أبي العوجاء : اقلب السؤال ؟

---

١ ـ يعني بذلك انك لا تخلو من حالتين ـ ١ ـ اما انك تعلم صفة الصنعة وتجدها في نفسك، إذاً فاجعل نفسك مصنوعاً ـ ٢ ـ أو لا تعلمها فأنت إذاً في ريب تتردد : هل توجد في العالم صفة الصنعة أم لا ـ فليس لك أن تنفي عن العالم الصنعة والحدوث وتدعي له الأزلية .

فقلب ابن ابي العوجاء سؤاله قائلاً : ما الدليل على حدث الأجسام اذا كنا في ريب في صفة الصنعة عن غيرها .

فأجابه الامام عليه السلام بظاهرتي التركب والتغـير في المادة ، انهما من البراهين القاطعة على حدوثها ،

فيستدل بتوارد الحالات على المادة على حدوثها ، إذ إن الحالات المتـورة على شيء من أكبر البراهين على أن ذلك الشيء ليس أزلياً ، فان الأزلي لايعرضه صفة الحادث .

ثم أخيراً يستدل بإمكان تطور الحالات في المادة على استحالة أزلية المادة ، إذ إن الأزلي محال أن يعتوره مختلف الحالات ، استحالة اتصاف النقيض بنقيضه ، وكما فصلناه سابقاً .

الامام عليه السلام : إسأل عما شئت

الدليل على حدوث العالم :

ابن ابي العوجاء : ما الدليل على حدث الاجسام ؟

الامام عليه السلام : اني ما وجدت شيئا صغيراً ولا كبيراً إلا وإذا ضُم إليه مثله صار أكبر ، وفي ذلك زوالٌ وانتقال عن الحالة الاولى ـ ولو كان قديماً مازال ولا حال ـ لان الذي يزول ويحول ، يجوز ان يوجد ويبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحَدَث ،وفي كونه في الازل دخوله في القدم ،ولن تجتمع صفة الازل والحدوث ، والقدم والعدم في شيء واحد .

ابن ابي العوجاء : هبك علمت في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت واستدللت على حدوثها ، فلو بقيت الاشياء على صغرها من اين كان لك ان تستدل على حدثها ؟

الامام عليه السلام : إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر ، كان لا شيء ادل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره ، ولكن اجبتك من حيث قدّرت ان تلزمنا ونقول :

ان الاشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم : انه متى ما ضُمّ شيء الى مثله كان اكبر ، وفي جواز التغير عليه خروجه من القدم ، كما بان في تغييره دخوله في الحدث ، وليس لك ورائه شيء ، فانقطع وخزي [1] .

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٤٥ ـ ٤٧

ومن حوار له (ع) مع الزنديق

« ... الزنديق : أخبرني عمن زعم : أن الخلق لم يزل يتناسلون ويتوالدون، ويذهب قرن ويجيء قرن ، تفنيهم الأمراض والأعراض وصنوف الآفات، يخبرك الآخر عن الأول ، وينبئك الخلف عن السلف والقرون عن القرون: أنهم وجدوا الخلق على هذا الوصف ، بمنزلة الشجر والنبات ، في كل دهرٍ يخرج منه حكيمٌ عليم بمصلحة الناس ، بصيرٌ بتأليف الكلام، ويصنّف كتاباً قد حبّره بفطنته وحسّنه بحكمته ، قد جعله حاجزاً بين الناس ، يأمرهم بالخير ويحثّهم عليه ، وينهاهم عن السوء والفساد ، ويزجـــرهم عنه ، لئلا يتهاوشوا ولا يقتل بعضهم بعضاً .

الامام عليه السلام : ويحك ! إن من خرج من بطن أمه أمس ، ويرحل عن الدنيا غداً ، لا علم له بما كان قبله ولا ما يكون بعده !

ثم إنه لا يخلو الإنسان من أن يكون خلق نفسه ، أو خلقه غيره، أو لم يزل موجوداً ، « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ؟ » فما ليس بشيء لا يقدر على أن يخلق شيئاً وهو ليس بشيء ، وكذلك ما لم يكن فيكوّن شيئاً ـ يُسأل فلا يعلم : كيف كان ابتدائه؟

ولو كان الإنسان أزلياً ، لم تحدث فيه الحوادث ، لانّ الأزلي لا تغيّره الأيام ولا يأتي عليه الفناء (تقدم بحثه الفصل في الفرق بين الأزلي والحادث).

مع أنا لم نجد بناءً من غير بانٍ ، ولا أثراً من غـــير مؤثر ، ولا تأليفاً من غير مؤلف .

فمن زعم : أن أباه خلقه ، قيل : فمن خلق أباه ؟ ولو أن الأب هو الذي

خلق إبنه لخلـقه على شهوته ، وصوّره على محبته ، وللملك حياته ، ولجاز فيه حكمه .

مرض فلم ينفعه ، ومات فعجز عن ردّه ، إنّ من استطاع أن يخلق خلقاً وينفخ فيه روحاً حتى يمشي على رجليه سوياً ، يقدر ان يدفع عنه الفساد ... [1]

ومن حوار له عليه السلام : مع ابي شاكر الديصاني حين يدخل عليه عليه السلام :

الديصاني : دُلني على معبودي .

الامام عليه السلام : إجلس ... فإذا غلام صغير في كفه بيضة يلعب بها ، فقال عليه السلام ناولني يا غلام البيضة ، فناوله إياها ، فقال : يا ديصاني ! :

هذا حصن مكنونٌ له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق ، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة وفضّة ذائبة ، فلا الذهبة المايعة تختلط بالفضة الذائبة ، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المايعة ، فهي على حالها ، لم يخرج منها خارجٌ مصلح ، فيخبر عن إصلاحها ، ولم يدخل فيها داخل مفسدٌ فيخبر عن إفسادها ، لا يدري : للذكر خُلقت أم للانثى ؟ تنفلق عن مثل ألوان الطواويس :-

اترى لها مدبراً ؟

الديصاني : أطرق ملياً ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأنك امـــامٌ وحجة من الله على خلقه ، وأنا تائب مما كنت فيه » [2] .

هنا يكتفي الامام عليه السلام ببرهنة إستطرادية حاضرة : هي البيضة ، إشارة إلى توفّر الأدلة القاطعة من الكون على خالقه ، دون حاجة إلى تكلف زائد ، فالكون شرع سواء في الدلالة على خالقه ، وإنما الاختلاف في الشبكات

---

١ ـ البحار ج ١٠ ص ١٨٢ والحديث صدر وذيل طويل ننقلها حسب المناسبات .

٢ ـ البحار ٣ ص ٣١ .

ومن حوار له (ع) ـ ثان ـ مع ابي شاكر الديصاني :

« ابو شاكر : اتأذن لي في السؤال ؟

الامام عليه السلام : سل عما بدا لك .

ابو شاكر : ما الدليل على أن لك صانعاً ؟

الامام عليه السلام : وجدت نفسي لا تخلو من احدى جهتين ١ – إما ان اكون صنعتها أنا ، فلا اخلو من أحد معنيين : اما ان أكون صنعتها وكانت موجودة أو صنعتها وكانت معدومة ؟ فأن كنت صنعتها وكانت موجودة فقد استغنيت بوجودها عن صنعتها ، وان كانت معدومة فانك تعلم ان المعدوم لا يُحدث شيئاً، فقد ثبت المعنى الثالث : أن لي صانعاً وهو الله رب العالمين .

ابو شاكر : قام وما أجاب جواباً »[1] .

هذا البرهان مستوحىً من قوله تعالى: «ام خُلقوا منغير شيء أمهم الخالقون أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون »

ومن حوار له (ع) ـ ثالث ـ مع ابي شاكر الديصاني :

« ابو شاكر : يقف ذات يوم في مجلس الأمام عليه السلام فيقول له : إنك لأحد النجوم الزواهر ، وكان آباءك بدوراً بواهر ، وامهاتك عقيــلات عباهر ـ وعنصرك من اكرم العناصر ، وإذا ذُكر العلماء فعليك تثني الخناصر ، خبرنا أيها البحر الزاخر : ما الدليل على حدوث العالم ؟

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٥٠

الامام عليه السلام : من أقرب الدليل على ذلك ما أذكره لك : ثم دعى ببيضة ثم وضعها في راحته وقال : هذا حصنٌ ملموم داخـــله غرقي رقيق يطيف به كالفضة السائلة والذهبة المائعة ، أتشك في ذلك ؟ .

ابو شاكر : لا شك فيه .

الامام عليه السلام : ثم إنه تنفلق عن صورة كالطاووس،أدَخله شيء غير ما عرفت؟

ابو شاكر : لا

الامام عليه السلام : فهذا الدليل على حدوث العالم .

ابو شاكر : دللت يا أبا عبـــدالله ! فأوضحت ، وقلت فأحسنت وذكرت فأوجزت .

وقد علمت : أنا لا نقبل إلا ما أدركناه بأبصارنا ، أو سمعناه بآذاننا ، أو ذقناه بأفواهنا ، أو شممناه بآنافنا ، أو لمسناه ببشرتنا .

الامام عليه السلام : ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع في الاستنباط إلا بدليل (يعني : دليل العقل) كما لا تنقطع الظلمة بغير مصباح » [1] .

فانما الأصل المعتمد عليه في الادراكات هو العقل ومن أداة الإدراك الحسّ لا أنه اداته دون سواه كما فصلناه سابقاً .

ومن حوارٍ له (ع) مع ابن ابي العوجاء :

« ابن ابي العوجاء : اليس تزعم ان الله خالق كل شيء ؟

---

١ ـ البحار ج ١٠ ص ٢١١

الامام عليه السلام : بلى .

ابي العوجاء : أنا أخلق .

الامام عليه السلام : كيف تخلق ؟

ابي العوجاء : أحدث في الموضع ، ثم ألبث عنه فيصير دوابا ، فأكون أنا الذي خلقتها .

الامام عليه السلام : أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه ؟

ابي العوجاء : بلى .

الامام عليه السلام : فتعرف الذكر منها من الأنثى وتعرف كم عمرها ؟

فسكت ابن أبي العوجاء» [1] .

ومثله ما عن جعد بن درهم، انه جعل في قارورة ماءً وتراباً فاستحال دوداً وهُو اماً ، فقال لاصحابه : أنا خلقت ذلك لأني كنت سبب كونه ، فبلغ ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال : ليقل : كم هي ؟ وكم الذكران منه والاناث ان كان خلقه ؟ وكم وزن ُكل واحد منهن ! وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه ان يرجع إلى غيره ـ فانقطع وهرب » [2] .

أقول ومثلُهما كلُّ من يدعي مثلَهما: من جعل البيضة فرخاً في مكائن التفريخ؟ وأشباه ذلك ، فان ذلك من معدّات الخلق وليس خلقاً ، فانما ُمنبت الزرع وخالق الحيوان والإنسان هو الله تعالى شأنه .

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٥٠

٢ ـ البحار ج ١٠ ص ٢٠١ نقلاً عن كتاب الغرر للسيد المرتضى ره .

ومن حوار له (ع) مع الزنديق المصري : عبد الملك :

يقصد الامام عليه السلام ليناظره ، من مصر إلى المدينة إلى مكة ، فيصادفه في مكة حال الطواف ، فيضرب بكتف الامام عليه السلام ...

الامام عليه السلام : ما اسمك ؟

المصري : عبد الملك .

الامام عليه السلام : ما كنيتك ؟

المصري : أبو عبدالله .

الامام عليه السلام : فمن الملك الذي أنت له عبد ـ أمن ملوك السماء ، أم من ملوك الأرض ؟ وأخبرني عن إبنك ، أعبد إله السماء ام عبد إله الارض ؟

المصري : سكت :

الامام عليه السلام : قل ما شئت تخصم :

المصري : سكت .

الامام عليه السلام : اتعلم : انّ للأرض تحت وفوق ؟

المصري : نعم .

الامام عليه السلام : فدخلت تحتها .

المصري : لا .

الامام عليه السلام : فما يدريك بما تحتها ؟

المصري : لا ادري ، إلاّ اني اظن ان ليس تحتها شيء .

الامام عليه السلام : فالظن عجزٌ ما لم تستيقن ... فصعدت إلى السماء ؟

المصري : لا .

الامام عليه السلام : فتدري ما فيها ؟

المصري : لا .

الامام عليه السلام : فعجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ولم تنزل تحت الارض ، ولم تصعد إلى السماء ولم تجز هناك فتعرف ما خلفهن ، وأنت جاحدٌ ما فيهن ! وهل يجحد العاقل ما لا يعرف ؟ (حيث تجحد ربك بسناد أنك ما وجدته إبصاراً بعينك) .

المصري : ما كلمني بهذا أحدٌ غيرك .

الامام عليه السلام : فأنت في شك من ذلك : فلعلّ هو ، أو لعل ليس هو (لعل الله موجود أو لعله ليس بموجود) .

المصري : ولعلّ ذاك .

الامام عليه السلام : أيها الرجل ! ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، فلا حجة للجاهل ، يا أخا أهل مصر تفهّم عني ، فإنا لا نشك في الله أبداً :

أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ، ليس لهما مكان إلا مكانهما ، فإن كانا يقدران على أن يذهبا ولا يرجعان ، فلِمَ يرجعان ؟ وإن لم يكونا مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً ، إضطرا والله يا أخا أهل مصر إلى دوامها ، والذي إضطرهما أحكم منهما وأكبر منهما .

المصري : صدقت .

الامام عليه السلام . يا أخا أهل مصر ! الذي تذهبون إليه وتظنونه بالوهم ، فانكان الدهر يذهب بهم، لم لا يردهم ؟ وإن كان يردهم لم لا يذهب بهم ؟ ، القوم مضطرون، يا أخا أهل مصر ! ، السماء مرفوعة، والارض موضوعة لِمَ لاتسقط

السماء على الارض؟ ولم لا تنحدر فوق طباقها، فلايتماسكان ولا يتماسك من عليها؟

المصري : امسكها والله ربها وسيدها .

فآمن الزنديق على يدي ابي عبد الله عليه السلام فقال له حمران بن أعين : جعلت فداك ، إن آمنت الزنادقة على يديك ، فقد آمنت الكفار على يدي ابيك ، فقال المؤمن للامام عليه السلام : اجعلني من تلامذتك ، فقال عليه السلام لهشام بن الحكم: خذه إليك فعلّمه ، فعلّمه هشام، فكان معلم أهل مصر وأهل الشام وحسنت طهارته حتى رضي بها أبو عبد الله عليه السلام [1] .

بيان : يستدل ألامام عليه السلام بانضباط ونظام هذه الحركات على أنها ليست إرادية لهذه الاجرام ، وباختلافها على أنها غير طبيعية ، فهي بحاجة ضرورية إلى المنظم والفاعل ألإرادي غير المادي وهو الله تعالى شأنه :

هذا ـ بعد ما يقضي على صولة المحاور في جحده ، ويلجئه إلى التصديق : أنه شاك في مبـــدئه : « إنكار الخالق » فيوصله الامام عليه السلام من حـالة الشك والريبة إلى اليقين ، سناداً إلى إيات وجوده تعالى .

ومن حجاج له عليه السلام في سر مديته تعالى :

وقد سئل عن قوله عز وجل : « هو الاول والآخر » .

فقال عليه السلام : الأول لا عن أول قبله ولا عن بدء سبقه ، وآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفات المخلوقين ، ولكن قديمٌ اولٌ آخرٌ ، لم يزل ولا يزال ، بلا بدء ولا نهاية ، لا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال إلى حال ـ خـــالق كل شيء [2] .

بيان : يراد بالأولية : الأزلية ، حيث لا تجامع زماناً اول ، وبالآخـــرية

---

(١) البحار ج ٣ ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) البحار ج ٣ ص ٢٨٤

الأبدية حيث لا تجامع زماناً آخر ، لا ان له زماناً قبل كل شيء وبعد كل شيء، وحاشاه ان يضمنه زمان ! كيف وهو خالق الزمان بما فيه ؟ !

ومن حجاج له عليه السلام في إلٓهيته تعالى : بلسان الحمد

«الحمد لله الذي لا يُحس ولا يُجس ولا يُمس ولا يدرك بالحواس الخمس ، ولا يقع عليه الوهم ، ولا تصفه الألسن ، فكل شيء حسّته الحواس او جسّته الجواس ، او لمسته الأيدي فهو مخلوق ، والله هو العلي حيثما يُبتغى يوجد .

والحمد الله الذي كان قبل ان يكون « كان » ، لم يوجد لوصفه « كان » بل كان ازلاً كان كائناً ، لم يكوِّنه مكوّن ، جلّ ثنائه ، بل كـــوّن الأشياء قبل كونها ، فكانت كما كوّنها ، علم ما كان وما هو كائن ، كان إذ لم يكن شيء ، ولم ينطق فيه ناطق ، فكان إذ لا كان »[1] .

المهتدي : شكراً يا استاذ والف شكر ، متواصلاً ما طلعت الشمس وما غربت ، حيث طلّعت علينا شمس الهدى ، وذبّبت عنا ظلم الدجى ، فلله تعالى درُّك وعليه اجرك ! ...

هذا ، إلا ان الإلٓهيين ليسوا على مذهب واحد ، فان لهم مذاهب شتى :

الالٓهيون في مذاهب تسعة :

١ – فمن قائل بالهين اثنين : إلٓه الخير وإلٓه الشر ، إلٓه النور والٓه الظلمة .

٢ – ومن مائل الى تعدد آلهة الخير ـ منكر لالٓه وآلهة الشر .

٣ – ومن مثلّث له على وحدته: أنّ له تعالى اقانيم ثلاثة هم الاله الواحد ـ وواحدٌ هو الثلاثة .

٤ – ومن قائل بوحدة حقيقة الوجود وكثرة الموجود ـ كالفهلويين من

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٢٩٨

الفلاسفة ـ او وحدتها كبعض الصوفية ـ او الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة كجمع من العرفاء .

٥ – ومن موحد يجسّمه كالمجسّمة .

٦ – ومن منزّه له عن ذلك كله ـ قائل : ان صفاته زائدة على ذاته .

٧ – ومن مشرك له في الخلق ـ تنزيهاً له عن ذلك كله .

٨ – ومن مشرك له في العبودية على وحدته عما سلف .

٩ – ومن موحد له في ازليته وفي ذاته وصفاته وفي خالقيته ومعبوديته .

وانا حائر بين هذه المذاهب المختلفة ، على رغبتي وانجذابي عقلياً وفطرياً ، وعلى ضوء الدلالات السالفة : إلى التوحيد الخالص .

إلا انني ارجوك يا استاذ ان تحتفل حفلة حوار بهؤلاء في حجاج بالتي هي احسن كما كنت طيلة البحوث الماضية ولك الشكر .

الالهي : هذا ما كنا نبغ فاليك الحوار مع هـــؤلاء المختلفين من الإلهيين ، فالى كتاب التوحيد :

●

كتاب التوحيد

محاورات فلسفية بين الموحدين وسواهم

- مع الثنوية : غائلة الشر ، خلق الشيطان ، الجبر والاختيار
- مع سائر المشركين . آلهة الخير ، شبهات حول التوحيد والاجابة عنها .
- مع المثلثين ، إلى المعراج ...
- الى مهابط الوحي في خطب ومحاورات توحيدية .
- ختام فيه مسك ، الى سورة الاخلاص .

كلمة الفصل في التوحيد

قضاءٌ حاسم على الشرك بألوانه ـ على ضوء البحوث السالفة :

على المجسّمة : نستوحي مما سلف من إستحالة أزلية وألوهية المادة ـ مهما كانت وحيثما كانت ـ فالإله المجسّم زَعمَ المجسّمة ليس إلا مخلوقاً كسائر الخلق: لإله العالم .

وعلى الثنوية والمثلّثة ومَن إليهم : ممن يكثّر الإلّه ـ مهما كانت الكثرة ـ نستوحي من إستحالة التعدد في الأزلي قضية اللاّنهاية واللاّمحدودية ـ وإنما التعدد حصيلة الحدّ في المتعددين .

وعلى القائلين بوحدة حقيقة الوجود : أن ذاته تعالى وصفاته الحسنى ، تباين صفات وذوات المخلوقين في أصل الإنيّة والمائية ـ فهناك مباينة كلية بينه تعالى وبين خلقه ـ ذاتاً وصفاتاً ـ وجوداً وإنّيةً ، فحقيقته تختلف عن سائر الكون ، إختلاف الغنى المطلق عن الفقر المطلق ، فاين وحدة حقيقة الوجود ـ بينه وبين خلقه ـ وأين ؟ ! كما وأسلفنا في ذلك بحثاً وافياً فراجع .

وعلى القائلين بزيادة صفاته على ذاته : نستوحي من الحاجة المندغمة في ذات المركب ، وأنها آية الحدوث ـ إن كانت في المادة أو في سواها ـ

وعلى الشركة في الخلق : أن المخلوق ليس في مرتبة الخالق ـ ولا أن الخالق بحاجة الى المخلوق في خلقه .

وعلى الشركة في المعبودية : أن التسوية بين الخالق والمخلوق في العبودية ـ ولا سيما إذا نهي عنها ـ هذه ظلم وزور وضلال مبين وكما يعترف به المشركون بعد إذ دخلوا الجحيم : تالله إن كنا لفي ضــــلال مبين . إذ نسوّيكم بربكم العالمين ٢٦ ٩٨ .

فهذه كلمة الفصل باخصرها في التوحيد ـ ثم اليكم التفصيل التالي في حوار التوحيد .

براهين التوحيد

المشرك : [1] ما الدليل على أن الله واحد ؟

الموحد : قولك : إنه اثنان ، دليل على أنه واحد ، لانك لا تدعو الثاني إلا بعد اثباتك الواحد ، والواحد متفق عليه والثاني مختلف فيه [2] .

المشرك : القول : انه اثنان أو أكثر ـ يزيد على الاعتراف بأصل وجود إله في الكون ، يزيد عليه في دعوى أن له شريكاً أو شركاء ، فكيف تعتبره دليلاً على التوحيد ؟ !

الموحد : حيث البراهين القائمة على إثبات الصانع ، لا تثبت : إلا أن هناك إلهاً ، إنْ للموحد أو للمشرك ، ثم تبقى دعوى الزيادة على الواحـــد خالية عن البرهان ، فالقدر المسلم المشترك بين الموحّد والمشرك وحدة الإله ، ثم المشركون في ريب يترددون دون برهان لهم لما يدعون .

المشرك : الإعتناق بعقيدة التوحيد لا يكفيه الشك في الزيادة ، فإن نفي الزيادة أيضاً بحاجة إلى برهان كأصل وجود الصانع .

الموحد : فإلى هنا تعترفون ألاّ برهان لكم على ما تدّعون ، أإفكاً آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ !

---

١ ـ نقصد بالمشرك القائل بتعدد الاله او تركبه، ثنوياً كان أم ثالوثياً أم غيرهما ممن يعتبر الاله متعدداً أم مركباً .

٢ ـ التوحيد للصدوق نقلاً عن الامام الرضا عليه السلام .

براهين استحالة تعدد الاله : قوائم أربع لعرش التوحيد :

ثم إن لنا براهين ساطعة على إستحالة التعدد في الآلة ، من العقل ومن الفطرة ومن النقل والآيات الآفاقية ، أسس أربعة قوية يبنى عليها عرش التوحيد .

المشرك : كذلك لنا أيضاً براهين قوية على ما نرومه من تعدد الإله ضرورة أو إحتمالاً !

الثنوي [1] : كما ان أثار الخلق تدلنا على الخالق ، كذلك الخير والشر في ذوات وصفات وافعال الخلق ، هذان العسكران المتضادان المتنافران يدلاننا على ان هناك للكون مبدئين وخالقين ، إذ الضدان لا يأتيان من سبب وعلة واحدة ، إلا من اثنتين ليس إلا .

ثم ان في نسبة الشر الى من نعتبره إله الشر ذود عن كرامة إله الخير وحصر لافعاله في الخير .

فنحن نؤمن بإله الخير ونعبده لكي يدر علينا بخيره ، وشكراً له لما هبانا من فضله ورحمته ، ونعبد إله الشر تقية منه ، ليمسك عنا شره وضره .

الموحد : نقدم هنا أولاً ذكريات من الحوار بين القادة المعصومين والثنوية ، ثم نفصل البحث عن تزييف مقالتكم عقلياً :

١ - الثنوي قسمان ١ قائل بإله الشر والخير ٢ قائل بإلهي الخير .

الرسول الاعظم (ص) مع الثنوية

« الثنوية : النور والظلمة هما المدّبران .

الرسول الاعظم ﷺ : ما الذي دعاكم إلى ما قلتموه من هذا ؟

الثنوية : لأنا قد وجدنا العالم صنفين : خيراً وشراً ، ووجدنا الخير ضد الشر ، فأنكرنا أن يكون فاعلٌ واحد يفعل الشيء وضده ، بل لكل واحد منهما فاعل ، الا ترى : أن الثلج محالٌ أن يُسخّن ، كما أن النار محال ان تُبرد ، فأثبتنا لذلك صانعين قديمين : ظلمةً ونوراً .

الرسول الاعظم ﷺ : أفلستم قد وجدتم سواداً وبياضاً وحمرة وصفرة وخضرة وزرقة ، وكلُّ واحد ضدٌ لسائرها ، لاستحالة اجتماع اثنين منها في محلٍ واحد ، كما كان الحرّ والبرد ضدين لاستحالة اجتماعهما في محل واحد ؟

الثنوية : نعم .

الرسول الاعظم ﷺ : فهلا أثبتم بعدد كل لون صانعاً قديماً ليكون فاعل كل ضدّ من هذه الألوان غير فاعل الضد الآخر .

الثنوية : سكتوا .

الرسول الأعظم ﷺ : وكيف اختلط هذا النور والظلمة ؟ وهذا من طبعه الصعود وهذا من طبعه النزول : أرأيتم لو أن رجلاً أخذ شرقاً يمشي إليه والآخر غرباً يمشي إليه ، أكان يجوز أن يلتقيا ما داما سائرين على وجوههما ؟

الثنوية : لا .

الرسول الاعظم ﷺ : فوجب ان لا يختلط النور والظلمة ، لذهاب كل

واحد منهما في غير جهة الآخر ، فكيف حدث هـــذا العالم من امتزاج ما هو محال أن يمتزج ؟ بل هما مدبّران جميعاً مخلوقان

الثنوية : سننظر في أمورنا ... » [1]

بيان : ان الرسول الاعظم ﷺ هنا يبرهن على الثنوية كما يقتنعون به في حجاجهم فيأتي بدليل النقض ، وهنا تتمة لم يأت بها لعدم الحاجة إليها لهؤلاء ، وهي ما يلي :

ان اجتماع ضدين : فعلين لفاعل واحد ، هذا محظور في العلل الطبيعية غير الإرادية ، واما الإرادية ، ولا سيما في الإله الخالق مُبدء الارادة ومَبدئها ، فمثل هذه العلل تتأتى منها الأضداد تترى ، وكما نرى في انفسنا أفعالاً وآثاراً متضادة .

لا فحسب ،بل هناك علل طبيعية تؤثر آثاراً متضادةحسب مختلف الظروف ، فالقوة الكهربائية الحارة تعمل في الثوبة الكهربائية حرارة ، وفي الثلاجة والبرّادة برودة ، وفي المروحة حركة دوارة تبرد بتمويج الهواء ، وفي كل ظرف حسب معداته وشروطه .

فالآثار المتضادة في الكون ، بتناسقها وتلائمها وعدم تفاوتها ، هذه إنما تدل على إله واحد مختار حكيم ، لوحدة النظم الدالة على وحدة الناظم ، وإختلاف الافعال الدال على إرادة الفاعل .

ومع غض الطرف عن كل ذلك ، فليس هناك في الكون ضدان فحسب حتى يضطران إلى مبدئين فحسب ، بل ومآت الاضداد ، فليعتنق الثنوية بوجود مآت الالهة ، لكل لون واحدٌ من ألوان الخلق ، كما برهن بذلــــك الرسول الاعظم ﷺ برهاناً حاسماً قاطعاً يعيه كل الناس .

---

١ ـ البحار ج ٩ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

الإمام الصادق (ع) مع الثنوية

اقاويل الثنوية ، يستعرضها الامام الصادق (ع) مع تزييفها :

الديصانية :

... يسأل الزنديق الإمام الصادق عليه السلام عن قول من زعم: أن الله لم يزل معه طينة مؤذية ، فلم يستطع التفصي عنها إلاّ بامتزاجه بها ودخوله فيها ، فمن تلك الطينة خلق الأشياء !

فيقول الامام عليه السلام : سبحان الله وتعالى ، ماأعجز الهاً يوصف بالقدرة، لا يستطيع التفصي من الطينة !

إن كانت الطينة حيّة أزلية فكانا إلهين قديمين فامتزجا ودبرا العالم من أنفسهما، فإن كان كذلك فمن أين جاء الموت والفناء [1] وان كانت الطينة ميتة فلا بقاء للميت مع الأزلي القديم ، والميت لا يجيء منه حيّ [2] .

هذه مقالة الديصاني أشد الزنادقة قولاً ، وأمهلهم مثلاً ، نظروا في كتب قد صنفها أوائلهم ، وحبر وها لهم بألفاظ مزخرفة ، من غير أصل ثابت ، ولا حجة توجب إثبات ما ادّعوا ، كلّ ذلك خلافاً على الله وعلى رسله ، وتكذيباً بما جائوا به من الله .

---

١ ـ حاصل الاشكال: ان الله تعالى خلق الاشياء من ذاته المركبة مع الطينة ، وجوابه: أن الازلية تستلزم عدم تبدل الازلي إلى سواه والى الفناء ، ونحن نرى ما يموت ويفنى ، اذاً فهما ليسا من الذات الازلية ، ولا من الطينة المزعوم ازليتها كالذات الخليطة بها .

٢ ـ وعلى فرض ان الطينة ميتة فأين الازلية للميت ؟ وكيف يجيء منه حي ؟ حال أن الازلية تستلزم البقاء وعدم الحاجة وعدم التبدل إلى حالة اخرى .

المانوية :

فأما من زعم أن الابدان ظلمة والأرواح نور ، وان النور لا يعمل الشر ، والظلمة لا تعمل الخير، فلايجب عليهم أن يلوموا أحداً على معصيته، ولا ركوب حرمة ، ولا إتيان فاحشة، وإن ذلك على الظلمة غير مستنكر ، لأن ذلك فعلها، ولا له ان يدعو رباً ولا يتضرع إليه، لان النور رب والرب لا يتضرع إلى نفسه ولا يستعيذ بغيره .

ولا لأحد من أهل هذه المقالة ان يقول : احسنت وأسأت ، لأن الاسائة من فعل الظلمة وذلك فعلها، والإحسان من النور ، ولا يقول النور لنفسه : احسنت يا محسن ! وليس هناك ثالث !

فكانت الظلمة ، على قياس قولهم ، أحكم فعلاً واتقن تدبيراً وأعز أركاناً من النور ، لأن الأبدان محكمة ، فمن صوّر هذا الخلق صورة واحدة على نعوت مختلفة ، وكل شيء يُرى ظاهراً من الزهـــر والأشجار والثمار والطير والدواب يجب أن يكون الهاً .

وما أدعوا : بأن العاقبة سوف تكون للنور ، فدعوى ، وينبغي على قياس قولهم أن لا يكون للنور فعل لانه أسير وليس له سلطان ، فلا فعل له ولا تدبير ، وان كان له مع الظلمة تدبير فما هو بأسير ، بل هو مطلق عزيز .

فان لم يكن كذلك وكان أسير الظلمة ، فانه يظهر في هذا العالم إحسان وخير مع فساد وشرّ ، فهذا يدل على أن الظلمة تحسن الخير وتفعله ، كما تحسن الشر وتفعله .

فان قالوا : محال ذلك ، فلا نور يثبت ولا ظلمة ، بطلت دعواهم ، ويرجع الأمر إلى أن الله واحد وما سواه باطل ، فهذه مقالة ماني الزنديق واصحابه .

المدقونية :

وأما من قال : النور والظلمة بينهما حكَم ، فلا بد من أن يكون اكبر

الثلاثة الحكَم ، لانه لا يحتاج إلى الحاكم إلاّ مغلوب أو جاهل او مظلوم ، وهذه المدقونية والحكاية عنهم تطول .

قال هشام : فما قصة ماني ؟

قال عليه السلام : متفحص اخذ بعض المجوسية فشابها ببعض النصرانية فأخطأ الملتين ولم يُصب مذهباً واحداً منها ، وزعم : أن العالم دُبر من إلهين : نور وظلمة ، وأن النور في حصار الظلمة على ما حكينا منه ، فكذبته النصارى وقبلته المجوس ، الخبر » .[1]

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

مع الثنوية في بحوث عقلية

مبدء الشر فى الكون :

الثنوي : أجل ـ ولكننا نرى في الكون شراً وفـــيراً : في ذوات بعض الكائنات وفي أفعالها وصفاتها ـدون ريب ـ ولابد لها من مبدء كما للخير ، ولايخلو من أنها تصدر من مبدء هو إله الخير ، أم من مبدء الشر ، أم دون مبدء ومصدر ـ لاسبيل الى الأخير ، حيث الأثر بحاجة ضرورية الى المؤثر ـ مهما كان ـ ولا الى الأول ، تنزيهاً لساحة إله الخير عن الشر ، وذوداً لحتده عن وصمة البوار والضرّ ، إذاً فلا محيص عن أن هناك ـ وراء الكون ـ شريكاً لإله الخير : هـو المصدر الأول والأخير للشرّ ، وهو الشيطان الرجيم .

استحالة ازلية إله الشر !..

الموحد : نسألكم عن كيان ومائية إله الشر :

هل إن ذاته ذاتٌ أزليةٌ غنيّة كإله الخير ، دون حاجة ونقص وظلم وبغي كما تقتضيه الأزلية والغنى المطلقة؟ .

الثنوي : أجل ـ انه إله كمثله ، له ما له من شئون الالوهية .

الموحد : إذاً فلماذا يأتي منه الضرّ والشرّ والبوار والظلم ، وإنما يحتاج الى الظلم الضعيف ، وإنما يأتي بالضر غـير الحكيم ولا العليم ، فضعف العلم والقدرة والحكمة هو الذي يسبّب الظلم والضَيْم ليس إلاّ ، استبقاءً لمـا يجــده الظالم واستنقاذاً لما لايجد ، وذوداً عما يصطدمه وحذراً عما يخافه ! .

إذاً فليس هو إلهاً أزليّاً ـ ولا غنيّاً حكيماً ـ بل هو من خلقه الطغام اللئام .

الثنوي : انهما على سواء في شئون الالوهية وصفاتها ، وإنما يفعل إله الشر شراً رغم إله الخير ، لكي لا يستقل هو بالالوهية دونه ، فالشر في دفع المناوء خيرٌ ـ كيفما كان ! .

الموحد : نقول اولاً : إن كونهما على السواء إطلاقاً يخرجهما عن التعدد ـ إذاً فهما واحد ـ إذ يستحيل التعدد فيما لا ميز له عن قرينه إطلاقاً ، كما سوف نوافيكم في برهانه .

ثانياً : ان الشر رغم فاعل الخير شرٌّ محض : يكشف عن خبث الذات وحاجة الشرير . حيث يخاف تأخّره عن الالوهية ، وكلا الامرين : ١ ـ خبث الذات ـ ٢ ـ حاجتها : تُتنافيان وكيان الالوهية ، فلا الوهية له ولا ازلية .

وبصيغة اخرى : إذا كانت الغاية تبرّر الوسيلة أحياناً مّا ، فغاية الإله بثّ الخير وبسط العدل ، إذاً فعلى الإله الثاني ! ان ينصر إله الخير ـ أم لا "لهولا عليه دون ان تبعثه غاية التفرُّد والاستبداد بالالوهية : أن يضاد الهدف الالهي الاصيل ، « العدل » أتبريراً لوسائل الشر والضرّ تحقيقاً لغـــاية القضاء على الهدف الالهي الاصيل ؟ ! .

ثالثاً : لمّا لم تصطدم هــــذه الافاعيل الشريرة من إله الشر ـ إلهَ الخير ـ لا ذاتاً ولا صفاتاً ، فلم تتحقق غاية التوحد بالالوهية ، حتى الآن ومن الازل ـ لإله الشر ـ اذاً فهو خاسر في سعيه وجاهلٌ في خسار سعيه إضافة الى خَبثه وضعفـــه .

رابعاً : وجود المناوء والاحتيال في دفعه عجزٌ حاضر يدفع الى المعارضة بُغيةَ دفع الضر وجلب الخير وساحة الالوهية بريئة عن كل ذلك .

ثم على فرض ألوهيته وأزليته ، رغم البرهان على استحالتها :

١ – فهل إنهما متكافئان في القدرة ، فلا إلهُ الخير يستطيع التغلّب على إله الشر ولا العكس .

٢ – أم هما متغالبان : يتغلب أحدهما على الآخر أولاً وأخيراً .

٣ – أو أحياناً بصورة دورية ؟ .

الثنوي : رجاء الاجابة عن كلٍ من هذه الاسئلة .

الالهي : ١ – مكافئة القدرة بينهما آيةُ ضعفهما ، وانّ واحداً منهما لايستطيع دفع ضده ، وهذا قضاء أول على الوهيتهما معاً ، ومن جهةٍ أخرى تصبح القدرة في كلٍّ منهما محدودةً ، وهذا قضاء ثان على ألوهيتهما معاً ، إذ إن الازلية الالهية لزامها القدرة اللاّنهائية ، وان قلت : انهما لا نهائيان في القدرة – قلنا : لنفرض أنّ إحدى القدرتين أضيفت الى الثانية ،فهل إن هذه الاضافة تزيد المضاف إليها أم لا – فإن تزد فهما محدودتان ، إذ إن اللاّمحدود لا يتحمل الزيادة والنقصان ، وان لا تزد أصبحت القدرة في الكل عجزاً كلياً دون أية قدرةٍ إطلاقاً .

٢ – وتغلّب احدهما على الآخــــر إطلاقاً آية ألوهية الغالب وعدمها في المغلوب .

٣ – ودورية المغالبة شاهدة كالاول على ضعفهما معاً رغم قدرتهما .

« فلو كان فيهما آلهة الاّ الله لفسدتا » : السماوات والارض وكذا الآلهة .

ثم إختلاق شريكٍ ومناوءٍ في الازلية والالوهية لإله الخير – هذا نيل من كرامته ، ومس لساحته ، وإزراء بالوهيته ، كل ذلكَ زَعْمَ تكريمه : أنه لا يأتي بالشر ! . فهل يُهان الإله في أصل الوهيته بغية تكريمه المزعــــوم في صفة من صفــاته ؟ ! .

الثنوي : فلنفرض : ان إلَه الشر حادث ومخلوق لإله الخــير ، فلماذا خلقــه وهو لا يريد الشر ؟ .

الموحد : رجاء ألاّ تكرروا لفظة الالوهية للشيطان۔ فكيف إله !. وهو مخلوق للرحمان ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

إنه لا مناص عن تصديق وجود الشيطان ـ بين الموحـــد والثنوي ـ وهو أصل الشر والفساد ،وأنه مخلوق لله الواحد القهار،ثم تبقى مشكلة خلق الشيطان وسائر مبادىء الشر ،تبقى معضلة تحتاج الى الحلّ ، وإليكم القول الفصل في ذلك والله المستعان :

غائية خلق الشر

فروض كائن الخير والشرّ :

الكائن – مهما كان – لا يخلو عما يلي من فروض :

١ – خيرٌ محض .　　٢ – شرٌ محض.　　٣ – خيرٌ وشرٌ متكافئان.

٤ – ما يغلب خيره .　　٥ – ما يغلب شرّه : فروض عقلية حاصرة .

ونحن لا نجد ولن نجد كائناً هو شرٌ محض ، أو يغلب شرُه على خيره ، أو متكافئاً فيها ، كل ذلك من الناحية الخَلقية : ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً .

إذ ان الاولين ، فيها افسادٌ ودمارٌ ، دون أيّة حكمة وعائدة راجحة ، إلاّ إضراراً خالصاً أو أكثرياً لا يُجبرَ بخيره القليل ، وتعالى الله العدل العليم الحكيم أن يخلق هكذا .

ثم الاخير ، المتكافيء فيه الامران ، لارجحان فيه ، بل هو مرجوح عند الحكيم ،ولغو وعبثٌ : ان يفيد من حيث يضر أو يضر من حيث يفيد –سواء– دون عائدة زائدة .

اذاً فالكائن إمّا خيرٌ محض او يغلب خيره على شره ، وهذا الاخير هو النقطة الرئيسية في غائلة الشر .

افلاطون وارسطو في بيان حقيقة الشر :

وهناك ذوقان فلسفيان في مكتبي افلاطون وارسطو ، فالاول ينكر وجود الشرّ اطلاقاً ، وان الشرور أعدام لا تحتاج الى عِللٍ ، حتى تُعلّل بفاعل او فواعل الشر : من إله او آلهة أخرى .

والثاني يعتبر الشرّ وجودياً كالخير ، إلا انه يجب في جنب الخير الاكثري ، الملازم له كياناً وآثاراً ، فترك الخير الكثير ذوداً عن الشر القليل ، هـذا شرٌ كثير يجب ان يُحظر ، حفاظاً على الأرجح في المصلحة .

الوجود خير محضٌ ؟

وتفصيل القول في النظرية الأولى : « أن افلاطون وحزبه يعتبرون الوجود محض الخير ، وأن الشر أمر عدمي لا يحتاج الى علة الايجاد :

ففي حادثة القتل ظلماً ، لا نجد شيئاً من العلل الموجودة الا ما هو خيرٌ في نفسه : فقوة الضرب في القاتل وإرادته له : هذا كمالٌ ، حيث لو لم يقو على ما يبتغيه كان ناقصاً فلجاً ، وأثر السكين وكذا تأثُّر اللحم عن حدّه ، هذان أيضاً كمالان للفاعل والمنفعل ، فلولا الأول لم يكن السكين سكيناً أو حادّاً ، ولولا الثاني لم يكن اللحم لحماً ، إلا حجراً أو حديداً .

فهذه العلل الوجودية كلها كمالات ، وأما الموت الناتج عنها فهو أمرٌ عدمي هو إنفصال الروح عن البدن ـ والعدم لا يحتاج الى العلة» .

هذا ولكنه مقالة عجيبة في الفلسفة : ان الموت لايحتاج الى العلة ، وقد عدوا له هنا عللاً وجودية يعتبرونها كاملة في ذواتها وافعالها .

كلا ! انهذا الموت اللاحق للحياة ليس امراً عدمياً وإنما هو امرٌ إعدامي أي إعدام للحياة ، والإعدام بحاجة ضرورية الى العلة كالإيجاد وكلا المعلولين أمران وجوديان .

وإنما الموت العدمي هو قبل حصول الحياة ، وقد يعتبر القرآن الموت الأول مخلوقاً وظرفاً للابتلاء : « خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملا » وليس الموت مخلوقاً ولا بلاءً إلا بعد الحيـاة ، اذ إن الموت الذي قبلها ليس معه

إدراك وتمييز حتى تتحقق البلوى ، وليس إلا عدم خلق الحياة فكيف يصدق عليه الخلق .

اذاً فالشرور أمورٌ وجودية كالخيرات ، ولابد لها من علل كأمثالها ، إلا أن ذوات العلل الشريرة ليست شريرة من حيث الخلقة ، وإنما الشرور ناتجة عن سوء اختيار المختارين ذوي العلل العاملة .

ومن ناحية أخرى : إن الشرّ القليل مما لابد منه اذا التزمه الخير الكثير .

فالأمطار الغزيرة النازلة في مختلف البلاد ، الناتجة عنها عمارة الأرض وما عليها من نبات وحيوان وانسان ، هذه الأمطار مما لابد منها لهذه النتاجات الكثيرة العامة في شتى المجالات الحيوية ، رغم انها تستتبع أحياناً انهدام بنايات رخوة تريد الخراب ، وبلّ حاجيّات لمن لا تظلّهم الا السماء ، وما الى ذلك من شرور ـ هذه لا تؤخذ بعين الاعتبار في جنب ما للامطار من خيرات شاملة تعم الجميع .

كذلك كافة الموذيات من العقارب والأفاعي والحيات ، فلا ريب ان كلا خيرٌ ، ولا أقل لنفسه ، وان كان شراً لما يزاحمها وتخاف منه ، حيث القوة الدفاعية خير يحافظ بها على كيان الكائن ـ مهما كان ـ

ميزان الخير والشر :

فهنالك الخطأ كل الخطأ للانسان انما ينشأ عن أنه يعتبر نفسه ـ فحسب ـ يعتبرها مركز دائرة الكون ـ الرئيسي ـ فيختص الخيرية في كل شيء بما له فائدة وعائدة اليه ، وان كان ذلك الشيء وتلك الفائدة شرّاً جماعياً ! ثم يعتبر كلّ ما لا يلائمه شرّاً وان كان خيراً في نفسه وبالنسبة للنظام العام الاتم .

وهذه مشية الانسان ـ العشواء ـ مكباً على وجهه ، وهي التي تأتي بكل رذيلة ، وتقضي على كل كمال وفضيلة : « أفمن يمشي مكباً على وجهه اهدى أمّن

يمشي سوياً على صراطٍ مستقيم ٦٧ : ٢٢ « صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض الا الى الله تصير الأمور » ٤٣ : ٥٣ .

فحيث لا يهتدي الانسان ـ لجهله واستبداده ـ لايهتدي الى صراط التكوين المستقيم ، اذ ذاك لم يكن حكمه بالشرّ فيما لايلائمه ـ الا تهكما وزوراً ـ أخطأ فيه المقياس .

فما من خلق شرير الا وفيه ـ من الناحية الخَلقية ـ ناحية خيّرة هي أكثر من شره ، لنفسه أو لغيره أو لهما .

●

مشكلة خلق الشيطان ؟ .

الثنوي : نفرض أن هناك في الكون شروراً تضم خيرات تربو عليها ، رغم أننا لانحيط بها علماً ، ولكننا ماذا نصنع بغائلة خلقة الشيطان ، فهو في وحدته تضم كافة القوّات الشريرة ، وهو السبب الرئيسي لكل بوار ودمار ، فهل إنه بملء الشرّ ، هو أيضاً : تربو خيراته على شروره ؟ كلاّ ! إنه ذات شرّيرة لا خير فيها ولا مثقال ذرة ، فلماذا خلقه الله وسلّطه على عباده ؟ لماذا ؟ !

الموحد : ان الله تعالى وتقدس لم يخلق الشيطان ، بخيله ورَجله ارادة الشر والظلم من خلقهم ، إلاّ خيراً في خير :

لماذا خلق الشيطان ؟

خيرٌ اول : هو أن الوجود خيرٌ والعقل خيرٌ والنفس الداعية الى شهوات البدن خيرٌ لإستبقاء الحياة الحيوانية ، وإن كان تحلّلها عن حدود المصالح الجماعية والشخصية ــ هذا شراً ــ إلاّ أن الله تعالى قيّدها في التكوين والتشريع ، بعقال العقل ــ حيث يهديها الى خيرها وخيره .

وكذلك الإختيار فإنه خيرٌ من الإجبار ، وإلاّ لم يُعدّ من كمالاته تعالى ، فلولا الإختيار في المكلفين لم يكن هناك ظرفٌ صالح لإستكمال المكلف وصالحه «وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى» ٥٣ : ٣٩ .

خيرٌ ثان : هو أن الشيطان كلبٌ هراش : يكلب على غير المخلصين من عباد الله ، والغاوين : «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين» ١٥ : ٤٢ .

«قال فبعزتك لأُغوينـّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المخلصين» ٣٨ : ٨٣ .

يكلب على الغاوين غير الصالحين للحضور بحضرة قرب رب العالمين، ويهرش على الكالبين الممنوعين عن ساحة قربه تعالى وقدسه ، وإن كان هـذا الكـَلـَب والهرش خِلواً من نية الخير ، ناحياً منحى الشر والفساد .

الثنوي : اين الخير فضلاً عن خيرٍ في خيرٍ ؟ فهل هــذا الدمار والبوار المتواصل في الكون إلاّ من تدمير الشيطان وإفساده وبغيه ؟ ولقـد كان يعلمه الله منه ـ إذاً فهو السبب الرئيسي للضرّ والشر ـ لِما كان يعلم من صنعه مستقبلاً وصَنَعه وخَلقه رغم علمه ! . فهـل إن ذلك لكي يُفسد بصُنعه ويضيّع على ما أصلحه ؟ .

العلم بمستقبل الفساد ليس فاعله :

الموحد : إنـّه تعالى كان يعلم ماذا يعمله الشيطان في مستقبله ـ وقد خلقه حال علمه ، إلاّ أنّ العلم بعمل الغير ليس عاملاً لعمله ولا باعثاً له عليه ، إنما هو كشف غيبي عما يستقبله العامل من خير أو شرّ .

إنّ العامل ليس يعمل في المستقبل لأن الله يعلمه ، بل لإختياره وارادته ـ ليس إلاّ ـ وكذلك الله تعالى لايعلم مستقبل العمل إلاّ لأن العامل يعمله ، خيرةً من نفسه ، لا لأنه العامل والباعث وحاشاه .

الثنوي : يريد المكلف ليشرب الخمر ، ولا تخلوا إرادته تلك من بيئات :

١ ـ يعلم الله أنه سوف يشرب .

٢ ـ يعلم أنه لايشرب .

٣ ـ لايعلم لاهذا ولاذاك .

لا سبيل الى الأخيرين دون ريب ، فإنه جهل من العليم وتعالى عن ذلك .

ثم إذ يعلم الله انه سوف يشرب ، فلم يكن له بدٌ إلاّ ان يشرب ، جبراً أو

إختياراً ، وإلاّ رجع علمه تعالى جهلاً لو لم يشرب !

الموحد : كلاّ : ليس العلم علة للشرب إطلاقاً ، ولا الشرب ذائداً عن الجهل كذلك ، وإنما يعلم الله تعالى أنه يشرب باختيـاره وإرادته ، والواقع المستقبل لايخلو عن الشرب وعدمه قضية الاختيار ، ولايتعلق علمه تعالى ولايكشف إلاّ عما سوف يتحقق بالمشية والاختيار ـ فالمكلف ما يريد ـ ليشرب أم لا يشربه فان هو شرب، نكشف عن أنه تعالى كان يعلم ذلك، وان هو لم يشرب ، كشفنا عن أنه تعالى كان يعلم : أنه لا يشرب ، علمان على السواء منه تعالى بالنسبة لما سوف يصدر أو لا يصدر من المكلف المختار .

فلا جهلَ وحاشاه تعالى : ولا أن علمه تعالى يؤثر في مستقبل الأمور قضاءً على خيرَةَ المختارين ـ لكي يُجبروا على أعمالهم ـ أو يحققّوا علمه تعالى باختيارهم السوء فيكونوا غير عاصين ! .

مثالاً على ذلك : كل ما نعلمه أحياناً من شرور واضرار من غيرنا ، فهل انها تُحمل على عواتقنا دون العاملين لها ؟ لا لشيء إلاّ اننا علمناها ، أو عليهم حيث عملوها ـ فاقض ما انت قاض !.

الثنوي : هل انّ الله تعالى يريد الشرّ ويحبّه ؟ أم لا يريده ؟ فاذ لايريده ـ ومحالٌ أن يريده ـ فلماذا لايسد سبيله : ألاّ يخلق مايعلم انه سوف يأتي بالشرّ ويختص خلقه بالخير عاجلاً وآجلاً ؟ .

الموحد : ضرورةُ كمال الألوهية وغناها وحنانها تقضي : أنه تعالى لا يريد الشر ارادةً تشريعية ، ولا تكوينية بدائية .

وضرورةُ الحكمة الإلهية والابتلاء للمكلفين تقضي بخلق الإختيار فيهم وأن يهديهم النجدين : نجدي الخير والشر ، لكي يسلكوا سبل الخير باختيارهم ، ويسدوا عن سبل الشرّ باختيارهم ، فليخلق ظروف الاختيار والمجالات الواسعة بين النجدين للاختبار ، وليَجعل المكلفين مختارين دون إجبار : لا على الخير

ولا على الشر ، وإنمـــا عليه أن يهديهم سُبُل الرشاد ويدلـّهم دركات البوار ، فيبلوهم بالخير والشر فتنة ثم إليه يرجعون .

الحكمة في خلق الشيطان :

ثم الحكمة في خلق إبليس هي الحكمة في خلـق النفس الأمارة بالسوء ، وخلق الدنيا ولذائذها ، وكلٌ ذلك خير في ذواتها وشرٌ فيما يبتغيه المكلف من هزاهزها بغية السوء : من نفسه وسواها .

إن ظروف الشرّ وأسبابه ، كلـّها بلاء المكلفين ، وابتلاء لهم في مسيرهم الى الله تعالى ـ فأفضل الأعمال احزها « وان ليس للإنسان إلاّ ما سعى » .

إن الشيطان الرجيم بمن معه من حزبه ـ هذا الكلب العقور الهراش ـ انـّه بسوءِ اختياره ، رغم عقله ، وأن هداه الله للايمان ، رغم هذا وذاك ، يواصل في كَلَبه وعقره وهرشه ، واقفاً في كل موقف من السبل الى رب العالمين ، وهو رغم ضعفه في كيده : « ان كيد الشيطان كان ضعيفـــاً » رغم ذاك يجلب ويجذب اليه الكثير من عباد الله ، الذين لم يُستاهلوا لساحة قربه ، يجذبهم اليه حسب انجذابهم اليه وبمستواه ، دون قوة له ولا سلطان: « انـّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ١٦ : ٩٩ ـ ١٠٠ « ان عبـــادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ١٧ : ٦٥ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين ١٥ : ٤٢ .

هذا وكما يعترف وسوف يعترف يوم يقـــوم الاشهاد : « وقال الشيطان لمـّا قضِي الأمر : إنّ الله وَعَدَكم وعدَ الحق وَوَعَدتكُم فاخلفتكُم وما كان لِيَ عليكم من سلطان الاّ ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرِخكم وما انتم بمصرخيّ اني كفرت بما اشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم ١٤ : ٢٢ .

أجل ! إنه ليس للشيطان قوة ولا سلطان ، وإنما ظرفُ اضلاله لهم ضعفُ الإيمان وسلطة النفس الامارة بالسوء ، وتجاوُبها مع الشيطان دون أيّة حجة أو برهان، فيهوي في مُهوّات السقوط ـ وينهار في النار نتيجةَ سوء الاختيار .

فسلوك هذه السبيل الصعبة الملتوية بهمزات الشياطين ليس إلا من عباد الله الصالحين المخلصين ، الذين لا تجرفهم جوارف الهوى ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، فهم مواصلون في تضحياتهم في سبيل ربهم بالنفس والنفيس .

ففي معترك هؤلاء الاجناد المجندة : جنود العقل والنفس الأمارة بالسوء ، في هذا الميدان الواسع والمجال الفاسح ، يُبتلى العباد لـكي يُغرْبلوا ويُبلبَلوا ويُمَحّصوا « ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حي عن بينة » ٨ : ٤٢ .

دافع ومانع :

فهناك دافع ومانع ، دافع الإيمان نتيجةَ العقل ، ومـانع الشيطان نتيجةُ النفس ـ حزبان متغالبان وعسكران متعاركان ، فعلى المؤمن غور المعركة بغيةَ الوصول إلى رضوان الله وساحة قربه ، جهاداً في سبيله مهما كانت العوائق وفيرة والبوائق كثيرة فـ : ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفـاً كأنهم بنيان مرصوص ٦١ : ٤ ، وما الحياة إلا عقيدة وجهاد: عقيدة الحق والجهاد في الحفاظ عليه والذود عنه .

وساوس الشيطان ظروف صالحة للامتحان :

هذه التضحيات والتغلبات على الشياطين : من الجن والإنس ، من داخـل الأنفس وخارج الآفاق ، هذه التي تعرج بالانسان إلى معارج المعرفة والطاعة : إنها لا تتحقق للعباد الصالحين إلا في ظروف وجود الشياطين وافتعالاتهم في سد السبيل إلى الله بألوان المكائد والحيل .

ثم الشياطين وانكانوا شراراً لأنفسهم من حيث يريدون ويعملون نتيجةَ سوء الاختيار ، بالنسبة لهم وسواهم ، إلا أنهم من ناحية أخرى يحققون ظروف

التكامل لصالحي العباد ، دون تقصّد ونية خير .

ففي خلق الشيطان خيرٌ أكثري ، كيفي لا كمّي : هو استكمال العباد في ابتلائهم ببلائه ، رغم انهم قليلون : « وقليل من عبادي الشكور » ٣٤ : ١٣ .

ورغم الكثير ممن يهوى في هُوّاتهم إلى دركات النار ، حيث الكثرة في الكم لا تؤخذ بعين الاعتبار ، وإنما الكثرة المرغوبة هي الكيفية وان قلّت كميتها.

فالمهتدى في هذه المعركة انما يهتدي عن بينة ولنفسه ، والضال إنما يضل لنفسه وعن بينة : « لئلا يكون للناس على الله حجة » ٤ : ١٦٥ ، فلله الحجة البالغة ٦ : ١٤٩ .

الثنوي : إذاً فالشياطين ، من هذه الناحية الأخيرة ، إنهم يعاونون المؤمنين على البر والتقوى ، فلهم نصيب مما كسبوا جزاءً وفاقاً ، فمالنا نلعنهم ، والله تعالى يعدهم العذاب ؟.

مثالاً عليه : حسين الاسلام سيد الشهداء ، حيث لم ينَل ما ناله من درجة الشهادة إلا نتيجة تسويل الشيطان لقاتله ، فليكونوا من شركائه عليه السلام في الاجر ، بما أعدوا له ظروف ما ناله من الزلفى .

الموحّد : إن الشيطان وحزبه لا يريدون بمكائدهم ومصائدهم إلا صداً عن السبيل ، فعملهم ونيتهم على سواء بُغيةَ الشر والضر « وانما الاعمال بالنيات » .

ف « لا قول الا بعمل ولا قول ولا عمل الا بالنية ولا قول ولا عمل ولا نية الا باصابة السنة »[1] .

وكافة الأقوال والأعمال والنيات الإبليسية : شريرة ، لا من خير ولا لخير ، وان كانت ، أحياناً ، إلى خير : في التضحيات الإيمانية ، الناتجة عنها الزلفى

---

(١) اصول الكافي عن الامام الصادق عليه السلام .

والقرب إلى ساحة الرب تبارك وتعالى ، إلا أنه لا يريد الخير إطلاقاً ، إلا الضر والشر ، ليس إلا .

إذاً فالشيطان خير من ناحية الفرض الخلقي في جهتين ، وشرٌ نتيجةَ سوء اختياره من جهة واحدة ، وهو لا خلاق له في أية جهة من جهات الخير ، إذ إنه لا يتقصدها ولا يعملها ، وانما له خلاق الشر ونصيب الضر والبوار . بما ينوي ويفعل « وان ليس للانسان (ولكل مكلف) إلا ما سعى » .

•

الجبر والاختيار

هل نحن مخيّرون ام مسيّرون ؟

لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين :

الثنوي : هل إنّ الطاعة والعصيان وكل فعل صادر من الإنسان هل :

١ - ان ذلك كلّه بحوله وقوته ؟

٢ - أم بحول الله وقوته ؟

٣ - أم إنهم شركاء الله في ذلك ؟

الموحّد : إن القول الفصل في هذه المسألة بحاجة ماسة الى مجال أوسع من هذا الحوار ، وإليكم نموذجاً كما يجب هنا :

... محور الحوار في الجبر والاختيار إنما هو الأفعال التكليفية التي أمر بها أو نُهي عنها ، وهي التي يُثاب عليها أو يعاقب بها ، دون الافعال التي لا صنع ولا حيلة للمكلف فيها ، إلاّ إرادة الله تعالى ، أولاً وأخيراً ، كخلقة الإنسان ونموّه طيلة حياته ، ودَوَران الدم في عروقه ، وإنهضام الطعام في معدته ، وما إليها .

لا جبر :

والجبر في الأفعال التكليفية مسٌ بكرامة رب العالمين وبعدله ووعده تعالى، وأخيراً إنه يتنافى والواقع الخارجي الملموس .

ف : « إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والأمر والنهي ، والزجر

من ا لله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لأئمة للمذنب ولا محمدة للمحسن، وكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب [1] تلك مقالة إخوان عبدة الاوثان وخصماء الرحمان وحزب الشيطان وقدرية هذه الامة ومجوسها» [2] .

فـ «من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله [3] ومن كذب على الله ادخله الله النار» [4] .

فـ «إن الله أرحم بخلقه من أن يُجبر خلقه على الذنوب ثم يعذّبهم عليها ...» [5]

أجل، وإنه «أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون» [6] .

إن الجبرة والمسيّرة للانسان في أفعاله التكليفية، يعتبرون الإرادة الالهية فيها إرادة حتم تقضي على خيرة الإنسان، وهذا كفر بالله وإلحاد !

فهل تجد أقبح من هذا الظلم وأشنع ،أن يجبر الله عبيده الضعفاء على العصيان ثم يعدم عليه العذاب فيعذبهم به، رغم انه هو الذي نهى عنه ؟ أنقضاً لما لا يرضاه : بإرادته ؟ أظلماً ما أفحشه، بمن ليس له دون إرادته حولٌ

---

١ - إذ إن المسيء إنما اساء وأدخل نفسه في الشر جبراً لااختياراً، فقد أسيء اليه في اجباره على الاساءة فليجبر ذلك بالاحسان اليه، والمحسن انما احسن دون حول وقوة بل اجباراً عليه، فلولا الاجبار لترك الاحسان فهو في نفس الذات تارك للاحسان واحرى له ان يعاقب دون ان يثاب .

٢ - اصول الكافي ١ : ١٥٥ ح ١، امير المؤمنين (ع) في حوار له مع بعض الجبرية .

٣ - كذب عليه تعالى في مقاله «ان الله يأمر بالفحشاء» وكذب عليه في الوهيته اذ ان الالوهية تستلزم الخير كله، دون الشر والفحشاء ،وحاشاه !

٤ - اصول الكافي ١ : ١٥٨ ح ٦ عن رسول الله (ص) .

٥ - اصول الكافي ١ : ١٥٩ ح ٩ عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) .

٦ - اصول الكافي ١ : ١٦٠ ح ١٤ عن ابي عبد الله (ع) ،

ولا قوة ؟ وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف ، والله تعالى معدن القدرة وخالقها .

فلنفرض أنه يظلم غيره ، وحاشاه ! ، فلماذا يظلم نفسه ، فيريد إرادة حتم ما لا يرضاه ؟ أبغياً مزدوجاً : من نفسه وسواه ؟ ما هذه إلاّ فعلة شريرة قلّما نجدها في الطغمة اللئام ، فضلاً عن الملك العلام : العـــدل الغني الرؤف الرحيم سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً .

ففرية الجبر على الله تعالى في الأفعال التكليفية للعباد :

١ ـ ظلم على ظلم ! وهو محال على الله تعالى،إذ إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف [١]

٢ـ وتكذيب لقوله تعالى ولألوهيته ، إذ إنه يكـــرر التصريح في كتابه الكريم : أن العباد مخيّرون لا مسيّرون ، وأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ...

٣ ـ وإبطال للأمر والنهي ، إذ إنهما لا يتجهان إلى غير المختار .

٤ ـ وإبطال للثواب والعقاب ، لأنهما ليسا إلا على الافعال الاختيارية .

٥ ـ وإبطال للحسن والقبح في الأفعال ، لانهما ليسا إلاّ من اختيار الحَسن والقبيح .

٦ ـ وتكذيب للواقع الخارجي الملموس : أن لنا أفعالاً إضطرارية وأُخرى إختيارية ، فكل عاقل يرى فرقاً بّيناً لا مرّد له : بين من ُيلقي نفسه من السطح ، وبين من ُيلقى دون اختيار ، وليس الفارق إلا الإجبار هنا والإختيار هناك ، وبحَسْبِ الفعل في أنه اختياري : أن تكون البعض من مقدماته بخيرة الفاعل ، وان كانت واحدةً في مآت ، و أن العقوبة والمثوبة تختلفان حسب اختلاف الطاعة والعصيان صعوبةً وسهولة،قضية توفُّر المقدمات غير الإختيارية، وقلتهـــا .

---

١ ـ فالظالم انما يظلم غيره لاحد امرين لا ثالث لهما :
ليتحترز من بأسه فيسبقه في الظلم لكيلا يقدر علىظلمه ـ أو يظلمهليستلب منهنعمة هو يفقدها ، وكلاهما من آيات العجز .

الثنوي : إذا كان الجبر ظلماً ، وهو كذلك ، إذاً فالتفويض عدل : ألاّ يتدخل الرب في شيء من أفعال العباد ، خيراً وشراً ؟ فهو التفويض ، إذ إن نفي الظلم عدل ! ..

ولا تفويض :

الموحد : كذلك التفويض مسٌ لكرامة الرب وربوبيته ، وشركة معه في سلطانه والوهيته ، وانعـــزال عن ملكه ، واستقلال لعبيده في جنبه ، وليس التفويض نفياً للجبر فحسب لكي يصبح عدلاً ـ فانما مناقض الجبر عدم الجبر ، وكما ان نفي الجبر يلائم التفويض كذلك يلائم أمراً بين أمرين ، وليس العدل إلاّ الأخير .

بل : ان التفويض مستحيل ؟ حيث الخلق ليسوا في جنب الرب إلاّ صرف الحاجة ومحض الفقر إليه ، لن يتحللوا عن علمه وإرادته ، ولاعن سلطانه وتدبيره إذاً فمحال ان يستقلوا دونه في الأفعال ـ كما استحال لهم استقلالهم في الوجود . أجل و «انه لم يُعصَ مغلوباً .. ولم يُملّك مفوّضاً ، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا : . ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار»[1].

فالله تعالى : « أعزّ من ذلك » [2] «ومن زعم : أن الخير والشر بغير مشيئة الله (مشيئة غير محتومة ولا غالبة على مشيئة العبد) فقد أخرج الله من سلطانه ، ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله (التي هباها لعبده حين العصيان) فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله أدخله الله النار [3] .

وأنه : « لو فوّض إليهم لم يَحصُرهم بالامر والنهي » [4] .

---

١ ـ أصول الكافي ١ : ١٥٥ ح ١ عن أمير المؤمنين (ع) رداً على المفوضة .

٢ ـ أصول الكافي ١ : ١٥٧ ح ٣ عن ابي الحسن الرضا (ع) .

٣ ـ اصول الكافي ١ : ١٥٨ ح ٦ عن رسول الله (ص) .

٤ ـ اصول الكافي ١ : ١٥٩ ح ١١ عن الصادق (ع) .

أجل : إنه تعالى ليس في ملكه ما لايريد ا ويقهـــر ويُغلب عليه ، وليس التفويض إلاّ هذا : أن يُعصى وهو لا يريد ، فيُقهَر في خلاف مشيئته !.

فما هو الجبر والتفويض ؟

الثنوي : هل ان بين الجبر والقدر : (التفويض) منزلة ثالثة ؟

الموحد : ١ - نعم : «لطفٌ من ربك بين ذلك» [١] .

٢ - «نعم : أوسع مما بين السماء والأرض» [٢] .

٣ - أجل : إنه « لاجبر ولاقدر ولكن منزلةٌ بينهما فيها الحق ، التي بينهما لا يعلمها إلاّ العالم أو مَن علّمها إيّاه العالم » [٣] .

٤ - إنه : «لاجبرَ ولاتفويض بل أمرٌ بين أمرين» [٤]

الثنوي : وما أمرٌ بين أمرين؟ فهل إنه الجمع بين الجبر والتفويض في الأفعال أو في مقدماتها - أو فيها - أم إنه البرزخ بينهما : منزلة ثالثة : لا هي جـــبر ولا تفويض ؟ .

الموحد : إنما هو الثاني ، إذ إن الاوّل تنفيه أدلة بطلان الجـبر والتفويض متعاضدةً ، وإنهما ليسا نقيضين كي لاتكون هناك منزلة بينهما ثالثة ،وهذه المنزلة لطفٌ من الله ، واذن منه : أن يفعل العبد أو يترك ، اذناً تكوينياً لا يصطدم الاختيار لأنه يلحق اختيار العبد - ومثالاً على ذلك ساذجاً :

« رجلٌ رأيته على معصية فنهيته فلم ينته ، فتركته ففعل تلك المعصية ،

---

١ - اصول الكافي ١ : ١٥٩ ح ٨ عن ابي عبد الله (ع) .

٢ - اصول الكافي ١ : ١٥٩ ح ٩ عن الصادقين (ع) .

٣ - اصول الكافي ١ : ١٥٩ ح ١٠ عن الصادق (ع) .

٤ - اصول الكافي ١ : ١٦٠ ح ١٣ عن الصادق (ع) .

فليس حيث لم يقبل منك فتركتَه، كنتَ أنت الذي أمرته بالمعصية »[1] .

فـ « انّ الله خلق الخلق، فعلم ما هم صائرون إليه، وأمرهم ونهاهم، فما أمرهم به من شيءٍ فقد جعل لهم السبيل الى تركه ، ولا يكونون آخذين ولا تاركين إلاّ بإذن الله »[2] .

أجل : إن الامر بين أمرين ، يجعل العبد في أفعاله كأوسع مما بين السماء والأرض ، إذ ان الإستطاعة والإختيار لا يُسلبان عنه : بما لله المشية في فعله وتركه ، فإن مشيئته ليست إلاّ بعد ما يُظهر العبد كافة ما في وسعه الى الوجود من مقدمات اختيارية ، وكل ذلك بما حباه ربُّه من القدرة ، وهو حين الفعل يقدر بما أقدره الله ، دون لونٍ لهذه القدرة : لا طاعة ولا عصياناً ، إلاّ قدرةً دون لون .

ثم بعد تلك المقدمات المستطاعة له نتيجة اختياره ، هناك صدور الفعل بحاجة ماسة الى إذن الله : إذناً تكوينياً : إذنان تكوينيان : ١ - داخل كيان العبد: ان اقدره الله - ٢ - ومن الله تعالى: أن لم يحجبه عما يريد ، واراد مايريد إرادةً في مجرى اختيار العبد دون إجبار .

أجل : « انه لطفٌ من ربك بين ذلك» : نفوذ دقيقٌ من إذن الله وارادته، دون جبرٍ وضيمٍ ،بل انه لطفٌ في لطفٍ في لطف: ١-يلطف بالعبد إذ يعطيه القوة على ما يريد - ٢- ثم يزيده لطفاً : أنه لا يسدّه عما يريده - ٣ - ثم لطفاً إبتلائياً يخرجه من الجبر في تركه : أنه يأذن له في ما يريد ، ويريد ما يريده العبد . إرادةً بعد إرادة المختار : فلا تصطدم واختياره ! .

فلو أنه تعالى لم يُقدر العبد حين يحاول تهيئة مقدمات العصيان ، ثم لم يأذن له في صدور العصيان بعد تكمله ما اختاره من مقدمات ، إذ ذاك كان ذلك

---

١ - اصول الكافي ١ : ١٦٠ ح ١٣ عن الصادق (ع) .

٢ - أصول الكافي ١ : ١٥٨ ح ٥ عن الصادق (ع) .

جبراً منه تعالى على ترك العصيان ! . وفي ذلك : ١-تسويةٌ بين المطيع والعاصي: بين من يريد ليعصي ـ ومن لا يريده ـ ٢ - وترك للابتلاء : الذي هو الهدف الرئيسي من خلق الاختيار ، والمدار في خلق الانسان في هذه الدنيا بزخارفها .

فسواء : أكان هناك جبرٌ على المعصية أم على تركها ، فهذا ظلمٌ وزور وتحلل عن الهدف الخلقي ، وان كان الظلم في الأول أفحش والضيم فيه أقوى وابطش.

وخلاصة القول الفصل هنا مقالة الامام علي بن الحسين عليهما السلام :

يقول في تفسير الإستطاعة لسائل يسأله عنها :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال علي بن الحسين عليه السلام قال الله تعالى:

« يا بن آدم ! بمشيتي كنتَ أنت الذي تشاء ، وبقوتي أدّيت اليّ فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي ، جعلتك سميعاً بصيراً ، ما أصابك من حسنةٍ فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وذلك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني ، وذلك أني لا أسأل عما أفعل وهم يُسألون ، قد نظمت لك كل شيء تريد » [1] .

بيان : « وبقوتي .. وبنعمتي .. » القوة الالهية في فعل الطاعة توحي انه تعالى أولى بحسنات العبدمنه ،والنعمة الإلهية في المعصية توحي: أنه ليس منه تعالى داخل كيان العبد إلاّ القدرة والاختيار وهما نعمتان هامتان ، وإنما العبد هو الذي يوجّهها الى العصيان كفراناً بنعمته .

« وذلك أني أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني » .

١ ـ انه لما كانت الطاعة تتنافي وشهوات النفس الامّارة بالسّوء ـ ٢ ـ وأن الدافع لها غير محسوسة ولا حاضرة ـ ٣ ـ وان الحياة الدنيا بزينتها وزخارفها تدفع الى الشهوات وتسدُّ عن الطاعات ..

---

١ ـ أصول الكافي ١ : ١٦٠ ح ١٢ ،

لهذا وذاك كانت حاجة الطاعة الى الحول والقوة أكثر بكثير من المعصية ، بل إن المعصية لا تحتاج إلاّ الى قوة الفعل وظروفه الخارجية ، ثم العالم بعرضه وطوله يؤيد عامل المعصية .

فالطاعة بحاجة ماسة الى تأييد من الله وتوفيق منه ، دون ان تكفي دوافع الطاعة لتحقيقها ، ولذلك نرى : أن الله تعالى يؤيد المطيعين تكويناً وتشريعاً :

في الشرع : أنه يدعو إليها ـ ويؤكد عليها ـ ويبرهن لها ، ويعد لعاملها حياة الخلود والرضوان في دار السلام .

وفي التكوين : أنه يرجح إرادة المطيع بعد ما أراد الطاعة ، ثم يأخذ بيده الى الطاعة حتى يحققها .

فالطاعة لها نسبتان : نسبة الى الرب ، ونسبة الى العبد ، إلاّ ان نصيب الرب أكثر من العبد بكثير ، فالله أولى بحسناتنا منّا .

ولكن المعصية محفوفة بنواهيه وزواجره تعالى وانه لا يؤيد ويوفق العاصي ، وإنما يذره في طغيانه يعمه ، وفي غيّة يتردّد ، يَكِلُ العاصي الى نفسه : إذا هو لا يريد إلاّ العصيان ، وليس لله تعالى نصيبٌ من العصيان ، إلاّ أنه قوّى العاصي : أي اعطاه قوة العمل ، دون لون ، حالة العصيان ، اذاً فالعبد أولى من الرب بسيئاته .

« وذلك اني لا أسأل .. » برهانٌ على أولويته تعالى بحسنات العبد وأولوية العبد بسيآته ـ إذ إن اذنه تعالى في سيئات العباد لا يتنافى واختيارهم، وليس في ذلك أيّة مشاركة معهم في العصيان ، واذا خفيت الحكمة في ذلك فإنه « لا يسأل عما يفعل » اذ لا يأتي الا وفق العدل والحكمة البالغة دون خطأ « وهم يُسألون » حيث الأخطاء متوفرة على من سوى الله ، وهذه الأولوية في السيئة ليست من حيث القدرة : ان تتغلب قدرة العبد على ارادة الرب ـ وحاشاه ـ وانما ذلك قضيةَ كون نسبة العصيان الى العبد أكثر بكثير من نسبته الى الله تعالى ، والنسبة

الإلهية في العصيان ليست بالتي تتنافى وعدله تعالى وحكمته ، وانما هي قضية الوهيته الوحيدة، وحكمة ابتلاء العباد وتصييرهم في مسير الاختيار، وعدم جبرهم على ترك المعاصي وفعل الطاعات .

هل ان الله شريك العاصي ؟ !

الثنوي : اذاً فالله تعالى من شركاء عبيده في العصيان مهما كانت الشركة ضعيفة النسبة إليه،حيث قوّام عليه ، ثم أذن أن 'يعصى: في إرادته الأخيرة ، اللاحقة لإرادة المختار !

الموحد : يكفيه شركة معهم : أن خلقهم وخلق لهم ما به يستطيعون العصيان ، ولكنه ليست شركة منه تعالى ، إنما هو تهيئة الظروف المختلفة من الطاعة والعصيان ، دون أن 'يجبر على طاعة أو على عصيان ، أجل إنه أولى بنا في الطاعة : حيث أمرنا بها ووفقنا وأيدنا لها ، وإنما جعل فينا قوة الفعل ، ثم أذن فيه تكويناً بعد تكملة المقدمات الإختيارية .

مثالاً على قوة العصيان: ضوء الشمس،النافذة عن زجاجة حمراء أو خضراء، فهل إن الضوء الملون هنا من الشمس فحسب ؟ أو من الزجاجة فحسب ، كلا ! لاذا ولاذاك : وانما أصل الضوء من الشمس واللون من الزجاجة .

كذلك المكلف 'خلق كزجاجة لاخيرة اللون كما يريد ، والقوة التي يعطيه الله تعالى حالة الفعل ومقدماته ، هذه القوة ضوء بلا أي لون ، ثم المكلف هو الذي يلوّنه بلون الطاعة أو العصيان ،دون اختصاص له بأحدهما،ولا اختصاص أية آلة مخلوقة له ، باحدهما ، وإنما هو الذي يختار الإختصاص . وليس هناك له اضطرار إلا في أصل الاختيار ، وهو لا ينافي الاختيار ، حيث خلق مختاراً ، لا يجد حيلة في دفعه عن نفسه ، وهذا هو الذي يؤكد ويركز فيه الخيرة من اموره ، فكل فعل انما هو اختياري بالاختيار ، والاختيار نفسه

إضطراري لا يستطيع المختار ان يتحلل عنه ، وهذا يؤكد اختيارية الأفعال ويزيف مقالة الجبر تماماً .

ثم الله تعالى مؤيد عبده ومسهل له في لون الطاعة وترك المعصية ، فهو أولى منه بحسناته ، ولا يؤيده ويسهل له في لون المعصية ، فالعبد أولى منه بسيأته ، وليس له تعالى تدخل فيها إلا لطفين : ١ ـ أن أقدره على ما يريد ٢ ـ ثم لا يجبره في تركه ، بل ويأذن له بعد تكملة الإختيار بمقدماته .

فليست ارادته تعالى للعصيان إرادة حتم،وحاشاه،وإنما هي ارادة الاختيار، ارادة بعد تكملة المقدمات الاختيارية للعاصي ، ولولا دمج هذه الارادة الاخيرة الإلهية في خيرة المختار ـلاحقة ، لأصبح العصيان متروكاً رغم ارادة العاصي ، وأصبح العاصي مجبوراً ومسيّراً في ترك العصيان ، وهـــذا يتنافى وحكمة الإبتلاء ،وهو ظلم لمن يختارون ترك العصيان ويجاهدون له من عباد الله الصالحين ، وتسوية بينهما ، ظالمة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

توضيحاً لذلك : أن النتيجة تابعة لاخس المقدمات ، فيكفي في كون الفعل اختيارياً منسوباً إلى المكلف : انه أتى ببعض مقدماته الإختيارية لا كلها.

فالملقي نفسه في النار ُيعتبر قاتل نفسه بالإختيار ، وإن لم يكن احراق النار باختياره ، حيث ُيحرق بهـــا دون اختيار ، إلا أن الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار .

هذا : حال أن الإلقاء في النار ليس علة تامة للإحراق ، إنما هو بعض مقدماته المعدة لاخرى غير اختيارية : وهي إحراق النار ، فاحتراقه نتيجة مقدمات اختيارية وغير اختيارية ، والنتيجة تابعة لاخسّ المقدمات .

وانما الفعل المسيّر فيه ما ليست له أية مقدمة اختيارية : كحركات النبض وسريان الدم في الأوراد، وامثالها مما لا تدخّل فيه للاختيار اطلاقاً .

ثم العصيان ، المخير فيه الإنسان ، ليس إلا نتيجة القوة العاملة فيه حسب

اختياره ، فأصل القوة والإختيار من صنع الله ، لا حول ولا حيلة فيها للإنسان ، وانما المختار له إنحاء القوة نحو العصيان ، فإنه باختياره دون ريب ، وليس لله في العصيان نصيب إلا أنه أقدر العاصي حال العصيان وحال معداته ومهيآته ، لا إعداداً وإقداراً لخصوص العصيان ، بل دون لون : لاطاعة ولا عصيان ، ثم أمره بصرف هذه القوة في الطاعة ، ويزيده تأييداً فيها ، ونهاه عن صرفها في العصيان دون أن يؤيده ولا مثقال ذرة ، إلا ان يذره في طغيانه يعمه وفي غيه يتردد : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » ٦١ : ٥ .

إذاً فإذنه التكويني في العصيان يعتبر عقوبة على العاصي اظهاراً لكامن سره الشرير ، إضافة إلى كافة ما تقدم من حِكمٍ عالية تفرضه .

●

ختام

فيه كلمتان حول الاختيار من مهابط الوحي :

١ ـ كتب الحسن بن أبي الحسن البصري إلى الحسين بن علي عليهما السلام ، يسأله عن القدر ، وكتب عليه السلام إليه :

« فإتبع ما شرحت لك في القدر ممـــا أفضي إلينا أهل البيت ، فإنه من لم يؤمن بالقدر : خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حمل المعاصي على الله عز وجل ، فقد افترى على الله افتراءً عظيماً ، إن الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه ، ولا يُعصى بغلبة ، ولا يُهمِل العباد في الهلكة ، لكنه المالك لما ملّكم ، والقادر لما عليه أقدرهم ، فان إئتمروا بالطاعة لم يكن الله صاداً عنها مبطئاً ، وإن إئتمروا بالمعصية فشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به ، فعل ، وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها قسراً ، ولا كلفهم جبراً ، بتمكينه إيام بعد إعذاره وإنذاره لهم ، واحتجاجه عليهم ، طوّقهم ومكّنهم ، وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما إليه دعاهم ، وترك ما عنه نهاهم ، جعلهم مستطيعين لأخذ ما أمرهم به من شيء غير آخذيه ، ولترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركيه ، والحمد لله الذي جعل عباده أقوياء لما أمرهم به ، ينالون بتلك القوة ، وما نهاهم عنه ، وجعل العذر لمن يجعل له السبيل ، حمداً متقبلاً ، فأنا على ذلك أذهب وبه أقول ، والله وانا وأصحابي أيضاً عليه وله الحمد »[1] .

بيان : «لكنه المالك لما ملكهم» .

---

١ ـ البحار للمجلسي الطبعة الحديثة ج ٥ ص ١٢٣ ح ٧١ .

يعني به : أنه تعالى لم يفوض إلى عباده ما ملّكهم من القدرة حين الفعل ، حتى يستقلوا بجنبه ، ويخرجوا عن حوله وقوته ، إنما أعارهم عارية القدرة ليبلوهم بها ، فهو المالك لقدرتهم دون إجبار في إنحائها إلى عمل ما .

٢ ـ يسأل ابن اسباط أبا الحسن عليه السلام عن الاستطاعة (الاختيار) فقال : « يستطيع العبد بعد أربع خصال : ١ ـ ان يكون مخلّى السرب ـ ٢ ـ صحيح الجسم ـ ٣ ـ سليم الجوارح ـ ٤ ـ له سبب واردٌ من الله ـ

قال قلت : جعلت فداك فسرّ لي هذا ، قال : ان يكون العبد مخلى السرب ، صحيح الجسم ، سليم الجوارح : يريد أن يزني فلا يجد إمرأة ، ثم يجدها ، فإما أن يعصم نفسه فيمتنع كما امتنع يوسف عليه السلام أو يخلي بينه وبين ارادته فيزني فيسمّى زانياً ، ولم يُطع الله باكراه ولم يَعصه بغلبة » : [1] .

لم يعصه بغلبة إرادته على ما لا يريده الرب ، بل هو تعالى لم يمنعه تكويناً فخلّى بينه وبين عصيانه ، وأقدره حالته على الفعل ، قدرة ملائمة للإختيار ، دون لون: من الطاعة ولا العصيان .

ويُسأل أيضاً عن الاستطاعة فيقول : « أتستطيع ان تعمل ما لم يُكوّن ؟ قال : لا ، قال : فتستطيع أن تنتهي عما قد كوّن ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام: فمتى أنت مستطيع ؟ قال : لا أدري ، فقال عليه السلام : إن الله خلق خلقاً فجعل فيهم آلة الإستطاعة ثم لم يفوّض إليهم ، فهم مستطيعون للفعل وقت الفعل مع الفعل إذا فعلوا ذلك الفعل ـ فإذا لم يفعلوه في ملكه لم يكونوا مستطيعين ان يفعلوا فعلاً لم يفعلوه ، لان الله عز وجل أعزّ من أن يضاده في ملكه احد .

قال السائل : فالناس مجبورون : قال عليه السلام : لو كانوا مجبورين كانوا معذورين ، قال : ففوّض إليهم ؟ قال : لا ، قال : فما هم ؟ قال : عَلِم منهم فعلاً فجعل فيهم آلة الفعل ، فإذا فعلوا كانوا مع الفعل مستطيعين، قال السائل :

---

١ ـ اصول الكافي ١ : ١٦٠ ح ١

أشهد أنه الحق وانكم أهل بيت النبوة والرسالة »[1] .

الثنوي . وانا أيضاً أشهد أنه : لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين ، وأن إله الخير لا يشاركه في ملكه الشيطان اعتباراً انه إله الشر ، إلا انـــني أرجوك أن تتفضل عليّ ببيان ساذج وافٍ في الآية التالية :

هل السيئة من عند الله رغم أنها من العاصي ؟

« ... وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كلٌّ من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» ٤ : ٧٩ .

فإن كان الكلُّ من عند الله فكيف يقتسمها دون فصل : أن الحسنة من الله والسيئة من نفسك ؟

الموحد : تجد حلّ المشكلة في « مِن وعند » فالكلُّ من عند الله ،لا تتكون ولا تكون : لا الإصابة الحسنة ولا السيئة ، إلاّ بإذن الله وإرادته ، ثم الحسنة كما أنها من عند الله كذلك هي من الله ،إذ ان الطاقة الباعثة في الإنسان لا تؤخذ في جنب العناية الإلهية بعين الاعتبار ، فهي من عند الله ومن الله ـ وان كان جزاء اختيار العبد وإتجاهه نحو الحسنة « وما تشاءون إلا ان يشاء الله » تشاءون فيشاء ، مشيةٌ بعد الاختيار .

وامّا السيئة ، فهي أيضاً وان كانت من عند الله ، لا تصيب احداً إلاّ بإذنه ،ولكنها ليست إلاّ من أنفسنا ، إذ ان العلة الباعثة لاصابة السيئة ليست إلا انفسنا بما قدمت أيدينا ، فالخير كله بيديه والشر ليس اليه .

فكلُّ ما يصيبنا من سيئة : اصابة سوء ، فهذه رجيمة وردُّ فعلِ أعمالنا

---

١ ـ اصول الكافي ١ : ١٦١ ح ٢ عن الصادق (ع) .

السيئة ويعفو عن كثير :

« ما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » ٤٢ : ٣٠

«ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » ٣٠ : ٤١ .

هذا ، ثم البعض من الإصابات السيئة لعباد الله المخلصين ، هذه ليست رجيعة وعقوبة أعمالهم ، فإنهم معصومون مطهرون ، وانما هي بلاء من الله يبتلي به عباده ، الأمثل منهم فالأمثل ، لينالوا بها الزلفي ، وما هي إلاّ من سوء اختيار الأشرار تتجه إلى الأبرار ،ثم لهم عقبي الدار وللاشرار سوءها في الدنيا والاخرة وبئس القرار .

فالإصابات السيئة لعباد الله المخلصين المطهرين ، في مسيرهم إلى الله ، هذه الإصابات تعتبر لهم المثوبة والزلفي ، ولعامليها الطغام مزيد العقوبة والبعد عنه تعالى .

وبصيغة اخرى توضيحاً للإصابات السيئة أنها من نفسك : ان النفسية : إما شخصية تخص المصاب ، فالإصابات السيئة اذ ذاك لا تكون الا رجيعة أعمال المصاب ـ السيئة ، عقوبة موقتة دنيوية : « ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » ٣٠ : ٤١ .

أو انها نفسية نوعية تعم نفس المصاب وسائر الأنفس المكلفة العاقلة ، كالإصابات الظالمة من الظالمين إلى المظلومين فانها أيضاً من نفس المظلوم نفسية نوعية كهذه .

أو نفسية شخصية دون عملية سيئة تصدر من المصاب ، و إنما الاصابة هناك في سبيل الله قضية الإبتلاء الالهي البالغ بالسالكين إليه مبالغ الكمال

والزلفي . وان النفوس المطهرة المطمئنة إلى ربها ، لا بد لها في رجوعها إلى ربها ان تضحّي في سبيله ، وتحمل عبء المصائب ، مهما كانت عظيمة فادحة ، ثم لا تعتبر هذه الاصابات السيئة سيئة ً في جنب القرب والرضوان، الناتجين عن هذه التضحيات،بل هى حسنة تلائم هذهالنفوس المطهرة اعتباراًبهذه الغاية العظمى، وان كانت سيئة في حدّ ذاتها .

القرآن والاختيار

المهتدي : فماذا نصنع بما يُوحيه القرآن من الجبر في الضلالة والهداية - وانها من الله تعالى - ليس للمكلف فيها صنع وإختيار ، فما هو العلاج لصراع العقل والنقل القرآني بهذا الصدد :

١ - « فيضل الله من يشاء ومن يهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم» ١٤ : ٤

٢ - «ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء » ١٦ : ٩٣ .

٣ - « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » ٣٥ : ٨ .

٤ - «كذلك يضل الله من يشاء » ٧٤ : ٣١ .

٥ - «ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » ٤ : ١٤٣ .

٦ - «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» ٧ : ١٧٨ .

٧ - «من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » ٧ : ١٨٦ .

٨ - «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً» ١٨ : ١٧

٩ - «ومن يضلل الله فما له من سبيل » ٤٢ : ٤٦ .

١٠ - «من يشاء الله يضلله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم» ٦ : ٣٩ .

١١ - «فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيّقاً حَرِجاً كإنما يصّعّد في السماء» ٧ : ١٤٥ .

هذه الآيات وعشرات من أمثالها توحي الجبر في الضلالة والهداية !

معنى الاضلال والهداية الالهيين :

الموحد : الإضلال والهداية منه تعالى ليسا إلاّ كما يناسب عدله وحكمته تعالى ـ ويلائم اختيار العباد ـ دون جبر وتسيير إطلاقاً ، فما هما إلاّ بعد اختيار العبد احدهما ، ثم يعاقب الله تعالى من زاغ بإختيار : أن يزيغ قلوبهم جزاءً وفاقاً : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

وليس إضلاله تعالى هؤلاء الذين يستحقون الضلالة إلاّ طبعاً على قلوبهم فهم لايفقهون: «ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون» ٦٣ : ٣

أو أن يذرهم في طغيانهم يعمهون وفي غيهم يترددون ، دون أن يؤيدهم ويوفقهم لمرضاته : « الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » ٢ : ١٥ . «من يُضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون» ١٨٦ : ١٧ . « فنذر الذين لا يرجعون لقاءنا في طغيانهم يعمهون» ١٠ : ١١ .

فكما أن لله تعالى أن يأذن تكوينياً في عصيان العاصين ، بعد ما اختاروه وقدموا له ما يستطيعون من معدّات وأسباب ، ابتلاءً لهم وامتحاناً ، وألا يكونوا مجبورين مسيَّرين في ترك العصيان ، ولا يكون المطيع والعاصي على سواء .

كذلك له أن يختم على قلوب وسمع وأبصار هؤلاء الذين زاغوا أو عاندوا الحق ، وأصروا على العصيان والطغيان : أن يذرهم في طغيانهم يعمهون .

إذاً فليست هذه الضلالة الطابعة على قلوبهم إلاّ من جرّاء اختيارهم ـ إمتناعاً بالاختيار ـ وكما هم مسيَّرون في خلود النار بما إختاروا من العصيان ، إمتناعاً بالاختيار ، على سواء .

والآيات المشار إليها وعشرات أمثالها ، توحي تماماً : أنه لاجبر ولاتفويض بل أمر بين أمرين ، وأن الله تعالى لايضل ولا يهدي إلاّ من مشى في طريق الضلالة والمتاهة ، أو في سبيل الهداية ، فيكبت الأول بضلاله : « فلما زاغوا

أزاغ الله قلوبهم ، ويهدي الآخر بما اهتدى : توفيقاً له وتأييداً ، ليستكمل في الهداية والزلفى منه تعالى .

فالآيات المشار إليها أولاً محفوفة بما يوحي ما إستوحيناه كالتالي :

١ - « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ... » : إذاً فهما ليسا إلا بعد بيان الرسل واهتداء من اهتدى وضلال من ضل أولاً ، ثم الله يضل الآخرين : طبعاً على قلوبهم ، ويهدي الأولين شرحاً لصدورهم .

٢ - «ولتُسألُنّ عما كنتم تعملون»: من سوء باختياركم فأضلكم الله من جرّائه .

٣ - « أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء .. » : فهؤلاء هم الذين يواصلون في الأعمال السوء ، حتى إذا رأوها حسنة، ثم الله يضلهم ختماً على قلوبهم .

٤ - « كذلك يضل الله .. » يبتليهم بما يختارون فيه الضلالة ، وكما يوحي بذلك صدر الآية : « وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.. »

٥ - « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم .. ومن يضلل الله » : يَعتبر إضلاله تعالى مخادعةً منه لهم أن خادعوه ، جزاءً وفاقاً .

٦ - «ساء مثلاً القوم الذين كذّبوا بآياتنا.. من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل»: يعتبر إضلاله تعالى من جرّاء تكذيبهم بآياته .

٧ - « أوَ لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأيّ حديث بعده يؤمنون . من يضلل الله فلا هادي له » : إضلالاً بما ضلّوا من قبل ، وقد يفسره أيضاً : «ويذرهم في

طغيانهم يعمهون » : فالعَمه في الطغيان ، إنّه منهم ومن الله ، منهم بما أنهم واصلوا في الطغيان ، ومن الله : أن يكِلَهم الى أنفسهم ويذرهم عامهين .

٩ – « وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .. ومن يضلل الله فما له من سبيل » .

١٠ – « والذين كذبوا بآياتنا صمٌ بكمٌ في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم » : مشيةٌ بعد أن يريد العبد الضلالة ، أو الهداية.

فهذه الآيات البينات يحتفّها ما يفسر الهداية والضلالة من الله : أنها من جراءِ اختيارهما من العبد من ذي قبل دون تسيير واجبار ! ..

ثم هناك في الذكر الحكيم تصاريح أخرى بهذا الوحي القويم في اختيارية الضلالة والهداية كالتالي :

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » ٤٧ : ١ « أفرأيت من إتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » ٤٥ : ٢٣ . « وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً » ٧١ : ٢٤ « يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضل به إلا الفاسقين » ٢ : ٢٦ « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » ١٤ : ٢٧ « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » ٤٠ : ٣٤ « كذلك يضل الله الكافرين » ٤٠ : ٧٤ .

هذه وعشرات أمثالها ، وعشرات : فيها تصاريح قيمة على الاختيار والأمر بين أمرين كالتالي :

« هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ١٨ : ٢٩ « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » : « نذيراً للبشر . لمن شاء منكم ان يتقدم أو يتأخر » ٧٤ : ٣٧ – ٣٨ : أن يتقدم الى الهدى أو يتأخر عنها فيضل عن الحق : « كلاّ انه تذكرة . فمن شاء ذكره » ٧٤ : ٥٥ « إنّ هذه تذكرة فمن شاء ان

يتخذ الى ربه سبيلا» ٧٦ : ٢٩ «ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً» ٧٨ : ٣٩ «إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم» ٨١ : ٢٨ «اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير» ٤١ : ٤٠ .

هذه وعشرات وعشرات أمثالها صريحة في الاختيار ـ والتفصيل الكتابي في محـــله [1] .

●

---

١ ـ موسوعتنا : الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن وهي في التحضير في ثلاثين جزءً .

آلهة الخير !..

الثنوي : .. كلّ هذه البحوث -على طولها- إنما تنحو منحى تزييف موقف إله الشر بجنب إله الخير-إلاّ أن إحتمال التعدد باق في آلهة الخير: اثنين أو أزيد- هما الخالقان للكون على المساهمة في الخلق والتدبير .

فلا علينا أن نستبدل بهذه الثنوية الشريرة تلك الثنوية الخيرة، فإحتمال التعدد لآلهة الخير لاتبطله البراهين المزيّفة لموقف إله الشر ، ولا القائمة على أن في الكون إلهاً ، حيث لم تُثبت الوحدة ؟ .

براهين التوحيد .. برهان النظم :

الموحد : وحدة النظام والإنسجام التـــام في الكون ، دون تفاوت فيه ولا تهافت ، هذه الوحدة تدلنا على وحدة الناظم ، إذ إن التعدد يفرض تهافت الكون خلقةً وتدبيراً ، قضية اختلاف الارادة والفعل :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ٢١ : ٢٣ - ٢٥ .

« .. وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَـــا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣ : ٩٤ - ٩٥ .

«لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً» ١٧ : ٤٥ - ٤٦ .

«..مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ» ٦٧ : ٤ - ٥ .

شبهات حول التوحيد :

الثنوي : وحدة النظام إنما تدل على وحدة المنظم ، سواءً أكانت وحدة عددية أم وحدةً نظرية وأفعالية : لآلهة مشتركين في صفات الالوهية وكمالاتها ، فلنفرض : أن هناك الهين اثنين ـ على أقل التقدير ـ لاتضادَّ بينهما ولا تنازع ، فلا تفاسد واختلال في النظام ، فإنهما عليمان حكيمان عدلان ، لايتّجهان إلاّ الى الخير ، وليست بينهما إلاّ الموافقة والملائمة : صفاتية وأفعالية .

فهذه ثنوية طيّبة حكيمة عادلة ، لا كما تظنه الثنوية الشيطانية : ١ ـ أن يكون أحدهما إله الشرّ : الشيطان الرجيم ـ ٢ ـ أو إلهي الخـــير على تغالب وتضادّ بينهما في شئون الكون من الخلق والتدبير . كلاّ ! .

فلو كان فيهما آلهة ـهكذاـ لم يكن فسادٌ ، ولم يعلُ بعضهم على بعض ، ولم يبتغ الى ذي العرش سبيلاً ! اللّهم إلا آلهة متباغضين متفاسدين ، لا يهدفون من الخلق والتدبير إلاّ الخرق والتدمير بالنسبة لشركائهم في الألوهية ـ وإذ نحن نحتمل أو نعتقد : أن هناك في الكون آلهة أو الهين ، إذاً نعتـبرهما كواحد : في الذات وفي الأفعال والصفات .

الموحد : عندنا براهين قاطعة عقلية وأخرى نقلية لا تنقص عن الأولى ، بل وقد تربو عليها : برهاناً وتبياناً على التوحيد ـ وقد نأتي فيما يأتي على البراهين الساطعة المستفادة من تلكم الآيات البينات ، التي تضم كلا الدليلين ، واليكم الأسئلة التالية حول ما تظنون من الهين اثنين :

الفروض العقلية حول الآلهة المزعومة :

لا تخلو حال هذين الالهين المزعومين ، فيهما بينهما ، من ثلاث :

١ – هما مثلان لا يختلفان ، في : ذات الالوهية، ولا الافعال ولا الصفات.

٢ – هما يختلفان دون اشتراك في ايّة جهة من تلكم الجهات .

٣ – هما متفقان من جهة ويختلفان من اخرى ...

فهذه فروض حاصرة عقلية في وهم تعدد الإله ، لا مناص عنها ولا مفر منها ، فماذا تقولون ؟

وحدة الإلهَين في كافة الجهات ! ...

الثنوي : نفرض انهما اثنان لا يختلفان في أيّة جهة من الجهات، في الذات وفي الصفات ، وهذا الوفاق هو السرُّ في وحدة النظم وتلائم أجزاء الكون ، كأنها من واحد ، اجل من واحد لا في العدد، بل في الهدف والاتجاه ، حيث المنحى واحد هو النظم المتقن دون تفاوت .

الموحد : نقول اولاً : مما لا يريبه شك : أن الإله غير متناه ولا محدود : ذاتاً وصفاتاً ، واللا نهاية في جهة واحدة لا يتصور فيها التعدد، إذ إنها لا تتحمل الزيادة كما لا تتحمل النقصان، وإنما النقصان والزيادة يتصوران في المحدود .

توضيحاً لذلك نسألكم : هل إن اللانهاية الثانية في ذات الالوهية وصفاتها ، هل إنها تزيد في الاولى اذا زيدت عليها أن صارت اثنتين ، أم لا ؟ فإن زيدت الاولى فهي محدودة ، حيث تحملت الزيادة ، فلا الوهية في الاولى ، وكذا الثانية حيث صارت مع الاولى اكثر من نفسها ! وان لم تزد الاولى بهذه اللا نهاية الثانية ولا الثانية بالاولى ، إذاً رجعت اللا نهاية في كلٍّ منهما إلى اللاشيء ، إذ لا تؤثر فيها زيادة على الفرض ، فهي اللاشيء اطلاقاً ، خلواً عن كل شيء :عن النهاية واللانهاية كليهما .

قوام الوحدة والتعدد :

ثانياً : انه يستحيل التعدد في المفروض اثنين ، على الفرضين : المحدودين واللامحدودين ، إلاّ ان يكون هناك ميز في البين- فيهما أو في احدهما: ذاتاً أو صفاتاً أو في المكان أو الزمان ، فإذ لم يكن هناك ميزٌ في البين لم يكن بينٌ فلا اثنينً ! . . .

ذلك : أن قوام التعدد انما هو وجود ميزٍ مّا بين المتعددين ، كما وأن قوام الوحدة هو الوحدة في كافة الجهات : الذاتية والعرضية .

فلا نقول لشيء : إنه واحد - إلاّ لوحدة كيانه : في ذاته وصفاته - كما لا نقول لأشياء : إنها متعددة ، إلاّ إذا اختلفت في جهة مّا : ذاتية أم صفاتية أو في الزمان أو المكان - على سبيل منع الخلوّ - وإن اتحـــدت في الجهات الأخرى ، فالتعدد إنما هو نتاج الإختلاف - مهما كان قليلاً أم كثيراً .

إذاً : فالقول بالوحدة الحقيقية بين إلهين اثنين في كافة الجهات - في الذات وفي الصفات - هذا إمّا قولٌ بوحدتهما دون كثرة ، أو بالجمع بين الوحدة والكثرة في حقيقة خارجية - من جهة واحدة : أنّ هذين الإلهين واحدٌ - لوحدتهما في كافة الجهات - وإثنان بما فرضتم أنهما اثنان .

لكن الوحدة هنا بيّنة مبرهنة بسناد شروط الوحدة وقوامها،الكائنة فيهما- والكثرة دعوىً زور بلا برهان بُغية الثنوية المزعومة ، وما هي إلاّ احتمالاً لايحتمله العقل بل ويُحيله ، إذ إنه جمع بين المتباينين المتناقضين ، لان المناط في الوحدة يباين مناط الكثرة : مباينة كلية ، ونحن لا نجد في المفروض هنا إلاّ مناط الوحدة وكما تعترفون : أنه لااختلاف بينهما اطلاقاً، فلا كثرة هنا اطلاقاً، إذ القول بهـــا في الواحد الحقيقي قول باجتماع المتباينين المتناقضين ، واستحالة الجمع بينهما كارتفاعهما من أوّليات الضروريات العقلية .

الاختلاف خارج الذات !

الثنوي : نفرض الإختلاف بينهما خارج الذات والصفات: في الزمان أو المكان أو فيهما، ولكنهما في الذات والصفات مثلان لا يختلفان ، كما نجد هكذا وحدة بين كأسين صنعا في معمل واحد ، صنعا على سواء ، وإنما اختلاف المكان ، وزمان الصنع ، جعلها اثنين ، رغم وحدتها في كافة الذاتيات .

الموحد : الزمان والمكان إنما يفترضان في الكائن المادي ، وكما قدمنا : أن الزمان من لوازم المادة لحراكها ، وكذلك المكان لمحدوديتها ، هذا في الماديات.

وأما الإله المجرد عن المادة والماديات ، فهو خالق الزمان والمكان ، لا يحويه زمان ولا يشمله مكان، فهو الذي أيّن الأين فكيف يكون له أين ؟ وهو الذي خلق المكان بمن فيه ، فكيف يكون له مكان ؟

فإذ لا مكان للإلهين المفروضين ولازمان ،فليختص المميز بينهما بالذات أو الصفات ، وإذ لا اختلاف بينهما فيهما اطلاقاً ، على الفرض ، فهما واحد دون ريب ، وإلا لم يكن فرق بين الواحد والكثير ، أو جاز أن يكون الواحد كثيراً في وحدته ، والكثير واحداً في كثرته : من جهة واحدة ، وهو تناقض بيّن !

مثالاً على ذلك فيما نحسه : الإنسان، حيث لا يتصور له أفراد ، ولا تتحقق ، إلا على اختلاف مّا : هو قوام الكثرة، رغم اشتراك الكلّ في الماهية الإنسانية .

فزيد وعمر إثنان من أفراد الإنسان ، لا لإختلاف الإسم ، إذ الواحد أيضاً تتأتى له اسماء ، بل لاختلاف الكينونة والمكان .

فلنفرض انهما في الروح والجسم مثلان ، فماذا نصنع باختلاف المكان ، ثم إن كان المكان أيضاً واحداً ، فهما أيضاً لا يكونان إلا واحداً تسمّى باسمين ، كما لو كان هناك إختلاف مّا في البين والإسم واحد ، لم تؤثر هذه الوحدة اللفظية الوضعية توحيداً فى الحقيقة الخارجية دون ريب .

اذاً ففرض إلّهين اثنين : متحدين في كافة ما به الوحدة الحقيقية ، هذا ليس إلا فرض الواحد كثيراً ، فرضاً زوراً ليس له أساس ، لايحمل إلا" إلهاً واحداً تسمى باسمين ، أو يُدعى أنه اثنان ـ كل ذلك مضافاً إلى ان تعدد المكان في المادي أيضاً لا يفرض تعدد الذات إلا إذا كانت الذات متعددة مع صرف النظر عن تعدد المكان .

•

مشاكل عشر في فرض تعدد الإله

الثنوي : نفرض أنهما مشتركان في كافة الجهات : الذاتية والوضعية ، ويمتازان فيما بينهما بمايز مّا : هو ضروري في التعدد ، فلا إشكال ! إذ تزول مشكلة التعدد .

الموحد . قد تزول ، ولكنها تخلفها مشاكل أخرى تترى .

١ - لو كان المايز فيهما : في ذات كلٍّ أو صفاته ، فهما إذاً محدودان ، حيث يفقد الكلُّ ما يجده الآخر من المايز الذاتي أو الصفاتي الالَهي ، فلا الوهية لهما لمكان المحدودية المنافية لها .

«لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا» : الإله والآلهة ، إذ إن المحدودية فسادٌ في ساحة الالوهية .

٢ - ثم المايز إما كمال لائق لساحة الألوهية ، أو نقص ينافيها ، وعلى الفرضين فهما ناقصان : فلو كان كمالاً ، فكلٌّ يفقد ما يجده الآخر من هذا الكمال-فهما اذاً يفقدان كمالاً مّا إلَهياً ، وأوضح من ذلك ان لو كان المايز نقصاً، فهما على الفرضين ناقصان :

« لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا»: إذ ان النقص فساد في ساحة الالوهية، فالإله والآلهة فاسد ان لا ينتجان إلا كوناً فاسداً متفاوتاً متهافتاً : لفسدتا : ١- الإله والآلهة ٢ - السماوات والارض .

٣- ثم إنَّ كلا منهما، على الفرض، مركب مما به الميز وما به الشركة ، والتركب مهما كان آية الحدوث ، وان كان المايز في الكلّ صفة كمالٍ ، وأغمضنا النظر

عن مشكلة النقص فيهما ، من جهة فقده لما يجده الآخر من ميزه :

« لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا » : إذ ان الحـــدوث فساد في ساحة الالوهية واي ّ فساد !

الثنوي : نفرض المايز في أحدهما دون الآخر فلا محظور .

٤ – الموحد : انه محظور ، إذ يتنافى وفرض الهين اثنين ، حيث كان مَن فيه المايز مركباً فحادثاً ، إذاً فالتمدد في ساحة الالوهية فاسد .

٥ – ثم لو كان هذا الميز الكائن في أحدهما كمالاً ، فالآخر أيضاً حادث متناه محدود ناقص ، إذ يفقد هذا الكمال ، والاول أيضاً حادث لمكان تركـّبه من الجهتين : المايزة والمشتركة ، فهما إذاً حادثان ! ... « لو كان فيها الهة الا الله لفسدتا » ! ...

٦ – ولو كان هذا الميز نقصاً ، فالإله إنما هو الآخر دون الاول : «لو كان فيهما ...»

الثنوي: نفرض المايز مثلهما كما هما فيمابينهما ، فما به الميز عينما به الشركة إذاً فيها إلهان مشتركان في كافة جهات الألوهية ، والمايز أيضاً كمثلهما دون أي اختلاف .

٧ – الموحد : إذاً لم يكن هذا مايزاً إلا ّ في الإسم ، كما أنهما ليسا الهـــين اثنين إلا ّ في الإسم ،دون أن تكون هناك أية كثرة لفقد أساسها،ففقد الاختلاف بين المايز وبينهما يجعل الثلاثة واحداً كالاثنين ، لعدم الميز في البين ! ومع غض الطرف عن هذه المشكلة ، فلا محيص عن تركب كل ّ ، أو أحدهما : عمـــا به الشركة والميز ، فهما أو احدهما مألوه مخلوق ، وسبحان الله عما يصفون ! « لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا » ! ...

الثنوي : نفرض المايز خارج الذات فلا محظور اطلاقاً !

٨ – الموحد: أول ما يرد على هذا الفرض:أن المايز الذاتي والصفاتي يجب أن

يكون في نفس الذات والصفات ـ حتى يميزهما عما يشاركهما ، وإلاّ فلا تعدد اطلاقاً .

مثالاً عليه : كأسان هما واحد في كافة جهات الوحدة فيدعى أنهما إثنان ، لا لشيء إلاّ لان هناك كأساً ثالثاً يختلف عنهما في جهة ما ، فهل هكذا ميز ، الخارج عن كيان الكأسين المفروضين ، هل انه يجعلهما اثنين ؟

هب انه يكفي في التعدد ، فهل هو يختلف عنهما ليتحقق الميز باختلاف مّا وإن كان خارج الذات !! أو هو كمثلهما سواء ؟

الثنوي : انه يختلف عنهما ـ فلا ضير ما لم يكن اختلاف بينهما داخل الذات.

٩ – الموحد : فليكن هذا المايز أيضاً قديماً معهما ، كما هما ، حتى نحكم بالإثنينية من الأزل ، واذ ذاك فهل إن هذا المايز ، الواجد لما يفقد انه ، هل إنه كمالٌ في ساحة الألوهية أم نقص ، فإذا كان كمالاً ، فهما إذ يفقدانه ، خارجان عن الألوهية ، لمكان النقص « لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا » !..

وإذا كان نقصاً فهو خلاف الضرورة : أن يكون الازلي ناقصاً ، حال أن الأزلية هي الكمال والغنى اللانهائيان ، فإذ كان ناقصاً كان حادثاً ، وإذ كان حادثاً فالإلهان واحد قبل حدوث هذا المايز ، ثم لا يتمكن المايز الحادث أن يجعل الواحد الأزلي اثنين وإلاّ صارا حادثين بعد الأزلية ، وهذا محال من ناحيتين: ١ – حدوث الأزلي ٢ – حدوث الإله .

المايز المماثل !

الثنوي : نقول : ان المايز أيضاً مثلهما أزلي معهما ، فلا اشكال اطلاقاً ! . .

١٠ – الموحد : فرض المماثلة بين المايز والمتمايزين المتماثلين ، هذا : لا يزيد عن فرض المتماثلين دون مايز ـ إلاّ فرض زيادة العدد ، إذ إن المايز المماثل لا يميِّز ، فإنه أيضاً بحاجة إلى مايز بينه وبين المثلين .

والسرّ أن الميز بحاجة ضرورية إلى اختلاف مّا بين المايز وما يميّزه ، مهما كان ، ففقد الاختلاف فقدٌ للميز والمايز .

الآلهة غير المتناهية في العدد ! ..

ثم لا يقف هذا الفرض إلى حدٍ ، فإنّ هذه الثلاثة المماثلة على الفرض ، هي بحاجة إلى ما يزين على أقل التقدير ، فان كانا همـــا أيضاً كمثل الثلاثة ، دون اختلاف ، صارت الآلهة خمسة ، فهم بحاجة إلى أربع مايزات ، ثم لو دام فرض المماثلة كانت الآلهة تسعة محتاجة إلى ثمانية ، وإلى غير النهاية ! ...

ففرض المماثلة بين المايز والآلهة ، فرض لتناهي عدد الآلهة إلى ما لا نهاية له في الكثرة ، واللاّنهاية العددية الفعلية مستحيلة كما قدمناها ، مهما كانت في الآلهة وسواهم ، مضافاً إلى استحالة التعدد في اللاّنهاية وان كانت في اثنين .

وان وقف الفرض لحدٍ مّا : نفرضه لمليار ، فاللازم أن يكون نصف مليار إلاّ واحداً ، مايزاً ، والباقي إلهاً ، ثم هؤلاء على كثرتهم ليسوا بآلهة لما فصلناه تاسعاً : إما لانهم يفقدون كمالاً أو كمالات الهية ، أو أن المايز الأزلي ناقص :
« لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ».

هذه عشرة كاملة تأتي حججاً قيمة دامغة تقضي على الفرض الثاني في تعدد الآلهة : هو انهما يشتركان في جهة ويمتازان في أخرى ! ...

●

شبهة ابن كمونة اليهودي

إلهان متباينان كلياً ! . .

الثنوي : أخيراً نفرضها متباينين من كل الجهات : الذاتية والصفاتية ـ كما ذهب إليه ابن كمونةـ فكلٌ ميزٌ عن الآخر بكله ، دون حاجة الى ما به الشركة والميز ، فلا محظور ! .

الموحدّ: أول ما نقول: إنه خروج عن الفرض الأول: انهما اثنان لايختلفان في أية جهة ذاتية أو صفاتية ، ورجوعٌ الى فرض التضاد والتمانع ، حيث الفساد والبوار في الخلق والتدبير انما هو نتاج اختلاف الخالق والمدبّر : فـ « لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » هما ، والسماوات والأرض ، وإذ لا فساد وتفاوت في الخلق والتدبير أصالة ، فلا إله إلاّ إله واحد سبحانه وتعالى عما يشركون .

ثانيا : ان المباينة الكلية إنما تكون بين الحادث والأزلي ، وأما الأزليان أو الحادثان فهما مشتركان في أصل الازلية أو الحدوث على أقل التقدير .

إذاً فهذان الإلهان هلاّ يشتركان ـ حتى في الأزلية ـ ثم في كافة ما تستوجبه الألوهية في الذات والصفات ؟ ! . .

فإن قلتم : لا ـ فالواجد إله أزليٌ والفاقد مألوه حادثٌ ، وإن قلتم : نعم ـ فليكن بينهما ميزٌ مّا: هو أساس التعدد ، فترجع العشرة الكاملة الماضية مدمّرة لالوهيتهما معاً : **« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »** .

ثالثاً : لاريب أن ذات الإله عين صفاته : الذاتية ، وصفاته هذه عين ذاته :

فالحياه والعلم والقدرة : هذه الصفات الذاتية هي عين ذات الإله [1] فعلى فرض تباينهما كلياً في الذات والصفات ، كانت صفاتهما متباينة كالذات ، فعلم كلٍّ وقدرته يباين علم الآخر وقدرته .

وإختـــلاف الصفات ، لا سيما الذاتية : التي هي المصادر لسائر الصفات والأفعال ، هذا الاختلاف يقضي بإختلاف الأفعال لا محالة ـ ومن نتاجه إختلال النظم في الخلق والتدبير ، والتفاسد والتمانع بينهما في الأمرين :

.. « وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون » ٢٣ : ٩٤ .

« لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً » ١٧ : ٤٥

« ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » ٦٧ : ٤ ـ ٥

الخلق والتدبير بين الالهين ! ..

ثم على كلٍ من هذه الفروض الثلاثة [2] لهذين الإلهين ، هناك فروض بالنسبة للخلق والتدبير :

١ ـ فإما ان لاحدهما الخلق وللآخر تدبيره ! .

٢ ـ أو هما مشتركان فيهما بالمعاونة ! .

٣ ـ أم إن بعض الخلق والتدبير لاحدهما والآخر للآخر ! ـ و :

كل ذلك آية عجزهما فلا ألوهية لهما إطلاقاً .

---

١ ـ كما سوف نأتي عليه عنه عند البحث عن التوحيد الصفاتي .

٢ ـ أي تماثلهما إطلاقاً ـ وتباينهما كذلك ـ واشتراكهما في جهة ما ، كما فصلناه .

أما على الأول: فلِمَ لم يستقل الخالق بالتدبير أو المدبّر بالخلق ، حتى اقتسما أمرهما بينهما ؟ ألِعجز الكلّ عن الأمرين ؟ أم لخوفه عن بأس الآخــــر ؟ فهذا عجزٌ ونقصٌ ، حاشا الإله عنهما ! . أم لأن كلا لم يرَ ويعـــلم المصلحة إلاّ فيما اختص به ، رغم وجوب الأمرين في النظم الأتمّ ! فهذا جهلٌ ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وكذلك على الآخرين- وفيهما مزيد ، حيث نسأل: هل يحتاج الممكن إليهما معاً متعاونين ؟ أم الى أحدهما فحسب ؟ ثم هل يحتاج أحدهما الى معاونة الآخر أم لا ؟ .

فلو كانت حاجة الممكن إليهما معاً -مهما كانت- إذاً فلا كفائة في كلٍّ بدون الآخر، فهما إذاً عاجزان محتاجان ! والا ً فلِمَ يتعاونان ؟ هل لإستعانة في غير المستطاع ؟ فهذا عجزٌ ، أم لغو وعبث؟ فهو نقص، أم قضية المصلحة فما هي؟.

فهل إنها رعاية جانب الشريك لكي لا يتهجم عليه ؟ فضعفٌ ، أم لعـــدم كفائته وحده بتام المصلحة فعجز وجهل .

وعلى الجملة : لو كانت الكفائة كاملة في أحدهما فوجود الثاني لغــــوٌ ، وإلاّ فلا ألوهية لهما اطلاقاً .

ثم على أية حال، لِمَ لا يقضي كلٌ على صاحبه إستقلالاً بالألوهية ؟ إذ إنّ الشركة نقصٌ ، ولِمَ لا يذهب كل إله بما خلق ويعلُ بعضهم على بعض ؟ .

هذا : وكما استوحيناه من براهين الوحي ، ونموذجاً منها ما يلي :

من حجاج للامام الصادق عليه السلام في التوحيد مع الزنديق الذي اتاه :

« .. لا يخلو قولك ؟ إنهما إثنان : من أن يكونا قديمين قويين - أو يكونا ضعيفين - أو يكون احدهما قوياً والاخر ضعيفاً ، فان كانا قويين فلِمَ لا يدفع كلُ واحـــد منهما صاحبه ويتفرّد بالتدبير ، وإن زعمت ان أحدهما قويٌ والاخر ضعيف ، ثبت انهما واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني -

وان قلت : انهما اثنان ـ لم يخلُ من ان يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة ـ فلما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر ، دلّ صحة الأمر والتدبير وائتلاف الامر على ان المدبّر واحد .

ثم يلزمك ان ادعيت اثنين فلابد من فُرجـــة بينهما حتى يكونا اثنين ، فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما ، فيلزمك ثلاثة ، وان ادعيت ثلاثة لزمك ما قلنا في الاثنين حتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسة ، ثم يتناهى في العدد الى ما لا نهاية في الكثرة » [1] .

وآخر ما نقول أنه : لِمَ لم يبعث كلٌ انبياء بشرائع يهتدي بها العباد ـ وانما اختص أحدهما بذلك ، حيث نرى الرسل تترى من إله واحد لتوحيد العباد على عبوديته وحده ، وهم يجمعون : أنه لا إله إلا من أرسلهم ، صادرين عنه بالوحي : « أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر مَن معي وذكر مَن قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ٢١ : ٢٣ ـ ٢٥ .

وضرورة تصديق هذا الإله لألوهيته ، ولزوم تكذيب من يُدّعى شركته معه ـ لما برهنا عليه ـ ولأنه جاهل غـير حكيم ، حيث لم يرسل رسلاً ، هاتان الضرورتان تمليان إملائاً تاماً أنه : لا إله إلا إله واحـــدٌ سبحانه وتعالى عما يشركون .

---

١ ـ البحار ج ١٠ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

نظرة في آي التوحيد

حينذاك تظهر لكم بارقة التوحيد التي تضمها آيات بينات كما سلفت :

١ - «لو كان فيهما الهة الا ّ الله لفسدتا»: الآلهة والإله -الأرض والسماوات- نتيجة اختلاف النظم في الكون ، من جرّاء اختلاف الناظم كما فصلناه .

ففي فرض إلهين اثنين فسادٌ مثلث ليس إلا ّ :

١ - فساد التعدد حيث يرجع الى الواحد في فرض التماثل .

٢ - فسادهما على فرض التباين الكلي ، أم اشتراكهما من جهة واختلافهما في أخــــرى .

٣ - وفساد السماوات والأرض على الأخيرين اضافة الى فسادهما .

.. فالكون قائم على الناموس الواحد ، الذي يربط بين أجزائه جميعــاً ، وينسق بين أجزائه جميعاً ، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظّم، هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة ، لإله واحد ، فلو تعددت الذوات لتعددت الارادات، واختلفت وتهافتت، ولتعددت النواميس تبعاً لها ،فالارادة مظهر الذات المريده ، والناموس مظهر الارادة النافذة .

ولو تعددت الآلهة لإنعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كلّه، وتوحّد منهجه واتجاهه وسلوكه ، ولوقع الإضطراب والفساد ، تبعاً لفقدان التناسق ، هذا التناسق الملحوظ الملموس الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس.

وإن الفطرة السليمة غير الدخيلة ،التى تتلقى ايقاع الناموس الواحد للوجود كله ، لتشهد شهادةً فطرية بوحدة هذا الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته

ووحدة الخالق المدبّر لهذا الكون المنظم المنسّق ، الذي لا فساد في تكوينه ولا خلل في سيره .

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون »: له من شركاء .

« لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون » . :

ومتى كان المسيطر على الوجود كلّه يُسأل ، فمن ذا الذي يسأله ؟ وهو القاهر فوق عباده وبيده ناصية كل شيء ، وإرادته طليقة لا يحدّها قيد من إرادة أخرى ، لا .. وحتى من الناموس الذي ترتضيه هي ، وتتخذه حاكماً لنظام الوجود ، والسؤال والحساب إنما يكونان بناءً على حدود تُرسم ، ومقياس يوضع ، والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس ، ولا تتقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد ، والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يُسألون .

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المتعجب: ولماذا صنع الله كذا ؟ وما الحكمة في هذا الصنع؟ وكأنما يريدون ليقولوا: إنهم لا يجدون الحكمة في هذا الصنيع ! .

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود ، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر ، الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات ، وهو محصورٌ في حيّزه المحدود . .

إن الذي يعلم كل شيء ، ويدبّر كلّ شيء ، ويسيطر على كل شيء ، وهو الذي يقدّر ويدبر ويحكم: « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » . .

* * *

٢ - « وما كان معه من اله إذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . . » ٢٣ : ٩٤ .

وهذه الآية تضم حجتين :

١ - لزوم ذهاب كلّ إله بما خلق - مستقلاً بما خلقه - يعرفه حسب ناموس خاص فيُصبح لكلِ جزءٍ من الكون، أو لكلّ فريق من الخلق، ناموسٌ خاص لا يلتقي فيه بناموس عامٍ يصرف الجميع - وبهذا ينفصم عرى الوحدة في التدبير ويختل النظام، رغم أن التدبير واحد متصل منسجم - والنظام تامٌ، فلا شركة في الالوهية .

٢ - لزوم علوّ كلٍ على زميله، إستقلالاً بعرش الألوهية، وقضاءً على نقص الشركة : بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لايبقى ولاينتظم إلا بناموس واحد، وتصريفٍ واحد، وتدبيرٍ واحد، كما وفي مقالةِ للإمام الصادق عليه‌السلام تفسيراً للآية : «لأفسد كل واحد على صاحبه»[1] :

إمّا إفساداً على خلقه وتدبيره، أو افساداً على كيانه -أو عليهما- وكما يضم الكل قوله تعالى : «ولعلى بعضهم على بعض» - مهما كان العلوّ - وكل هـذه الصور لا وجود لها في الكون ! .

* * *

٣ - «لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً»

١ - سبيلاً ليغلبوا عليه- فتنازعاً فاختـــلالاً في النظم - وليس - فليس إلاّ واحداً .

٢ - سبيلاً ليتقرّبوا إليه، لكي يثبتهم على ما يريدون، وقد كذّبهم بلسان أنبيائه، فليس إلاّ واحداً .

٣ - سبيلاً إليه ليعرّفهم ذو العرش: أنهم شركائُه، فلا ينكرهم ويكذبهم! ولقد أنكرهم كالتالي :

---

١ - تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٥١٩

« قل اتنبّئون الله بما لايعلم في السماوات ولا في الارض » ؟ ١٠ : ١٨

فلو كان له شركاء لعرفهم وعرّفهم ـ كيف ! ولا يعلم لنفسه شريكا ـ ويؤكد التنديد بمن يُدّعى شركته معه ، في أية جهة من جهات الالوهية .

فهذه الآية « لو كان معه .. » تحيل وجود آلهـــة إلاّ الله ، لمكان « لو » الإمتناعية ـ فالقضية كلّها ممتنعة ـ وليست هنالك آلهة مع الله ـ كما يقولون ـ والآلهة التي يدعونها إن هي إلاّ خلق من خلق الله ، يتجه الى الله حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتعرفها وتجد طريقها الى الله ، بخضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته .

« اذن لابتغوا الى ذي العرش سبيلا »..وذكر العرش هنا للايحاء بالارتقاع والتسامي على هذه التي يدّعون أنها آلهـة مع الله ، وهي تحت عرشه وليست معه .. ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه :

« سبحانه وتعالى عما يقولون علـوا كبيرا .. تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيءٍ الاّ يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا » ..

* * *

٤ - « ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هـل ترى من فُطور ؟ . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك خاسئاً البصر وهو حسيرٌ »:

والتفاوت المنفي عن خلق الرحمان ، هو التنافي والتضاد وعدم انسجام والتحام أجزاء الكون في أصل الكينونة والنظام ، فلا يقتضي كلٌّ فوت الآخر ـ إطلاقاً ـ اللّهم إلاّ بخيرة الشيطان وحزبه ـ الذين يفسدون كما يستطيعون .

فلقد نرى الأرض تحول حول نفسها وحول شمسها في جادة معينة فضائية ـ لاتنزلق عنها ـ ولا تبطيء في حراكها .

ونرى كافة النجوم السيارة ، والجزائر والمجرّات السماوية التي تضم الميارات منها ، فكل في فلـــك يسبحون ، دون إصطدام وإصطكاك واحتكاك .. ونرى ...

فهذه آيات بينات تدلنا : أن وراء هذا الكون سائق ومدبر واحد ، لا تأخذه سنةولا نوم ، وله القدرة والبصيرة الكاملة بسائر هذه السيارات ، وإلاّ لانتثرت النجوم في غفلة مّا ، أو تنازعٍ بين آلهين اثنين ، وتشاجر بينهما .

فكلما تواترت الأنظار الدقيقة ، والأفكار القيمة في هذا الكون البارع ، لم تزدد إلاّ علماً بنظمه الشامل وتنسيقه الكامل دون أي تفاوت ، وهذه الآية تتحدى الأنظار النافذة بكللها وبهرها ودهشها ، كلما كررت النظر في الكون:

١- «ما ترى فيخلق الرحمان منتفاوت»أياً ما كانت الرؤية ، ومنأيٍّ كان، فإنما ترى رحمانيته تعالى في خلقه ، شاملة كاملة حكيمة دقيقة ، أنتجت تلائماً وتناسقاً بين مختلف أنواع الكون وألوانه ، رغم اختلاف الآثار ، فليس هناك خلل ولا نقصٌ ولا اضطراب .

٢ - « فارجع البصر هل ترى من فطور » ؟ وانظر مرة اخرى للتأكد والتثبت ، وارجع البصر : رجوعاً ناقداً نافذاً أنفذ من الرؤية الاولى « هل ترى منفطور»: من فروج وصدوع وشقوق وفتوق وخروق ؟! هل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟ !

٣ - « ثم ارجع البصر كرتين » بغيةَ الإحاطة علىخفيات الكون ورموزه وغموضه ، زعم الحصول على تفاوت وفطور ـ فلربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتبينّه ، فأعد النظر ثم أعده، فإذ ذاك «ينقلب اليك البصر خاسئاً»:مبعّداً مصغّراً ذليلا كليلا ، عما يهواه «وهو حسير» : كليل ان يتعاطى ويحيط علماً بنظام الخلق، إلاّ يسيراً في إبهام ،كليلٌ أن يجد في خلق الرحمان نقصاً وخللا .

حيث النظرات المتجهة إلى الكون ، منها مدركة تحصل على رموز كونية عميقة ، فهي مذعنة ألا تفاوت فيه ولا فطور ، وأخرى تغرق في يمّه المتلاطم الأمواج حائرة قلقة ، كالكثير من النظرات التي تحاول ان تحيط به علماً ، فهذه لا تزداد أصحابها في سبرهم غور الكون إلا حيرة وبهوراً ، يذعنون : أنهـــم خاسئون في جنب تلكم العظمـــة في خلق الرحمان ، وان ابصارهم حسيرة كليلة ، فأنّى لهم النقد فيما فيه يُحارون ؟ أنقداً في المجهول ؟ !

اجل : وهذه قاعدة عاقلة منصفة : أن الناظر في الكون إذا عُمّيت عليه الحكمة في ناحية من نواحيه ، لم يكن له التسرُّع في النقد والإشكال ، لما يعلمه بإتقان : أنّ صانع الكون اعلم منه واتقن في الحكمة ، فليعترف بقصوره، بدل أن يتسرع بجهله في النقد ! ..

ولقد درسنا في مدارس العلوم الكونية : ان كل نقد في نظام الكون إنما هو ناتج عن قصور العلم وعدم نيله ، فعلى ضوء تقدم العلوم نرى المشاكل تنحل حسب مقادير التقدمات العلمية « وان ليس للانسان الا ما سعى» .

« ... واسلوب التحدي من شأنه ان يثير الاهتمام والجـــد في النظر إلى السماوات والى خلق الله كله ، وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة ، هي التي يريد القرآن أنيثيرها وان يبعثها .

فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة الى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق الذي لا تشبع العين من تملّي جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقي ايحاءآته وايماءآته ، ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته، والذي يعيش مَن يتأمله بهذه العين ، في مهرجان إلهي باهر رائع ، لا تخلق بدائعه ، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل .

والذي يعرف شيئاً من طبيعة هذا الكون ونظامه ، كما كشف العـــلم الحديث عن جوانب منها ، يدركه الدهش والذهول ، ولكن روعة الكون

لانحتاج إلى هذا العلم ، فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظـــر والتأمل ، فالقلب يتلقى ايقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً ،حين يتفتح ويستشرف ،ثم يتجاوب مع هده الايقاعات تجاوب الحيّ مع الحيّ ، قبل ان يعلم بفكره وبإرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون وإلى تملّي مشاهده وعجائبه ، ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً وفي كل عصر ،يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار ،وهو يخاطب الامّي الذي لم يقرء ولم يخطّ حرفاً ،كما ويخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء .

وكلُّ واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون ، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع » . [1]

●

---

١ ـ بين القوسين إلتقاطات من « في ظلال القرآن » .

براهين الفطرة والنقل على التوحيد

الثنوي : ... هنا وهناك تبدو مشكلة شائكة هي : أن ضرورة الإعتناق بتوحيد الإله تخص العقلاء العباقرة ، أهل النظرات العميقة في الفلسفات العقلية وسواها ، دون ان تشمل السذّج البسطاء والمتوسطين بين الطبقين ، رغم أنهم هم الأكثرية الشاملة في المكلفين !

إذاً فالمشركون من هؤلاء القاصرين لم يُشركوا إلاّ نتيجة قصورهم في حجج التوحيد ، رغم : « ان الله لا يغفر ان يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ٤ : ٤٨ - فهلاّ يغفرُ للقاصر وهو احق من يُغفر له ؟ !

الموحد : سبحان الله وحاشاه من ذلك ، بل إنّ توحيـــده تعالى كأصل وجوده ، تتوفر لاثباته البراهين : آفاقية وانفسية ـ عقلية ونقلية وفطرية ، فقد يُصغى إلى الادلة السمعية القاطعة حججاً للتوحيد ، رغم انه لا يُصغى إليها في أصل وجود الخالق ، ثم سائر البراهين بين الأصلين سواء .

برهان الفطرة :

إنه كما كانت الفطرة تبرهن لنا وجود خالق الكون ، كذلك تبرهن : أنه واحد لا إله إلاّ هو : « وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون الا اياه فلما نجّاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفوراً ١٧ : ٧٠

فالإنسان في سائر حالاته يظن : أن هناك شركاء لله في تدبيره : من علل واسباب ملموسة وسواها ، ثم إذا أحاط به الضر والشر من كل جانب ، وكلّت كافة هذه الأسباب ، ضلّت عنه وذابت إلاّ نقطة واحدة مرموزة ، تستكن في حاق الفطرة تُطَمْئنها .

«فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليهالا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ٣٠ : ٣٠

فاذا اتجه الإنسان بوجه عقله وقلبه إلى الفطرة ـ ولحى منحاها ، ولا سيا في اضطرار شامل وبوار كامل ، حينذاك يجد : أن ربه واحد لا شريك له .

وذلك الدين الذي يتطلع عن فطرة الإنسان ، عن حقها وحاقّتها ، هو الدين القيم ، يقوم مع الإنسان مهما كان ، ويقيمه عن أود الشرك في توحيد خالص لا مرد له .

قيّماً لاتطيق أن تدمره شتى المحاولات الضالة ، ولا يغيب عن الإنسان ما لم يغبه بطوع الهوى : إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى .

« ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر ... »

... « مشهدٌ هام يعرض علينا : مشهد الفلك في البحر ، نموذجاً لحظات الشدة والحرج ، لان الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم تتقاذفها الأمواج والتيارات ، والناس متشبثون بهذه النقطة على كفّ الرحمان .

إنه مشهد يحس به مَن كابده ، ويحسُّ بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك ، صغيراً كان أو كبيراً ، حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على بثْج الموج الجبار .

والتعبير يلمس القلوب لمسةً قوية ، وهو يشعر الناس : أنّ يد الله تزجي لهم الفلك في البحر ، وتدفعه ليبتغوا من فضله « انه كان بكم رحيماً » فالرحمة هى اظهر ما تستشعره القلوب في هذا الاوان .

ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرخيّ للاضطراب العتيّ ، حين ينسى الراكب في الفلك المتناوح بين الأمواج كلّ قوة وكلّ سند وكل مجـــير إلاّ الله ، فيتجهون

اليه وحده في لحظة الخطر ، لا يدعون أحداً سواه «ضل من تدعون الا اياه» . .

ولكن الانسان هو الانسان، فما أن تنجلي الغمرة وتحس قدماه ثبات الارض من تحته ، حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الاهواء وتجـرفه الشهوات وتغطّي على فطرته التي جلاها الخطر : « فلما نجاكم الى البر اعرضتم ، وكان الانسان كفوراً » إلاّ من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار »[1] .

●

---

١ ـ بين القوسين إقتباسات مستفادة من : « في ظلال القرآن » للسيد القطب .

ادلة التوحيد ـ السمعية

... ثم نجد ربنا تبارك وتعالى يعاضد دليل العقل والفطرة ، وبراهين الآيات الآفاقية والانفسية ، يعاضدها بما أوحى إلى سفرائه الكرام ، لكي يستعين بها من حجبت فطرته وكلّت برهنته ، لطفاً على لطف ونوراً على نور « يهدي الله لنوره من يشاء » . .

دليل النقل كيف يبرهن اصل التوحيد ؟

المهتدي : كيف تكفي أو تؤيد الادلة السمعية ، في اثبات الأصول الدينية ، فما هي إلا في ميادين العقول ، لتجول فيها وتتسابق لإثباتها .

الموحد : أول ما نقول : أنّ هذه الادلة السمعية إنمـــا هي مسموعة بسناد العقل ، حيث العقل يبرهن : أن في الكون إلهاً ، ثم إن له سفرآء ، بدليل اللطف وسواه ، نعرفهم بما عندهم من آيات الله البينات ، حيث يجري على أيديهم ما يعجز عنه من سوى الله ، فإلى هنا نعترف برسالاتهم وصدقهم نتيجة ادلة عقلية ثلاثة علي :

١ ـ اثبات الخالق ـ ٢ ـ أنّ عليه بعث الرسل ـ ٣ ـ أن هؤلاء رسله ، لما عندهم من آيات الله البينات .

حينذاك علينا أن نسمع لهم ونصغي اليهم دون حجاج ولجـــاج ، حيث لا يصدرون إلاّ عن الله ، فتصديقهم تصديقه وتكذيبهم تكذيبه .

فاذ يَصرخ نبي ثابت النبوة ، بسناد الوحي : **وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله أنا فاعبدون ٢٤ ... هذا ذكر مَن معي وذكر مَن قبلي ـ ٢١ : ٢٣ .**

إذاً تملي علينا الادلة العقلية السالفة : ان نصدقه فيا يصدر عن الله ، فلو كذبناه أو شككنا في قوله، فقد كذبنا ربنا وشككنا فيقوله سبحانه- سواء.

اجل : إن اثبات وجود الخالق مما يستقل به العقل ، دون ان تفيده الادلة السمعية إلا تأييداً وايضاحاً - فان الشاك في الله لا يحن ويصغي الى من يصدر عنه ، أفرعاً قبل الأصل ؟ !أو تصديقاً للرسول قبل الاذعان بوجود المرسِل ! . .

ولكنه بعد ما ثبت وجود الخالق وعلمه وعدله وحكمته ، وأن له رسلاً مبشرين ومنذرين ، إذ ذاك كان علينا الاصغاء الى مقالاتهم ، مهما كانت في أصول الدين أو فروعه ، إذ إنهم لا ينطقون عن الهوى . إن هو الا وحيٌ يوحى .

والتوحيد والمعاد من الاصول التي تثبت بدليل العقل والنقل متظافرين ، وقد يكتفى فيهما بنقل الوحي ، حيث العقل يملي تصديقه .. بملء طاقته .

ثم الوحي مما لا محيص عنه في تفصيل أصول الدين بعد إجمالها ، حيث العقول تختلف في هذه التفاصيل - رغم إتحادها في أصل وجود الخالق .

هذا - وقد تربوا الأدلة السمعية هناك - إذ لا مجال لتزييفها - رغم البعض من الأدلة العقلية التي قد تُزيِّفها أدلة أخرى كأمثالها .

وتربوا ثانياً بما تحمل من البراهين القاطعة العقلية التي لا مردَّ لها - وكما يقول تعالى :

« شَهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » ٣ : ١٨ :

شهادات ربانية على التوحيد :

شهد الله على توحيده : ١ - بذاته ٢ - وصفاته وأفعاله ٣ - وبما فطرنا- ٤-وبما خلق في نظمه ٥-وبما أو حي إلى رسله : شهادة منه ومن الآفاق والانفس التي خلقها - ٦ - وشهادة بعلمه المحيط على سواه :

١ - بذاته وصفاته : لأن ذات الالوهية وصفاتها تُحيل التعدد - حيث اللا يتناهى فيهما لا يلائم الكثرة - إلا وحدة حقيقية كما اسلفناه .

٢ - بأفعاله : لوحدتها ، وتلائمها ، وتناسقها ، وعدم التفاوت فيها ، وهذه كلها آية وحدة الفاعل .

٣ - بما فطرنا : حيث الفطرة شاهدة صدق عريقة على وحدة الفاطر .

٤ - بنظام الكون : في تناسقه وعدم تفاوته .

٥ -بما اوحى الى رسله : « لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون » ١٦ : ٥١ « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » ٢٠ : ١٤ « قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون » ٢١ : ١٠٨ ...

٦ - بعلمه : أنه لا يعلم إلهاً سوى نفسه المقدسة ، فإذا قال : لا أجد إلهاً غيري : « قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض » ١٠ : ١٨- إذ ذاك فمن المستحيل وجود إله سواه ، فلو كان لاطّلع هو عليه قبل كل احد ، سواء أكان شريكه ذاتياً ، أم اتخذه لنفسه شريكاً ، أم اتخذه الشريك لنفسه زميلاً ! سبحانه وتعالى عما يشركون .

... والملائكة : تشهد ملائكته : ١ - بما شهدوا بالوحي دون خلاف :« ان لاإله إلا هو » وكذلك بلغوه إلى رسل الله

٢ - وبماعملوا نسقاً واحداً دون اصطكاك واحتكاك ،دون تفاوت وتمارك .

فملائكة الوحي يوحون بإذنه كلمة التوحيد ، وسائر عمّاله منهم يشهدون بأقوالهم وأفعالهم التي يصدرونها بأمره تعالى .

واولوا العلم : ١ - من رسله : بما شهدوه وعلموه من الوحي ، وبما شهدوا من آيات الله البينات : آفاقية وانفسية ، متظافرة متظاهرة على توحيده تعالى .

٢ – وبما بلغوه دون خلاف ، حيث أجمعوا أنهم أرسلوا من عند إلهٍ واحد لا إله إلا هو .

٣ – وبما برهنوا على توحيده من البراهين الساطعة .

٢ – **واولوا العلم** : مِن سواهم : من العلماء الربّانيين بما درسوا في مدارس الوحي والتنزيل ، حيث العلم من أكبر البراهين في كافة المجالات الكونية : على وجود الإله ووحدته .

قائماً بالقسط : الله ، وملائكته ، وأولوا العلم يشهدون ، قياماً في شهادته تعالى وشهادتهم بالقسط ، لا شهادة زور وغرور : إن عقليةً أو نقلية ، بل شهادةٌ عن شهود الحق وتلقيه عن حضور مطلق ، لا تغيب عنهم أية برهنة من براهين التوحيد .

يشهدون ، أن : **لا اله الا هو العزيز الحكيم** ٣ : ١٨ .

المهتدي : شكراً لك استاذ ! ولله درك وعليه اجرك ، فرجاء استعراض طرف آخر من حوار منابع الوحي والتنزيل حول توحيد الله وصفاته ، كما مرّ علينا في إثبات وجوده تعالى ، رجاء :

●

من مهابط الوحي والالهام

- شذرات التوحيد من عيونه الفوارة .
- نظرات من منابع الوحي حول البحوث الماضية .
- محاضرات توحيدية عريقة من ائمة الاسلام :
- الامام الصادق عليه السلام .
- الامام الرضا عليه السلام ...

من حوار للامام الصادق (ع)

مع الزنديق الذي أتاه سائلاً متعنتاً

الزنديق : فكيف هو الله الواحد ؟ .

الامام عليه السلام : واحد في ذاته ؛ فلا واحد كواحد ، لأن ما سواه من الواحد متجزّيء ، وهو تبارك وتعالى واحد صميم متجزيء ، ولا يقع عليه العدّ (يعني أنه واحد لا بعدد ولا عن عدد ولا بتاويل عدد [1] : لم يتوحد عن عدد ولن يتعـدد عن وحدة ويستحيل في ذاته العدد : لا عدداً في الأجزاء ولا في الأفراد).

الزنديق : فلأيّ علة خلق الخلق وهو غـير محتاج إليهم ـ ولا مضطر الى خلقهم ـ ولا يليق بة العبث بنا ؟ .

الامام عليه السلام : خلقهم لإظهار حكمته وإنفاذ علمه وإمضاء تدبيره (وكما في الحديث القدسي : كنت كنزاً مخفيـاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعـرف) .

ما هي حكمة خلق الشيطان ؟

الزنديق : أفمن حكمته أن جعـل لنفسه عدوّاً وقد كان ولا عدوّ له ؟ فخلق ، كما زعم ـ ابليس ـ فسلّطه على عبيده يدعوهم الى خلاف طاعته ويأمرهم بمعصيته ، وجعل له من القوة ـ كما زعمت ـ مايصل بلطف الحيلة الى قلوبهم فيوسوس إليهم فيشككهم في ربّهم ويلبّس عليهم دينهم فيزيلهم عن معرفته ، حتى أنكر قوم ، لمّا وسوس إليهم ، ربوبيته ، وعبدوا سواه ، فلِم سلّط عدوّه على عبيده وجعل له السبيل الى إغوائهم ؟ .

الامام عليه السلام : ان هذا العدوّ الذي ذكرت لايضره عداوته ولاينفعه ولايته

---

١ ـ بعد القوس الى هنا من كلمات الامام أمير المؤمنين (ع) كما تأتي في نقل فصل .

عداوته لاتنقص من ملكه شيئاً ، وولايته لاتزيد فيه شيئاً ، وإنما يُتقى العدو إذا كان في قوة يضر وينفع ، ان همّ بملِكٍ أخـذه ـ أو بسلطان قهره ـ فأمّا إبليس فعبدٌ خلقه ليعبده ويوحّده ، وقد علم حين خلقه ما هو ؟ والى ما يصير إليه ؟ فلم يزل يعبده مع ملائكته حتى امتحنه بسجود آدم فإمتنع من ذلك ، حسداً وشقاوة غلبت عليه ، فلعنه عند ذلك وأخرجه عن صفوف الملائكة ، وأنزله الى الأرض ملعوناً مدحوراً ،فصار عدوّ آدم وولده بذلك السبب، وما له من السلطنة على ولده إلاّ الوسوسة والدعاء الى غير السبيل،وقد أقرّ مع معصيته لربه بربوبيته .

الزنديق : اخبرني عن الله عز وجـل كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحدين وكان على ذلك قادراً ؟

الامام عليه السلام: لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب،لأن الطاعة إذاً ما كانت فعلهم ، ولم تكن جنة ولا نار ، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ـ واحتج عليهم برسله ـ قطع عذرهم بكتبه، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون ـ ويستوجبون بطاعتهم له الثواب ، وبمعصيتهم إيّاه العقاب .

الزنديق: فالعمل الصالح من العبد هو فعله ؟ والعمل الشرّ من العبد هو فعله؟

الامام عليه السلام : العمل الصالح ، العبد يفعله والله به أمره ، والعمـل الشر ، العبد يفعله والله عنه نهاه .

الزنديق : أليس فعله بالآلة التي ركبّها فيه ؟

الامام عليه السلام : نعم، ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر بها على الشرّ الذي نهاه عنه (يعني : أنه تعالى لم يعطه آلة تختص بعمل الشر ، وحاشاه ! ، وإنما هي آلة يستطيع بها الأمرين باختياره ، إن خيراً أو شراً ، «وهديناه النجدين».)

الزنديق : فإلى العبد من الأمر شيء ؟

الامام عليه السلام: ما نهاه الله عن شيء إلاّ وقد علم: أنه يطيق تركه، ولا أمره

بشيء إلاّ وقد علم : أنه يستطيع فعله ـ لأنه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون .

الزنديق: فمن خلقه الله كافراً يستطيع الإيمان؟ وله عليه بتركه الايمان حجة ؟

الامام عليه السلام : إن الله خلق خلقه جميعاً مسلمين (بفطرة التوحيد والتسليم ، التي فطرهم عليها) أمرهم ونهاهم ، والكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد ، حين خلقه : كافراً ، إنّه إنما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجة من الله تعالى ، فعرض عليه الحق فجحده ، فبإنكار الحق صار كافراً .

الزنديق : فيجوز أن يقدّر على العبد الشر ويأمره بالخير ، وهو لا يستطيع الخير أن يعمله ، ويعذبه عليه ؟

الامام عليه السلام : إنه لايليق بعدل الله ورأفته أن يقدّر على العبد الشر ويريده منه ، ثم يأمره بما يعلم : أنه لا يستطيع أخذه ، والإنتزاع عما لا يقدر على تركه ـ ثم يعذبه على تركه أمرَه الذي علم أنه لا يستطيع أخذه .

حكمة اختلاف الناس في الرزق :

الزنديق: فبماذا استحق الذين أغناهم وأوسع عليهم من رزقه : الغنى والسعة؟ وبماذا استحق الفقراء التقتير والضيق ؟

الامام عليه السلام : اختبر الأغنياء بما أعطاهم ، لينظر كيف شكرهم ؟ والفقراء إنما منعهم لينظر كيف صبرهم ؟ .

ووجه آخر : أنه عجّل لقوم في حياتهم ولقوم آخر ليوم حاجتهم إليه .

ووجه آخر : أنه علم إحتمال كل قوم فأعطاهم على قدر احتمالهم .

ولو كان الخلق كلهم أغنياء لخربت الدنيا وفسد التدبير وصار أهلها الى الفناء ولكن جعل بعضهم لبعض عوناً ، وجعل أسباب أرزاقهم في ضروب الأعمال وأنواع الصناعات ، وذلك أدوم في البقاء وأصح في التدبير ، ثم اختبر الأغنياء

باستعطاف الفقراء ، كل ذلك لطف ورحمة من الحكيم الذي لا يُعاب تدبيره .

الزنديق: أخبرني عن الله عز وجل أله شريك في ملكه أو مضاد له في تدبيره؟

الامام عليه السلام : لا

الزنديق : فما هذا الفساد الموجود في هذا العالم؟ : من سباعٍ ضارية، وهوامٍّ مخوفة ، وخلق كثير مشوّهة ، ودودٍ وبعوض وحيات وعقارب ، وزعمت أنه لا يخلق شيئاً إلاّ لعلة ، لأنه لا يعبث ؟

الامام عليه السلام : ألست تزعم : أن العقارب تنفع من وجع المثانة والحصاة ولمن يبول في الفراش ، وأن أفضل الترياق ما عولج من لحوم الأفاعي ، وأن لحومها إذا أكلها المجذوم لشبت نفعه ، وتزعم أن الدود الأحمر الذي يصاب تحت الأرض نافع للأكلة ؟

الزنديق : نعم .

الامام عليه السلام : فأما البعوض والبقّ ، فبعض سببه أنه جعل أرزاق الطير ، وأهان بها جباراً تمرّد على الله وتجبّر وأنكر ربوبيته ، فسلط الله عليه أضعف خلقه ليريه قدرته وعظمته ـ وهو البعوض ـ فدخلت في منخره حتى وصلت الى دماغه فقتلته .

وأعلم : أنا لو وقفنا على كل شيء خلقه الله ولأيّ شيء انشأه ، لَكُنّا قد ساويناه في علمه ، وعلمنا كل ما يعلم ، واستغنينا عنه ، وكنا وهو في العلم سواءاً.

الزنديق : فأخبرني : هل يعاب شيء من خلق الله وتدبيره ؟

الامام عليه السلام : لا ! .

الزنديق : فإن الله خلق خلقه غرّلاً ـ أذلك منه حكمة أم عبث ؟

الامام عليه السلام : بل حكمة منه .

الزنديق : غيرّتم خلق الله وجعلتم فعلكم في قطع القلفة أصوب مما خلق الله

لها ـ وعبتم الأقلف ـ والله خلقه ! ومدحتم الختان وهو فعلكم ! . أم تقولون إنّ ذلك من الله كان خطأً غير حكمه ؟

الامام عليه السلام : ذلك من الله حكمة وصواب ، غير أنه سنّ ذلك وأوجبه على خلقه ، كما أن المولود إذا خرج من بطن أمه وجدنا سرّته متصلة بسُرّة أمّه ـ كذلك خلقها الحكيم ـ فأمر العباد بقطعها ، وفي تركها فسادٌ بيّن للمولود والأم وكذلك أظفار الإنسان ، أمر إذا طالت أن تقلم ، وكان قادراً يوم دبّر خلقة الإنسان ان يخلقها خلقة لا تطول ، وكذلك الشعر من الشارب والرأس يطـول فيُجزّ ، وكذلك الثيران خلقها فحولة وإخصائها اوفق ، وليس في ذلك عيب في تقدير الله تعالى :

(يعني بذلك أن في كلا الأمرين صلاحاً : خلق القلاف على الذكر وقطعه ، خلق المولود مربوطة سرته بسرة أمه ، وقطعها إذا يولد ، خلق الأظفار بحيث تطول ، وقلمها ، فكل ذلك مصلحة وحكمة ، إلا ان الله تعـالى إختص نفسه بشطرٍ أصيل منها ، ثم أمر عباده بشطر آخر تعليماً لهم أن يدبروا مصالحهم كما يأمر ، مثل كافة التشاريـع التي شرعها لعباده وهو الحكيم الخبير) .

الزنديق : خلق الخلق للرحمة أم للعذاب ؟

الامام عليه السلام : خلقهم للرحمة (ولايزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك (الرحمة) خلقهم) وكان في علمه قبـــل خلقه إياهم : أن قوماً منهم يصيرون الى عذابه بأعمالهم الرديئة وجحدهم به .

الزنديق : يعذب من انكر فاستوجب عذابه بانكاره ، فبمَ يعذب من وحّده وعــرفه ؟

الامام عليه السلام : يعذب المنكر لإلهيته عذاب الأبد ، ويعذب المقرّ به عذاباً عقوبة لمعصيته إياه فيما فرض عليه ـ ثم يخرج (من النار) ولايظلم ربك أحداً .

الامام الرضا (ع) في حوار

مع عمران الصابي ، وهي من اهم المحاورات واعمقها غورا :

الامام عليه السلام : يا قوم ! إن كان فيكم أحد يخالف الاسلام وأرار أن يسأل فليسأل غير محتشم .

عمران الصابي : قام إليه ، وكان واحداً من المتكلمين فقال: يا عالم الناس ! لولا انك دعوت الى مسألتك لم أقدم عليك بالمسائل ، فلقد دخلتُ الكوفة والبصرة والشام والجزيرة ولقيت المتكلمين ، فلم أقع على أحد يثبت لي واحداً ليس غيره ، قائماً بوحدانيته ، أفتأذن لي أن أسألك ؟ ؟

الامام عليه السلام : ان كان في الجماعة عمران الصابي فأنت هو ! ..

عمران : أنا هو .

الامام عليه السلام : سلْ يا عمران وعليك بالنصفة وإياك والخَطَل والجور.

عمران : والله يا سيدي ما أريد إلاّ ان تُثبت لي شيئاً أتعلق به فلا أجوزه.

الامام عليه السلام : سل عما بدا لك .. فازدحم الناس وانضم بعضهم الى بعض

عمران : أخبرني عن الكائن الأول وعما خلق :

الامام عليه السلام : سألت فافهم ، أما الواحد فلم يزل واحداً لا شيء معه ، بلا حدود ولا أعراض، ولايزال كذلك[1] ثم خلق خلقاً مبدعاً مختلفاً بأعراض

---

١ - يعني: أنه واحد في الأزلية والابدية ، دون حدود لذاته تعالى ولا أعراض تحدها وتعرض لها حتى تكون هي أيضاً أزلية أبدية كمثله تعالى ، فذاته البسيطة الواحدة هي السرمدية دون سواها ، سواء أكان منفصلاً عنه أم عارضاً له .

وحدود مختلفة [1] لافي شيء أقامه [2] ولافي شيء حدّه [3] ولاعلى شيءٍ حذّاه ومثّله له [4] فجعل الخلق من بعد ذلك صفوة وغير صفوة ـ وإختلافاً وإيتلافاً ـ وألواناً وذوقـــاً وطعماً ، لا لحاجةٍ منه إلى ذلك ، ولا لفضلِ منزلةٍ لا يبلغها إلاّ به ، ولا رأي لنفسه فيما خلق زيادة ولا نقصاناً ، تعقل هذا يا عمران ؟

عمران : نعم والله يا سيدي !

الامام عليه السلام : وأعلم يا عمران! أنه لو كان خَلَقَ ما خلق لحاجة ، لم يخلق إلا من يستعين به على حاجته ، ولكان ينبغي أن يخلق أضعاف ما خلق ، لأن الأعوان كلما كثروا كان صاحبهم أقوى ، والحاجة يا عمران لا يسعها ، لأنه لم يحدث من الخلق شيئاً إلاّ حدثت فيه حاجة أخـرى ، ولذلك أقول : لم يخلق الخلق لحاجة ، ولكن نقل بالخلق الحوائج ـ بعضهم الى بعض ـ بلا حاجة منه الى من فضّل ، ولا نقمة منه على من أذلّ ، فلهذا خلق .

عمران : يا سيدي ! هل كان الكائن معلوماً في نفسه عند نفسه ؟ [5]

---

١ ـ يعني بذلك : أنه تعالى خلق وأبدع الخلق بعد الأزل، بأعراض وحدود مختلفة ، فحيث الحدود والأعراض حادثة فمن المحال أن يتصف بها الأزلي .

٢ ـ فلم يقم الخلق في شيء غير ما خلق ، إذ لم يسبقه في خلقه شيء إلا ذاته المقدسة ، فلم يقم خلقه في ذاته ضرورة إستحالته ، ولا في شيء آخر ضرورة عدمه ، إذ إنه خلق الأشياء لا من شيء كان قبلها .

٣ ـ لم يحد ما خلق في شيء ، وإنما حده عند خلقه في نفس ذات الخلق .

٤ ـ لم يكن هناك شيء يحذي خلقه عليه : ١ ـ لأن خلقه مبدع ـ ٢ ـ وأنه لم يكن قبل خلقه خلق يحذيه عليه.

٥ ـ يريد علماً يميزه عن غيره ، لا علماً بذاته دون نسبة الى سواه ، ولذلك نراه عليه السلام ينفي عنه تعالى هكذا علم سناداً الى عدم وجود ما يخالفه في الأزل ، حتى يصبح علمه بذاته لنفي خلافه ، ثم بعد إذ خلق الخلق لم يتغير علمه إذ ليس بينه وبين خلقه أيه شركة: ذاتية ولا صفاتية حتى يكون علمه بذاته لنفي خلقه، إذاً فعلمه تعالى بذاته ليس لنفي غيره، لاقبل الخلق ولابعده.

الامام عليه السلام : إنما يكون المعلمة بالشيء لنفي خلافه ، وليكون الشيء نفسه بما نفي عنه موجوداً ، ولم يكن هناك شيءٌ يخالفه ، فتدعوه الحاجة إلى نفي الشيء عن نفسه بتحديد ما علم منها ، أفهمت يا عمران ؟

عمران : نعم والله يا سيدي ! فأخبرني بأيّ شيء علم ما علم ؟ أبضميرٍ أم بغير ذلك ؟ (١) .

الامام عليه السلام : أرأيت إذا علم بضمير هل تجد بدّاً من أن تجعل لذلك الضمير حداً تنتهي إليه المعرفة ! .

عمران : لابد من ذلك .

الامام عليه السلام : فما ذلك الضمير ؟

---

١ ـ يعني ، أن علمه تعالى بما علم هل هو بصورة ذهنية تحصل في الذهن أم بسواها ، فأجاب الإمام (ع) بأن علمه تعالى لو لم يكن إلا بصورة ذهنية عن معلوماته ، لكان علمه بمعلومه يتوقف على علمه بصورة ذلك المعلوم بما انها ذريعة للعلم به .

قال عمران ، لابد من ذلك ، فاعترض عليه الامام (ع) بأنه لابد لك أن تعرف تلك الصورة بحقيقتها ـ فما هي ؟ فعجز عمران عن الجواب وأرغم .

ثم الامام أورد عليه بوجه آخر هو أنه ، على قولك لابد لكل معلوم ان يعـرف بصورة ، فالصورة أيضاً من المعلوم فلابد أن تعرف بصورة أخرى هي صورة الصورة ، ثم لا تنتهي الصور الى نهاية .

فان قلت ، إن الصورة الأولى تعرف بنفسها ، بالعلم الحضوري، دون حاجة الى صورة أخرى تصورها ، فقد جوزت ان يكون العلم بمعلوم ما علماً حضورياً دون حاجة الى صورة تحكي عنه والله تعالى يعلم ما علم بالعلم الحضوري دون ذهن وصورة ذهنية .

ثم لما أفسد (ع) الأصل الذي هو مبنى سؤال عمران أقام البرهان على امتناع حلول الصور فيه واتصاله بالضمير ـ مهما كان ـ لمنافاته لوحدته الحقيقية وتجرده اللانهائي .

فليس منه تعالى عند ايجاد الخلق سوى التأثير من غير عمل وروية وتفكير وتصوير وخطور وتجربة وذهاب فكر الى مختلف المذاهب وسائر ما يكون فيمن سواه ـ تأمل .

عمران : انقطع ولم يحِر جواباً .

الامام عليه السلام : لا بأس إن سألتك عن الضمير نفسه ـ تعرفه بضمير آخر ، فقلت : نعم ـ أفسدت عليك قولك ودعواك ـ يا عمـران ! أليس ينبغي أن تعلم : أن الواحد ليس يوصف بضمير؟ وليس يقال له أكثر من فعل وعمل وصنع وليس يُتوهم منه مذاهب وتجربة كمذاهب المخلوقين وتجربتهم؟ فاعقل ذلك وابن عليه ما علمت صواباً .

هل ان الله تعالى تغير بخلقه الخلق ؟

.. عمران : يا سيدي ! ألا تخبرني عن الخالق إذا كان واحداً لا شيء غيره ولا شيء معه أليس قد تغيّر بخلقه الخلق ؟

الامام عليه السلام : لم يتغيّر عز وجل بخلق الخلق ولكن الخلق يتغير بتغييره[1].

عمران : فبأيّ شيء عرفناه ؟

---

١ ـ يعني عمران بقوله : ان الفاعل ـ مهما كان ـ يتغير بفعله عما كان قبل فعله ، كما نجده في غيره تعالى من الفواعل ، فالجالس إذا قام تحول حاله من الجلوس الى القيـام ، فليكن الله أيضاً كذلك ، فهو إذ خلق صار خالقاً والخالق يختلف عن غير الخالق دون مرآء ! ـ

واجاب الامام (ع) بأن فعله لا يؤثر إلا في خلقه دون ذاته ، فانه ولا يتغير بانغيار المخلوقين كما لا يتحد بتحديد المحدودين، والسر في ذلك، ان فعله وخلقه تعالى ليس بمعنى الولادة او تحول الحال، في ذاته وصفاته، وإنما هو إضافة إشراقية وإصدار لامن شيء كان قبله او معمولا من ذاته ـ

ثم هكذا فاعل على ضربين : ـ ضرب يعيى عن فعله او يستكمل او ينقص ، وإنما هو الفاعل الحادث ـ وضرب آخر لا يعيى ولا يتقصد في فعله إستكمالاً لنفسه ولا فراراً عن إنتقاصه ـ

وليس الفاعل الالهي إلا كالثاني،فليس فعله توليداً من جوهر ذاته ولاتحول حال لذاته ولايعيى من فعل ـ مهما جل ـ ولايستكمل ولا ينتقص ، فكما ان ذاته وصفاته تعـالى باينة عن سواه ـ كذلك افعاله ـ فهو خِلوٌ من خلقه وخلقه خِلوٌ منه .

الامام عليه السلام : بغيره [1] .

عمران : فأي شيء غيره ؟

الامام عليه السلام : مشيته واسمه وصفته (مشيته الحادثة حين خلق الخلق ويخلق، وصفته الفعلية كالخلق والرزق ، وإسمه أي آيته في الآفاق والانفس ، وهـــذا معنى قوله عليه السلام : بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت) .

وما أشبه ذلك ، وكلّ ذلك محدَث مخلوق مدبّر.

عمران : يا سيدي ! فأيُ شيء هو ؟

الامام عليه السلام : هو نورٌ ـ بمعنى : أنه هادٍ لخلقـــه : من أهل السماء وأهل الأرض، وليس لك عليّ أكثر من توحيدي اياه (حيث لا يُسئل عن ذاته فلايحاط بها ، وإنما علينا معرفته : أنه كائن واحد بحقيقة معنى الوحدة) .

عمران : يا سيدي ! أليس قد كان ساكتاً قبل الخلق لا ينطق ثم نطق (يريد بذلك أنه تغيّر بخلقه عن السكوت الى النطق) .

الامام عليه السلام : لايكون السكوت إلاّ عن نطق قبله، والمثَل في ذلك: أنه لا يقال للسراج : هو ساكت لاينطق، ولايقال : ان السراج ليضيء فيما يريد أن يفعل بنا، لأن الضوء من السراج ليس بفعل منه ولا كون (ليس من كونه وكينونته وإلاّ لزم أن يضيء مادام سراجا دون انقطاع، فهو ليس فعل السراج ، بل أمر خارج من فعله وذاته) .

---

١ ـ معرفته بغيره إنما هي بمعنى المعرفة بالصفات السلبية التي جاءها انه تعالى مسلوبة عنه ذوات المخلوقين وصفاتهم ، فلا نعرف من ذاته تعالى جهة إثباتية نحيط بها او نشير إليها ، وإنما نعرفه بعد ان تحققنا وجوده ، نعرفه بأنه غير خلقه كالتالي : هو موجود ، اي ليس بمعدوم ـ عالم : ليس بجاهل ، قادر : ليس بعاجز ، حي : ليس بميت، وهكذا ـ لا ان ندرك جهة إثباتية منه ، ذاتية ام صفاتية ـ تأمل .

وانما هو شيء غيره ـ فلما استضاء لنا ـ قلنا: قد أضاء لنا حتى استضأنا به ـ فهذا تستبصر أمرك .

(كذلك الكلام ليس من كون وذات الرب وفعله الذاتي ، وإنما هو من خلقه كسائر الخلق ، يُنفى عنه تعالى الكلام والسكوت كنفي سائر الحوادث ، لانهما حادثان والمقسم فيها الذات الحادثة) .

عمران : يا سيدي ! فان الذي كان عندي : أن الكائن قد تغير في فعله عن حاله بخلقه الخلق .

الامام عليه السلام: أحلت يا عمران في قولك : إن الكائن يتغير في وجه من الوجوه ، حتى يصيب الذات منه ما يغيّره ، يا عمران ! هل تجد النار يغيّرها تغيُّر نفسها ؟ أو هل تجد الحرارة تحـــرق نفسها ؟ أو هل رأيت بصيراً قط رأى بصره ؟

عمران : لم أرَ هذا [1] ـ ألا تخبرني يا سيدي ! أهو في الخلق أم الخلق فيه ؟

الامام عليه السلام : جلّ يا عمران عن ذلك ، ليس هو في الخلق ولا الخلق فيه ، تعالى عن ذلك ، وسأعلمك ما تعرفه به ولا قوة إلا بالله :

أخبرني عن المرآة ، أنت فيها أم هي فيك ؟ فان كان ليس واحد منكما في صاحبه فبأيّ شيء استدللت بها على نفسك ؟

عمران : بضوء بيني وبينها .

---

١ ـ يعني الامام عليه السلام بمثال الحرارة والنار: أن الشيء لايؤثر في نفسه بتغيير وافناء وتأثير، بل إنما يتأثر من غيره ، او يؤثر بعضه في بعضه ، كما إذا ضرب الانسان احدى يديه على الاخرى، والله سبحانه وتعالى أجل واعلى من ان يؤثر فيه غيره ، بما ان غيره ليس سوى خلقه والخلق اعجز من ان يؤثر في الخالق ، ولا ان بعضه يؤثر في بعضه ، لبساطته ووحدة الحقيقية دون تركب وتبعض ، وان الحالة المزعوم تأثيرها فيه ليست من ذاته ولا جزء من كيانه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

الامام عليه السلام : هل ترى من ذلك الضوء في المرآة أكثر مما تراه في عينك ؟

عمران : نعم .

الامام عليه السلام : فأرناه

عمران: لم يحر جواباً .

الامام عليه السلام : فلا أرى النور إلاّ وقد دلّك ودلّ المرآة على أنفسكما ، من غير ان يكون في واحد منكما ، ولهذا أمثال كثيرة غير هذا لا يجد الجاهل فيها مقالاً ولله المثل الأعلى .

عمران : يا سيدي ! ألا تخبرني عن الله عز وجل: هل يوحّد بحقيقة أو يوحّد بوصف ؟

الامام عليه السلام ؟ إن الله المبدىء الواحد الكائن الاول ؛ لم يزل واحداً لا شيء معه ، فرداً لا ثاني معه ، لا معلوماً ولا مجهولاً ، ولا محكماً ولا متشابهاً ، ولا مذكوراً ولا منسياً ، ولا شيئاً يقع عليه إسم شيء من الأشياء غيره ، ولا من وقت كان ، ولا إلى وقت يكون ، ولا بشيء قام ، ولا إلى شيء يقوم ، ولا إلى شيء استند ، ولا في شيء إستكن ، وذلك كله قبل الخلق ، إذ لا شيء غيره ، وما أوقعت عليه من الكل فهي صفات محدثة وترجمة يفهم بها من فهم [1] .

... عمران : يا سيدي ! ألا تخبرني عن الإبداع : أخلق هو أم غير خلق ؟

الامام عليه السلام : بل خلق ساكن لا يُدرك بالسكون [2] وانما صار خلقاً لانه

---

١ ـ لا معلوماً ولا مجهولاً ، أي لغيره لا لذاته فانه عالم بذاته ، وكذلك : لا محكماً ولا متشابهاً ولا ... ينفي كل ذلك لنفي فواعلها بما أنه تعالى كان اذ لا كان ، ازلياً لا شيء معه ... وذلك كله قبل الخلق اذ لا شيء معه غيره .

٢ ـ يعني بكون الابداع خلقاً ساكناً : أنه ليس تبديلاً لشيء اول الى شيء آخر فانه تحريك لا إبداع ، وبكونه لا يدرك بالسكون ؛ أننا لا نتعرف الى حقيقة السكون في الابداع ، وإنما الكون هو الله وخلقه لا ثالث بينهما ولا ثالث غيرهما ، اذ إنه أبدع خلقه لا من شيء كان معه .

شيء محدثٌ ، والله الذي احدثه فصار خلقاً له ، وانما هو الله عز وجل وخلقه لا ثالث بينهما ، ولا ثالث غيرهما ، فما خلق الله عز وجل لم يعد أن يكون خلقه ، وقد يكون الخلـــق ساكناً ومتحركاً ، ومختلفاً ومؤتلفاً ـ ومعلوماً ومتشابهاً [٣] وكلّ ما وقع عليه حدٌ فهو خلق الله عز وجل .

واعلم : أن كل ما أوجدتك الحواس فهو معنى مدرك بالحواس ـ وكل حاسة تدل على ما جعل الله عز وجل لهـــا في ادراكها ـ والفهم من القلب بجميع ذلك كله .

وأعلم : أن الواحد الذي هو قائم بغير تقدير ولا تحديد : خلق خلقاً مقدراً بتحديد وتقدير ـ وكان الذي خلق خلقين اثنين : التقدير والمقدّر ـ وليس في واحد منهما لون ولا وزن ولا ذوق ـ فجعل احدهما يدرك بالآخر ـ وجعلهما مدركين بأنفسهما .

ولم يخلق شيئاً فرداً قائماً بنفسه دون غيره ـ للذي أراد من الدلالة على نفسه ـ وإثبات وجوده : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) .

فالله تبارك وتعالى فردٌ واحدٌ لا ثاني معه يقيمه ولا يعضده ولا يكنه ـ والخلق يمسك بعضه بعضاً بإذن الله ومشيته (وليس الممسك قرينه يمسكه بحوله وقوته ـ فإنّ ذلك دور مصرح يُحيله العقل : أن يمسك ألفُ الباءَ حين يمسك الباءُ الألفَ ـ سواء ـ دون قوةورائهما تمسكهما الإذن فالله تعالى هو الذي يُمسك المتماسكين،وزوجية الخلق في أصل الكينونة برهان قاطع لا مردّ له : أن ورائه

---

٣ ـ لتقسيم للخلق الى الساكن الذي هو المبدع ، والمتحرك الذي خلقه الله من المبدع الاول ، فقد ابدع الله تعالى الشيء الذي خلق منه الاشياء كلها ، فهذا خلق ساكن ، ثم اذ خلق منه الاشياء لم يكن خلقه بعد الاول ابداعاً لاصل الذات ، وإنما هو تغيير وتحوير للخلق الاول الى مختلف الاشكال والماهيات .

قدرة خلاقة قيومة تمسكه في تماسكه الزوجي) .

وإنما اختلف الناس في هذا الباب حتى تاهوا وتحيروا وطلبوا الخلاص من الظلمة بالظلمة في وصفهم الله بصفة أنفسهم - فازدادوا من الحق بعداً - ولو وصفوا الله عز وجل بصفاته - ووصفوا المخلوقين بصفاتهم ، لقالوا بالفهم واليقين ولما اختلفوا - فلما طلبوا من ذلك ما تحيروا فيه - إرتبكوا فيه - والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

عمران : يا سيدي ! أشهد أنه كما وصفت ولكن بقيت لي مسألة :

الامام عليه السلام : سل عما بدا لك .

عمران : أسألك عن الحكيم : في أيّ شيء هو ؟ وهل يُحيط به شيء؟وهل يتحول من شيء إلى شيء ؟ أو به حاجة إلى شيء ؟

الامام عليه السلام : أخبرك يا عمران ! فاعقل ما سألت عنه فانه من اغمض ما يرد على المخلوقين في مسائلهم ، وليس يفهمه المتفاوت عقله - العازب حلمه ، ولا يعجز عن فهمه أولوا العقل المنصفون .

اما اول ذلك : فلو كان خلق ما خلق لحاجة منه لجاز لقائل ان يقول: يتحول إلى ما خلق لحاجته إلى ذلك - ولكنه عز وجل لم يخلق شيئاً لحاجة ولم يزل ثابتاً: لا في شيء - ولا على شيء - إلا أن الخلق يُمسك بعضه بعضاً - ويدخل بعضه في بعض - ولا يخرج منه - والله جلّ وتقدس - بقدرته يُمسك ذلك كله - وليس يدخل في شيء ولا يخرج منه - ولا يؤوده حفظه - ولا يعجز عن إمساكه - ولا يعرف أحدٌ من الخلق كيف ذلك إلاّ الله عز وجل - ومن أطلعه عليه من رسله وأهل سرّه - والمستحفظين لأمره - وخزّانه القائمين بشريعته .

وإنما أمره كلمح البصر أو هو أقرب - إذا شاء شيئاً فإنما يقول له : كن -

فيكون بمشيته وإرادته ـ وليس شيء من خلقه أقرب إليه من شيء ـ ولا شيء أبعد منه من شيء ـ أفهمت يا عمران !

عمران : نعم يا سيدي قد فهمت ـ وأشهد أن الله على ما وصفته وحددته ـ وأن محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحق ـ ثم خر ساجداً نحو القبلة وأسلم..»[1]

●

١ ـ البحار ج ١٠ ص ٢١٠ ، مع اسقاط البعض من مواضيع الحوار .

ومن حوار له عليه السلام

مع ابي قرة المحدث صاحب شبرمة في أزليته تعالى ، الوحيدة :

يستأذنه ويسأله عن أشياء من الحلال والحرام والفرائض والأحكام حتى يبلغ سئواله الى التوحيد ـ فيقول :

ابو قرة : أخبرني ـ جعلني الله فداك ، عن كلام الله لموسى .

الامام عليه السلام: الله أعلم بأيّ لسان كلمه ، بالسريانية أم بالعبرانية .

ابو قرة : أخذ بلسانه فقال : إنما أسألك عن هذا اللسان .

الامام عليه السلام : سبحان الله عما تقول، ومعاذ الله أن يشبه خلقه ، أو يتكلم بمثل ما هم متكلمون ، ولكنه تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، ولا كمثله قائل فاعل .

ابو قرة : وكيف ذلك ؟

الامام عليه السلام : كلام الخالق لمخلوقٍ ليس ككلام المخلوق لمخلوق ، ولا يلفظ بشق فم ولا لسان ، ولكنه يقول: كن ـ فكان بمشيته ما خاطب به موسى من الأمر والنهي ، من غير تردد في نفس .

ابو قرة : فما تقول في الكُتُب ؟

الامام عليه السلام : التوراة والانجيل والزبور والفرقان ، وكلُّ كتاب أنزل ، كان كلامِ الله تعالى ـ أنزله للعالمين نوراً وهدى، وهي كلها محدثة ، وهي غير الله حيث يقول «أو يُحدِث لهم ذكراً » وقال : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث

إلاّ استمعوه وهم يلعبون ، والله أحدث الكتب كلها - التي انزلها -

ابو قرة : فهل يفنى ؟

الامام عليه السلام : أجمع المسلمون على أن ما سوى الله فانٍ ، وما سوى الله فعل الله ، والتوراة والانجيل والزبور والفرقان فعل الله تعالى ، ألم تسمع الناس يقولون رب القرآن ؟ وأن القرآن يقول يوم القيامة : يارب هذا فلان ، وهو أعرف به ، قد أظمأتُ نهاره وأسهرتُ ليله ، فشفعني فيه ؟ وكذلك التوراة والانجيل والزبور كلها محدثة مربوبة ، أحدثها من ليس كمثله شيء ، هدى لقوم يعقلون ، فمن زعم أنهن لم يزلن ، فقد أظهر : أن الله ليس بأولٍ قديم ، ولا واحدٍ ، وأن الكلام لم يزل معه وليس له بدءٌ وليس بإله .

ابو قرة : وإنا رُوينا أن الكتب كلها تجيء يوم القيامة والناس في صعيد واحد صفوف قيام لرب العالمين ، ينظرون حتى ترجع فيه ، لأنها منه وهي جزءٌ منه فإليه تصير .

الامام عليه السلام : فهكذا قالت النصارى في المسيح : أنه روحه : جزءٌ منه ويرجع فيه ، وكذلك قالت المجوس في النار والشمس: إنها جزء منه يرجع فيه- تعالى ربنا ان يكون متجزئاً أو مختلفاً ، وإنما يختلف ويأتلف المتجزّيء ، لأن كلّ متجزيء متوهَّم ، والقلة والكثرة مخلوقة دالة على خالق خلقها ! .

ابو قرة : فانا روينا : ان الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيين ، فقسم لموسى الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية .

الامام عليه السلام: فمن المبلّغ عن الله الى الثقلين من الجن والانس: انه لاتدركه الأبصار ، ولا يحيطون به علماً ، وليس كمثله شيء ؟ أليس محمد صلى الله عليه وآله ؟

ابو قرة : بلى .

الامام عليه السلام : فكيف يجيءُ رجل الى الخلق جميعاً فيخبرهم : أنه جاء من عند الله ، وأنه يدعوهم الى الله بأمر الله ويقول : إنه لا تدركه الأبصار ،

ولا يحيطون به علماً ، وليس كمثله شيء ثم يقول : أنا رأيته بعيني ، وأحطت به علماً ، وهو على صورة البشر ؟ أما تستحيون ؟ ! .

ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا : أن يكون أتى عن الله بأمرٍ ثم يأتي بخلافه من وجه آخر .

ابو قرة : فتكذب بالرواية ؟ !.

الامام عليه السلام : إذا كانت الرواية مخالفة للقرآن كذبتها و(مخالفة ل:) ما أجمع المسلمون عليه : أنه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء

ابو قرة : فأين الله ؟

الامام عليه السلام : الأين مكان ، وهذه مسألة شاهد عن غائب [1] والله تعالى ليس بغائب ولا يقدمه قادم ، وهـــو بكل مكان موجود مدبّر صانع حافظ ممسك السماوات والأرض .

ابو قرة . أليس هو فوق السماء دون سواها ؟

الامام عليه السلام : « هو الله في السماوات وفي الأرض » ، « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » ، « وهو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء » ، « وهو معكم أينما كنتم » : (معيّة قيومية وعلمية ، فإنه أقرب الى كل شيء من الشيء الى نفسه : قدرةً وعلماً ، وهو المعني من كونه في كل مكان ، لا أنه يسع ذاته المكان الذي خلقه وحاشاه !) وهو الذي استوى الى السماء وهي دخان ، وهو الذي استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو الذي استوى على العرش .

قد كان ولا خلق ـ وهو كما كان إذ لا خلق ـ لم ينتقل مع المنتقلين [2]

---

١ ـ وليس الله غائباً فإنه في كل مكان وحاضر مع كل انس وجان ، حضوراً علمياً وقيومياً ، لا حضوراً بمعنى التمكن في المكان .

٢ ـ أي أنه تعالى لم تختلف حاله بعد الخلق عن حاله قبله ، بل لا تكون له حال فانها كيف وليس له تعالى كيف .

ابو قرة : فما بالكم إذا دَعوتم رفعتم أيديكم الى السماء ؟

الامام عليه السلام : إن الله استعبد خلقــه بضروب من العبادة ـ ولله مفازع يفزعون إليه ـ ومستعبد ـ فاستعبد عباده بالقول والعلم والعمل والتوجيه ونحو ذلك ـ استعبدهم بتوجيه الصلاة إلى الكعبة ـ ووجّه إليها الحج والعمرة ـ واستعبد خلقه عند الدعاء والطلب والتضرع ببسط الأيدي ورفعها إلى السماء ـ لحال الإستكانة وعلامة العبودية والتذلل له ـ (فان رفع الأيدي حالة الدعاء حالة استكانة وتذلّل ـ دون ان يُعنى منها جوُّ السماء) .

ابو قرة : فمن اقرب إلى الله ؟ الملائكة أو أهل الأرض ؟

الامام عليه السلام : ان كنت تقول بالشبر والذراع فإن الأشياء كلها بابٌ واحد : هي فعله ـ لا يشتغل ببعضها عن بعض ـ يدبّر أعلى الخلق من حيث يدبّر أسفله ـ ويدبّر أوله من حيث يدبر آخره ـ من غير عناء ولا كلفة ولامؤونة ولا مشاورة ولا نصَب .

وان كنت تقول : من أقرب اليه في الوسيلة ؟ فأطوعهم ـ وانتم تروون : أن اقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ـ ورويتم : أن اربعة أملاك التقوا : احدهم من أعلى الخلق ـ وأحدهم من أسفل الخلق ـ وأحدهم من شرق الخلق ـ وأحدهم من غرب الخلق ـ فسأل بعضهم بعضاً ـ فكلهم قال : من عند الله ـ أرسلني بكذا وكذا ـ ففي هذا دليل على أن ذلك في المنزلة دون التشبيه والتمثيل .

ابو قرة : أتقر أن الله تعالى محمول ؟

الامام عليه السلام : كل محمول مفعول ومضاف إلى غيره ـ محتاج ـ فالمحمول إسم نقص في اللفظ ـ والحامل فاعل وهو في اللفظ ممدوح ـ وكذلك قول القائل : فوق وتحت وأعلى وأسفل ـ وقد قال الله تعالى : « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » ولم يقل في شيء من كتبه : إنه محمول ـ بل هو الحامل في البرّ والبحر ـ

والممسك للسماوات والأرض ـ والمحمول ما سواى الله ـ ولم نسمع أحداً آمن بالله وعظمه قط ـ يقول في دعائه : يا محمول !

ابو قرة : أفتكذب بالرواية ! : أن الله إذا غضب إنما يُعرف غضبه أن الملائكة الذين يحملون العرش يجدون ثقله على كواهلهم فيخرّون سجداً ـ فإذا ذهب الغضب خفّ فرجعوا إلى مواقفهم .

الامام عليه السلام : أخبرني عن الله تبارك وتعالى منذ لعن ابليس إلى يومك هذا وإلى يوم القيامة : غضبان هو على إبليس وأوليائه أو راضٍ عنهم ؟

ابو قرة : نعم هو غضبان عليه .

الامام عليه السلام : فمتى رضي فخـــفف وهو في صفتك لم يزل غضبان عليه على أتباعه .

ويحك كيف تجترىء أن تصف ربك بالتغير من حال الى حال ـ وأنه يجري عليه ما يجري على المخلوقين ؟ سبحانه لم يزل مع الزائلين ولم يتغير مع المتغيرين .

ابو قرة : تحير ولم يحر جواباً حتى قام وخرج » [1]

---

١ ـ البحار ج ١٠ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٧ .

التوحيد في التثليث ؟!

المهتدي : استاذ ! إنني بحمد الله مهتدٍ إلى نور المعرفة والتوحيد ـ إلاّ أن لزميلي هذا : العالم الكبير المسيحي ـ إنّ له أسئلة ومشاكل ومعارضات ـ فرجاء الحوار معه لكي يهتدي هو ـ وأستكمل أنا في عقيدة التوحيد .

الاسقف : هناك في القرآن وفي الانجيل تصاريح : أن المسيح من الله : « كلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ٣ : ٤٥ » وأنه روح الله : « والتي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ٢١ : ٩١ـ فلو أنكم لا تعترفون بهذا الإنجيل فما بال القرآن يُكذّب ؟ .

المسيح روح من الله :

اجل: إنّ المسيح روح الله ومن الله ـ وهو يختلف عن كافة مَن سوى الله ـ حيث يجانس ربه ويشاركه في ألوهيته مشاركة الإبن أباه في محتده ومنزلته ـ أو أنه نفسه ـ أو جزء منه ـ كلّ ذلك استيحاءً من القرآن ووحي الإنجيل ! ..

الموحد : إن لنا بحثاً فصلاً عقلياً ونقلياً حول تزييف التثليث في المقارنات العقائدية بين الكتب السماوية[1] ولما كان أساس الحوار هنا وفق الجذور العقلية الفلسفية فالبحث النقلي موكول إلى المقارنات ـ وإليكم هنا نموذجاً منه ذوداً عن القرآن ما يمس كرامته :

اولاً : « ماذا تريد بقولك : «من» ومن : على أربعة اوجه لا خامس لها ؟ أتريد بقولك: « من » ١ ـ كالبعض من الكلّ فيكون مبعّضاً ـ ٢ ـ أو كالحل

---

١ ـ هذا هو الجـزء الثاني من المقارنات وقد نشر الجزء الاول وهو في المقارنات الكتابية والعلمية بين الكتب السماوية ، ونشرناه في باسم « عقائدنا » .

من الخمر فيكون على سبيل الاستحالة ـ ٣ ـ أو كالولد من الوالد فيكون على سبيل المناكحة ـ ٤ ـ أو كالصنعة من الصانع فيكون على سبيل المخلوق من الخالق ـ أو عندك وجه آخر فتعرفناه . . » [١]

فالقول : إن المسيح كلمة من الله يحتمل هذه الوجوه الأربعة ـ والبراهين القاطعة العقلية والنقلية تزيف الثلاثة الاول وتختصه بمعنى الخلق : أن المسيح خلقٌ من خالقه كمن سواه ـ سواء .

ثانياً : أن الآية : «وروح منه» لا تربو عن «من الله» فهما على السواء فيما يُعنى من « مِن » دون ان تختص بدلالة : أن المسيح روح الله ـ بتأويل أن روحه حلّ في رحم البتول فتجسد فصار مسيحاً ـ كلاّ : بل انه : « كلمته القاها إلى مريم وروح منه » ٤ : ١٧١ .

فانما المسيح كلمة من الله وروح من الله ـ كما كان آدم روحاً منه : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ١٥ : ٢٩ .

بل وكما أن بني آدم كافة ـ أرواحهم من الله: « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة» ٢٣ : ٨ : ٩ .

بل إنّ ولادة آدم أعجب منه : « إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ٣ : ٥٢ .

إذاً فروح المسيح روحٌ مخلوق من الله كسائر الأرواح الإنسانية المخلوقة ـ سواء ـ وقد يمتاز على الكثير منها بالنبوة والوحي كسائر من أوحي إليهم من النبيين.

لا أنه جزء من الله ـ أو ما إليه من التأويلات الكافرة :

---

١ ـ من حوار الامام الرضا (ع) مع ابن قرة النصراني فانقطع ولم يحــر جواباً ـ البحار ج ١٠ ص ٣٤٩ .

فليس الله تعالى كلا يتجزىء فينفصل منه أو من روحه المسيح ـ إذاً لكان مركباً بجزء ، والتركب آية الحاجة والحدوث ! ...

ولا أن الله تعالى إستحال من لاهوت الالوهية والتجرد إلى ناسوت الحدوث والتجسّد ـ فإن ذلك محالٌ في نفسه : أن تتبدل ذات الإله ـ من الأزلية إلى الحدوث ! ... ولا انه ولد كسائر من يَلد من المخلوقين على سبيل المناكحة ، فان ذلك حاجة وزوال وانتقال وتركب واستحالة ، سبحانه وتعالى عما يصفون !

الاسقف :فماذا نصنع بالتصاريح الوفيرة الانجيلية : أن الله هو الأب والمسيح هو الابن ٠

الآب = الخالق الأب = الوالد

الموحد :الأب في العربية هو الوالد فيستلزم ولداً ولكنه في اللغة اليونانية ، باضافة المد ، الآب كتآب ، هذا بمعنى الخالق ـ كما وأن الأناجيل لا تذكره الا ممدوداً دون استثناء ـ أليس هكذا : **الآب = الخالق** ؟

الاسقف : فكيف يجمع المفسرون الانجيليون انه بمعنى الوالد ؟

الموحد : إن الكنيسة الانجيلية شاءت ان تجعل الوالد مكان الآب رغم المباينة الظاهرة بين المعنيين منهما (الخالق ـ الوالد) مباينة كلية بين الازلي والحادث ، رغم هذا ـ وبغية تسجيل أبوة الإله بالنسبة للمسيح حتى يُعتبر ابنَه ثم نفسَه المضاهي له ـ نتيجة تغلّب خرافة الثالوث على الكنائس الإنجيلية ، سلسلة متسلة من خيانة الترجمة ، المبتدعة ، المبتدئة من الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان (اوريفين) حيث دس في فكرة الكنيسة فكرة الابوة والبنوة الإلهية ، السقمية ، فما لكم كيف تحكمون ؟

وكذلك تشهد ذيل الآية : وإلهي وإلهكم : أن الآب ليس والداً ، وإلا

فكيف يكون الوالد إلهاً لولده ـ كلا! إلا مثله وجنسه ، إنْ حادثاً أو أزلياً!.

هذا وكما يشهد القرآن، والتاريخ يصدقه طوال قرون طائلة: أن قصة الأقانيم والابن الإلهي من الجذور الوثنية العريقة « وقالت اليهود عُزَيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » « يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » ٥ : ٨١ .

فإن كافة الوثنيين الأقدمين أو كثيراً منهم ، حسبما يسجله التاريخ ، هؤلاء هم الذين اختلقوا فكرة الثالوث وتجسّد اللاّهوت في ناسوت الإبن وَصلبه ودخوله في جحيم النار ، الى حيث يرى الناقد النافذ البصيرة : أن العقائد المسيحية حول الإله ، ما هي إلا تراجم العقائد الوثنية العتيقة :« ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله فأنى يُؤفكون »[1]؟!..

الاسقف : إذاً نضرب الصفح عن النقل ونقبل الى العقل إذ انّ في الإلهيات مجالات واسعة للعقول فلا يُصغى فيها الى النقل ـ مهما كان ـ

الموحد : إذاً فللعقل براهين ساطعة حاسمة تقضي على خرافة الثالوث، وإليكم هنا فروضاً في كلا الأمرين : الثالوث والبنوة :

فروض الثالوث :

١ – فهل إنّ هذه الأقانيم من مقوّمات وأجزاء الإله الواحد ؟

٢ – أو أنها ظهورات ثلاث لذات واحدة في ثلاث صفات ؟

٣ – أو مخلوقات ثلاث واحداً بعد واحد ؟

٤ – أو انها تبدُّلات لذات واحدة الى ذوات ثلاث، مقارنة أو على التوالي؟

٥ – أو ان الذات باقية كما كانت ، رغم تبدّلها الى هذه الذوات ؟

---

١ ـ راجع موسوعتنا : المقارنات العقائدية ـ قسم التوحيد والتثليث : عقائدنا .

إله امشاج ؟ !

٦ - أو ان المسيح مركب من لاهوت الإله والناسوت البشري وقد تبادلا كالتالي :

تبدل اللاهوت الإلهي الى الناسوت البشري والناسوت البشري الى اللاهوت الالهي، فصارا - هما - مع الروح القدس واحداً ، واحدٌ وثلاث، ثلاث وواحد؟

فروض البنوة :

ثم المعني من كون المسيح إبناً لله بين فروض خمسة :

١ - فهل هو بمعني انفصال النطفة الرجولية والروح عن ذاته تعالى وتقدس واستقراره في رحم مريم البتول ، فتولّد المسيح؟. فهو إذاً ابن الله كما نحن أبناء أبائنا زواجاً ونكاحاً ؟

٢ - أم بتنزُّل الإله بكله وتمامه - عن لاهوت الالوهية والتجرد الى ناسوت الجسم - وذلك بتجافي الإله المجرد عن كينونته المجردة اللانهائية ، ثم إختلاق جسم فيه الروح وهو المسيح ؟

٣ - أم ببقائه على لاهوت التجرد واللانهاية رغم تبدله الى الناسوت ؟

٤ - أم بحلول اللاهوت في الناسوت لكي يصبح جسم المسيح متولداً من رحم البشر ؟ وروحه هو الإله اللاهوتي ، فهو ابن الإنسان بالاعتبار الأول وابن الله على الثاني ؟

٥ - أم لا ذا ولا ذاك ولا.. وإنما المعني من بنوة المسيح لله :أنه اتخذه ولداً تشريفاً له وتفضيلاً على من سواه ، دون ألوهية للمسيح ولا لروح القدس ، وإنما الله هو الاول- ثم المسيح وروح القدس هما من خلقه الشرفاء ، سبقوا سائر خلقه في الزلفى إليه ؟

الاسقف: الفرض الاول من فروض الثالوث أقرب الى التوحيد ، فماذا عليه؟

الموحد : لازمه تركب الإله من هذه الاجزاء ، والخروج عن فرض الثالوث: الآب والإبن والروح ، والتركب آية الحدوث اينما كان وحيثما حـــلّ ، افحادثاً وأزلياً معاً ـ أم حدوثاً بعد الازلية ـ أم حدوثاً ليس إلاّ افمخلوقاً ليس إلاّ ! فأين الالوهية ؟ وأين الازلية ؟ !

الاسقف : فعلى الثاني ؟

الموحد : أظهورات ثلاث في صفات ثلاث منفصلات عن الذات بعـــد ان لم تكن ؟ فهذا حدوث بعد الازلية : ثلاث مرات ، وكما يقـــوله البراهمة الوثنيون[1]:

«إن الإله لما أراد أن يتجلّ ويخلق الخلق اتخذ أولاً صفة الفعل وتصوّر بصورة شخص مذكر وهو الاب» ثم زاد في فعله فاتصف بصفة ثانية وجودية فصار الإبن ثم انقلب بصفة ثالثة تنمية فصار روح القدس » فهم آنذاك : « برهما ـ فشنو ـ سيفا » وأنتم تعتبرونهم « الآب والابن وروح القدس » .

أجل ـ إنّ لازم هذا الفرض ١ ـ حدوث كافة هذه الاقانيم المختلفة المختلقة بعد انمحاء أصل الذات المجردة الواحدة ـ ٢ ـ وزوال الازلي ـ ٣ ـ وتبدّل وإستحالة المجرد الى المادة .

وفرض ثان : أنها ظهورات للذات في نفس الذات ، أي حدوث هذه الثلاثة في الذات بعد ان لم تكن ، فهذا حدوث بعد الازلية وتركب بعد التجرد !

الاسقف : وعلى الثالث ؟

الموحد : وعليه فالاقانيم مخلوقات لله الواحد ، لا أجزائه وأقانيمه ـ

---

١ ـ قال دران في كتابه خرافات التورات والانجيل : « إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى ان اعظم واشهر عباداته اللاهوتية هو التثليث ويدعون هذا التعليم بلغتهم « تري مورتي » اي : ثلاث هيات ـ وهي ! برهمة ، فشنو ، سيفا ، ومجموع هذه الثلاثة اله واحد » كما في المتن .

ثم إن كان كما يقوله البوظيون : « إن العقل الأبدي صدر عنه واحد ، ثم صدر عن هذا الواحد ثان ، وعن الثاني ثالث ، ثم صدرت الكائنات عن هذه الثلاثة »[1] فهذا شرك في الخالقية دون أية حجة ، فلا ألوهية ولا أزلية ـ على الفرض ـ لهؤلاء الثلاثة ، إذ خلقهم الإله الازلي ، فكيف اشتركوا معه في سائر الخلق أو اختصوا به دونه ؟

الأسقف : وعلى الرابع ؟

الموحد : هذا حدوث في حدوث ـ ١ ـ حدوث الأزلي : بتجافيه وخلوه عن كيونته اللانهائية المجردة ـ٢ـ وحدوث هؤلاء الثلاثة على التوالي أو مقارنة ، وتبطله استحالة زوال الأزلي ، ثم استحالة حدوث شيء بعد انعدامه دون أية علة ، إذ لا تحتمل علية الزائل ولا أزلية الحادث !

الاسقف : وعلى الخامس والسادس ؟

الموحد : هذا من الجمع بين المتناقضين : أن تبقى الذات كما هي رغم تبدلها إلى هذه الذوات الثلاث ، أن يكون الشيء نفسه وغيره في حالة واحدة ، وهذا حكم على اللاهوت الأزلي اللامتغير ، بالحدوث والتغير ـ حيث الفرض تبدله إلى غير ذاته ـ ثم حكم على الناسوت الحادث انه تبدل إلى اللاهوت الأزلي ، والتباين الكلي بين الحادث والازلي قاض عدل على تلكم المحالات ، فاقض : ما أنت قاض !..

الاسقف : وماذا على فروض البنوة ، فلنفرض أنه الاول :

الموحد : فرض البنوة بانفصال النطفة الرجوليـــة عن الإله الاب ، هذا ان كان بمعنى خلق النطفة خارج الذات كما في سائر الخلق ، فلا بنوة ، أو تحكموا ببنوة كافة الخلق !

---

١ ـ قال المستر فابرفي « اثار الهند القديمة ج ٤ ص ٣٧٢ » : وكما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من برهمة وفشنو وسيفا ، هكذا نجد عند البوظيين ، فانهم يقولون : ان بوظا إله ، ويقولون بأقانيمه الثلاثة .

وان كان بمعنى ولادته عن ذاته تعالى وتقدس : أن النطفة والروح كانتا من أجزاء ذاته فانفصلتا ، فهو تركب في تركب - ١- تركب ذاته من روح وجسم، ٢ - تركب كل منهما مما بقي وما انفصل - فحدوث في حدوث وإمكان في امكان !

الاسقف : فعلى الثاني .

الموحد : إن كان هذا التنزل بتجافي الذات عن لاهوتها - فيرد عليها ما يرد على الفرض الرابع الثالوثي - وان كان ببقاء الذات في لاهوتها بعد نزولهـــا إلى الناسوت - كما في الثالث من فروض البنوة - فذلك : إما بتأويل حلول الذات في الناسوت كما عن البراهمة - أو بقائها على تجردها مع تبدل الذات - فهذا من اجتماع النقيضين كما في الفرض الخامس الثالوثي .

ثم على الاول يلزم تحيُّز اللاّمتناهي المجرد في الجسم المتناهي-وليس يمكن هذا إلا بتجافي اللامحدود عن كينونته اطلاقاً أو عن لا محدوديته - أو اجتماع المحدود واللامحدود في ذات واحدة - جمعاً بين المتباينين كلياً - [1] .

الاسقف : فعلى الرابع

الموحد : وعليه لم يكن هناك إله غير المسيح - حيث الإله حلّ بذاته في جسم المسيح - ثم تولـّد عن مريم البتول ، فأين الاثنان الآخران : الآب والابن؟

على أن حلول المجرد - ولا سيما اللاّمحدود - في الجسم - وكل جسم محدود- هذا بيّن الاستحالة ، حيث الحالُّ في المحدود جسمٌ ومحدود لتحدُّده بحدود الجسم ، وإلا لم يكن حلول وتحيُّز - فيحكم عليه - إذا حلّ - بحكم المحل : جسمانية ومحدودية .

الاسقف : فعلى الخامس ؟ ونحن لا نشك : ان ليس فيه ما في سواه من

١- وقد اتضح منهذا البيان بطلان الفرض الثالث من فروض التبني أيضاً .

الفروض ، فقد اصطفى الله مسيحه بكرامة البنوّة تشريفاً له على سواه ، كما يخاطب أحدنا غيره : ابني ، دون أيّة قرابة بينهما إلاّ محبة وحناناً .

كذلك الله : يعتبر المسيح ابنه حيث اختصه بخلقه دون أبٍ ، فقد قام الإله مقام أبيه في خلق النطفة ـ بخلقه دون أب ـ ثم اختصه بين خلقه ان أقدره على إحياء الموتى دون سواه !

الموحد : نقول هنا :

أولاً : إن خلق المسيح دون أبٍ ليس من اختصاصه فـ : «إنما مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» ٣ : ٥٣ .

فلقد احرز آدم الاول هذا الإختصاص وزيادة : هي انه خلق دون أمّ كما خُلق دون أب ، فليكن آدم أخاً لله ، وحاشاه ، حيث سبق المسيح في هذه المنزلة ، وان احياء الموتى آية إلهية يُبرهن بها على رسالة الهية في صاحبه ، وقد شارك المسيح عليه‌السلام في ذلك إبراهيمُ عليه‌السلام حين ذبح الطيور الأربعة ثم أحياهن باذن الله ، وكذلك نفرٌ أخر من أنبياء الله .

ثانياً: إن المجاز انما يجوز فيما جازت الحقيقة وأمكنت ، فلو ان واحداً منا يخاطب تلميذه الساعي في دراساته : ابني شيخي ... فإن كافة هذه العناوين ممكنة الحصول لكل أحد بالنسبة لكل أحد ـ ولكن ساحة الألوهية منزهة عن هذه النسب والإضافات حقيقة فلا يجوز المجاز فيها ، فكما لا يخاطب الله أحداً خطاب العمّ والخال والأب والشيخ ، فكذلك خطاب الولد .

مقارنة الاقانيم بصفات الذات !

الاسقف : مهما يكن من شيء فماذا علينا أن نعتنق عقيدة الثالوث ؟ كما أن البعض من فلاسفة المسلمين يعتنقون عقيدة وحدة الوجود ، وكافة المسلمين يرون : أن الذات الإلهية لها صفات ثلاث ذاتية هي عين الذات، فالذات في عين وحدتها وبساطتها تتصف بثلاث صفات ، والذات مع الصفات واحدٌ

رغم اختلاف الصفات فيما بينها ، واختلافها عن الذات ، كما في كل صفة بالنسبة للذات المعروضة لها .

فتلك إذاً قسمة ضيزى : أن تعتبروا توحيدكم حقيقة ناصعة يصدقها العقل والدين ، وثالوثنا المقدس خرافة جارفة يكذبها الدين والعقل ؟

لا وحدة الوجود ولا تكثر الذات مع الصفات :

الموحد : لقد حققنا فيما سلف : أن وحدة حقيقة الوجود ، هي أيضاً ، خرافة يكذّبها العقل والدين ، كما الإختلاف الحقيقي بين صفات الذات وبينها وبين الذات ، هذا أيضاً لانرتضيه .

ولقد كررنا القول : إن ذاته تعالى بسيطة أحدية سرمدية ، ومن المحال تركّبه أياً مّا كان التركب ، لانه آية الفقر والحدوث، وكذلك تبدُّله إلى حالة اخرى غير لاهوتية تجرديّة ، أو أياً ما كانت الحالات ، فلا تعرضه الحالات — ولا تعني صفاته إختلافاً في الذات، ولا أنها تعرضها عروض الصفات على الذوات، وانما هي تعابير شتى عن حقيقة واحدة مجردة ، فذاته تعالى عين علمه وقدرته وحياته ، وكل من هذه أيضاً عين ذاته ، علمه عين قدرته ، وحياته عين علمه ، وقدرته عين حياته ، دون أن يكون هناك أيُّ اختلاف أو تركب بين الذات والصفات ولا بين الصفات في انفسها .

ولكنكم تعتبرون الآب والابن وروح القدس ثلاثة أشخاص حقيقيين في الكون : كائنات حقيقية ثلاث ، وهي في تعددها واحدة وفي وحدتها متعددة، ولا يعني هذا إلا جمعاً بيّناً بين النقيضين .

ثم في التولد الإلهي ! تعتبرون إله الآب نازلاً عن اللاهوت الى الناسوت ، ومتجسداً في صورة المسيح ، إذاً فلم يبق آبٌ في البين ، بعد إذ تحوّل إبناً ، وإنما هو الابن ليس إلاّ .

ولكننا نعتبر الذات واحدة مع صفات الذات ، وحدة حقيقية دون أي

تكثر ، لا واحداً ومتعدداً ، بل واحداً على الاطلاق ، وإن اختلفت التعابير عنه في الأسماء والصفات : ١-الله الرحمن الرحيم ... -٢-الحي العليم القدير .

وسنوافيكم في المحاورات التوحيدية وخطبها عن مصادر الوحي الاسلامي، بكلمة الفصل ، وكما قدمناها عقلياً في براهين التوحيد .

طلاب مسيحيون : استاذ ! نرجوك أن تمن علينا وتعيد لنا بطلان التولد الالهي ببيان أوضح ولك الشكر .

الموحد : لا يخلو بيئة التولد المزعوم المسيحي الإلهي عن فروض :

١ - انفصال روح المسيح وجسمه من ذات الإله الآب ، المستلزم لكونه تعالى مركباً مرتين : ١ - من روح وجسم - ٢ - من أجزاء مادية ، إذ إن له جسماً ! ..

٢ - إنفصال روحه عليه السلام من روحه تعالى، وكله روح ، على ان هناك بقية من الروح الإلهية تعتبر إله الآب ، المستلزم لتركبه تعالى من أجزاء روحية ، ثم عدم الفرق بين الجزئين الروحيين ، فلْتُسمّيا أباً معاً أو إبناً معاً .

٣ - تبدل الروح الإلهية اللاهوتية إلى الروح البشرية الناسوتية ، وهذا تغيّر: تعالى عنه ذات الإله ، ثم حدوث لروح المسيح ذاتياً ، أو في الماهية ، ثم إذ انقلب الأب إلى الابن كما ينقلب الحطب إلى الرماد ، إذاً فليس في الوجود الالهي إلاّ الابن ، فانقلب الثالوث إلى الاثنين !

...ثم لا نجد أيّ تفسير يرتضيه العقل والدين لهذا التولد الإلهي مهما توفرت المحاولات الكنائسية في ذلك :

«ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ... »

مختلف العقائد المسيحية بشأن الوهية المسيح :

طلاب كنسيون : اجل وان الاختلاف الوفير بشأن الله في توحيده وتثليثه ، طوال القرون المسيحية ، دليل لا مرد له على انحراف جارف بهذا الصدد في معرفة الله ، ولقد كان التغلب في معترك الآراء ، غالباً مع الثالوثيين ، إلى حيث كانوا يعتبرون الموحدين المسيحيين والاقربين إلى عقيدة التوحيد منهم ، كانوا ، يسمونهم مبتدعين ، وإليكم نموذجاً ننقله عن كتاب : مختصر في علم اللاهوت العقائدي [1] :

البدع

١ - مذهب المونار خيانية : MONARCHIANISME

منذ نهاية القرن الاول قام مبتدعون متهو دون: « قيرنثوس والإبيونيون » يدعون إلى التوحيد المشدد والأقنوم الواحد [2] فانكروا ألوهية المسيح(القديس ايريناوس في كتابه ضد المبتدعين (١ : ٢٦) وفي نهاية القرن الثاني قامت البدعة: «المونارخيانية » تعلم : أنه ليس في الله إلاّ اقنوم واحد (ترتليانوس في كتابه ضد بركسياس : ٣) وهذه البدعة تقسم ، تبعاً لموقفها،من شخص المسيح إلى فرعين :

أ) المونارخيانية الديناميكية أو المتبنية ، تعلم : أن المسيح إنسان عادي بسيط ، ولد بطريقة فائقة الطبيعة من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وقد هباه الله يوم اعتماده وبنوع خاص : القوة الآلهية وتبنّاه . [3]

---

١ ـ تأليف لوديغ اوث الالماني ، نقله الى العربية الاب جرجس الارديني ج ١ ص ٧٣ .. تحت عنوان : البدع المضادة للتثليث وتحديدات الكنيسة التعليمية .

٢ ـ أي الاله الواحد .

٣ ـ يقصد البنوة التشريفية ، لا الولادة الحقيقية وقد تركنا الفرع الآخر رعاية الاختصار .

وأهم القائلين بهذه البدعة « تاودوتس » الدباغ البيزنطي ، الذي ادخل تعاليمه روما حوالي سنة ١٩٠ ففصله عن الكنيسة البابا القديس فكتور الأول (١٨٩ - ١٩٨) بولس السميصاني مطران إنطاكيا ، الذي حكم عليه كمبتدع وخلعه مجمع انطاكيا المنعقد سنة ٢٦٨ ، وفوتينوس أسقف سرميوم، الذي خلعه مجمع انعقد في سرميوم سنة ٣٥١

٢) منهب عدم المساواة SUBORDINATIONISME

يسلم هذا المذهب ، على خلاف سابقه ، بثلاثة اقانيم في الله ، إلا انه ينكر على الأقنوم الثاني والاقنوم الثالث مساواتهما للاب بالجوهر ، وبالتالي بالالوهية الحقـــة .

٣) المذهب الآريوسي : نسبة الى الكاهن الإسكندري آريوس (+ ٣٣٦) الذي كان يعلم بأن « الكلمة » (LOGOS) ليس من الازل ولم يولد من الآب ، بل هو خليفة الآب ، خرج من العدم قبل سائر الخلائق كلها، فهو ليس مساوياً للآب في جوهره ، ومنها نُعتوا « بالأنوميين » بل هو خاضـــع للتغير ، وقابل للتطور ، وليس هو الله بالمعنى الخاص الحقيقي ، بل بالمعنى النسبي فقط ؛ إذ تبنّاه بسابق نظره الى استحقاقاته ، وقد حُرّمت هذه البدعة في المجمع النيقاوي المسكوني الاول (٣٢٥) الذي وضع قانوناً للايمان ، يعترف فيه : بأن يسوع المسيح هو ابن الله المولود من جوهر الآب ، وبالتالي يُعلن حقيقة ألوهته ومساواته للآب في الجوهر (D . ٥٤) .

٤) المذهب المكدونياني : نشأ من الآريوسية المعتدلة فرع لها هو شيعه (بنفماتوماك ، أي : اعداء الروح القدس) التي ينسبونها منذ أواخر القرن الرابع ، وربما عن خطأ ، إلى . مكدونيوس - اسقف القسطنطنية الآريوسي المعتدل (عزل عام ٣٦٠ وتوفي قبل ٣٦٤) وهذه البدعة أطلقت مذهب عدم المساواة على الروح القدس أيضاً - معلنة أياه بالاستناد إلى عبرانيين ١ : ١٤ ، خليقة وروحاً للخدمة - كالملائكة - وقد قام ضد دعاة هذه البـــدعة

القديس اثناسيوس والكبادوقيون الثلاثة و... فدافعوا عن ألوهية الروح القدس، وعن وحدة جوهره مع الآب والابن - وقد حرّمت هذه البدعة في مجمع عُقد في الاسكندرية (٣٦٢) برئاسة القديس أثناسيوس، وفي مجمع القسطنطنية المسكوني الثاني (٣٨١) وفي مجمع عُقد في روما (٣٨٢) برئاسة البابا القديس داما سيوس (D. ٧٤ - ٨٢) . وقد أضاف مجمع القسطنطنية إلى قانون إيمان نيقية فقرة خطيرة يُعلن فيها ألوهة الروح القدس، إعلاناً هو على الأقل غير مباشر، وينسب اليه الصفات الإلهية : « - نؤمن .... بالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن - يُسجد له ويمجّد، الناطق بالأنبياء ».

٥) البروتستانية : طعن لوثر في الإصطلاحات التي نعبر بها عن التثليث، إلا أنه حافظ على الإيمان بالثالوث ، ومع ذلك فإن مبدء الحكم الشخصي الذي نادى به أدّى أخيراً إلى إنكار عقيدة الثالوث .

ان مذهب السوسينية بالنسبة إلى فوستوس سوزّيني قد اعتنق عن الله فكرة التوحيد إلى أقصى حد، بحيث لا تسمح باقانيم الهية، وقد نظر إلى المسيح على أنه إنسان محض، وإلى الروح القدس على أنه قوة إلهية « لا شخصية » .

٦) أما علم اللاهوت والراسيونالي المعاصر : فإنه كثـــيراً ما يحافظ على الإصطلاحات والتعابير الثالوثية التقليدية، إلا أنه لا يرى في الأقانيم الثلاثة سوى تشخيص لصفات إلهية . كالقدرة والحكمة والجودة ، ويرى هرنك: أن الإيمان المسيحي في الثالوث ليس إلا وليد الجدل الذي قام بين المسيحية واليهودية، فكان أن اكتفوا أولاً بعبارة « الله والمسيح » رداً على عبارة « الله وموسى »، ثم أضافوا إليها فيما بعد، الروح القدس .

تقنين الثالوث الكنسي :

الموحد : أهكذا زلة فاضحة - عقلياً ونقلياً ! حال أن الموحـــدين المتهمين بالبدعة كانوا قبل المثلثين زمناً وقرباً إلى وحي الإنجيل وتعاليم المسيح، كما نراه في هذه الاقوال، ثم في الأقاويل الاخرى الجارفة بشأن الثالوث : في :

الله ثلاثة اقانيم ، الآب والابن والروح القدس، ولكل من الأقانيم الثلاثة الجوهر الإلهي نفسه عدّاً .

وان اقدم صيغة تعليمية رسمية لإيمان الكنيسة بشأن الثالوث الأقدس ، (حسب ما في مختصر في علم اللاهوت العقائدي) : هي : قانون الرسل ، الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني ، في شكل قانون العماد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين ، ولاعتراف الإيمان في حفلة العماد عند اللاتين .

ثم ... قانون نيقية ، القسطنطنية (٣٨١ م) وقد نشأ ضد مذهبي آريوس ومقدونيوس ، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس داماسيوس (٣٨٢) يدين بصورة إجمالية أضاليل القرون الاولى في الثالوث الاقدس ! ثم إلى القرن ٦,٥ قانون أثناسيوس ، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (٧٦٥ م) ثم في القرون الوسطى قانون المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥ م) ثم مجمع فلورنس (١٤٤١ م) ثم في العصر الحديث تعليم لبيوس السادس (١٧٩٤ م) ...

وكما ترون : إن هذه القرارات والإختلافات الثالوثية إنما بدءت منذ القرن الثاني ، وهي دون مراء إزراء بالاولين ، من المسيح والحواريين والتابعين .

وان الذي دس في فكرة الكنيسة فكرة الأبوة والبنوة الالهية هو الخصي الكوسبح المصري خادم الرهبان « أوريفين »[1] إلى ان تشكلت مجمع نيقية (٣٢٥ م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من شتى الأقطار من يزيد على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب ان تُعتبر قانونية ،ولقد كان ٣١٨ شخصاً من هؤلاء من القائلين بالوهية المسيح .

وقد اجتهد آريوس رئيس الموحدين بالبرهنة على أن المسيح مخلوق وأنه عبدالله ، مستدلاً بمــا لديه من الآيات الانجيلية ، وبتفاسير الأعزة والآباء من ايفليسيا ، واعترف بهذه الحقيقية الثلثان الباقون من الألف (أعضاء المجمع)

---

١ ـ هو راهب اعزب عارف باللغات ـ عاش في القرن الثاني

وهم الموحدون الذين كانت تتألف منهم الأكثرية العظيمة .

ومن ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (وعلى رأسهم أثناسيوس)للبرهنة : على أن المسيح إله تام"،وأنه متحد الجوهر مع الله، وأخيراً ترجّح رأى المثلثين، لا لشيء ، إلا" للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونسطنطينوس) تحت ستار ايجاد الأمن بين المتخالفين ، وإن قسطنطين يرجح رأى صديقه البابا كاهن رومية الأعظم وهو من الأقلية الثالوثية في النيقية ، ويأمر باخـــراج أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحيين الباقين : الموحدين ، من الجمع ، ويقتل آريوس رئيس الموحدين ، لكي يصفّي جو المجمع : (٣١٨) الباقين المثلثين .

ولقد صرح المسيح عليه‌السلام بهذا الحادث العظيم تنديداً بالمثلثين وترحماً على الموحدين بقوله : **« سيُخرجونكم من المجامع ، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله وسيفعلون بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» يوحنا ١٦ : ٢ - ٣ و١٣ : ٩ .**

اي : لم يعرفوا الآب ، الخالق [١] بالالوهية، ولا عرفوني بالعبودية والرسالة.

وقسطنطين هذا كان وثنياً ملحداً ، فـإن « يوسيبوس » بسقيوس قيصرية (الذي تقدّسه الكنيسة وتمنحه لقب سلطان المؤرخين) كان صديق الامبراطور، وهو يصرح : أن الامبراطور اعتمد وتنصر حين كان اسير الفراش ُقبيل وفاته، وبناء" على ذلك علينا أن نعرف :

أن النصرانية الموجودة ما هي إلا من سلطان وثني ملحد وخصيٍ كوسبح مصري !...

---

(١) الآب لغة يونانية بمعنى الخالق كما قدمناه .

المهتدي والاسقف والطلاب : شكراً يا استاذ والف شكر ، ونرجو التفضل باستعراض المعارف التوحيدية من عيونها الفوارة العذبة ، ولكي نستكمل عقيدة التوحيد كما يرتضيها العقل والنقل الصحيح .

الموحّد : اجل ... فالى خطب ومحاورات توحيدية من مهابط الوحي والالهام المحمدي :

●

الى منابع الوحي والالهام المحمدي

- الى خطب ومحاورات بشأن التوحيد من :
- الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وآله .
- الامام امير المؤمنين علي عليه السلام .
- الحسنين عليهما السلام .
- الامام الصادق عليه السلام .
- الامام موسى بن جعفر عليه السلام .
- الامام ابي الحسن الرضا عليه السلام و ...

حوار مع عظيم الاساقفة بشأن التثليث

فمن حوار لهشام بن الحكم مع بريهة أعظم أساقفة النصارى، نقدمه مناسبة للبحث السالف عن التثليث [1] ثم الى محـــاورات توحيدية من مهابط الوحي والالهام ، المحمدي ﷺ .

تروى الروات الثقـــات عن هشام بن الحكم قوله : « جاثليق من جثالقة النصارى يقال له : بُريهة ، قد مكث في النصرانية سبعين سنة ، فكان يطلب الإسلام ويطلب من يحتجُّ عليه ممن يقرء كتبه ويعـــرف المسيح بصفاته ودلائله وآياته ، عُرف بذلك حتى اشتهر في النصاري والمسلمين واليهود والمجوس ، حتى افتخرت به النصارى وقالت : لو لم يكن في دين النصرانية إلاّ بريهة لأجزأنا ، وكان طالباً للحق والإسلام معذ لك، وكانت معه إمرأة تخدمه طال مكثها معه وكان يُسرّ إليها ضعف النصرانية وضعف حجتها .

قال هشام : فعرفت ذلك منه ، فضرب بريهة الامر ظهراً لبطن ، وأقبل يسأل عن أئمة المسلمين [2] وعن صلحائهم وعلمائهم وأهل الحجى منهم ، وكان يستقرءُ فرقةً فرقة لا يجد عنه القــوم شيئاً ، وقال [3] لو كانت ائمتكم أئمةً على الحق لكان عندكم بعض الحق فوصفت له الشيعة ، ووُصِفَ له هشام بن الحكم.

---

١ ـ هشام هذا من تلامذة الامام جعفر بن محمد والامام موسى بن جعفر عليهما السلام .

٢ ـ يعني خلفاء الاسلام غير المعصومين، اذ ان المعصومين منهم ما كانوا يملكون امراً من امور الامة حتى يسأل عنهم وشاهداً على ذلك ما ختم اليه امر بريهة من ابصاره بواسطة تلميذ من تلامذة الامام الصادق [ع] وتشرفه بخدمته .

٣ ـ هذه الجملة شاهد ثان على انه يعني بالائمة غير المعصومين .

قال هشام : بينا أنا على دكاني على باب الكرخ جالس ، وعندي قوم يقرءون عليّ القرآن ، فإذا أنا بفوج النصارى ، معهم ما بين القسيسين الى غيرهم نحو من مائة رجل ، عليهم السواد والبرانس ، والجاثليق الاكبر فيهم بريهة ، حتى نزلوا حول دكاني ، وجُعِل لبريهة كرسيٌ يجلس عليه ، فقامت الاساقفة والرهابنة على عِصيّهم وعلى رئوسهم برانسهم ، فقال بريهة : ما بقي في المسلمين أحد ممن يذكر بالعلم بالكلام إلاّ وقد ناظرته في النصرانية ، فما عندهم شيء ، فقد جئت أناظرك في الإسلام، فضحك هشام فقال: يابريهة إن كنت تريد مني آيات كآيات المسيح عليه السلام فليس أنا بالمسيح ولا مثله ولا أدانيه ، ذاك روح طيبة خميصة مرتفعة ، آياته ظاهرة وعلاماته قائمة ، فقال بريهة : فأعجبني الكلام والوصف.

قال هشام: إن اردت الحجاج فهينا ، قال بريهة: نعم فإني أسألك : مانسبة نبيكم هذا من المسيح نسبة الابدان ؟

هشام : ابن عم جده لا ُمه ، لانه من ولد إسحاق ، ومحمد صلى الله عليه وآله من ولد اسماعيل عليه السلام .

بريهة : وكيف تنسبه الى ابيه ؟

هشام : إن أردت نسبة عندكم فأخبرتكم، وإن أردت نسبة عندنا أخبرتك.

بريهة : أريد نسبة عندنا ، وظننت أنه إذا نسبه نسبتنا أغلبه ، قلت : فانسبه بالنسبة التي ننسبه بها .

هشام : نعم ـ يقولون : إنه قديم من قديم ! فأيها الاب وأيها الابن ؟ [1].

بريهة : الذي نزل الى الارض الإبن ، وهو رسول الاب [2]

---

١ ـ كما ويقولون ! المسيح مولود غير مخلوق ، رغم ان الولادة هي الخلق بعينه ، فهذا التعريف يعني ، ان المسيح مولود غير مولود ، مخلوق غير مخلوق !

٢ ـ حال انهم يعتبرون الاب نازلاً من لاهوت التجرد الي ناسوت رحم البتولة فتجسد اذاً واصبح ابناً ، إما بكله ام بجزء منه !

هشام : إنّ الاب أحكم من الإبن لأن الخلق خلق الأب .

بريهة : إنّ الخلق خلق الاب وخلق الإبن [1]

هشام : ما منعهما أن ينزلا جميعاً كما خلقا إذا اشتركا ؟ [2]

بريهة : كيف يشتركان وهما شيءٌ واحدٌ ، إنما يفترقان بالاسم [3]

هشام : إنما يجتمعان بالاسم [4]

بريهة : جهلٌ هذا الكلام !

هشام : عرفٌ هذا الكلام !

بريهة : ان الإبن متصل بالاب .

هشام : إنّ الإبن منفصلٌ عن الاب [5]

بريهة : هذا خلاف ما يعقله الناس [6]

هشام : إن كان ما يعقله الناس شاهداً لنا وعلينا فقد غلبتك، لان الاب كان ولم يكن الإبن ، فتقول هكذا يا بريهة !

---

١ ـ ولكن على أقل التقدير ليس الابن نفسه الا خلق الأب ، لأنه ولد منه زعمهم ، فالأب اذاً أحكم ، ثم لما كان خلق ما سوي الابن أهون من خلق الابن ، اذاً لم يكن الأب في خلقه بحاجة الى الابن ، فهو أحكم منه على أية حال .

٢ ـ اذ ان نزول الابن لم يكن الا رسالة من الأب لكي يرحم خلقه وعباده من قريب؛ فاذا كان الخلق خلقهما كان لزاماً ان ينزلا جميعاً دون اختصاص بالابن .

٣ ـ هذا فرار من محظور اختصاص الابن بالنزول الى اشد منه هو اجتماع النقيضين؛ ان يكون الابن عين الاب حال أنه رسوله المنفصل عنه حسب تصريح بريهة .

٤ ـ يعني هشام : انهما يجتمعان في زعمكم في اسم الألوهية والقدم ويختلفان في الذات الخارجية.

٥ ـ الحق مع هشام حسب تصريح بريهة انه نازل من السماء دون الأب وهو رسوله ؛ فلو كان متصلاً بالاب وعين ذاته فكيف نزل وبقي الاب غير نازل ؟

٦ ـ من اتحاد الأب والابن وحدة الثالوث ؛ زعم النصاري .

بريهة : لا ـ ما أقول هكذا

هشام : فلِمَ استشهدتَ قوماً لا تقبل شهادتهم لنفسك ؟

بريهة : إن الاب اسم والإبن اسم بقدرة القديم .

هشام : الإسمان قديمان كقدم الاب والإبن ؟

بريهة : لا ـ ولكن الاسماء محدثة [1]

هشام : فقد جعلت الاب ابناً والإبن أباً ـ ان كان الابن أحدث هذه الاسماء دون الاب فهو الاب ، وإن كان الاب أحدث هذه الاسماء فهو الإبن والابن أب ، وليس ههنا ابن ! ..

بريهة : إنّ الإبن إسم للروح حين نزلت الى الاب.

هشام : فحين لم تنزل الى الارض فإسمها ما هو ؟

بريهة : فإسمها إبن ، نزلت أو لم تنزل .

هشام : فقبل النزول هذه الروح إسمها كلها واحدة أو إسمها إثنان ؟

بريهة : هي كلها واحدة ، روح واحدة .

هشام : رضيت أن تجعل بعضها إبناً وبعضها أباً .

بريهة : لا ـ لان اسم الاب واسم الإبن واحد .

هشام : فالإبن أبو الأب ، والأب أبو الإبن ، فالأب والابن واحد ! ..

قال الأساقفة بلسانها لبريهة : ما مرّ بك مثل ذا قط ، تقوم ؟ ، فتحيّر بريهة وذهب يقوم ـ فتعلق به هشام ـ قال : ما يمنعك من الإسلام ؟

---

١ ـ هذا النقض لما قدمه ان الاب اسم والابن اسم بقدرة القديم ، ثم يقتضي هذا ان تكون ذات الأب والابن قديمة واسمائها محدثة ، فلو ان الابن احدث هذه الأسماء فقد امتاز عن الأب في ذلك فهو اذاً اب .

أفي قلبك حزازة ؟ فقلها ، وإلاّ سألتك عن النصرانية مسألة واحدة تبيت عليها ليلتك هذه ، فتصبح وليست لك همّة غـيري ، قالت الأساقفة : لاترد هذه المسألة لعلها تشكل ، قال بريهة : قلها يا أبا الحكم !

هشام : أفرأيتك الابن يعلم ما عند الأب ؟

بريهة : نعم .

هشام : أفرأيتك : الأب يعلم كل ما عند الابن ؟

بريهة : نعم .

هشام : أفرأيتك تخبر عن الابن : أيقدر على كل ما يقدر عليه الأب ؟

بريهة : نعم .

هشام : أفرأيتك عن الأب : أيقدر على كل ما يقدر عليه الابن ؟

بريهة : نعم .

هشام : فكيف يكون واحد منهما ابن صاحبه وهما متساويان؟ وكيف يظلم كلّ واحد منهما صاحبه ؟

بريهة : ليس منهما ظلم .

هشام : من الحق بينهما أن يكون الابن أب الأب ، والأب ابن الابن ، بت عليها يا بريهة .

وإفترق النصارى وهم يتمنّون أن لا يكونوا رأوا هشاماً ولا أصحابه ، فرجع بريهة مغتماً مهتماً حتى صار إلى منزله ، فقالت إمرأته التي تخدمه : ما لي أراك مهتماً مغتماً ؟ فحكي لها الكلام الذي كان بينه وبين هشام، فقالت لبريهة : ويحك أتريد أن تكون على حق أو على باطل؟ قال بريهة : بل على الحق، فقالت له : أينما وجدت الحق فمِل إليه ، وإياك واللجاجة فإن اللجاجة شك والشك شؤم وأهله في النار .

فصوّب بريهة قولها ، وعزم على الغدو على هشام فغدا إليه وليس معه أحد من أصحابه فقال : يا هشام ! ألك من تصدر عن رأيه فترجع الى قوله وتدين بطاعته ؟ قال هشام نعم ... فأرشده الى ابى عبد الله الصادق عليه السلام فأسلم بحضره فلزم ابا عبد الله عليه السلام حتى مات عليه السلام ثم لزم موسى بن جعفر حتى مات في زمانه عليه السلام فغسله الإمام عليه السلام و كفنه بيده وقال : هذا حواري من حواريّ المسيح يعرف حق الله عليه ، فتمنى اكثر اصحابه ان يكونوا مثله[1].

●

١ ـ البحار ج ١٠ الطبعة الحديثة ص ٢٣٤ ـ ٢٣٩ نقلاً عن التوحيد ٢٧٨ ـ ٢٨٤

الرسول الاعظم (ص)
في خطب ومحاورات توحيدية

فمن حوار له ﷺ مع اليهود العزيريين حين اتته قادة الاحزاب :

قادة اليهود : نحن نقول : عزير ابن الله ، وقد جئناك يا محمد ! ننظر ما تقول، فان اتبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك وأفضل، وإن خالفتنا خصمناك.

الرسول الاعظم ﷺ : أجئتموني لأقبل قولكم بغير حجة ؟

قادة اليهود : لا .

الرسول الاعظم ﷺ : فما الذي دعاكم إلى القول : بان عزيزا ابن الله ؟

قادة اليهود : لأنه أحيى لبني إسرائيل التورات بعد ما ذهبت ، ولم يفعل بها هذا إلا لأنه ابنه .

الرسول الاعظم ﷺ : فكيف صار عزير ابن الله دون موسى ، وهـو الذي جاءهم بالتوراة ورئي منه من المعجزات ما قد علمتم ؟ فان كان عزير ابن الله لِما أظهر من الكرامة باحياء التوراة ، فلقد كان موسى بالبنوة أحق وأولى، ولئن كان هذا المقدار من إكرامه لعُزَير يوجب أنه إبنه ، فأضعاف هـذه الكرامة لموسى توجب له منزلة أجلّ من البنوة !

وإن كنتم إنما تريدون بالبنوة الولادة على سبيل ما تشاهدونه في دنياكم هذه: من ولادة الأمهات الاولاد بوطيء آبائهم لهن ، فقد كفرتم بالله وشبهتموه بخلقه ،

وأوجبتم فيه صفات المحدثين ، ووجب عندكم أن يكون محدَثــا مخلوقاً ، وأن يكون له خالق صنعه وابتدعه .

قادة اليهود : لسنا نعني هذا ، فإن هذا كفر كمـا ذكرت ، ولكنا نعني : أنه إبنه على معنى الكرامة وان لم يكن هناك ولادة كما يقول بعض علمائنا لمن يريد إكرامه وإبانته بالمنزلة عن غيره : يا بني ! وإنه إبني ، لاعلى اثبات ولادته منه ، لأنه قد يقول ذلك لمن هو أجنبي لانسب بينه وبينه .

وكذلك لمافعل الله بعزيرمافعل كانقد اتخذه إبناًعلى الكرامة لا علىالولادة.

الرسول الأعظم ﷺ : فهذا ما قلته لكم : إنه إن وجب على هذا الوجه ان يكون عزيرٌ ابنَه ، فإن هذه المنزلة لموسى أولى ، وإن الله يفضح كل مبطل باقراره ويقلّب عليه حجته .

وأما ما احتججتم به فإنه يؤديكم إلى ما هو أكبر ممـا ذكرته لكم ، لانكم قلتم : إن عظيماً من عظمائكم قد يقول لأجنبي لانسب بينه وبينه: يا بني ! وهذا إبني ، لا على طريقة الولادة ، فقد تجدون أيضاً هذا العظيم يقول لأجنبي آخر : هذا أخي ، ولآخر : هذا شيخي وأبي ، ولآخر : هذا سيدي ويا سيدي ! : على سبيل الإكرام ، وأن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول ، فاذاً يجوز عندكم أن يكون موسى أخاً لله أو شيخاً له أو أباً أو سيداً ، لانه قدزاده في الإكرام مما لعُزَير ، كما أن من زاد رجلا في الإكرام قال له : يا سيدي ويا شيخي ويا عمي ويا رئيسي ! على طريق الإكرام ، وأن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول .

أفيجوز عندكم أن يكون موسى أخاً لله أو شيخاً أو عماً أو رئيساً أوسيداً أو أميراً ، لانه قد زاده في الاكرام على من قال له : يا شيخي أو يا سيدي أو يا عمي أو يا أميري أو يا رئيسي .

قادة اليهود : بهتوا وتحيروا وقالوا : يا محمد ! أجّلنا نتفكر فيما قلته لنا .

الرسول الأعظم ﷺ : أنظروا فيه بقلوب معتقدة للإنصاف يهدكم الله .

قال الصادق عليه السلام : فوالذي بعثه ﷺ بالحق نبياً ما أتت على جماعتهم : (قادة الأحزاب) إلا ثلاثة أيام حتى أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وكانوا خمسة وعشرون رجلاً من كل فرقة خمسة وقالوا : مـــا رأينا مثل حجتك يا محمد ! نشهد أنك رسول الله ﷺ [1] .

(١) البحار ج ٩ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

ومن حوار له (ص) مع القائلين ببنوة المسيح الالهية

... قدم عليه وفدٌ من النصارى مع قادة سائر الأحزاب يحاورونه ﷺ في عقائدهم .

قالوا : نحن نقول : المسيح ابن الله ، اتحد به وقد جئناك لننظر ما تقول ، فإن اتبعتنا فنحن اسبق إلى الصواب منك وأفضل ، وإن خالفتنا خصمناك .

الرسول الاعظم ﷺ : « انتم قلتم إن القديم عز وجل إتحد بالمسيح إبنه ! فما الذي اردتموه بهذا القول ؟ أردتم : أن القديم صار محدَثاً لوجود هذا المحدَث الذي هو عيسى ؟ أو المحدَث الذي هو عيسى صار قديماً ، لوجود القديم الذي هو الله ؟ أو معنى قولكم : أنه اتحد به ، أنه اختصه بكرامةٍ لم يُكرم بها أحداً سواه ؟ .

فإن أردتم : أن القديم تعالى صار محدَثاً ، فقد أبطلتم ، لأن القديم محالٌ أن ينقلب فيصير محدثاً (حيث يستلزم الجمع بين الازلية والحدوث لو بقي ازلياً بعد انقلابه محدثاً ، أو إنقلاب ما كان عما كان لأمر متأخر : أن تصير الازلية السالفة حدوثاً ، وهذا أيضاً جمع بينهما جمعاً بين المتباينين المتناقضين)[1] .

وإن أردتم أن المحدَث صار قديماً فقد أحَلتم ، لان المحدَث أيضاً محالٌ أن يصير قديماً (لمثل ما مر من الحجة في تزييف صيرورة القديم محدثاً) .

وان اردتم انه اتحد به ؛ بان اختصه واصطفاه على سائر عباده ، فقد أقررتم بحدوث عيسى وبحدوث المعنى الذي اتحد به من أجله ، لأنـه اذا كان عيسى

(١) الداخل في القوسين ( ) من تفسير وتوضيح المؤلف .

محدثاً ، وكان الله اتحد به بان أحدث به معنى صار به أكرم الخلق عنده ، فقد صار عيسى وذلك المعنى محدثين ، وهذا خلاف ما بدأتم تقولونه .

قادة النصارى : يا محمد ! إن الله تعالى لما اظهر على يد عيسى من الاشياء العجيبة ما أظهر فقد اتخذه ولداً على وجه الكرامة .

الرسول الأعظم ﷺ : قد سمعتم ماقلته لليهود في هذا المعنى الذي ذكرتموه.

قادة النصارى : سكتوا إلا رجلاً واحداً منهم قال له : يا محمد! أوَلستم تقولون : إن ابراهيم خليل الله ؟ .

الرسول الأعظم : قد قلنا ذلك .

قادة النصارى : اذا قلتم ذلك فلِم منعتمونا من أن نقول : إن عيسى ابن الله ؟!

الرسول الأعظم ﷺ : لأن قولنا : إن ابراهيم خليل الله ، فإنما هو: (خليل الله) مشتق من الخَلّه والخُلّه ، فأما الخَله فمعناها الفقر والفاقة وقد كان خليلاً الى ربه فقيرا وإليه منقطعاً وعن غيره متعفّفاً معرِضاً مستغنياً وذلك لما أريد قذفه في النار ، فرمِي به في المنجنيق ، فبعث الله تعالى جبرئيل عليه السلام وقال له : أدرك عبدي ، فجاء إليه فلقيه في الهواء فقال : كلفني مابدا لك،فقد بعثني الله لنصرتك ، فقال : بل حسبي الله ونعم الوكيل، اني لا أسأل غيره ولا حاجة لي إلا اليه، فسماه خليله، اي : فقيره ومحتاجه والمنقطع اليه عمن سواه.

واذا جعل ذلك من الخلة وهو أنه قد تخلل معانيه ، ووقف على اسرار لم يقف عليها غيره ، كان معناه : العالم به وبأموره ولا يوجب ذلك تشبيه الله بخلقه .

الا ترون انه إذا لم ينقطع اليه لم يكن خليله ؟ واذا لم يعلم باسراره لم يكن خليله ؟

وان من يلده الرجل ، وإن اهانه واقصاه ، لم يخرج عن ان يكون ولده ؟

لان معنى الولادة قائم .

ثم إن وجب لانه قال : ابراهيم خليلي، ان تقيسوا انتم فتقولوا : إنْ عيسى ابنه ، وجب ايضاً ان تقولوا لموسى : انه ابنه ، فان الذي معه من المعجزات لم يكن بدون ما كان مع عيسى ، فقولوا : إن موسى ايضاً ابنه ، وإنه يجوزان تقولوا على هذا المعنى : إنه شيخه وسيّده وعمّه ورئيسه واميره ، كما ذكرته لليهود .

قال بعضهم لبعض : وفي الكتب المنزله ان عيسى قال : أذهب إلى ابي .

الرسول اعظم ﷺ : فان كنتم بذلك الكتاب تعملون فإن فيه : أذهب إلى ابي وابيكم ـ فقولوا : ان جميع الذين خاطبهم عيسى كانوا ابناء الله ـ كما كان عيسى ابنه ـ من الوجه الذي كان عيسى ابنه .. » [1]

١ـ قدمنا الوجه في الآب وانه بالمد كما سجلوه في الأناجيل فهو يوناني بمعنى الخالق ولعله (ص) ألزمهم بما التزموا به من كونه : « اباً : والداً »

الرسول الاعظم (ص) يحتج على عبدة الاوثان

... وانتم فلِم عبدتم الاصنام من دون الله ؟

قادة المشركين : نتقرب بذلك إلى الله تعالى .

الرسول الاعظم ﷺ : أوَ هي سامعة مطيعة لربها ، عابدة له ، حتى تتقربوا بتعظيمها إلى الله ؟

قادة المشركين : لا .

مبادىء عبادة الاوثان :

الرسول الاعظم ﷺ : فأنتم الذين نحتتموها بأيديكم ، فلإن تعبدكم هي ، لو كان يجوز منها العبادة ، أحرى من ان تعبدوها ، إذا لم يكن امركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم وعواقبكم ، والحكيم بما يكلفكم .

قادة المشركين : اختلفوا ، فقال بعضهم : إن الله قد حلّ في هياكل رجال كانوا على هذه الصور ، فصوّرنا هذه الصور نعظّمها لتعظيمنا تلك الصور التي حلّ فيها ربُنا .

وقال آخرون منهم : إنّ هذه صور أقوام سلفوا ، كانوا مطيعين لله قبلنا فمثلنا صورهم وعبدناها تعظيماً لله .

وقال آخرون منهم : إن الله لما خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له كنا نحن احق بالسجود لآدم من الملائكة ففاتنا ذلك فصوّرنا صورته فسجدنا له تقرباً الى الله تعالى ، كما تقربت الملائكة بالسجود لآدم إلى الله تعالى ، وكما أمرتم بالسجود ، بزعمكم ، إلى مكه (كعبة) ففعلتم ، ثم نصبتم في ذلك البلد بأيديكم

محاريب سجدتم إليها ، وقصدتم الكعبة لا محاريبكم ، وقصدُكم بالكعبة إلى الله عز وجل لا إليها .

الرسول الاعظم ﷺ : اخطأتم الطريق وضللتم .

اما انتم « الفريق الاول » فقد وصفتم ربكم بصفة المخلوقات ، أوَ يحلُّ ربكم في شيء حتى يحيط به ذلك الشيء ، فأي فرق بينه ، إذاً ، وبين سائر ما يحلُّ فيه ، من لونه وطعمه ورائحته ولينه وخشونته وثقله وخفته ؟

ولِم صار هذا المحلول فيه محدثاً وذلك قديماً ، دون أن يكون ذلك محدثاً وهذا قديماً ؟

وكيف يحتاج إلى المحالّ من لم يزل قبل المحالّ وهو عز وجل كما لم يزل ؟!

وإذا وصفتموه بصفة المحدثات في الحلول ، فقد لزمكم أن تصفوه بالزوال ، وما وصفتموه بالزوال والحدوث فصفوه بالفناء ، لأن ذلك أجمع : من صفات الحال والمحلول فيه ، وجميع ذلك يغيّر الذات ، فان كان لم يتغير ذات الباري عز وجل بحلوله في شيء ، جاز ان يتغير : بأن يتحرك ويسكن ويسودّ ويبيض ويحمر ويصفر وتحله الصفات التي تتعاقب على الموصوف بها ، حتى يكون فيه جميع صفات المحدثين ويكون محدثاً ، عزّ الله تعالى عن ذلك .

فإذا بطل ما ظننتموه : من أن الله يحلّ في شيء ، فقد فسد ما بنيتم عليه قولكم .

الفرقة الاولى : سكتوا وقالوا : سننظر في امورنا

ثم اقبل ﷺ : على الفريق الثاني قائلاً : أخبرونا عنكم إذ عبدتم صور من كان يعبد الله فسجدتم له وصليتم ، فوضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود لها ، فما الذي ابقيتم لرب العالمين ؟ !

اما علمتم : أن من حق من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوى به عبده ؟ !

أرأيتم ملكاً أو عظيماً، إذا ساويتموه بعبيده في التعظيم والخشوع والخضوع، أيكون في ذلك وضعٌ من الكبير، كما يكون زيادة في تعظيم الصغير ؟ !

الفرقة الثانية : نعم .

الرسول الاعظم ﷺ أفلا تعلمون انكم من حيث تعظّمون الله بتعظيم صوَر عباده المطيعين له، تُزرون على رب العالمين !

الفرقة الثانية : سكتوا بعد أن قالوا : سننظر في امورنا .

ثم اقبل ﷺ : على الفرقة الثالثة قائلاً : لقد ضربتم لنا مثلاً وشبهتمونا بأنفسكم ولا سواء، وذلك لأنا عباد الله، مخلوقون مربوبون، نأتمر له فيما أمرنا، وننزجر عما زجرنا، ونعبده من حيث يريده منا، فإذا أمرنا بوجهٍ من الوجوه أطعناه ولم نتعد إلى غيره مما لم يأمرنا ولم يأذن لنا، لأنا لا ندري لعله أراد منّا الأول وهو يكره الثاني، وقد نهانا أن نتقدم بين يديه .

فلمّا أمرنا أن نعبده بالتوجه إلى الكعبة أطعنا، ثم أمرنا بعبادته بالتوجه نحوها في سائر البلدان التي نكون بها، فأطعنا، فلم نخرج في شيء من ذلك عن اتباع أمره .

والله عز وجل حيث امر بالسجود لآدم لم يأمر بالسجود لصورته التي هي غيره (ولا أمرنا نحن بالسجود لآدم وانمـــا الملائكة هم المأمورون، ولم تكن السجدة سجدة عبادة بل سجدة شكر لله) فليس لكم أن تقيسوا ذلك عليه، لانكم لا تدرون لعله يكره ما تفعلون اذ لم يأمركم به .

أرأيتم لو اذن لكم رجل في دخول داره يوماً بعينه، ألكم ان تدخلوها بعد ذلك بغير أمره ؟ أو لكم ان تدخلوا داراً اخرى له مثلها بغير أمره ؟ او وهب لكم رجل ثوباً من ثيابه، او عبداً من عبيده، او دابة من دوابه، ألكم ان تأخذوا ذلك .

قالوا : نعم .

قال ﷺ : فان لم تأخذوه اخذتم آخر مثله ؟

قالوا : لا ـ لانه لم يأذن لنا في الثاني كما أذن لنا في الأول .

قال ﷺ : فاخبروني ، الله اولى بان لا يتقدم على ملكه بغير امره او بعض المملوكين ؟

قالوا : بل الله اولى بان لا يُتصرف في ملكه بغير اذنه .

قال ﷺ : فلِم فعلتم ؟ ومتى أمركم ان تسجدوا لهذه الصور» [1] (بل ونهاكم عنها في كافة كتبه وتشاريعه وبألسنة كافة رسله) .

---

١ ـ البحار ج ٩ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦ .

الرسول الاعظم (ص) في كلمات توحيدية

قال ﷺ: في بعض خطبه «الحمد لله الذي كان في اوليته وحدانياً (لم يشاركه في اوّليته وازليته احد) وفي ازليّته متعظماً بالإلهية (لم تحدث عظمته بما خلق بعد الأزل ، بل كان إلهاً في الأزل) متكبراً بكبريائه وجبروته ، ابتداء ما ابتدع ، وأنشاء ما خلق على غير مثال كان سبق ، ولا لشيء مما خلق (بديع السماوات والارض على غير مثال وسبق تمثال ، وإنما ابتدئه فابتدعه) .

ربنا القديم بلطف ربوبيته ، وبعلم خبره فتق ، وبإحكام قدرته خلق جميع ما خلق ، وبنور الإصباح فتق ، فلا مبدّل لخلقه ، ولا مغـــير لصنعه ، ولا معقب لحكمه ، ولاراد لأمره ، ولا مستراح عن دعوته ولا زوال لملكه ، ولا انقطاع لمدته (حيث انقطاع المدة وابتدائها يخص المدة الزمانية ، المحدودة ، ولكن مدته سرمد ، ازل وابد ، لا اول له ولا آخر) وهو الكيـــنون اولاً والديموم ابداً (فهذه مدته ـ لو صح التعبير ـ فكيف يكون له انقطاع وامد)؟

المحتجب بنوره دون خلقه في الافق الطامح ، والعز الشامخ ، والملك الباذخ: (احتجب عن خلقه بذاته النوري الالهي ، النور المجرد غير المتناهي فلا يرى ويدرك بالأبصار ، فلقد احتجب كذلك في الأفق الطامح « المرتفع » : افق الالوهية ، فلا طيّار يطير من على افقه ، لكي يراه دون حجاب ، والعز الشامخ والملك الباذخ : شاهق عال)

فوق كل شيء علا (علوّ العلم والقدرة) ومن كلّ شيء دنا ، فتجلى لخلقه من غير ان يكون ُيرى (تجلياً بالآيات لا بالذات ، فقد تجـــلى في الفِطر والعقول حيث لا محيص لها عن الإذعان بالوهيته ، رغم أنها لا تحيط به علماً) وهو

بالمنظر الاعلى: (منظر العقل والفطرة ، دون إحاطه » ، فلا يُعلم منه شيء إلاّ انه ليس بمعدوم ولا ميت ولا عاجز ولا جاهل، وهذه هي التي ندركها من وجوده وحياته وقدرته وعلمه : صفات ذاتية ثلاث هي عين ذاته ، فلا منظر أعلى من هذا المنظر من حيث كيفِ النظر ونتاجه ، فكيفُه في ألطف وأدق المعارج ، ونتاجه يربو على كافة الإنتاجات العلمية ، وذلك لمن القى السمع وهو شهيد) .

فأحبَّ الإختصاص بالتوحيد إذا احتجب بنوره ، وسما في علوّه ، وأستتر عن خلقه (استتار الذات والصفات) .

وبعث إليهم الرسل لتكون له الحجة البالغة على خلقه ، ويكون رسله إليهم شهداء عليهم ، وانبعث فيـــهم النبيين مبشرين ومنذرين ، ليهلك من هلك عن بيّنة ، ويحيى من حيّ عن بينة ، وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه ، فيعرفوه بربوبيته بعد ما انكروا ، ويوحّدوه بالالهية بعد ما عندوا » [1]

الرسول الاعظم ﷺ يعرفنا حق معرفة الله تعالى :

جاء اعرابي إلى الرسول ﷺ قائـــلا : يا رسول الله ! علّمنا من غرائب العلم ، فقال ﷺ: ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه ؟ قال الرجل: ما رأس العلم يا رسول الله ﷺ؟

قال ﷺ : «معرفة الله حق معرفته ، قال : وما معرفة الله حق معرفته ؟ قال ﷺ :

تعرفه بلا مِثلٍ ولا شبهٍ ولا ندٍّ ، وأنه واحدٌ أحدٌ ظاهرٌ باطن أوّل آخر ، لا كُفوَ له ولا نظير ، فذلك حق معرفته» [2] .

بيان : « بلا مثل ولا شبه ولا ند » أي : أن الله موجود ، ثم لا نستطيع

١ ـ البحار ج ٤ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

٢ ـ البحار ج ٣ ص ٢٦٩ .

التعرّف إليه بما سواه ، فانه خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه ، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه ، فلا يُعرف بمِثلٍ ولا شبيه ولا ندٍّ ، وإنمـــا يعرف الله بالله ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين يسأله الجاثليق ، أخبرني: عرفت الله بمحمد أم عرفت محمداً بالله ؟ :

قال عليه السلام : « ما عرفت الله عز وجل بمحمد ولكن عرفت محمداً بالله عز وجل : حين خلقه وأحدث فيه الحـــدود من طول وعرض فعرفت أنه مدبر مصنوع، باستدلال والهام منه وارادة ، كما ألهَمَ الملائكة طاعتهم وعرّفهم نفسه بلا شبه ولا كيف » ... [١]

والامام إنما ينفي معرفة الله بمحمد صلى الله عليه وآله من حيث التشبيه والتنظير ، فإن الله لايعرف بنظير اذ ليس له نظير ، وإنما يُعرف بآياتٍ آفاقية وأنفسية ، لا معرفة الشبه بل معرفة الدلالة : دلالة الخلق على خالقه ، فهو مجهول بالذات ، معروفٌ بالآيات ، لا تجد كائناً سواه إلاّ دليلاً عليه) .

ومن حجاج له صلى الله عليه وآله على من يستوصفه ربَّه :

قدم عليه صلى الله عليه وآله يهودي يقال له : نعثل ، فقال : يا محمد ! إني سائلك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أنت أجبتني عنها أسلمت على يدك ،قال صلى الله عليه وآله : سل فقال : يا محمد ! صف لي ربك :

فقال صلى الله عليه وآله إن الخالق لا يُوصف إلاّ بما وصف به نفسه ، وكيف يُوصف الخالق الذي يعجز الحواس أن تدركه ، والأوهام أن تناله ، والخطرات أن تحدّه ، والأبصار عن الإحاطة به ، جلّ عما يصفه الواصفون ، نأى في قربه وقرب في نأيه ، كيّف الكيفية فلا يقال له : كيف ؟ وأيّن الأين فلا يقال له : أين ؟ هو منقطع الكيفوفية والأينونية ، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٢٧٢ .

والواصفون لا يبلغون نعته ـ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

قال : صدقت يا محمد ! أخبرني عن قولك : إنه واحد لا شبيه له ـ أليس الله واحداً والإنسان واحد ـ فوحدانيته أشبهت وحدانية الإنسان .

فقال ﷺ : الله واحد وأحدي المعنى ـ والإنسان واحد ثنويُّ المعنى : جسمٌ وعرَض وبدن وروح ـ فانما التشبيه في المعاني لا غير ـ قال : صدقت يا محمد » !

بيان : « ... إلاّ بمـــا وصف به نفسه »: لان التوصيف يحتاج إلى حيطة الواصف على الوصف والموصوف وتعالى الله عن ان يُحاط بذاته أو صفاته ـ وصفر من سواه عن أن يحيطو به علماً « فسبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين » حيث لا يصفونه إلاّ بما وصف به نفسه .

« والأبصار عن الاحاطة به »هذا تعميم بعد تخصيص ، فالأبصار تعم أبصار العيون والأوهام والخطرات والعقول والقلوب ـ فلقد كلّت دون دركه عميقات مذاهب التفكير ـ وضلت دون وصفه بوارع ثاقبات العقول .

« نأى في قربه » بعُد عن الخلق وباينهم ـ بينونة ذات وصفة لا بينونة عزلة: بُعد الازلية عن الحدوث ـ وبينونة الحقيقة عن المجاز ـ بعُد هكذا، حال قربه إلى خلقه بالقيومية والعلم ـ فهو أقرب إلى خلقه علماً وقدرة منهم إلى انفسهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد .

« وقرب في نأيه » قرب إليهم علماً وقيومية في نأيه عنهم ذاتاً وصفاتاً .

« فلا يقال له ...»يستدل ﷺ هنا وهناك بحدوث الكيف والأين على أنه تعالى منزّه عنها وعما اليها من الحادثات .

« :. وأحدي المعنى » أي أحدي الذات بكافة مراتب الأحدية في أدق

معانيها وأرق مراميها ، وهذه الأحدية ليست « من عدد ولا بعدد ولا بتأويل عدد » إذ يستحيل تعدده : في ذاته، بثنوية المعني ، وفي تعدد الذات الألوهية، يشارك له في أزليته والوهيته .

وقد يفصّل هذه الوحدة ويفسرها بيان وزير الرسول ومثيله وخليفته علي امير المؤمنين عليه السلام كالتالي :

●

علي امير المؤمنين (ع) في خطب وكلمات توحيدية

فمن خطبة له عليه السلام خطبها بعد موت النبي بتسعة أيام حينما فرغ من جمع القرآن :

« الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تنال إلاّ وجوده (فحسب، لا نيلاً بمعنى درك حقيقته وكنه وجوده، إنما هو نيل أنه ليس بمعدوم وأنه شيءٌ لا كالأشياء)[1] وحجب المقول عن أن تتخيل ذاته ، في امتناعها من الشبه والشكل (حيث الممتنع عن الشبه لايحيط به العقل والوهم، فإنما يجالهما شيءٌ له مثيل) بل هو الذي لم يتفاوت في ذاته ، ولم يتبعض بتجزئة العدد في كماله (فان عدم تفاوت وتبعّض الذات مقتضي تمامية الكمال) .

فارق الأشياء لأعلى إختلاف الأماكن (بل باختلاف الذات والصفات) وتمكن منها لأعلى الممازجة (بل على العلم والقدرة والقيومية) وعلمها لا باداة لايكون العلم إلاّ بها (كما نعلم الأشيـاء باداة ومنها الصور المرتسمة منها في أذهاننا) لشهادة الاداة بفاقة المتأدّين .

وليس بينه وبين معلومه علم غيره (على خلاف خلقه، فبين معلوماتهم وأنفسهم: ١ ـ علم الله تعالى حيث يعلم ما يعلمون ويعلّمهم اياه ـ ٢ ـ والصور المرتسمة في أذهانهم فإنها وسيطة بين كل عالم وما يعلمه عن نفسه ـ والله تعالى يعلم لا باداة مهما كانت لطيفة رقيقة) .

ان قيل : كان ـ فعلى تأويل أزلية الوجود (لا الزمان الماضي المستفاد من كان

---

١ ـ بين الهلالين في جميع هذه الخطب من توضيحات المؤلف .

قضية مضيّه ، حيث الماضي ضربان : ١ - زماني - ٢ - وغير زماني) وان قيل لم يزل فعلى تأويل نفي العدم (لا مستقبل الزمان، بل الأبدية اللا ّنهائية المطلقة) فسبحانه وتعالى عن قول من عبد سواه واتخذ إلهاً غيره علوّاً كبيراً »[1].

ومن خطبة له عليه السلام خطبها في مسجد الكوفة :

«الحمد لله الذي لا من شيء كان، ولا من شيء كوّن ما قد كان(أي لم يكوّن المادة الأصلية الكائنة قبل صنوف المواد من مادة أخرى أزلية) .

المستشهد بحدوث الأشياء على أزليته (ففي حدوثها شهادتان على ان خالقها ازلي : ١ - ضرورة انتهاء الحادث الى ازليّ ما - ٢ - الحادث لا يستطيع ان يُحدث مثله للعجز الظاهر فيه وعدم رجحان حادث على مثله لكي يسبقه ويختص بالخالقية) .

وبما وسمها به من العجز على قدرته (حيث العاجز عن تدبير أموره بنفسه بحاجة ماسّة الى من يدبر أموره ، وإلا ّ بقيت الأمور غير مدبّرة ، وبقيت ذوات الممكنات مستحيلة الوجود ، فوجودها، مدبّرةً امورها بقدرةوحكمة عالية، شاهد صدق على قدرة الخالق الأزلي) .

وبما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه (ضرورة الفرق بين الأزلي والحادث فلو ان الأزلي فنى كان حادثاً ضرورة تباين الذات والصفات بين الحادث والأزلي وتلائمها بين حادث وحادث) .

لم يخل منه مكان فيُدرك باينية (إنما يدرك بها من يختص بمكان دون سواه - ولكنه في كل مكان - اينيّة في العلم والقيومية ، لا في الذات والكينونه) .

ولا له شَبح مثـال فيوصف بكيفية (ضرورة حاجة الوصف بالكيفية ، إلى شَبح مثال يمثله ، وليس فليست) .

---

١ - البحار ، ج ٤ ص ٢٢١ .

ولم يَغِب عن شيءٍ فيُعلم بحيثية (فإنه مع كل شيءٍ اقرب منها الى انفسها علماً وقيومية).

مباينٌ لجميع ما احــدث في الصفات (ضرورة مباينة الازلي والحادث ، والحادث والمحدِث ، حيث الحادث حادثٌ في ذاته وصفاته) .

وممتنع عن الادراك بما إبتدع من تصريف الذوات، وخارج بالكبرياء والعظمة من جميع تصرف الحالات (فإن لتصرف الحالات شرطين : ١ - عدم استطاعته للحفاظ على نفسه فيتغير بغيره من العلل المصرّفة للحالات - ٢ - عدم وجدانه للكمال اللايتناهى فيسير في تغيّره الى الأكمل فالأكمل وهذا من وصمات الحدوث وسمات الفقر ، دون الغني الأزلي) .

محرّمٌ على بوارع ثاقبات الفِطن تحديده، وعلى عوامق ثاقبات الفكر تكييفه وعلى غوائص سابحات النظر تصويره (حرمة تشريعية ، حيث المحدود المكيّف المصوّر ليس إلهاً ، فلو أتخذ إلهاً كان ذلك إلحاداً وشركاً ، وحرمة تكوينية : حيث اللا محدود اللا مثال اللا صورة ، يستحيل تحديده او تكييفه او تصويره مهما كانت الفطن المحدّدة بارعة ثاقبة ، تنقب وتثقب كل صعب وضيق - حيث لا حد له - او كانت الفكر عميقة ثاقبة، حيث لا تجد مثالاً يمثله به فيكيّفه ، أو كانت الانظار غواصة سابحة في بحار الصور والتصوير، حيث لا صورة له تُتصور).

لا تحويه الاماكن لعظمته ، ولا تذرعه المقادير لجلاله ، ولا تقطعه المقائيس لكبريائه (حيث الاماكن والمقائيس والمقادير ، إنما هي للمحدود ذي المقــدار والقياس ، وسبحانه مَن ليس كمثله شيءٌ) .

ممتنع عن الاوهام ان تكتنهه ، وعن الأفهام ان تستغرقه ، وعن الاذهان ان تمثّله .

قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول ، ونضبت عن الاشارة إليه بالإكتناه بحار العــلوم (فقــد يُشار إليه بغير الاكتناه ، بأنه كائن

لا كالكائنات) ورجعت بالصغر عن السموّ الى وصف قدرته لطائف الخصوم.

واحدٌ لا من عدد ولا بعدد ولا عن عدد ولا بتأويل عدد»[1] (حيث الواحد منه عدديّ ومنه سواه، والعدديّ يعم ما كان متعدداً ثم توحّد وهذا هو الواحد عن عدد ومن عدد، وما هو واحد يؤول ويرجع الى العدد، وهو الواحد بتأويل عدد ، وما هو واحد ثنويّ المعنى وإن كان لم يتعدد وسوف لا يتعدد ، وثنوية المعنى بمعنى أن حقيقته ذات أجزاء وتراكيب والله تعالى أحدي الذات وأحدي المعنى، لم يتوحّد من عدد ولا عن عدد ولا يؤول الى العدد ولا ثنوية وتركيب في حقيقته -فهو واحد لا بعدد ولا عن عدد ولا من عدد ولا بتأويل عدد- حيث يستحيل تعددّه أزلا وأبداً ، فلم يكن كثيراً فتعدد ، ولن يكون كثيراً عن وحدته، ولا هو متجزءُ الذات ومركّبها، ولا نجد واحداً سواه إلاّ وقد توحّد عن كثرة أو يتكثر عن وحدة - ومهما كان - فهو ثنوي المعنى -ومهما كان- فهو يمكن أن يتعدد ، ولكن الله تعالى يستحيل عليه التعدد بأيٍّ من هذه المعاني).

ودائم لا بأمد ، وقائم لا بعمد (فإنه عَمَدٌ وعماد لمن سواه) وليس بجنس فتعادله الأجناس، ولابشَبَح فتضارعه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات قد ضلت العقـول في أمواج تيّار إدراكه ، وتحيّرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليته ، وحصرت الأفهام عن إستشمار وصف قدرته، وغرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته، مقتدرٌ بالالآء ، وممتنع بالكبرياء (ممتنع عن أن يُدرك أو يحاط به) ومتملك على الأشياء (فإنها مِلكه ذاتية ، وهو مالكها ومَلِكها، لاتخرج عن ملكه إلاّ إذا خرجت عن الوجود ، إذ لا مملوك حتى يكون ملك) .

فلا دهر يُخلقه (حيث لايشمله دهرٌ ولازمان حتى يُخلق بتصرمه) ولاوصف يحيط به (فسبحان الله عما يصفون ، إلاّ عباد الله المخلصين) .

قد خضعت له رواتب الصعاب في محل تخوم قرارها: (الجبال الشاهقة الثابتة

---

١ - هذه التعابير الثلاثة الأخر أيضاً نجدها في خطبه التوحيديه .

عروقها في تخوم الأرض ، وكل صعب ٍ شاهق ٍ رفيع ٍ من الخلق ـ مها كان ـ)
وأذعنت له رواهن الأسباب في منتهى شواهق أقطارها (تذعن بفقرها الى الله في صميم ذواتها حيث الاسباب رواهن إذنه تعالى وارادته ، دون استقلال في أنفسها ، فهي مذعنة وإن كانت في شواهق اقطارها) مستشهد بكلية الاجناس على ربوبيته (حيث الربوبية تقتضي كلية الأجناس وتنوعها، لكي تكون مترامية العوائد ، شاملة الفوائد ـ فالكلية الجامعة المنتظمة في الأجناس ، واختلافها على ائتلافها ، هذان مستشهدٌ بهما على ربوبية مجنّسها) وبعجزها على قدرته ، وبفطورها على قدمته ، وبزوالها على بقائه ، فلا محيص لها عن إدراكه إياها ، ولا خروج من إحاطته بها ، ولا احتجاب ٍ عن إحصائه لها ، ولا امتناع من قدرته عليها ـ

كفى بإتقان الصنع لها آية ، وبمركّب الطبع عليها دلالة ، وبحدوث الفطر عليها قدمة ، وبإحكام الصنعة لها عبرة ، فلا إليه حدٌ منسوب ، ولا له مثَل مضروب ، ولا شيءٌ عنه بمحجوب ، تعالى عن ضرب الأمثال والصفات المخلوقة علواً كبيراً ... »[1] .

ومن خطبة له (ع)

حين : استنهض الناس في حرب معاوية الطاغية في المرة الثانية . فلما حشد الناس قام خطيباً فقال : « الحمد لله الواحد الأحد الصمد المتفرد ، الذي لا من شيء كان ، ولا من شيء خلق ما كان ، قدرته بان بها الأشياء وبانت الأشياء منه ، فليست له صفة تناله ولا حدٌ يُضرب له الأمثال ، كَلّ دون صفاته تحبير اللغات أن تبلغ غاية صفته إلاّ تعبيراً بلفظ ٍ ، وضلّ هنالك تصاريف الصفات ، وحار في ملكوته عميقات مذاهب التفكير ، وانقطع دون الرسوخ في علمه جوامع التفسير ، وحال دون غيبه المكنون حجبٌ من الغيوب ، تاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول في لطيفات الأمور . فتبارك

---

(١) البحار ج ٤ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

الذي لا يبلغه بعد الهمم ، ولا يناله غوصُ الفِطَن وتعالى الله الذي ليس له وقت معدود ، ولا أجل ممدود ، ولا نعتٌ محدود .

سبحان الذي ليس له اوّل مبتدء (وإنما هو الاول المُبدءُ المبدع) ولا غاية منتهى ولا أخر يفنى، (بل هو الآخر ليس له منتهى ولا أخر ولا فناء) .

سبحانه ـ هو كما وصف نفسه ـ الواصفون لا يبلغون نعته(« ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذر الذين يلحدون في أسمائه، ويختلقون له الأسماء) حدَّ الأشياء كلها عند خلقه اياها ، إبانه لها من شبهه ، وإبانةً له من شبهها ، فلم يحلل فيها فيقال هو فيها كائن (كما اختلقته الحلولية في دعواتهم ودعاياتهم.. : أنا الرب ، أنا هو وهو أنا ، ليس في جبتي إلاّ الله ! ..) ولم ينأ عنها فيقال : هو منها بائن (نأياً من حيث القيومية والعلم) ولم يخل عنها فيقال له أين؟ أحاط بها علمه ، واتقنها صنعه ، وأحصاها حفظه ، ولم يقرب منه خفيات غيوب الهوى ، ولا غوامض مكنون ظلم الدجى ، ولا ما في السموات العلى والأرضين السفلى ، لكل شيء منها حافظ رقيب . وكلٌ منها بشيء محيط . والمحيط بما أحاط منها : الله الواحد الأحد الصمد (فهناك وان كانت حَفَظَة رقباء على خلقه ، تكويناً أو علماً واختياراً ، من العلل والأسباب ، أو الحفظة الكرام من عمّا له تعالى. إلاّ أنه هو المحيط أولاً وأخيراً ، عليهم أجمعين) الذي لم يغيره صروف الأزمان ، ولم يتكأده صنع شيء كان ، إنما قال : لما شاء أن يكون كن ، فكان (فقوله فعله ، وكن ، هذه ، إشارة إلى نفاد أمره).

ابتدع ما خلق ، بلا مثال سبق ، ولا تعب ولا نصب ـ وكل صانع شيء فمن شيء صنع ، والله لا من شيء صنع ما خلق . وكل عالم فمن بعد جهل تعلّم ، والله تعالى لم يجهل ولم يتعلّم ، أحاط بالأشياء علماً قبل كونها ، فلم يزدد بكونها : علماً ، علمه بها قبل أن يكوّنها ، كعلمه بعد تكوينها ـ لم يكوّنها لشدة سلطانٍ ، ولا خوفٍ من زوال ولا نقصان ، ولا استعانة على ضدٍّ مشاور ـ ولا ندٍّ مكاثر ـ ولا شريك مكايد ـ لكن خلائق مربوبون ، وعباد داخرون

(مخلدون في العبودية ما داموا موجودين لا يتجاوزون عنها إلى ساحة الربوبية .
وأما مثل قوله تعالى ، في الحديث القدسي : عبدي أطعني حتى أجعلك مَثلي ، فهو إثبات للمثل بالفتح ، يعني الآية الدالة عليه ، لا بالسكون بمعنى الشبيه ، فليس كمثله شيء) ..

فسبحان الذي لا يؤده خلق ما ابتدأ ، ولا تدبير ما برء ، ولا من عجز ولا من فترة بما خلق إكتفى ، علم ما خلق وخلق ما علم ، لا بالتفكير ولا بعلم حادث . أصاب ما خلق ولا شبهة دخلت عليه فيما لم يخلق ، لكن قضاءٌ مبرم ، وعلم محكم ، وأمر متقن .

توحّد بالربوبية ، وخص نفسه بالوحدانية ، واستخلص المــدح والثناء فتمجّد بالتمجيد ، وعلا عن اتخاذ الابناء ، وتطهّر وتقدّس عن ملابسة النساء وعزّ وجل : عن مجاورة الشركاء ، فليس له فيما خلق ضدّ ، ولا فيما ملك ندّ ، فلم يشركْ في ملكه ـ الواحد الأحد الصمد ... الذي لم يزل ولا يزال وحدانياً أزلياً قبل بدء الدهور ، وبعد صرف الأمور ، الذي لا يبيد ولا يفقد ، بذلك أصف ربي ـ فلا إله إلاّ الله من عظيم ما أعظمه وجليل ما أجله وعزيز مــا أعزّه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً » .

ومن خطبة له عليه‌السلام في مسجد الكوفة :

«الحمد لله الذي هو أول لابديء مما ، ولا باطن فيما ـولايزال مهماـ ولاممازج مع ما ، ولا خيال وهماً ، ليس بشبَح فيرُى ، ولا بجسم فيتجزء ، ولابذي غاية فيتناهى ، ولا بحدَث فيُبصر ، ولا بستر فيكشف (حيث استتاره استتار الذات ، لا عارض فيكشف) ولا كان بعد أن لم يكن ، بل حارت الأوهام ان يكيّف المكيِّف للأشياء ، ومن لم يزل بلا مكان ولا يزول باختلاف الأزمان ، ولاينقلب شأناً بعد شأن ـالبعيد من حدس القلوب ، المتعالي عن الأشباه والضروب الوتر علام الغيوب .

فمعاني الخلق عنه منفية ، وسرائرهم عليه غير خفية ـ المعروف بغير كيفية ـ لا يُدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ولا تُدركه الأبصار ولا تحيطه الافكار ، ولا تقدّره العقول ، ولا تقع عليه الاوهام .

فكلما قدره عقلٌ ، أو عُرف له مِثلٌ فهو محدود ، وكيف يوصف بالاشباح، ويُنعت بالالسن الفصاح من لم يحلل في الاشياء فيقال : فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال : هو عنها بائن، ولم يخل منها فيقال : أين ؟ ولم يقرب منها بالإلتزاق، ولم يبعد عنها بالإفتراق ، بل هو في الاشياء بلا كيفية ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ، وابعد من الشِبَه من كل بعيد .

لم يخلق الاشياء من أصول أزلية ، ولا من أوائل كانت قبله بدية ، بل خلق ما خلق وأتقن خلقه ، وصوّر ما صور فأحسن صورته ، فسبحان من توحد في علوّه فليس لشيء منه إمتناع ، ولا له بطاعة أحد من خلقه إنتفاع ، إجابته للداعين سريعة ، والملائكة له في السماوات مطيعة، كلم موسى تكليما بلا جوارح وأدوات، ولا شفة ولا لهَوات، سبحانه وتعالى عن الصفات (الزائدة على الذات) فمن زعم أن إله الخلق محدودٌ فقد جهل الخالق المعبود ..» [1]

ومن خطبة له عليه السلام :

«لا يُشمل بحدّ ولا يحسب بعدّ ، وإنما تحدّ الادوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها ، منعتها منذُ القدمةَ (فإن منذ من أدات الحدوث) وحمتها قدُ الازليةَ (حيث الازلية هي الدوائم اللاّأول و«قد» من أدات الانقطاع) وجنَّبتها لولا التكلةَ .

بها تجلىّ صانعها للعقول ، وبها إمتنع من نظر العيون ، لا تجري عليه الحركة والسكون ، وكيف يجري عليه ما هو اجراه ويعود فيه ما هو إبتدأه ، ويحدث

---

١ ـ البحار ج ٤ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥

فيه ما هو احدثه ؟ » (فالحركة والسكون هما من عوارض الجسم ، وهو تعالى مجرد فلا يعرضه عارض الجسم ، وهو خالق الحركة والسكون فلا يعرضانه) .

اذاً (لو كان معروضاً لعوارض الممكنات الحادثة) لتفاوتت ذاته (من جهة ازلية وأخرى حادثة) ولتجزّء كنهه : (إشكالٌ ثانٍ بعد تفاوت الذات هو تركبها من هذين الجزئين المتباينين،فالتباين والتركب في الذات مشكلتان هامتان على فرض عروض الحركة والسكون على ذاته تعالى)

ولامتنع من الازل معناه (حيث الازلية تباين الحدوث) ولكان له وراء إذا وجد له أمام (حيث المركب المحدود له وراء كما له أمام) ولا لتمس التمام إذا لزمه النقصان (حيث التركب نقصانٌ فهو إذاً يلتمس التمام بعد النقصان وهذا فقر جلّ الخالق العظيم عن ذلك وتعالى علوا كبيراً) .

وإذاً لقامت آية المصنوع فيه ، ولتحوّل دليلاً بعد ما كان مدلولاً عليه ، وخرج بسلطان الإمتناع من أن يؤثر فيه ما في غيره (سلطته الالهية المانعة من التأثر من أيّ مؤثر ، أخرجته من التغير بانغيار المخلوقين والتأثر بتأثيرهم) الذي لايحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفوال ، لم يلد فيكون مولوداً (حيث الوالد مولود من والد آخر لا محالة) ولم يولد فيصير محدوداً (حيث المولود حادث مادي وهو محدود لا محالة) جلّ عن اتخاذ الأبناء ، وطهر عن ملامسة النساء .

لا تناله الأوهام فتُقدّره ، ولاتتوهمه الفِطَن فتصوّره ، ولاتدركه الحواس فتحسه ، ولا تلمسه الأيدي فتمسّه ، ولا يتغير بحال ، ولا يتبدل بالأحوال ، ولا تبليه الليالي والأيام (فإنها من عوارض المادة فلا تبلي إلاّ إياها) ولا يغيره الضياء والظلام (حيث لا يتغير بانغيار المخلوقين) ولا يوصف بشيءٍ من الأجزاء (وإن كانت مجردة على فرضها) ولا بالجوارح والاعضاء ، ولابعرَض من الأعراض ولا بالغيرية والأبعاض ، ولا يقال له حدٌ ولانهاية ، ولا إنقطاع ولا غاية، ولا إن الاشياء تحويه ، فتقله أو تهويه ، ولا أن الاشياء تحمله فيميله أو يعدله ، ليس في الاشياء بِوالجٍ ولا عنها بخارج .

يخبر لا بلسان ولهوات (بل بما يخلق من الاصوات أو يُلهم من المعاني في القلوب) ويسمع لا بخروق وأدوات (بل علماً بالمسموع دون جارحة) يقول ولا يلفظ ، ويحفظ ولا يُتحفظ ، ويريد ولا يضمر (رغم المريدين سواه حيث لا يريدون إلاّ بعد أن يُضمروا مرادهم ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) يحب ويرضي من غير رقة ، ويبغض من غير مشقة، يقول لما أراد كونه : كن ـ فيكون ، لا بصوت يقرع ، ولا نداء يسمع ، وإنما كلامه سبحانه فعلٌ منه أنشأه .

(النفي والإثبات في هذه الجملات الجميلة إنما يدوران مدار تنزيهه تعالى عن لوازم أمثال هذه الافعال والصفات، فكلُّ ما ينسب إليه تعالى من فعلٍ وصفة يشبه أفعالنا وصفاتنا ، فإنما يراد منها ما يناسب وساحة الالوهية ، فالواجب علينا تجريدها عما لا يناسب وساحته تبارك وتعالى،فإنما المعني من قوله ما يراد من القول ، فقول : كن ـ يراد منه وجود شيء لم يكن، وتأويل ونتاج السمع والبصر هو العلم بالمسموع والمبصَر ، وأثر الحب: الاكرام ، وأثر البغض: الإهانة .

فالضابطة الكلية في المعني من هذه الافعال والصفات ما يناسب وساحة الالوهية فإنه تعالى إنما يكلمنا هكذا لنفتهم ما يعنيه لا ليُشبّه نفسه بسواه ، أو نشبهه بمن سواه) .

ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً (حيث الازلية غنيّ مطلقة، فألوهية كألوهيته تعالى على سواه) .

لا يقال له : كان بعد ان لم يكن،فتجري عليه الصفات المحدثات (حيث المحدثات إنما تجرى على الحادثات ضرورة لزوم الوَفق بين الصفة والموصوف في الازلية والحدوث ، لاستحالة الجمع بين المتباينين المتناقضين،وإن كان جمعا كالصفة والموصوف ، بل هذا من أصدق مصاديق الجمع) .

ولا يكون بينها وبينه فصلٌ ولا له عليها فضل (هذان من لوازم جريان

الصفات المحدثات عليه فيحكم عليه بالحدوث كمثلها) فيستوي الصانع والمصنوع ، ويتكافأ المبدِع والبديع .

خلق الخلائق من غير مثال خلا من غيره ، ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه ـ وأنشأ الارض فأمسكها من غير اشتغال (امسكها في الفضاء دون أن يشغله عن سواه من أفعاله أو ان يُتعبه) وأرساها على غير قرار (أرساها في جادة فضائية في فلكها الذي يدور مداره ، دون قرار في هذا المرسى ، فانها تدور حول فلكها) وأقامها بغير قوائم (أقامها في الفضاء بغير عَمد ترونها ، ثم عَمدٌ ولكن لا ترونها) ورفعها بغير دعائم : (مرئية محسوسة) وحصّنها من الاود والإعوجاج ، ومنعها من التهافت والانفراج ، أرسى أوتادها ، وضرب أسدادها ، واستفاض عيونها ، وخدّ أوديتها ، فلم يهن ما بناه ، ولا ضعف ما قواه .

وهو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته ـ والباطن لها بعلمه ومعرفته ـ والعالي على كلّ شيء منها بجـــلاله وعزته ـ لا يعجزه شيء منها طلبه ، ولا يمتنع عليه فيغلبه ـ ولا يفوته السريع منها فيسبقه ـ ولا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه .

خضعت الأشياء له فذلت مستكينة لعظمته ـ لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره ـ ولا كفوء له فيكافئه ـ ولا نظير له فيساويه ، وهو المفني لها بعد وجودها ـ حتى يصير موجودها كمفقودها ـ وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من انشائها واختراعها ـ كيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها ـ وما كان من مراحها وسائمها وأصناف اسناخها واجناسها ـ ومتبلدة أممها وأكياسها : على إحداث بعوضة ـ ما قدرت على إحداثها ـ ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ـ ولتحيرت عقولها في علم ذلك ، وتاهت وعجزت قواها ـ وتناهت ورجعت خاسئة مسيّرة عارفة بأنها مقهورة مقرة بالعجز عن إنشائها ـ مذعنة بالضعف عن افنائها ـ وأنه يعود سبحانه بعد فناء الدنيا ـ وحده لا شيء معه ـ كما كان قبل ابتدائها ـ كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان ـ عدمت عند ذلك الاجال والأوقات ـ

وزالت السنون والساعات - فلا شيء إلا الواحد القهار - الذى اليه مصير جميع الامور - بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها - وبغير امتناع منها كان فنائها - ولو قدرت على الامتناع لدام بقائها - لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه ،ولم يؤده منها خلق ما برأه وخلقه ، ولم يكونها لتشديد سلطان ، ولا لخوف من زوال ونقصان ، ولا لاستعانة بها على ندٍ مكاثر ، ولا للإحتراز بها من ضد مشاور ، ولا للإزدياد بها في ملكه ، ولا لمكاثرة شريك في شركه ، ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستانس اليها ، ثم هو يفنيها بعد تكوينها ،لالسأم دخل عليه في تصريفها وتدبيرها ، ولا لراحة واصلة اليه ، ولا لثقل شيء منها عليه ، لا يمله طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها ، لكنه سبحانه دبرها بلطفه ، وأمسكها بأمره ، واتقنها بقدرته ، ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه اليها ، ولا استعانة بشيء منها عليها ، ولاإنصراف من حال وحشة إلى حال استيناس، ولا من حال جهل وعمىً إلى حال علم وإلتماس، ولا من فقروحاجة الى غنى و كثرة، ولا من ذل وضعة إلى عز وقدرة » [1]

وفي النهج [2] نجد هذه الخطبة على اختلاف يسير في البعض من عباثرها وشيء من الزوائد تركناها هنا اذ فسرناها في الخطبة الرضوية الآتية .

---

١ - البحار ج ٤ ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ نقلاً عن نهج البلاغة .

٢ - ج ٣ ص ١١٩ .

الحسنان (ع) في خطب توحيدية

الامام الحسن بن علي عليهما السلام في توحيد الله تعالى :

جاء رجلٌ الى الحسن بن علي (ع) فقال له : يا ابن رسول الله (ص) ! صف لي ربك حتى كأني أنظر إليه ـ فاطرق الحسن بن علي (ع) ملياً ثم رفع رأسه فقال :

« الحمد لله الذي ليس له أول معلوم (١ - بما انه ليس له أوّل فيعلم ١ - أو ان أوله أزله فلا يعلم) ولا آخر متناه (كما قلنا) ولا قبل مدرك (ليس له قبلٌ حتى يدرك) ولا بعدٌ محدود (فإن بعده الأبدية اللانهائية ـ فلا تدرك) ولا أمدٌ بحتّى ولا شخصٌ فيتجزء (لا شخص محدود متحيز حتى يتجزء بأجزاء الذات والمكان) ولا اختلاف صفة فيتناهى(حيث لا اختلاف ولاتفاوت في صفاته الذاتية لانها عين ذاته ـ فحيثية العلم عين حيثية القدرة وهما عين الحياة وهي عين الذات كما مضى ويأتي في توحيد الصفات) .

فلا تدرك العقول وأوهامها ، ولا الفكَر وخطراتها ، ولا الألباب وأذهانها : صفتَه ، فيقول : متى ؟ ولا بدء مما ؟ ولا ظاهر على ما ؟ ولا باطن فيما ؟ ولا تارك فهلاّ .

(لم يبدء ويبدو من شيء ، ولا ظهر على شيء ، ولا بطن في شيء ، ولا ترك خلقه لا يعرفونه ، فإنما عرفهم نفسه بآياته) .

خلق الخلق فكان بديئاً بديماً ، إبتدء ما ابتدع ، وابتدع ما ابتده ، وفعل ما أراد ، وأراد ما استزاد ، ذلكم الله رب العالمين » [1] .

---

١ - البحار ج ٤ ص ٢٨٩ .

الامام الحسين(ع) في توحيد الله

من كتاب للامام الحسين عليه السلام حول التوحيد في تفسير الصمد :

يجيب به أهل البصرة إذ كتبوا إليه يسألونه عن الصمد ، فكتب اليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... إن الله سبحانه فسّر الصمد فقال : الله أحدٌ الله الصمد ، ثم فسّره فقال : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

لم يلد : لم يخرج منه شيء كثيف : كالولد وسائر الاشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين ، ولا شيء لطيف : كالنَّفَس (النفْس) ولا يتشعّب منه البَدَوات : كالسِنَة والنوم ، والخَطِرة والهمّ ، والجوع والشبع ، تعالى أن يخرج منه شيء ، وان يتولد منه شيء كثيف أو لطيف .

ولم يولد : لم يتولد من شيء ، ولم يخرج من شيء كما تخرج الاشياء الكثيفة من عناصرها ، كالشيء من الشيء ، والدابة من الدابة ، والنبات من الارض ، والماء من الينابيع ، والثمار من الأشجار ، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها : كالبصر من العين ، والسمع من الأذن ، والشمّ من الأنف ، والذوق من الفم ، والكلام من اللسان ، والمعرفة والتميز من القلب ، وكالنار من الحجر .

لا ـ بل هو الله الصمد الذي : لا من شيء ـ ولا في شيء ـ ولا على شيء ـ مبدع الأشياء وخالقها ـ ومنشىء الأشياء بقدرته ـ يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ـ ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه ـ فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد ،

عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ـ ولم يكن له كفواً أحد [1] .

ومن كلام للامام الحسين عليه السلام في التوحيد :

قال : « أيهـــا الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبّهون الله بأنفسهم ، يضاهئون قول الذين كفروا من أهل الكتاب .

بل هو الله ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، إستخلص الوحدانية والجبروت (فــلا واحد مثله في وحدته وجبروته) وأمضى المشيئة والإرادة والقدرة والعلم بما هو كائن ، لا منازع له في شيء من أمره ، ولا كفوء له يعادله ، ولا ضـــدّ له ينازعه ، ولا سميّ له يشابهه ، ولا مِثل له يشاكله ، لا تتداوله الأمور ، ولا تجري عليه الأحوال ، ولا تنزل عليه الأحداث ، ولا يقدّر الواصفون كنه عظمته ، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته ، لانه ليس له في الأشياء عديل ، ولا تدركه العلماء بألبابها ، ولا أهل التفكير بتفكيرهم ، إلا بالتحقيق إيقاناً بالغيب (يعلمون أنه ثابت حق على غيب ذاته وصفاته) لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين .

وهو الواحد الصمد ، ما تُصوّر في الأوهــام فهو خلافه ، ليس بربٍّ من طُرح تحت البلاغ (من وُضع تحت بلوغ الادراك فيحاط عليه) ولا بمعبودٍ من وُجد في هواء أو غير هواء ـ هو في الأشياء كائن (كينونة حيطة العلم والقدرة) لا كينونة محظورٍ بها عليه ، ومن الأشياء بائن لا بينونة غائب عنهـــا ، ليس بقادرٍ مَن قارنه ضدٌّ ، أو ساواه ندّ (فانهـا إذاً قدرة محدودة ، حيث اللامحدودة لا تتمدد) ليس عن الدهر قِدَمه (ليس قدمه من سنخ الزمان فان قِدم الزمان حدوثٌ في جنب الأزل) ولا بالناحية أممه (ليس قصده بالناحية

---

١ ـ البحار ج ٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

المكانية ، فاينما تولوا فثم وجد الله) .

احتجب عن العقول ، كما احتجب عن الأبصار ، وعمّنْ في السماء ، إحتجابُه عمّن في الارض ، قربه كرامة ، وبُعده إهانة ، لا يحلّه في (حلول شيء في ذاته ، وحاشاه وإنما هو حلول المعرفة) ولا تُوقّته إذ (إذا قال أو قيل فيه : إذ قال الله ، إذ فعل ، إذ خلق ، فهذه لا توقته : ان تجعله زمانياً) ولا يؤامره إن (حيث لا يتردد في أمره ولا يشك فيما يريد ، ولا يؤامره سواه إن يقيناً أو شكاً) علوُّه من غير توقّل (علا على الخلق دون صعود ، فليس علوّه عن نازل مكاناً أو مكانةً) ومجيئه من غير تنقّل (فمثل قوله تعالى : وجاء ربك ، يراد به إتيان أمره بجزاء المكلفين يوم القيامة) .

يُوجِد المفقود ، ويُفقِد الموجود ، ولا تجتمع لغيره الصفتان في وقت (يُوجد ويُعدم ، يُحيي ويميت ، في وقت واحد ، ولا أحد غيره كذلك ، وإنما يُعدم من يعدم بمعنى القتل ، ثم لا يوجِد أو يحيي اطلاقاً) .

يصيب الفكر منهالايمان به موجوداً، وجود الايمان لا وجود صفة (الفكر لا يصيب منه إلاّ وجوده (لا كنهه) بمعنى أنه غير معدوم ، لا وجوداً يحيط به كوجود سواه ، فلا يدرك منه وجوداً ولا صفةً بالإكتناه ولا شبحاً ن بعيد ، إلاّ أنه ليس بمعدوم ، فهو خارج عن الحدين : حد الابطال وحد التشبيه) .

به توصف الصفات ، لا بها يوصف ، وبه تعرف المعارف ـ لا بها يعرف فذلك الله لا سمّي له سبحانه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »[1].

(لا يوصف بالصفات المعروفة ، ولا يعرف بالمعارف المعلومة ـ كيف وبه توصف الصفات وتعرف المعارف)! .

---

(١) ـ البحار ج ٤ ص ٣٠١ .

الامام الصادق (ع) في كلمات توحيدية

سأله عليه السلام النصيبي عن التوحيد، فقال عليه السلام: «واحدٌ صمدٌ، أزليٌّ، صمديٌ، لا ظلٌّ له يمسكه، وهو يُمسك الأشياء بأظلتها، عارفٌ بالمجهول معروف عند كلّ جاهل، فرداني: لا خلقه فيه ولا هو خلقه، غير محسوس ولا مجسوس، لا تُدركه الأبصار، علا فقرب ودنى فبعد، وعُصي فغفر، وأطيع فشكر، لاتحويه أرضه، ولا تُقله سماواته، وإنه حامل الأشياء بقدرته، ديمومي أزلي، ولا ينسى ولا يلهو، ولا يغلط ولا يلعب، ولا لإرادته فصلٌ، وفصله جزاء، وأمره واقع، لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك ولم يكن له كفواً أحد» [1]

بيان: ظاهر المعنى في الظل الممسك للشيء هو الروح، فإنه هو الذي يمسك الجسم عن التلاشي، ويمسكه في كافة الأفعال، وهو ظل للبدن لانه يشبهه شبه الظل بصاحبه، حيث هو سار في كافة اجزاء البدن، فله قلب كما للبدن قلب، وهو المراد من القلب مركز الإيمان والإيقان، حيث القلب الجسماني لا يدرك ولا يؤمن ولا يكفر، وكذلك له سمع في الأذن، وبصرٌ في العين، وعقل في المخ و ... كلّ جزء من اجزاء البدن يحمل من الروح ما يناسبه ويحتاج اليه.

لا ظل له يمسكه: أي ليس له روح وجسم حتى يكون الروح ممسكه، بل هو ممسك الأشياء بأظلتها «بأرواحها»، وبيده ناصية وملكوت كل شيء.

«**معروف عند كل جاهل**» معرفةً فطريةً، حيث تعم كلّ ذي روح ولا سيما الإنس والجن والملائكة.

---

١ البحار ج ٤ ص ٢٨٦

« علا فقرب » علا على كل شيء علوّاً بالعلم والقدرة ، وحيطة قيومية على ذواتها ، وهكذا علو هو أعلى القرب وأعمقه .

« ودنى فبعد » دنى هكذافبعد زماناً ومكاناً ومكانة .

« ولا لارادته فصل » لا يريد من المكلفين لرادة حتم تكويني فيما كلفهم وخيّرهم فيه، حيث لا جبر،وانما فصله وقطعه في ارادته جزائه على اعمال العباد.

•

الامام موسى بن جعفر (ع) في توحيد الله تعالى

قال : « إن الله لا اله إلا هو كان حياً بلا كيف ولا اين ـ ولا كان في شيء ولا كان على شيء ـ ولا ابتدع لمكانه مكاناً (ليس لكينونته مكان لا حادث ولا قديم) ولا قوي بعد ما كوّن الأشياء ـ ولا يشبهه شيء مكوّن ـ ولا كان خلواً من القدرة على الملك قبل إنشائه ـ ولا يكون خلواً من القدرة بعد ذهابه.

كان عز وجل إلهاً حياً بلا حياة حادثة (وإنما هي حياة ذاتية أزلية هي عين ذاته) ملِكاً قبل ان ينشىء شيئاً ـ ومالكاً بعد إنشائه ـ وليس لله حد ـ ولا يعرف بشيء يشبهه (فليس كمثله شيء) ولا يهرم للبقاء (لانه ليس بقاء زمنياً يُهرم) ولا يصعق لذعرة شيء ـ ولخوفه تصعق الأشياء كلها .

فكان الله حياً بلا حياة حادثة ـ ولا كون موصوف ـ ولا كيف محدود ـ ولا اين موقوف ـ ولا مكان ساكن ، بل حي لنفسه، ومالك لم يزل له القدرة، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيته وقدرته ، كان اولاً بلا كيف ، ويكون آخراً بلا اين (قبل كل شيء أزلياً وبعد كل شيء أبدياً) وكل شيء هالك إلاّ وجهه ، له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » [1]

البحار ج ٤ ص ٢٩٨

الامام الرضا (ع) في خطبة توحيدية جامعة

... إن المأمون لما أراد أن يستعمل الرضا عليه السلام جمع بني هاشم فقال : إني أريد أن أستعمل الرضا على هذا الأمر من بعدي فحسده بنو هاشم... فقالوا له يا أبا الحسن إصعد المنبر وإنصب لنا علماً نعبد الله عليه ، فصعد عليه السلام المنبر فقعد ملياً لا يتكلم مطرقاً ، ثم انتفض انتفاضة ، واستوى قائماً وحمد الله واثنى عليه وصلىّ على نبيه وأهل بيته ثم قال :

براهين ساطعة على عينية الذات مع الصفات :

« أول عبادة الله معرفته ـ وأصل معرفة الله توحيده ـ ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه ، لشهادة العقول أن كلّ صفة وموصوف مخلوق ، وشهادة كل موصوف أن له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف ، وشهادة كل صفة وموصوف بالإقتران ، وشهادة الإقتران بالحدَث ، وشهادة الحدث بالامتناع عن الازل .

(هذه براهين ثلاثة على أن صفاته تعالى : الذاتيةـ ليست زائدة على ذاته ، تتحيث الذات بحيثية زائدة لعروضها أو قرنها وكينونتها للذات :

١ ـ إن العقول شاهدة على أن كل صفة وموصوف مخلوق ، لحاجة الموصوف الى الصفة بغية الكمال الذي لولا الصفة لم يكن ، ولحاجة الصفة الى الموصوف لقيامها به وحلولها فيه ، والمحتاج الى غيره ممكن مهما كانت الحاجة داخل الذات أو خارجها .

٢ ـ ان الموصوف المعروض للصفة الكمالية مخلوق ـ للحاجة والتركب ـ

فليكن خالقه لا صفة ولا موصوفاً ، فانهما حادثان مخلوقان ، والمخلوق لا يخلق مثله لعدم الأولوية والقدرة .

٣ – ان الصفة لا تتحقق إلاّ عارض الموصوف ولا الموصوف إلاّ معروض الصفة – فهما مقترنان ، والإقتران آية الحدوث : سواء أكان حادثاً بعد وجود المقترنين – أم معهما – ففي الأولى كان الإقتران حادثاً وعروض الحادث على شيء آية حدوث ذلك الشى ، حيث الأزلي لا يتصف بصفات الحادث .

وفي الثانية أيضاً هما حادثان بشهادة التركب المندغم في ذاتيهما – والحادث ممتنع من الأزل – كما أن الازل يمتنع من الحدَث قضية تباينهما كليّاً في الذات وفي الصفـــات .

إذاً : فالصفات الزائدة على الذات منفية عنه تعالى – كيفما كانت الزيادة – حيث تستلزم تركبه وحاجته فحدوثه تعالى .

ثم نفي الصفات عن ذاته تعالى إطلاقاً يستلزم نفي حيــاته وعلمه وقدرته فنفي ألوهيته .

إذاً – فكما أن ذاته تعالى خارجة عن الحدين : حدّ الإبطال وحدّ التشبيه ، فلا نقول : إنه ليس ، ولا انه شيء كالأشياء .

كذلك صفاته الذاتية خارجة عن الحدين : حدّ الابطال ، فلا يقال: ليست له صفة ، وحدّ التشبيه ، فلا يقال أنه موصوف كسائر خلقه .

لا هذا ولا ذاك ، وإنما صفاته تعالى أمرٌ بين أمرين – وبرزخ بين عالمين ، وكلمة الفصل فيها ، التي تناسب وساحة الألوهية : أن صفاته عين ذاته دون أن تزيد عليها أو تحيّثها بمختلف الحيثيات والجهات ، بل إنه تعالى في وحدته وأحديته المطلقة كلُّ الكمال والكمال الكل ، فأسمائه وصفاته المختلفة تعبيرات عن ذات واحدة ، لا أن ذاته مجمعُ ذوات أو صفات مختلفة ، كلا : فانما « أسمائه تعبير وأفعاله تفهيم » .

فمن سوى الله حياته وعلمه وقدرته غير ذاته ، قد تتصف بها وقد تفقدها ، قد تزيد فيها وقد تنقص .

ولكن الله تعالى : ذاته العلم كله ، وذاته القدرة كلها ، وذاته الحياة كلها ، دون إختلاف بينها أنفسها ، ولا بينها وبين الذات إلا في تحبير اللغات وتعبير العبارات ، تقريباً لأفهامنا وتوجيهاً لأذهاننا : أنه تعالى في وحدته كلُّ العُلى.

هذا في صفاته الذاتية ، وأما الفعلية الناشئة عن الذاتية ، إعتباراً بخلقه الكون وما يفعله بالنسبة للكون، فهذه الصفات حادثة كحدوث الأفعال التي تنتزع عنها هذه الصفات ـ كالخالق من الخلق ـ والسميع من المسموع ـ والبصير من المبصَر ، والبديع من المبدَع ، والبارئ من المبروء ، والكريم من المكرَم ، والحسيب من المحسوب ، وما إليها من صفاته الفعلية حسب أفعاله تعالى فانها محدثات كأفعاله ـ سواء ـ وكلها ناشئة من صفاته الذاتية : الحياة والعلم والقدرة ـ نشوء الحادث من الأزلي دون ولادة كما في سائر خلقه ، وهذه الثلاث الصفات تعبيرات عن حقيقة واحدة مجردة غير متناهية الذات والكمالات .

وهناك براهين ساطعة أخرى على وحدة ذاته تعالى وصفاته ، في خطب بارعة كالتالي :

« ونظام توحيده نفي الصفات عنه ، جلّ ان تحله الصفات لشهادة العقول : أنّ من حلّته الصفات مصنوع » [1]

حيث الحلول حدوث ، ثم هو آية حاجة الحلول فيه وأنه محلّ الحوادث وهذان من براهين حدوث الموصوف بها ، حيث الأزلي يمتنع عن حدوث العوارض.

ولقد فصلنا القول في اتحاد الذات والصفات في طيّات البحوث السالفة عقلياً ومن الخطب التوحيدية ولاسيما العلوية منها ، وأكثر مضامين وعبائر هذه الخطبة موجودة في الخطب العلوية) .

---

١ ـ البحار ج ٤ ص ٢٥٣ عن علي (ع)

فليس الله من عُرِفَ بالتشبيه ذاته ، ولا إياه وحّد من اكتنهه ، ولا حقيقةً أصاب من مثّله، ولا به صدق من نهّاه، ولا صمّد صمْدَه من أشار إليه، ولا إياه عنى من شبهه ، ولا له تذلل من بعّضه ، ولا إياه أراد من توهمه .

(من تُعرف ذاته بالتشبيه فإنما كيانه كيان المشبه به فهو حادث مخلوق ، ومن يُكتنه فهو محدودٌ حادث ، ومن إكتنه ذاته بُغية الاحاطة بها فقد حدّه والمحدود مركب من متعدد ، فليس واحداً حقيقياً) .

كل معروف بنفسه مصنوع (حيث يستلزم حدّه في العقل والوهم أو الابصار، والمحدود مركب مهما كان، فهو مصنوع : ١ - لتركبه - ٢ - وتصوره ، فكلما تصورتموه بأوهامكم فهو مخلوق لكم مثلكم مردودٌ إليكم) .

وكل قائم في سواه ، معلول (سواء أكان قياماً لذاته في ذات من سواه ، أو قيام صورته ! في وهم سواه ، فمعلولية الصورة تجوّز وتستلزم معلولية الذات) بصنع الله يُستدل عليه - وبالعقول تُعتقد معرفته - وبالفطرة تثبت حجته . (إشارة الى الآيات الآفاقية وهي سائر صنع الله ، والأنفسية وهي العقول والفِطر) .

خلق الله الخلق حجاب بينه وبينهم، ومباينته اياهم مفارقته أينيتهم .

(لا أن الخلق محجوبون عن علمه ورؤيته : أنه لا يراهم ويعلمهم، فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد ، بل هو محجوب عنهم حجاب الذات بنورية الألوهية ، وهم محجوبون عن دركه بحجاب الامكان وظلمته ، فالمخلوق مهما كان- محجوبٌ عن خالقه لتباين الذات والصفات فبهذا البين) .

(ومن خط الرضا عليه السلام : «لا تشمله المشاعر ولا يحجبه الحجاب، فالحجاب بينه وبين خلقه لا متناعه مما يمكن في ذواتهم ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته ، ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب » .

فهذه المباينة ليست ببينونة المتناقضين ، كالوجود واللاّوجود ، حتى يُحتج

بوجود الخلق حينذاك ، على عدم وجود الخالق ، ولا بينونة عـــزلة قيومية أو علمية ، إذ إنه القائم على كل نفس ،وهو الأقرب الى كل شي من الشيء الى نفسه.

ولكنها مباينة الذات والصفات في الحقيقة والإنيّة ، كما في خطبة أخرى «ومباينته أيام» مفارقته إنيتم وكنهه تفريق بينه وبين خلقه» وفي ثالثة: «فمعاني الخلق عنه منفية وسرائرهم عليه غير خفية» :

وعن الصادق عليه السلام : «فرداني لا خلقه فيه ولا هو في خلقه» وعنه عليه السلام: «أما التوحيد فان لا تجوز على ربك ما جاز عليك» .

وأما خرافة وحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق ، فقد زيفنا موقفها سابقاً) [1] وابتدائه اياهم دليل على أن لا إبتداء له، لعجز كل مبتدء عن إبتداء غيره- وأدوائه إياهم دليل على أن أداة فيه ، لشهادة الأدوات بفاقة المتأدين .

(هذا برهان عامّ على إستحالة وجدان الخالق لذات المخلوق وصفاته وإنما هو واجدٌ للقدرة على إبداعه، وإلاّ كان الخلق ولادة والوالد لا يخلق ولده، إنما هو مجريّ لظهوره عن ذاته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فلما ابتدء الله الخلق بعد العدم، وجعل لهم اداة لما يحتاجون إليه ، دلّ ذلك على أن لا إبتداء له ولا اداة ، حيث هما آية الحدوث والفقر ، والحادث الفقير لا يستطيع إبداع مثله .

وأما اغلوطة ان : الفاقد للشيء لايعطيه ، فانما موردها الولادة لا الخلق كما فصلناه سابقاً) .

فأسمائه تعبير: (عن ذات واحدة دون تعدد فيها رغم تعدد الأسماء) وأفعاله تفهيم ، وذاته حقيقة ، وكنهه تفريق بينه وبين خلقه ، وغيوره تحديد لما سواه (أي ليس تفريقه عن سواه تحديداً له كما في سواه، إنما هو تحديد ما سواه وإنهاءٌ له تعالى الى اللاّنهاية الذاتية والصفاتية)

---

[1] ـ من هنا عود على بدء من الخطبة الرضوية وما بين الأقواس كلها من المؤلف .

فقد جهل الله من استوصفه (طلب له أوصافاً تختلف عن ذاته وتزيد عليه وتحيّثه بمختلف الحيثيات) وقد تعدّاه من اشتمله ، وقد اخطأه من اكتنهه .

ومن قال : كيف ؟ فقد شبّهه ، ومن قال : لِمَ ؟ فقد علله ، ومن قال : متى ؟ فقد وقّته ، ومن قال : فيم ؟ فقد ضمّنه ، ومن قال على مَ ؟ فقد نهّاه ، ومن قال : حتى مَ ؟ فقد غيّاه ، ومن غياه فقد غاياه ، ومن غاياه فقد جزّاه ، ومن جزّاه فقد وصفه ، ومن وصفه فقد الحد فيه (التجزئة بالنسبة لذاته تعالى توصيف له بصفات الممكن : العارضة على ذاته ـ وهذا إلحادٌ في ساحة الألوهية ـ وهو لايتغير الله بانغيار المخلوق كما لايتحدّ بتحديد المحدود فكما فارق ذاته ذواتهم وصفاتهم صفاتهم ، كذلك لا يتأثر بتأثيراتهم ، وإن كانت بيده نواصيهم، يحولهم ويغيرهم كيفما شاء ومهما شاء) .

أحدٌ لا بتأويل عدد ـ ظاهرٌ لا بتأويل المباشرة (جلّ أن يظهر للمخلوقين بمباشرة الذات فانما هو ظاهر لهم بالآيات آفاقية وأنفسية) متجلي لا باستهلال رؤية (لن تره العيون بمشاهدة الأبصار ، بل رأته القلوب بحقايق الايمان ــ رؤية معرفة ـ لا رؤية دركٍ وإحاطةٍ) باطن لا بزايلة (قيومية أو عليـــة) مباين لا بمسافة (بينونة ذات وصفه لابينونة عزلة) قريب لابداناه ، لطيف لابتجسم (بل هو لطيف في ذاته حيث لا يحاط به ، وفي خلقه حيث هو في أدق الصنع والحكمة)موجود لا بعد عدم فاعل لا باضطرار ، مقدر لا بجول فكرة (بل كل ذلك بصرف الارادة عن علم وقدرة « إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» و كن ـهذهـ رمز الى نفاذ أمره دون تلفظ بكلمة) مدبّر لا بحركة ، مريد لا بهمامة (لا بتردّد وارتياب ، وحاجة الى حركة ونظرة) شاءٍ لا بهمة (لا بعزم : متدرجاً في فعله) مدرك لا بحسه ، سميع لا بآلة بصير لا باداة .

لا تصحبه الأوقات (لانها إنما تصحب المتحركات والمتغيرات ، وليست إلاّ إنتزاعاً عن الحراك والتغير كما أسلفناه في هاتين الظاهرتين الدالتين على حدوث الموصوف بهما) .

ولا تضمه الاماكن (فإنه الذى مكّن المكان ، وكان قبل الزمان والمكان)
ولا تأخذه السنات ولاتحده الصفات (إذ ان صفاته تعالى عين ذاته ـ لا زائدة عليها حتى تحده تعالى) .

ولا تقيده الادوات (التي خلقها في الكون ، فلا يضطر في خلقه أن يجرى فيه مجرى الأسباب والادوات العادية ، فله خرق المألوف وحرق الاسباب ، وإنما جرت سنته في الكون ـ بعد البداية ـ على تسبيب الاسباب لمصالح اقتضت ، لا لحاجة منه إليها) .

سبق الاوقاتِ كونُه ، والعدمَ وجودُه ، والابتداءَ أزَلُه (فهو السابق الازلي على الكون بأوقاته وأطواره ، وكان إذ لا كان) . .

بتشعيره المشاعر عُرف ان لا مشعر له ، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له ـ وبمضادته بين الاشياء عُرف ان لا ضد له ، وبمقارنته بين الامور عرف ان لا قرين له :

(عود على بدء في البرهنة على مفـــارقة إنيته وصفاته إنيات المخلوقين وصفاتهم ، ولا يرد على هذا النقض بأن : ايجـاده للكون أيضاً دليل على أن لاوجود له ، لأننا إنما تنفي وجود الممكنات عن ساحة قدسه لا الوجود إطلاقاً ، فايجاده لهم دليل على أن ليس له كينونة كامثالهم ـ حادثة فقيرة ـ ثم من ناحية أخرى دليلٌ على أنه الكائن الازلي الواجب غير الحادث ولا فقير) .

ضادّ النور بالظلمة ـ والجلاية بالبهم ـ والجسوء بالبلل ، والصرد بالحرور (فهذه المضادات الصادرة عنه دليلٌ على صدور المضادة وحدوثها ذاتياً ـ فلا مضاد له . . ودليل على تصرف الارادة في إبداعها ، لا الطبيعة اللاشعورية)

مؤلف بين متعادياتها ، مفـــرّق بين متدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها ، ذلك قوله عز وجل « ومن كل شي خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ففرّق بها بين قبل وبعد ـ ليعلم ألاّ قبل له ولا بعد (يستدل (ع)هنا بتفرق

قبلِ كلِّ شيء عن بَعدِه ـ من حيث الزمان والكينونة في ذاته ـ على انتفاء ذلك فيه تعالى وتقدس .

فلما كوّن بعد ان لم يكن ـ ثم للكون نهاية كما له بداية ـ عُلم بذلك ألاّ قبل له ولا بَعد ـ فهو قبل القبل وبَعد البَعد ـ ازلي لا أول له ـ وابدي لا آخر له .

ثم لما كان كل شيء مركباً ولا أقل من جزئين ـ أو ـ بُعدين ـ كما سلف في الظاهرة الرابعة في تركب المادة ـ فلا اقل له جانبان من : قبل وبعد ـ وهذا دليل على حدوث الازواج ـ والكون كله ازواج ـ وهذه الزوجية المركزة في كيان هذا الكون من أظهر البراهين على فقره وحدوثه ، ثم من ناحية أخرى دليل على خالقه ومحدثه الأزلي .

فقد يجوز ان يستدل بالآية من كلتا الجهتين ١ - التفرق الزمني لما قبل كل شيء وما بعده .

٢ - التألف في أصل الكينونة كيفما كان الشيء ، واليها الاشارة بقوله عليه السلام :

« ١ - دالة بتفريقها ... ٢ - وبتأليفها ... وذلك قوله عز وجل : ... ففرّق ... »

وهذا التفريق يشمل كلتا الجهتين الدالتين على حدث الأشياء ١ - من التفريق الزمني لما قبل الوجود عما بعده حتى الإنقضاء ٢ - وتفرّق الأجزاء لكل زوج، اذ لا يتخلص أي كائن عن التركب اطلاقاً) !!

شاهدة بغرائزها على أن لا عزيزه لمغرّزها ، دالة بتفاوتها ألا تفاوت لمفاوتها، مخبرة بتوقيتها ألا وقت لموقّتها ، حجب بعضها عن بعض ليعلم ألاّ حجاب بينه وبينها من غيرها .

(هذا أيضاً عود على بدء مرة ثالثة في بينونته تعالى عن خلقه ،ثم في الذيل ينفي الحجاب ويثبته ، ينفيه من ناحيته المقدسة حيث لا يغيب عنه شيء من

خلقه، ويثبته من جهة أن الخلق محجوبون عن الحيطة بكنه ذاته بحجاب الإمكان وهذا انما يحجب الممكن عن درك ذاته، دون ان يحجبه تعالى وتقدس عما خلق)

له معنى الربوبية إذ لا مربوب، وحقيقة الالهية إذ لا مألوه، ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السمع ولا مسموع.

(معنى الربوبية انما هو فعلية صلاحية التربية للخلق، وهي انما تظهر بعد ما خلق لا انه يحدث حيذاك.

وحقيقة الألوهية: يعني استحقاق المعبودية وان يُؤله ويحارفيه.

ومعنى العالم: حيث كان يعلم بما سوف يخلقه، فلم يختلف علمه قبل ذاك عما بعده.

ومعنى الخالق: وهو العلم والقدرة الفعلية على الخلق، قبل ان يخلق.

وتأويل السمع: يعني أصله وهو العلم وإدراك ما يسمع، إلا أنه لا يسمع آلي.

وعلى الجمله: كان له تعالى – ولم يزل – أصول الصفات «الذاتية»: الحيوة والعلم والقدرة، وهذه الثلاثة هي الأصل والمرجع لصفات الفعل من الخلق والتربية وما إليها.

صفات الذات وصفات الفعل:

ولا تختلف صفات الفعل عن صفات الذات الا اختلاف الفرع عن الأصل لا اختلاف المتباينين.

فالخلق والرزق والرحمة والغضب والعطف والحنان وما إليها من الأفعال انما ترجع ولا محالة الى الحيوة والعلم والقدرة المطلقة اللانهائية، ليس الا.

فالسمع والبصر وما إليها من القوّات الادراكية ترجع إلى العلم.

والخلق الرحمة والرزق وما إليها ترجع إلى القدرة.

وان كانت الأوصاف الثلاثة واحدة من حيث الحقيقة بالنسبة لانفسها وهي ـ كذلك ـ مع الذات كما اسلفناه) .

ليس منذ خلق استحق معنى الخالق ، ولا باحداثه البرايا استفاد معنى البارئية .

(اذا لاحظنا الصفات بالنسبة للذات ، أعتبرت صفات ذاتية كما في هذه الثلاثة : الحيوة والعلم والقدرة ، حيث لا ضرورة في اتصاف الذات بها إلى شيء سوى الذات .

وإذا اعتبرت صفات له تعالى بالإضافة إلى من سواه ، اعتبرت صفات الفعل ، كالخلق والرزق وما اليها .

فصفات الفعل ترجع إلى صفات الذات اعتباراً بأنها المنشاء لظهورها وحدوثها ، وصفات الذات أيضاً من ناحية ترجع إلى الفعل، لانها هي المنشأة لصفات الفعل

والضابط ان : كل صفة لا بد من اعتبارها من إضافة للخالق إلى مَن سواه فهي من صفات الفعل .

وما تعتبر من دون اضافة ، الا اعتباراً للذات نفسها ، فهي من صفات الذات .

ثم بعدئذ يأخذ الامام عليه السلام في الاستدلال على أزلية حقيقة الإلهية ومعنى الربوبية والعالم والخالق وتأويل السمع وما إليها من صفات الذات وفعلياتها ، قائلاً) : كيف ! ولا تغيّبه مذ ، ولا تدنيه قد ، ولا يحجبه لعل ، ولا توقته متى ، ولا يشمله حين ، ولا يقارنه مع

(أجل: كيف يستحق حقيقة الالهية مذ كوّن المألوهين ولا يغيبه مذ ؟ لاستلزامه الحدوث ، أو يستحق معنى الربوبية متى خلق المربوبين ، أو معنى العلم ، إذ أبدع المعلومين ـ و ... حال ان الالهية والربوبية والعلم والخالقية والسمع ، كل ذلك أزلية بالنسبة لذاته المقدسة، دون حدوث، إلا لصفات المخلوقين كذواتهم.

فالامام عليه السلام هنا لا ينفي حدوث صفات الفعل ، وانمـا يحيل حدوث

صفات الذات وفعلياتها ، ولذلك يعبر عنها بالحقيقة والمعنى والتأويل .

فلا سبيل لـ « مذ وقد ولعل وحتى وحين ومع » في صفاته الذاتية ، اللهم إلا في افعاله تعالى ، إلا لعل ، حيث لا يتردد في فعل يريده) .

إنما تحد الادوات انفسها ، وتشير الآلة إلى نظائرها ، وفي الاشياء يوجد افعالها .

(اجل ، إنه لا تحد الادوات ـ ذاك وذياك ، الا المخلوقين ، لمكان حدوثهم وافتقارهم ، لا ذات الخالق وصفاته تعالى .

وتشير الآلة إلى نظائرها فيمن له حاجة اليها ، لا مَن خلقها وابدعها) .

منعتها ، منذُ القدمةَ ، وحمَتها قدُ الازليةَ ـ وجنَّبتها ـ لولا ـ التكملةَ :

(اجل إنّ منذ وقد ، الدالتان على الحدوث ، المركزتان في الممكنات ، هما تمنعان ذاته تعالى عن القدمة والأزلية .

ولولا .. كذا لفعلت كذا .. لكنت كذا .. لما فعلت كذا : الدالة على الضعف والنقص ، هذهجنّبت الكائنات عن التكملة الذاتية بل واطلاقاً، حيث إن الفقر سواد الوجه في الدارين: سيه روئي زممكن دردوعالم ـ جد اهر كز نشد والله أعلم) .

افترقت فدلت على مفرّقها ، وتباينت فأعربت عن مباينها ، لما تجلى صانعها للعقول ، وبها احتجب عن الرؤية ، وإليها تحاكم الأوهام ، وفيها أثبت غيره ، ومنها أنيط الدليل ، وبها عرّفها الإقرار ، وبالعقول يعتقد التصديق بالله ، وبالاقرار يكمل الايمان به ، ولا ديانة إلا بعد المعرفة ، ولا معرفة إلا بالإخلاص، ولا إخلاص مع التشبيه ، ولا نفي مع إثبات الصفات للتشبيه .

فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه ، وكلما يمكن فيه يمتنع من صانعه ، لا تجري عليه الحركة والسكون ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، أو يعود

فيه ما هو ابتــــداه ، إذاً لتفاوتت ذاته ، ولتجزء كنهه ، ولامتنع من الأزل معناه ، ولما كان للبارىء معنىً غير المبروء ، ولوجد له وراء إذا حدَّ له أمام ـ ولو التمس له التمام إذاً لزمه النقصان .

كيف يستحق الأزل من لا يمتنع من الحدث ؟ وكيف ينشىء الأشياء من لا يمتنع من الأشياء ؟ إذاً لقامت فيه آية المصنوع ـ ولتحول دليلاً بعد ما كان مدلولاً عليه ـ ليس في مجال القول حجة ـ ولا في المسألة عنه جواب ـ ولا في معناه لله تعظيم ـ ولا في إبانته عن الخلق ضيم [1] ولا بامتناع الأزلي ان يُثنّى ولا بدى له ان يبدو »[2] .

---

١ ـ هو بالفتح بمعنى الظلم والجود وبالكسر ناحية الجبل ،
٢ ـ التوحيد للصدوق .

ختام فيه مسك

المهتدي: أرجوك يا استاذ ان تختم هذا الحوار بكلمة الفصل من توحيد القرآن ولك الشكر المتواصل

كلمة الختم والفصل في توحيد القرآن :

سورة الاخلاص وكلمته :

الموحد : إن اخصر كلمة في التوحيد القرآني هي كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » التي تصف الله تبارك وتعالى في مختلف الآيات كالتالي :

«لا إله إلا الله الرحمن الرحيم ۲ : ۱٦۳ الحي القيوم ۲ : ٥٥ العزيز الحكيم ۳ : ٦ خالق كل شيء ٦ : ۱۰۲ له الأسماء الحسنى ۲۰ : ۸ رب العرش العظيم ۲۷ : ٦ وسع كل شيء علماً ۲۰ : ۹۸ فادعوه مخلصين له الدين ٤۰ : ٦٥ يُحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ٤٤ : ۸ عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم ... الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، هو الله الخالق البارىء المصور ـ له الأسماء الحسنى ـ يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ٥۹ : ۲۳ ـ ۲٥ .

ذالكم الله ربكم خالق كلّ شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون» ٤۰ : ٦۲ .

فكلمة التوحيد ـ القيّمة ـ تجمع بين السلب والإيجاب : سلب الألوهية بما لها من ذات وصفات وأفعال ـ عما سوى الله ـ وإيجابها اطلاقاً لذات واحدة جامعة لكافة الصفات الكمالية ـ ايجاباً على وجه الحصر الحقيقي في ذات واحدة سرمدية قيومة ـ لا إله إلا هو الرحمان الرحيم .

فاثبات الالوهية بما يقارن كلمة التوحيد ، انه تعالى :

واحدٌ في كونه : رحمـــاناً ـ رحيماً ـ حيّاً ـ قيوماً ـ عزيزاً ـ حكيماً ـ

خالقاً ـ عليماً ـ محيياً ـ مميتاً ـ ملكاً ـ قدوساً ـ سلاماً ـ مومناً [1] مهيمناً ـ عزيزاً ـ جباراً ـ متكبراً [2] له العرش وله الأسماء والحسنى .

سورة الاخلاص :

« علم الله تعالى أن في آخر الزمان يجـــيء اقوام متعمقون فأنزل : قل هو الله أحد » [1] .

قل هو :

أول ما نتعرف إلى الله : انه لا يشار إليه بإشارة الحاضر المحسوس أو المعقول: هذا ـ ذاك و ... فإنه «هو» : غائب في أبعد أغوار الغيبة إدراكاً وحيطة لنا به تعالى .

فهو الغيب عن الحواس والأوهام والعقول : لا يُحَسُّ ولا يُمس ولا يُجس ولا يُدرك بالحواس الخمس .

فـ « هو » إشارة الى غائب لا كسائر الغُيَّب الذين يُرجى حضورهم ودركهم ـ فانما هو الغائب اطـــلاقاً ـ لا يظهر بذاته في أي مَظهر ـ غائب من كل بصر وبصيرة : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ٦ : ١٠٣ « ولا يحيطون به علماً » ٢٠ : ١١٠ .

هو :

اسم يرمز به إلى حقيقة مرموزة دون اشارة حسية ولا عقلية ـ هوية تختلف عن سائر الهويات ـ شيء لا كالأشياء ـ « خارج عن الحدين : حد الأبطال وحد التشبيه » .

هوية غائبة مطلقة لا يرجى حضورها لدى من سواه ـ حضوراً في معنى

---

١ ـ اي يؤمن من سواه ويحفظه .

٢ ـ اي له الكبرياء حقها لا لسواه، وهذه الصفات لوحدته تعالى مستفادة من الآيات السالفة.

٣ ـ الامام الباقر عليه السلام .

ادراكه واكتناهه ـ غائب بالذات وظاهر بالآيات .

هو الله :

« الله من أله ـ إذ أله الخلق عن درك مائيته والإحاطة بكيفيته » (الامام أمير المؤمنين عليه السلام) ...

« لا يحس ولا يوهم ـ لا ـ بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس » (الامام الصادق عليه السلام) .

«وحيث عجز الخلق عن اكتناه ذاته وسكنوا اليه وفزعوا إلى ساحته »[1]
الله : هو المعبود الحق [2] لا معبود سواه .

هو الله احد :

احدي الهوية والذات ، أحدي الألوهية :

١ ـ احدي الذات إذ لا جزء لهولا أجزاء ، ولا حد ولا حدود، فإنه بجرد في حقيقة معناه .

٢ ـ احدي الصفات ، إذ لا تزيد صفاته على ذاته ، لا جوهراً على ذات ، ولا معنى زائداً على ذات ، ولا أية حقيقة سوى ذاته المقدسة ، فلا تعدد حقيقياً في صفاته ولا في ذاته وصفاته .

٣ ـ احدي الأزلية فلا أزليّ سواه .

٤ ـ احدى الأبدية فلا أبدي سواه .. هو الأول والآخر ...

٥ ـ احدي في الخالقية : « هل من خالق غير الله » ؟ ٣٥: ٣ « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » ١٣ : ١٦ .

٦ ـ احدي في صفاته وذاته بمعنى: ألا مثل له «ليس كمثله شيء » ٤٢: ١٠

١ ـ أله بكسر العين جاء بالمعاني التالية : تحير ، عجز ، سكن ، فزع ، أولع .
٢ ـ اذا كان من اله بفتح العين .

٧ - احدي في المعبودية ، لا معبود سواه « فادعوا الله مخلصين له الدين »
٤٠ : ١٤ «إن الحكم إلا لله أمر الا تعبد وإلا اياه» .

احد لا عن عدد ، ولا من عدد، ولا بعدد - ولا تباويل عدد ، فوحدته تعالى تختلف عن كافة الوحدات فيمن سواه، فانها تؤل إلى الكثرة دونه تعالى وتقدس .

الله الصمد :

لا جوف له [1] - لانه ليس مادياً ، إذ المادة لها جوف مهما كانت صلبة ، ولا روحياً خلواً عن كمال مّا تستحقه ذات الألوهية .

لم يلد :

ليس خلقه لما سواه في معنى الولادة - سواء أكانت بمعنى انفصال النطفة أم سواها : عن ذاته تعالى وتقدس - أم بتبدل ذاته إلى سواه - كما يقال في خرافة الثالوث .

« لم يلد » وانما خلق - وبينه وبين خلقه مباينة جوهرية لحد التناقض .

ولم يولد :

لم يتولد من شيء - في أية ولادة - مادية أم سواها .

فليس إله الآب (الخالق) إلهاً : لانه ولد الابن ، ولا اله الابن إلهاً لانه وُلد منه تعالى! فسبحانه سبحانه من إله لم يـــلد فيكون موروثاً هالكاً - ولم يولد فيكون في العز مشارَكاً .

ولم يكن له كفواً احد :

لم يكن في الأزل ولن يكون في الأبد من يكافئه في ألوهيتـــه أو يعاضده ويضاهيه ، كما في خرافة أزلية إله الابن في صيغة متناقضة :

«مولود غير مخلوق» فانه لا يعني الا انه : مولود غير مولود !.

النجف الأشرف د : محمد الصادقي - ط

---

١ - هذا تفسير الصمد لغوياً وفي الاحاديث الاسلامية .

الفهرس

العنوان	الصحيفة
بحث آخر في حدوث المادة: المظاهر الأربعة لحدوث المادة	
١ ـ التغير: المادة = التغير والتغير = الحدوث	١٨٩ – ١٩٦
٢ ـ الزمان : مصادر الزمان ، هل لله 'عمر' ؟ بحث عميق بهذا الصدد	١٩٧ – ٢٠٢
٣ ـ الحركة : أقسام الحركات ، المادة والحركة توأمتان ، فرضية مختلفة ، أزلية الذات وحادثة الحركات !	٢٠٣ – ٢١٠
٤ ـ التركّب : المادة البسيطة ؟ ! : المادة = التركب = الحدوث ، الجزء الذي لا يتجزيء ؟ ! نقضٌ وحلٌ لمشكلة اللاّيتجزيء ، التجزئة المادية في صور : ١ ـ اللاّتجزيء العقلي. ٢ ـ اللاّيتجزيء الفيزيائي للقدرة المحدودة ـ ٣ ـ اللاّيتجزيء الفيزيائي للقدرة اللا محدودة	٢١١ – ٢١٦
هل يتجزيء أم لا ؟نعم ولا ! ، المادة الأولية لمختلف تراكيب الكون ، المادة الفردة	٢١٧ – ٢٢١
إستحالة وجود المادة في دور مصرّح لولا وجود الله ! المادة الأولى ذات الجزئين البسيطين ، جزئان فيزيقيان أو بعدان هندسيان ، كلمة الختم والفصل ، تأييد من العلم التجريبي	٢٢٢ – ٢٣١
الفطرة تدلنا على خالق الكون ، دلالة الفطرة عند الكنسيين	٢٣٢ – ٢٣٦
هل العلة الموجدة هي المبقية أم لا؟ العلة الحقيقية والمجازية	٢٣٧ – ٢٤٢
الاحتجاجات الصادرة من مصادر الوحي حول إثبات وجود الله : أضواء من القرآن :...	٢٤٣ – ٢٤٥
الرسول الأعظم ﷺ يحتج على الدهرية : براهين أربعة على حدوث العالم	٢٤٦ – ٢٤٩

العنوان	الصحيفة
الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام في براهين لفكرة الاله : في حدوث المادة، في ما هيته تعالى ـ البرهان الآفاقي، في سرمديته تعالى ، في نفي الاين والكيف والماهية عنه تعالى	٢٥٠ – ٢٦٠
الامام الرضا عليه السلام في حوار : . . لِمَ إحتجب الله ؟	٢٦١ – ٢٦٣
الامام الصادق عليه السلام في محاورات مع ابن أبي العوجاء ، معه ثانياً : بداية الخلقة من شيء أو من لا شيء أو لا من شيء ؟ الحركة والتغير والزمان من براهين الحدوث	٢٦٤ – ٢٦٨
مع ابن أبي العوجاء ثالثاً ، معــه رابعاً : ما الدليل على حدث العالم ؟	٢٦٩ – ٢٧٢
حواره مع ابن أبي العوجاء خامساً: الدليل على حدث الاجسام حوار سادس	٢٧٦ – ٢٨٠
حواره (ع) مع الديصاني ـ حوار ثان ، ثالث ، مع ابن أبي العوجاء ، مع عبد الملك ، الآلهيون في مذاهب تسمة	٢٨٠ – ٢٨٨
كتاب التوحيد: براهين التوحيد، قوائم أربع لعرش التوحيد	٢٨٩ – ٢٩٢
وقفة مع الثنوية: الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله مع الثنوية، الامام الصادق عليه السلام مع الثنوية	٢٩٣ – ٢٩٧
مع الثنوية في بحوث عقلية أخرى : مبدءُ الشرّ في الكون ، إستحالة أزلية إله الشر	٢٩٨ – ٣٠١
غائلة خلق الشر : أفلاطون وارسطو في بيان حقيقة الشر	٣٠٢ – ٣٠٥
مشكلة خلق الشيطان : لماذا خُلق الشيطان ، العلم بمستقبل	

العنوان	الصحيفه

كتب للمؤلف
باللغة العربية

١ - « الفرقان » في تفسير القرآن بالقرآن والسنة : تفسير مقارن علمياً وكتابياً يستغرق كافة البحوث العلمية على ضوء القرآن والسنة في (٣٠) جلدا .

٢ - « حوار » بين الإلٰهيين والماديين .

٣ - « عقائدنا » .

٤ - « المقارنات » العلمية والكتابية بين الكتب السماوية .

٥ - « رسول الإسلام » في الكتب السماوية .

٦ - « علي والحاكمون » = « الخلفاء بين الكتاب والسنة » .

٧ - « تاريخ الفكر والحضارة » .

٨ - « على شاطيء الجمعة » .

٩ - « المناظرات » بين الإلٰهيين والماديين .

١٠ - « حوار » بين اهل الجنة والنار .

١١ - « لماذا نصلي ومتى نقصر من الصلاة » .

١٢ - « لماذا انتصرت ومتى تنهزم » .

١٣ - « فتياتنا » .